روبرت بار
نفوس متقلبة
مكتبة علي بن صالح الرقمية

روبرت بار

نفوس متقلبة

رواية

ترجمة: أحمد عبد المنعم

1896

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

وأمّا النفوس المتقلبة الخبيثة الرائحة، فلتنظر إليّ أنا الذي لا يتملّق،
ألَا ينظرون في أنفسهم؟

كوريولانوس

إن مَنْ يثق بكم،
حيثما يتوقعوكم أسودًا، يجدوكم أرانب؛
وحيثما يتوقعوكم ثعالب، يجدوكم إوزًا. ما أنتم أجدر بالثقة أبدًا،
من جمر ملتهب على الثلج،
أو حبات بَرَدٍ في وهج الشمس. أمّا نفعكم فهو أن
تجعلوا لذلك الذي أذلّه إثمه قيمةً واحترامًا،
وتلعنوا تلك العدالة التي أذلته.

* * *

من يستحق العظمة،
يستحق كراهيتكم، ومودتكم
يشتهيها ذو القلب المريض، الذي لا يشتهي سوى
كل ما يزيد من شَرَه. ومَنْ يعتمد
على أفضالكم، يسبح بزعانفَ من رصاص،
ويقتطع أشجار البلوط بعيدان القصب ... قاتلتكم الآلهة!
ألا عهد لكم
إنكم لتغيرون رأيكم كل دقيقة؛
فتنصبون من كنتم تكرهونه نبيلًا،
وتزدرون ذاك الذي كان إكليل غاركم.

كوريولانوس

الفصل الأول

كان المكتب الإداري لمصنع «مونكتون آند هوب» الضخم يبدو وكأنه معلّق بين السماء والأرض، وبينما كان مديره، جون سارتويل، واقفًا ينظر من النافذة نحو البوابات، كانت السماء ملبّدةً بواحدة من سحب لندن الضبابية الجاثمة على ارتفاع مائة قدم فوق المدينة؛ مترددةً في الهبوط، بينما كانت الأرض عبارةً عن فِناء مصنع زلق مغطًّى برماد أسود انطبعت عليه آثار مئات الأحذية. كان المكتب مشيّدًا بين المبنيَين الضخمين المعروفين باسم «الورش». كانت هيئة المكتب الإداري تشير بوضوح إلى أنه لم يكن ضمن التصميم الأصلي للمصنع؛ إذ كان مبنيًا من الخشب، بينما كان المبنيان الضخمان اللذان يربط بينهما وكأنهما توءمان ملتصقان، مشيدين من القرميد. لم يتوقّع أي مهندس معماري إنشاء مثل هذا المبنى بين المبنيَين الآخرين، إلا أن الحاجة، التي هي أُمّ الاختراع، كانت سبب إنشاء المبنى الذي لطالما وصفه سارتويل بأنه المكتب الأنسب في لندن من حيث الموقع. وكان أنْ شُغل المزيد والمزيد من المساحات في المبنيَين الضخمين مع زيادة حجم أعمال المصنع، وكان على المكتب — الذي كان روح المشروع بأكمله — أن يتخذ موقعًا آخر خارج جسده الأصلي، إن جاز القول.

شُيِّد المبنى الإضافي على الطريق الذي يمر بين المبنيَين، فكان يُطل على الفناءين الأمامي والخلفي؛ ومن ثم كان يصله كمٌّ من الضوء والهواء أكبر من المكتب الذي كان يشغله سارتويل سابقًا في المبنى الأيسر. كان لموقع المبنى الفريد الفضل في أن يكون خاليًا من الاهتزازات التي تسبّبها الآلات إلى حدٍّ كبير، ومع وجود باب يؤدّي لكل

مبنًى من المبنيَين، كان للمكتب مدخل سهل للوصول إلى كلٍّ منهما. وكان سارتويل فخوراً للغاية بهذه الغرف وموقعها؛ إذ كان هو مَن رسم مخططها؛ ومن ثم منحت الشركة مساحةً إضافيةً كبيرةً دون شغلِ مساحةٍ من الأرض أكبر من المساحة التي كانت مشغولةً من قبل؛ وهو إنجاز رائع للغاية في مدينة مزدحمة مثل لندن.

كانت ثمّة غرفتان خلف المبنى خُصصتا لمالكَي الشركة، بينما كانت مساحة مكتب سارتويل الواقع في واجهة المبنى تبلغ ثلاثة أضعاف مساحة أيٍّ من هاتَين الغرفتَين، وكان يشغل المساحة بين المبنيَين كاملة. كان هذا الوضع هو الوضع الذي ينبغي أن يكون؛ فقد كان سارتويل يؤدي ثلاثة أضعاف العمل الذي يؤديه المالكان، وإذا تطرّقنا إلى القدرة العقلية، فقد كان يتفوق فيها بثلاثة أضعاف على مالكَي الشركة مجتمعَين؛ إذ كانا قد وصلا إلى ما هما عليه الآن فقط لأنهما ابنا الأبوين المؤسسَين. فقد أنشأ مؤسّسا الشركة، بعملهما الجاد وإدارتهما الحكيمة، المصنع الكبير الذي يُعزى ازدهاره الحالي إلى سارتويل، وليس إلى الرجلَين المعروفَين لدى العامّة بأنهما رئيسا الشركة.

كان مونكتون وهوب رجلَين يتسمان بالجُبن والحذر والتردُّد إلى حدٍّ ما، كحال الرأسماليين في جميع أنحاء العالم. وكانا يثقان في مدير مصنعهما ثقةً مطلقة، ولطالما ألقيا على عاتقه أي مسئولية محفوفة بالمخاطر أو أي قرار بغيض، وكان يتحمّل الأعباء التي يُلقيانها عليه بكل هدوءٍ دون أن يرفّ له جفن. كان سارتويل رجلًا من حديد، بشفتَين حازمتَين، وعينَين زرقاوَين فولاذيتَين تُربكان أي شخصٍ قد يُضمر نوايا ملتويةً في بعض الأحيان. حتى الشريكان أنفسُهما كانت شجاعتهما تخونهما أمام هاتَين العينَين، ويُضطران إلى التراجع أمامهما إذا ما وصل الأمر إلى اختلافٍ في الآراء. وكانت عبارة سارتويل المقتضبة: «لن يفيدَ هذا، كما تعلم» دائمًا ما تحسم الأمور.

كانت معرفة سارتويل بالمصنع تفوق معرفتهما إلى أبعد الحدود، فبينما كانا لا يزالان يدرسان في الجامعة، كان مدير المصنع المستقبلي يشقُّ طريقَه إلى القمة حتى حاز ثقة أبوَيهما، وكانت كل خطوةٍ يخطوها ترتقي بوضعه أكثر في المصنع. كان الرجال الثلاثة في العمر نفسِه تقريبًا، وبدأ الشيب يغزو شعر كلٍّ منهم، إلا أنه غزا شعر سارتويل ربما أكثر من الرجلَين الآخرَين.

كان من الصعب أن يفكّر في أن يقع الشريكان في الحب، ولكن من اللطيف أن نعرف أنه عندما وصل الحب إليهما في الوقت المناسب في حياتيهما، جاء حاملًا الذهب في يدٍ وضميرًا متزمتًا حيًّا في اليد الأخرى. وبذلك أضاف الرجلان ثروةً إلى ثروتَيهما عبر الزواج، وكانت زوجتاهما منهمكتَين في أفعال الخير، التي كانت تقوم على تقصٍّ صارمٍ ومنصف؛ لكيلا يستفيد منها مَن لا يستحق، ولأن مونكتون وهوب كانا رجلَين جبانَين إلى حدٍّ ما، كان عليهما الخضوع للمرأتَين اللتَين تزوّجاهما، فوجد بعضٌ من ثروتَيهما طريقَه إلى صناديق المجتمعات المطحونة ومؤسسات إغاثة المنكوبين.

وهكذا، حمل اسمُ شركة «مونكتون آند هوب» (المحدودة) لمحةً من القداسة غير معتادة تمامًا في أوساط المال والأعمال في لندن. وبمجرد الالتحاق بالعمل بالشركة، يمكن التعويل عليها، على نحو شبه مؤكد، لاكتساب جزء من هذه السمعة، ولكن، للأسف! لم يكن من السهل الالتحاق بالعمل في الشركة. فقد كان على المتقدّم للعمل أن يخضع لتدقيق تلكما العينَين الفاحصتَين اللتَين يمتلكهما سارتويل، الذي كان لديه عادةٌ مربكة بأن يدخل في صلب أي موضوعٍ مباشرةً وبسرعةٍ مذهلة، وعندما يقول عبارته: «لن يفيد هذا، كما تعلم»، فقد قُضي الأمر ولا مجال لمناقشة قراره.

كان ثمّة دَرَج خاص من الفناء في الأسفل إلى بهو المبنى المعلّق، يفصل مكتب المدير الكبير عن الغرفتَين الصغيرتَين الخاصتَين بمالكَي الشركة. ولم يكن مسموحًا لأحدٍ باستخدام هذا الدرَج إلا الرجال الثلاثة. كان الموظفون والعامة يدخلون عبر المدخل الرئيسي، حيث يجلس رجلٌ يقظٌ خلف نافذةٍ مقوّسةٍ صغيرةٍ مفتوحةٍ مُعلّق فوقها لوحة كُتب عليها كلمة «الاستعلامات».

أمّا بالخارج، في وسط الظلام، فكان المصباحان الكبيران المعلّقان على عمودَي البوابة يعكسان ضوءًا أصفر ساطعًا، على الطريق المغطّى بالرماد والشارع الضيق الكائن خلفه. وعبر البوابة الواسعة المفتوحة على مصراعَيها المؤدّية إلى الشارع الضيق المرصوف بالحجارة، اندفع مئات العمال. لم يحدث تدافعٌ أثناء خروج العمال، بل خرجوا من البوابة في صمت، الأمر الذي لم يكن مألوفًا. بدا الأمر وكأن شيئًا يجثم على صدورهم، شيئًا أكثر قتامةً حتى من سحابة الضباب الهائلة التي تحوم فوق رءوسهم. وقف سارتويل على مسافةٍ قصيرةٍ من النافذة في مكتبه وحيدًا متواريًا، يراقب خروجهم بوجومٍ وصرامة. زمّت الخطوطُ المحيطة بفمه الجامد شفتَيه، وجعلتهما أكثر صرامةً من صرامتهما المعتادة. لاحظ أن أحد العمال كان يلقي نظرةً خاطفةً على نافذة مكتبه بين الفينة والأخرى، وكان يعلم أنهم يصبون عليه لعناتهم في أعماقهم؛ لأنه حالَ بينهم وبين تحقيق مطالبهم؛ إذ كانوا يعلمون يقينًا أن الشركة ستُذعن لمطالبهم شريطة أن يُصدر سارتويل الأمر بذلك. كان المدير يعلم أن قائدهم قد قال خلال اجتماعاتهم إنه لا أحد يقسو على العُمال أكثر من عامل ترقّى من بينهم. وكان اسم سارتويل يُستهجَن سرًا بينما كان اسم الشركة يُهلّل له، إلا أن المدير لم يكن من النوع الذي يردعه تراجع شعبيته، على الرغم من أن توتر العلاقات بينه وبين العمال قد منحه سببًا وجيهًا للقلق.

بينما كان مستغرقًا في التفكير في الموقف يُقلِّب الأمر في ذهنه ليعرف؛ إن كان ثمة لومٌ يقع عليه بأي حال، سمع طرقًا خفيفًا على باب مكتبه. استدار سريعًا مبتعداً عن النافذة، ووقف بجوار مكتبه وقال بحدّة: «ادخل.»

ولج إلى الغرفة شابٌّ يرتدي زيّ العمال ويُمسك قبعته في يده. كانت قَسَمات وجه الشاب صريحة، وواضحة، ويبدو عليها الذكاء، وكان قد غسل وجهه بعدما أنهى عمله، تلك الرفاهية التي لم يكن أغلب رفاقه ينعمون بها.

قال المدير وقد انفرج حاجباه عندما رأى القادم: «أوه، مارستن. هل أنجزت المهمة المطلوبة منك في الوقت المحدد؟»

قال مارستن: «أتممتها قبل الخامسة والنصف يا سيدي.»

«حسنًا. هل اعترضَ طريقَك أيٌّ عقبات؟»

«لم تعترضني عقباتٌ لم أستطع تخطّيها يا سيدي.»

«حسنًا مجددًا. هكذا أُحب أن تُنجَز الأمور. الشاب الذي يمكنه تحقيق المستحيلات هو الرجل المناسب لي، وهو الرجل الذي سيُفلح في هذا العالم.»

أدار الشاب قبعته بين يدَيه مرارًا، وبدا محرجًا على الرغم من السعادة التي تجلّت عليه بوضوحٍ جرّاء إطراء المدير له. ثم قال أخيرًا:

«لا أُطيق صبرًا لأدخل إلى هذا العالم يا سيدي.»

ردّ عليه المدير قائلًا: «قد تسنح لك الفرصة لذلك قريبًا.»

ثم سأله فجأة:

«هل ستُضربون عن العمل؟»

«أخشى أننا سنفعل يا سيدي.»

«ولماذا «تخشى» ذلك؟ هل ستُضرب مع الباقين، أم إن قرارك مستقل؟»

«لا يمكن لأحدٍ أن يواجه النقابة بمفرده.»

«أنت تتحدّث الآن إلى رجلٍ سيفعل ذلك.»

رفع الشاب بصره ناظرًا إلى سيده.

وقال: «بالنسبة إليك الأمر مختلف. فثمة شركة ثرية تشد من عضدك. ووضعك الوظيفي آمن سواء فزتَ أم خسرت. أمّا إذا خذلتُ أنا النقابة حال تعرُّضها لأزمة، فلن أتمكّن أبدًا من استعادة وظيفتي.»

ارتسمَت على شفتَي سارتويل ابتسامةٌ واجمة عندما ذكر الشابُّ الشركة. كان يُدرك أنها نقطة ضعفه وليست موطن قوته؛ فعلى الرغم من أن الشركة أخبرته بأن له حرية التصرف تمامًا، فإنه كان واثقًا من أن الهلَع سيضرب نفسَي المالكين في لحظة احتدام الصراع. وإذا شارَكت النساء في الإضراب، فسينتهي الأمر. ولو كان المُضرِبون يعرفون مَن في يده أن يناصرَهم، لكانوا أرسلوا وفدًا من زوجاتهم إلى السيدة مونكتون والسيدة هوب. ولكنهم كانوا لا يُدركون ذلك، ولم يكن سارتويل من نوعية الرجال الذين يُظهرون ضعفهم وقلة حيلتهم.

قال المدير: «نعم، ثقتي في السيد مونكتون والسيد هوب لا حدود لها. وإني لأتساءل عمّا إذا كان العمال يُدركون هذه الحقيقة.»

«نعم يا سيدي، إنهم يُدركون ذلك.»

«أخبرني يا مارستن، هل لك أي تأثير على العمال؟»

«أخشى أنه تأثير محدود للغاية يا سيدي.»

«إذا كان لك أي تأثير عليهم، فقد حان الوقت لممارسته، لصالحهم، كما تعلم، وليس لصالحي. فهذا الإضراب مُقدّرٌ له الفشل. ولكني لا أنسى أبدًا مَن يؤازرني.»

هزّ الشاب رأسه.

وقال: «إذا رحل رفاقي، فسأرحل معهم. لست واثقًا تمام الثقة من أن الإضراب مُقدّرٌ له أن يفشل، رغم أني من معارضيه. إن النقابة تملك قوةً كبيرة يا سيد سارتويل. لعلك لا تعلم أنها أقوى نقابة في لندن.»

مرّر المدير يده على عددٍ من فتحات صندوق البريد للحظة، قبل أن يسحب ورقةً من إحداها ويُناولها إلى مارستن.

قال المدير: «هذه هي قوة النقابة مُلخّصةً في سبعة عشر الجنيه وثمانية الشلنات والبنسين التي أودعوها في المصرف بعد ظُهر أمس. إذا أردت أي معلوماتٍ عن نقابتك يا مارستن، فسيُسعدني أن أمنحك إياها.»

اتسعت عينا الشاب بينما كان ينظر إلى الأرقام.

وقال: «إنه مبلغ ضخم جدًا.»

علّق سارتويل على ما قاله مارستن بنبرةٍ محايدة: «مبلغ مُعتبَر يكفي لتمويل صندوق الإضرابات. ولكن كم، في رأيك، عدد أيام السبت التي سيظل هذا المبلغ صامدًا خلالها أمام استنزاف الرواتب في هذه المؤسّسة؟»

«ربما ليس الكثير.»

«ستُفاجأ حين تعرف مدى قلتها. إن العمال لا ينظرون إلا إلى جانب واحد فقط من هذا السؤال، أمّا أنا فمُجبرٌ على النظر إلى كلا الجانبين.

إذا لم يتلقّوا رواتبهم في أي يوم من أيام السبت، فلن يكونوا سعداء، أليس كذلك؟ لا بد أن أخطِّط وأدبِّر لضمان وجود المال كل سبت، إلى جانب ضرورة وجود مزيدٍ من المال يكفي لتعويض الشركة عن استثماراتها ومخاطراتها. قد لا تبدو هذه التفاصيل الصغيرة مهمةً لواحدٍ من الدَّهْماء لا يعرف شيئًا عن التجارة، ولكنه يُجيد إلقاء الخطب الرنانة في جمعٍ من الرجال ليُوغر صدورهم. سيُسعدني للغاية أن أتركَ له منصبي هذا لشهرٍ أو شهرَين وأخلُدَ إلى الراحة، ولنرَ إذا كان سيرى وجهة نظري للأمور صحيحًا أم لا.»

فجأةً نظر مارستن إلى المدير وقال: «سيد سارتويل، لقد طرح عليّ الليلة بعضٌ من العمال الأكثر اعتدالًا سؤالًا مشابهًا لأحد أسئلتك.»

«وماذا كان هذا السؤال؟»

«سألوني عمّا إذا كان لي أي تأثير عليك.»

«حقًّا؟ وهل أخبرتهم أن ...؟»

«إنني لا أعرف.»

«حسنًا، ولن تعرف حتى تُجرِّب. هل ثمّة ما تقترحه؟»

«الكثير من العمال يعارضون الإضراب، ولكن حتى الأكثر اعتدالًا منهم يرَون أنك مخطئ في رفضك مقابلة الوفد. ويعتقدون أن رفضك يبدو تعسفًا واستبدادًا منك، وإن كنت مُجبرًا على رفض أي مطالب قُدمت، كان يجدر بك ألّا تدع الأمور تئول إلى أزمة دون السماح للوفد، على الأقل، بعرض مطالب العمال.»

«وهل تعتقد أنني مخطئ في ذلك؟»

«نعم.»

«عظيم. سأُسوّي هذا الأمر في الحال. اجمع بعضًا من العمال الأكثر اعتدالًا معًا على أن ترأس الوفد بنفسك. سأُحدِّد معك موعدًا، وسنناقش الأمر معًا.»

لم يبدُ على وجه الشاب الرضا التام عن هذا التنازل الفوري كما كان متوقعًا. ولم ينبس ببنت شفة لبضع لحظات، في حين ظل رئيسه ينظر إليه متفحصًا موليًا ظهره للمكتب العالي.

وفي الأخير تحدّث مارستن:

«لا يمكنني أن أترأّس الوفد؛ فأنا أحد أصغر الموظفين سنًا في الشركة. كما أن أمين النقابة هو القائد الذي اختاره العمال.»

«آه! أمين النقابة. هذا وضعٌ مختلف تمامًا. إنه ليس من موظفيّ. ولا يمكنني السماح للغرباء بالتدخّل في أي شأنٍ يتعلق بي. أنا على استعدادٍ دائمٍ لاستقبال رجالي، سواء فُرادى أو ضمن وفد، وهذه ليست مسألةً بسيطة تمس قلةً من العمال؛ ولكن إذا فتحت أبواب مكتبي للعالم الخارجي ... حسنًا، الحياة قصيرة. على سبيل المثال، أنا أناقش هذه الأمور معك، ولكني لن أناقشها مع أي شخص من الشارع.»

«نعم، أفهم مدى صعوبة ذلك، ولكن ألَا تعتقد أنه من الأفضل أن تتنازل هذه المرة لتفادي المشكلة؟»

«هذا لن يكون تفاديًا للمشكلة، بل مجرد تأجيل لها. وستكون هذه سابقة، وسأُضطر للسماح لهذا أو ذاك بالتدخل من وقت لآخر. وسيكون عليّ أن أتخذ موقفًا في وقت ما، وربما يحدث ذلك في وقت لا أكون فيه مستعدًا جيدًا. إن آل الأمر إلى معركة، فلتكن الآن. نحن بحاجة إلى بعض الآلات الجديدة، ولن يضيرنا أن نغلق المصنع أسبوعًا.»

هزّ مارستن رأسه.

وقال: «قد يمتد الإغلاق أكثر من أسبوع.»

«أعلم ذلك. سيستمر الإضراب ثلاثة أسابيع بالضبط. وفي نهاية هذه الأسابيع الثلاثة لن تكون هناك نقابة.»

«وربما لن يكون هناك مصنع أيضًا.»

«هل تعني أنه سيكون ثمّة عنف؟ عظيم. في هذه الحالة، لن يستمر الإضراب إلا أسبوعَين فقط. اسمع يا بني، نحن في لندن، وهذا يعني أن الشرطة لن تصل إلينا في غضون لحظاتٍ من الاتصال بها فحسب، بل سيأتي خلفها جنود الجيش، ومن خلفهما أيضًا الإمبراطورية البريطانية كاملة. لا يا مارستن، هذا غير مقبول، غير مقبول.»

«إن الرجال يملكون عزمًا من حديد يا سيد سارتويل.»

«هذا أفضل وأفضل. فأنا أحب الخصم ذا العزم. حينئذٍ يمكنك أن تحسم الأمور دون رجعة. لا أمانع مواجهةً مباشرةً على الأرض، أمّا الدخول في مساوماتٍ ومفاوضاتٍ إلى ما لا نهاية، ومقابلة عددٍ لا نهائي من الوفود ولجان التحكيم والمصالحة، وكل هذه الأمور، فلا طاقة لي بذلك. دعونا نضع حدًا للأمور ثم نَعُد لاستئناف عملنا.»

«هل يعني ذلك أنك ليس لديك شيءٌ لتعرضه عليهم؟ أعني على سبيل الترضية.»

«بالطبع لديّ. دع العُمال يطلبوا من ذلك الجعجاع الأحمق جيبونز أن يلتفت إلى واجباته كأمينٍ للنقابة فقط، ثم ادعُ وفدًا من عمال ورِشنا للمجيء إلى هنا لمقابلتي. سنُناقش الأمر، وإن كانت لهم أيُّ شكوى، فسأُعالجها من أجلهم. هل هناك عدلٌ أكثر من ذلك؟»

«لقد أصبحت مشاركة جيبونز في الأمر مسألةَ مبدأ بالنسبة إلى العمال في الوقت الحالي. فهي تعني الاعتراف بالنقابة.»

«حسنًا، سأعترف بالنقابة وسأرفع لها قبعتي احترامًا؛ أعني فيما يتعلّق بموظفيّ. ولكني لن أسمح لدخيلٍ لا يعرف شيئًا عن هذه الشركة بأن يأتي إلى هنا ويُطلق هراءه في وجوهنا. تلك مسألة مبدأ بالنسبة إليّ، شأني شأن العمال.»

تنهّد مارستن.

وقال: «أخشى أنه لن يكون أمامنا خيارٌ إلا القتال.»

«ربما لا. إن أحمق واحداً يصنع حمقى كثراً. فكّر جيداً يا مارستن، أي جانبٍ ستتخذ في هذه المعركة. لقد غادرتُ نقابةً عماليةً من قبل، وعلى الرغم من أنني حينها كنت أكبر منك سنًا، فإنني لم أندم على ذلك قط. لقد تسبّب ذلك في أن أُصبح عاطلًا لبعض الوقت، ولكن ليس لوقتٍ طويل، ولم تقبل النقابة العمالية في الشركة التي أصبحت مديرها الآن انضمامي إليها. إن النقابة العمالية قائمة على أُسس غير مقبولة. فأي نظام يقوم على مساواة العطاء بين العامل السيئ والعامل الجيد هو نظام خاطئ تمامًا.»

«لا أتفق معك في ذلك يا سيد سارتويل. إن الأمل الوحيد للعامل يكمن في توحيد الجهود. لا شك أننا نرتكب أخطاءً وأن قادتنا من الدّهماء، ولكن يومًا ما سيكون هناك إضراب تحت قيادة قائد حقيقي كنابليون، وحينها سنُسوي الأمور إلى الأبد، كما قلتَ منذ قليل.»

ضحك سارتويل ومدّ يده نحوه.

وقال: «هذا ما تطمح إليه، أليس كذلك؟ حسنًا، أتمنّى لك كل التوفيق يا نابليون الصغير. كنت سأختار ويلنجتون، لو كنتُ مكانك. عِمت مساء. أنا في انتظار ابنتي التي سمحتُ لها بغباء أن تمر عليّ هنا مستقلةً عربة أجرة.»

أطال مارستن الإمساك باليد الممدودة إليه حتى إن المدير نظر له في دهشة. وعلَت الحمرة وجه الشاب من وجنتَيه إلى حاجبَيه، بينما كانت عيناه مثبّتتَين على الأرض.

وقال بصعوبة: «سيد سارتويل، لقد حضرت اليوم لكي أتحدّث إليك عن ابنتك، وليس عن الإضراب.»

أسقط المدير يده كما لو كانت جمرة نار، وتراجع خطوتَين إلى الخلف.

وصاح في جديةٍ صارمة: «عن ابنتي؟ ماذا تعني؟»

اضطُر مارستن إلى لَعْق شفتَيه مرةً أو اثنتَين قبل أن يتمكّن من الرد. وكان يفتح راحة يده التي تركها المدير ويضمّها في عصبية.

ثم قال: «أعني أنني أحبها.»

جلس المدير على مقعد مكتبه بجوار طاولته. وغادرَت وجهَه كلُّ تعابير الود التي كانت مرتسمةً عليه، وتهدّل حاجباه الداكنان على عينَيه الثاقبتَين اللتَين عاد إليهما بريقهما البارد المعتاد.

وصاح في غضبٍ متصاعد: «ما هذا الجنون؟ أنت صبي صغير، كما أنك نشأت في المجارير، على حسب علمي. وابنتي لا تزال طفلة، إنها لا تزال في ...»، ثم صمت. كان على وَشْك أن يقول في السابعة عشرة من عمرها عندما تذكّر أنه تزوّج والدتها عندما كانَت تكبرها بعامٍ واحدٍ فقط.

ازداد وجه مارستن حمرةً عندما ذكر المدير المجارير بهذا الازدراء. وقال ببطء يشوبه نبرة عناد:

«لا عيب في أن أكون من المجارير، العيب أن أظل هناك. لقد غادرت المجارير، ولا أنوي العودة إليها.»

صاح المدير في نفاد صبر: «أوه. «تنوي». جميعنا نعلم الطريق المُمهد بالنوايا الحسنة. عجبًا؛ أنت لم تتحدّث إلى الفتاة على الإطلاق!»

«لا، ولكن أنوي أن أفعل.»

«حقًا؟ حسنًا، سوف أتخذ كل حذري حتى لا تفعل.»

«ما وجه اعتراضك عليّ يا سيد سارتويل؟»

«وما الذي يميِّزك؟ فلتتكرّم وتعدِّد لي مناقبك.»

«أنت تقسو عليّ كثيرًا يا سيد سارتويل. أنت تعلم أن ما حصلت عليه من تعليم كان بجهدي، بالرغم من نشأتي في المجارير. لقد درست بجِد، وعملت بجد. أليس لذلك قيمةٌ بالنسبة إليك؟ إن أخلاقي حسنة، ومركزي الوظيفي جيد ...»

«لست كذلك. أنا أفصلك من العمل. ستأتي إلى المكتب غدًا، وتحصل على راتب الأسبوع، وتُغادر.»

«يا إلهي!»

«نعم، «يا إلهي!» لم تتوقّع مني ذلك، أليس كذلك؟»

«بلى، لم أتوقعه.»

«حسنًا، لمرة واحدة في حياتك، كنتَ محقًا. أود فقط أن أُريك أن مركزك الوظيفي الجيد يقوم على هوى رجل واحد. لا نية لديّ لفصلك من العمل. فلست خائفًا منك إلى هذا الحد. أمّا ابنتي فسأتولى أمرها.»

قال مارستن في مرارة:

«إن جيبونز، رغم حماقته، محق في قوله إنه لا أحد أكثر قسوةً على العُمال من عامل صعِد من بين صفوفهم. أنت لم تكن أفضل حالًا مني عندما كنتَ في مثل سني.»

هبّ سارتويل واقفًا وعيناه تتقدان غضبًا.

وصاح قائلًا: «اسمع أيها الشاب. كل ما فعلتَه، فعلتُه من قبلك. وكل ما تنوي فعله، فعلتُه أنا بالفعل. لقد علّمتُ نفسي بنفسي، بقدرٍ ما، وكَدَدت في عملي مواصلًا الليل بالنهار. وبلغت مركزًا معينًا، ومسئوليةً معينة، وحقّقت مبلغًا معينًا من المال. إن حياتي عبارة عن قليل من المتعة وكثير من الكدح، والعمر الآن يجري بي. ولكن عندما أنظر إلى حياتي أُدرك أن ما حقّقته من نجاح نابع عن حظٍّ بقدر ما هو نابع عن جدارة. كنت مستعدًا عندما سنحت الفرصة، هذا ما في الأمر؛ لو لم تأتِ الفرصة، لَما نفعني كل استعدادي هذا. فأمام كل رجل ينجح، ثمّة عشرات يفشلون عن جدارة.

والآن، لماذا تحمّلتُ كل هذه المعاناة؟ لماذا؟ هل من أجل نفسي؟ على الأرجح لا. لقد فعلتُ كل هذا حتى لا تُضطر ابنتي لأن تصبح كادحةً متعبة — زوجة عامل — وحتى يتسنّى لها أن تُكمل حياتها من حيث انتهيتُ أنا. هذا هو السبب. أمّا بالنسبة إليّ، فلا أمانع أن أرتدي زي العامل مثلما ارتديت سترة المدير. والآن، بعد كل ما عانيته من أجلها، تتحدّث عن الحب! كم يساوي حبك لها مقارنةً بحبي لها؟! وبعدما فعلت كل ذلك كي لا تعرف من الأساس ما يعنيه ذلك، هل أكون بذلك الحمق والشر والغباء لألقيَ بها إلى حيث بدأتُ تحت قدمَي أول متبجّحٍ صفيقٍ واتَتْه الجرأة ليطلب يدها؟ لا، بربي، لا! الآن وقد حصلت على الرد، فلتخرج، ولا تُسوِّلن لك نفسك أن تخطوَ بقدمَيك إلى هذا المكتب حتى أُرسل في طلبك.»

كان سارتويل في غمرة انفعاله يضرب سطح المكتب بقبضته المضمومة للتأكيد على ما يقول. وانكمش مارستن على نفسه أمام ثورته مُدركًا أنه لا أحد من العمال رأى المدير غاضبًا من قبل، وتَخوّف من الضغينة التي ستملأ قلب سارتويل عندما يعود له هدوءُه. وشعر أنه كان يجدر به أن يكون أكثر كياسةً ويغادر في وقت أسبق. ولكنه رأى أن الأمور لا يمكن أن تئول إلى أسوأ ممّا هي عليه، فبقيَ واقفًا في مكانه.

وقال: «كنت أعتقد أنه سيكون من الشرف أن أدعك تعرف أن ...»

«لا تتحدّث معي عن الشرف. اخرج.»

في تلك اللحظة، انفتح الباب المؤدي إلى الدرج الخاص ودخلت منه فتاةٌ شابة. كان والدها قد نسي تمامًا موعده معها، وفوجئ الرجلان بدخولها عليهما.

قالت الفتاة: «لقد طرقتُ الباب يا أبي، ولكنك لم تسمعني.»

قال والدها في عُجالة: «سأوافيكِ خلال لحظةٍ يا إدنا. انتظري في الرّدهة قليلًا.»

قال مارستن وهو يتجه إلى الباب الآخر ويفتحه: «أرجوكِ ألّا تنصرفي يا آنسة سارتويل. طابت ليلتكَ يا سيد سارتويل.»

قال المدير باقتضاب: «طابت ليلتك.»

«طابت ليلتكِ يا آنسة سارتويل.»

قالت الفتاة بعذوبةٍ معطيةً إيحاءً بالانحناء: «طابَت ليلتك.»

الْتقَت عينا الرجلَين لحظة، وبدا العناد جليًا في عينَي كلٍّ منهما، إلا أن عينَي الشاب كانتا وكأنهما تقولان في تحدٍّ:

«أرأيت؟ لقد تحدثتُ إليها.»

الفصل الثاني

نحن نتحدث عن شخصياتنا الفردية كما لو أنها شيء حقيقي ملموس؛ كما لو كنا نحن أنفسنا حقيقة، متناسين أننا ما نحن سوى مجموعة من الخِصال اكتسبناها من أسلافنا الذين مات أغلبهم، ورحل وصار في طي النسيان. فرجل الأعمال المحنّك في «المدينة» يتصوّر أن غرائزَه القوية مقتصرةٌ عليه وحده؛ لا يدرك حقيقة أن تلك الصفات الباهرة التي تمكّنه من إنشاء شركة مساهمة؛ قد مكّنت أحد أسلافه من العصور الوسطى من نَهْب بلدة، أو قاطع طريق من عصر لاحق من سرقة حقيبةٍ مليئةٍ بالنقود من قاطع طريق آخر في مرجٍ خالٍ.

كانت إدنا سارتويل تملك سمةً وراثيةً واحدةً واضحة وبارزة، ومن السهل ملاحظتها؛ كانت عيناها تشبهان عينَي والدها، لكنهما أكثرُ رقةً ولمعانًا، وجميلتان إلى حدٍّ مربك؛ عينان كفيلتان بأن تطاردا أيّ رجلٍ حتى في أحلامه. لم تحمل عيناها أيًّا من تلك الحِدة القاطعة كالسيف، تلك الحدة التي جعلت من عينَي والدها سلاحَين للهجوم والدفاع، ولكنهما كانتا عينَي والدها دون شك، مع اختلافٍ أنثوي رقيق، وفي هذا الاختلاف عاشَت والدتها المتوفاة من جديد.

قال لها والدها عندما أصبحا بمفردهما: «إدنا، يجب ألّا تحضري إلى هذا المكتب مرةً أخرى.»

كانت نبرة صوته تكتنفها حدة تفوق تلك التي اعتادت التحدُّث بها مع ابنته، فرفعت إدنا بصرها نحوه بسرعة.

سألته: «هل قاطعتُ اجتماعًا مهمًّا؟ ماذا كان يريد هذا الشاب يا أبي؟»

«كان يريد شيئًا لم أستطِع منحه إياه.»

«أوه، يؤسفني هذا! لقد بدا محبَطًا. هل كان يطلب منصبًا أعلى؟»

«شيء من هذا القبيل.»

«ولمَ لم تستطِع منحه إياه؟ ألَا يستحقه؟»

«لا يستحقه، لا. لا، لا!»

«بدا لي أنه يملك وجهًا طيبًا؛ أعني صادقًا وصريحًا.»

«يا إلهي! ماذا تعرفين أنتِ عن الوجوه أيتها الطفلة؟ لا تتدخّلي في أمور العمل؛ فأنتِ لا تفهمينها. وكُفي عن الثرثرة، والثرثرة، والثرثرة. إن امرأةً واحدة على هذه الشاكلة تكفي في أي عائلة؛ فلن يتحمّل الرجل أكثر من واحدة.»

صمتت الابنة، في حين بدأ الأب يضع بعض الأوراق في فتحات صندوق البريد، ثم يُخرجها مرةً أخرى، ويُعيد ترتيبها، ثم يضعها في صندوق البريد. كان يحاول استعادة رِباطة جأشه. ثم اختلس نظرةً نحو ابنته ورأى عينَيها مُغرورقتَين بالدموع.

فقال لها: «هَدِّئي من رَوعك، لا بأس يا إدنا. كل شيء على خير ما يرام. كل ما في الأمر أني قلق قليلًا الليلة. أخشى أن مشكلةً ستحدث مع العمال. إنه موقف عصيب، وعليّ أن أتعامل معه بمفردي. يبدو أن لا مفرّ من حدوث إضراب، ولا يمكن لأحدٍ أن يتوقّع متى سينتهي.»

«وهل هو أحد المُضربين؟ يبدو ذلك مستحيلًا.»

علا الضيق قسمات وجه والدها.

وقال: «هو؟ لماذا ... إدنا، إنكِ تُعيدين فتح أي موضوعٍ بكل ما لدى المرأة من إصرار. نعم. من المؤكد أنه سيُضرب عن العمل غداً مع بقية الحمقى. إنه أحد العمال، إذا كنتِ تريدين أن تعرفي من يكون، والأكثر من ذلك أنه سيُضرب عن العمل على الرغم من عدم اقتناعه به؛ سيُضرب لمجرد أن الآخرين سيُضربون. لقد أقرّ لي بذلك قبل دخولكِ مباشرة. أعتقد الآن أنكِ تُدركين حجم قدرتكِ على قراءة وجه رجل.»

قالت الفتاة متنهدة: «لم يكن يجدر بي أن أهتمّ بالأمر. ربما لو أعطيتَه ما أراد، لما كان ليُضرب عن العمل.»

«أوه، إنكِ تزيدين صورته في ذهني سوءاً عمّا أراها. لا أعتقد أنه ممّن يمكن رشوتهم.»

«وهل يُعدّ ذلك رشوة؟»

«قد تكون كذلك على الأرجح؛ ولكن الأمر يعود إليه في أن يُضرب أو لا؛ إن عاملاً يُضاف إلى الإضراب أو ينقص منه لن يشكّل فارقاً بالنسبة إليّ. وأتمنى إن أضربوا، أن يُضربوا جميعهم؛ فالقلة التي ستتخلّف عنهم لن تزيد الأمور إلا تعقيداً. والآن، بعدما فهمتِ الموقف بأكمله، هل تشعرين بالرضا؟ إنني لا أتحدّث عن مثل هذه الأمور مع أي امرأة، كما تعلمين؛ لذا يجدر بكِ أن تسعدي لذلك.»

كان سارتويل قد عاد إلى طبيعته مرةً أخرى، وقرّر في نفسه ألّا يفقد سيطرته على نفسِه مجدداً.

قالت الفتاة: «نعم يا أبي، وشكراً لك.» ثم أضافت قائلة: «إن عربة الأجرة تنتظر»، ولم تكن تقصد بذلك إيصال المعلومة التي أفشتها كلماتها، بقدر ما كانت تقصد أن تجعلَه يُدرك أن المناقشة قد انتهَت بالنسبة إليها.

«دعيه ينتظر. هذا هو الغرض من عربات الأجرة. إن السائقين يُفضّلون الانتظار على العجلة. اجلسي لحظاتٍ يا إدنا، سأكون جاهزًا بعد قليل.»

جلسَت الفتاة بجوار طاولة والدها. كان السيد سارتويل غالبًا ما يفضّل مكتبه على طاولته؛ إذ كان مكتبه عاليًا على نحوٍ يجعل الرجل يقف عندما يكتب. كان هذا المكتب مكوّنًا من ثلاث حجيرات تخزين، لكل منها غطاء خاص. وكانت هذه الحجيرات الثلاث مُقفلةً دائمًا، وكان مع موظفي سارتويل مفتاحا اثنتين منها. أما الحجيرة الثالثة، فكان من المفترض أنها تحوي وثائق المدير الأكثر خصوصية، ولم يرَ أحد، عدا هو، ما يوجد في داخلها. فقد كان الغطاء يُقفل تلقائيًا عندما يُغلق، وكان المفتاح الصغير الذي يفتح الغطاء يتدلّى من سلسلة ساعة سارتويل.

راقبت إدنا والدها وهو يفتح الحجيرات الواحدة تلو الأخرى، وكان يبدو أنه يعيد ترتيب أوراقه. كان دائمًا ما يوجد هدف محدّد يكمن خلف أفعاله، إلا أن الفتاة لاحظت أنه يبدو في هذه اللحظة حائرًا ومضطربًا. كان يبدو وكأنه يراوح بين هذا وذاك دون أن يُحرز أي تقدّمٍ في عمل محدد. تساءلت عمّا إذا كان الإضراب الوشيك يُسبّب له قلقًا أكثر ممّا كان على استعدادٍ لأن يُقِر به. تمنّت لو تمكّنت من مساعدته، ولكنها كانت تعلم جيدًا أنه لن يقبل شيئًا سوى تركه وشأنه. وكانت تعلم أيضًا أن والدها عندما يقول إنه سيكون مستعدًا للذهاب إلى المنزل معها في وقتٍ محدد، فإنه عادةً ما يكون جاهزًا عندما يحين ذلك الوقت. فلماذا كان يؤجّل المغادرة إذن؟

في نهاية المطاف، أغلق سارتويل غطاء إحدى حجيرات المكتب وأقفلها بالمفتاح كما لو كان يحبس اضطرابه بداخلها، ثم أدخل المفتاح المتدلي من سلسلة ساعته في قفل الحجيرة الثالثة وفَتحَ غطاءها. ألقى مصباحٌ

كهربي متدلٍّ من سلك من السقف على المكتب أشعة ضوءٍ انطلقت من غطاء أوبال دائري كان يغطي المصباح. حدّق المدير بضع لحظات إلى داخل المكتب، ثم الْتفت إلى ابنته وقال:

«إدنا، لقد أفزعتِني عندما دخلت المكتب الليلة.»

«أنا آسفة يا أبي. ألم تكن تتوقع حضوري؟»

«بلى، ولكن ليس في تلك اللحظة كما حدث. تزدادين شبهًا بوالدتكِ يا ابنتي العزيزة كلما كبِرت.»

خيّم الصمت على المكان برهة؛ إذ لم تكن إدنا تدري ما عليها أن تقول. كان من النادر أن يتحدث والدها عن زوجته المتوفاة، ولم تكن إدنا تتذكر والدتها.

ثم قال الوالد: «لم ألحظ حتى الليلة أنكِ تشبّين عن الطوق. لطالما كنت أراكِ طفلتي الصغيرة. ثم دخلت عليّ فجأة. إدنا، لم تكن والدتكِ تكبركِ إلا بأربع سنواتٍ فقط عندما تُوفّيت. وكما ترين يا عزيزتي، على الرغم من أنني أتقدّم في السن، تظل هي شابة؛ ولكني أعتقد أحيانًا أن الشاب الذي كان زوجها قد مات أيضًا؛ فلم يتبقّ بداخلي أي شيء منه.»

كان سارتويل ينقر بخفة بأصابعه على سطح المكتب بينما يتحدث؛ ثم رفع يده إلى أعلى وأطفأ المصباح الكهربي بطريقة تدل على انزعاجه من ضوئه الشديد. كان المصباح في منتصف الغرفة يُرسِل ما يكفي من الضوء، وتركَه متواريًا في الظل.

«أعتقد أنه يحل وقت في حياة كل أب يدرك فيه، بشيء من الصدمة، أن ابنته الصغيرة التي كان يُلاعبها في حِجرِه قد أصبحت شابة. يشبه الأمر حين يسمع الرجل نفسه وهو يشار إليه لأول مرة بأنه مُسن. أتذكر

جيداً كيف كظمت غيظي عندما سمعت للمرة الأولى أحدهم يقول عني إني رجل مُسن.»

صاحت الفتاة بصوت شبه منتحب يتخلّله شعور بالسخط: «ولكنك لست مسنًا!» كانت تتمنّى لو اقتربت من والدها وأحاطت عنقه بذراعيها، ولكن حدّثها حدسها بأنه يريدها أن تبقى حيث هي حتى ينتهي ممّا يريد قوله.

قال الوالد: «أنا في طريقي إلى هذه المرحلة. فلا أحد يصغر سوى الموتى. وظني أن الفتيات لا يرين تقدم آبائهن في العمر، مثلما لا يرى الآباء أنوثة بناتهم. ولكننا لن نتحدث عن عمري. سنرحِّب الليلة بالقادم، دون المسارعة إلى الرحيل. علينا أنا وأنتِ يا إدنا أن نُدرك أننا نبدأ، بشكلٍ ما، مرحلةً جديدة من حياتنا معًا. لقد أصبح كلانا بالغًا. عندما كانت والدتكِ تكبركِ بقليل، أوصيتُ برسم لوحة شخصية لها. سخرَت مني ونعتتني بالمبذِّر. فكما تعلمين، كنا نعيش في فقرٍ مدقع، ورأت المسكينة أن رسم لوحةٍ لنفسها ليس من الضروريات. وأيقنت منذ ذلك الحين أن هذه اللوحة كانت الشيء الوحيد الضروري الذي اشتريته في حياتي. وعندما أصبحت أكثر ثراءً، أعطيتها لرسام معروف لينسخها، وفعل ذلك خدمةً لي وليس من أجل المال؛ فالرسامون لا يُحبِّذون نسخ أعمال الآخرين. العجيب في الأمر أن اللوحة التي نسخها كانت أقرب شبهًا بوالدتكِ من اللوحة الأصلية. اقتربي يا ابنتي.»

هبّت إدنا إلى جوار والدها ووضعت يدها بخفة على كتفه. وأضاء سارتويل المصباح الكهربي. وفي قاع المكتب كانت ثمّة لوحة كبيرة لامرأة شديدة الجمال. سقط الضوء على وجه المرأة وكانت عيناها الجميلتان تنظران نحوهما باسمتين.

قال الوالد في صوت شبه هامس وكان يتحدث بصعوبة: «هذه والدتكِ يا إدنا.»

كانت الفتاة تبكي بصوتٍ خفيض كي لا يلحظ والدها ذلك. انسلّت يدها من فوق كتف والدها المجاورة لها إلى كتفه الأخرى، وداعب والدها شعرها الأشقر بيده.

ثم قالت محاوِلةً أن تتحدث بشجاعة: «مسكين يا أبي!

لا بد أنك تشعر بوحدة موحشة. يبدو أنني قد ... قد فهمت أموراً ... لم أكن أفهمها من قبل ... كما لو أني قد أصبحت عجوزًا فجأة.»

ظلا يحدّقان معًا في اللوحة لبعض الوقت في صمت، ثم قالت الفتاة:

«لمَ لمْ تُرِني هذه اللوحة من قبل؟»

«حسنًا يا عزيزتي، لطالما كانَت هنا ولم تدخل المنزل قطٌ، وعندما كنتِ في سنٍّ صغيرة، لم تعتادي الحضور إلى المكتب، كما تعلمين. وكما تعلمين، كانت زوجة والدكِ المسئولة عن تنشئتك ... و... و... اعتقدت بصورةٍ ما أن وجود هذه اللوحة لن يمنحها فرصةً عادلةً معك. فلطالما كان العالم قاسيًا على زوجات الآباء.» ثم أغلق المكتب في عجالة. وصاح بنبرة جافة: «لا عليك، لا عليك، لن يفيد ذلك كما تعلمين يا إدنا. ولكن كان هذا ما أردت أن أقوله لك. أريدكِ أن تتذكري — بل أن تفهمي — أننا وحيدان في هذا العالم، إن جاز القول؛ وأن ثمّة رابطًا بيننا في ذلك، مثلما في حقيقة أننا أب وابنته. وأريدكِ أن تشعري دائمًا بأنني أقرب أصدقائك، ولا بد ألّا يحدث أي سوء تفاهم بيننا أبدًا.»

قالت الفتاة في جدية: «لا يمكن أن يحدث ذلك أبدًا يا أبي.»

«صدقت، صدقت. ومن هذه اللحظة فصاعدًا، إذا حدث أي شيء يؤرقك، أريد منكِ أن تأتي إليّ وتخبريني عنه. آمل أن تكون بيننا ثقة تامة. وإنْ

أورثكِ أي شيء الحيرة، فأخبريني به؛ إذا كان أمرًا تافهًا، أريد أن أعرفه؛ وإذا كان أمرًا خطيرًا، أريد أن أعرفه. ففي بعض الأحيان، قد تبدو المشكلة تافهةً في ظاهرها ولكنها في الحقيقة مشكلة خطيرة، والعكس صحيح؛ وتذكّري أن تصنيف المشكلات التي تواجهكِ لا يقل أهميةً عن حلّها. هذا ما يمكنني أن أساعدكِ به؛ فحتى إن لم أكن قادرًا على تفكيك الخيوط المتشابكة، فربما كنت قادرًا على أن أريكِ أنها لا تستحق محاولة تفكيكها من الأساس.»

كانت الفتاة ترمق والدها بنظرةٍ جادةٍ أثناء حديثه، ثم فاجأته، كما لو أنها تُريه أن حَدْس المرأة سيصيب مباشرةً النقطة التي يحوم حولها فِكر الرجل بإسهاب، عندما قالت:

«أبي، ثمّة أمرٌ حدث يتعلّق بي، أمر أثار في نفسكَ القلق تجاهي. ماذا حدث؟ أعتقد أنني يجب أن أعرف. هل قالَت زوجة أبي أي شيء عن ...»

«لا، لا يا ابنتي، لم تقُل زوجة أبيكِ أي شيء عنك. وإن فعلت، لم أكن ... أعني، لأوليت الأمر كامل اهتمامي، ولم أكن لأتردّد في أن أُخبركِ به. يجب ألّا تقفزي إلى أي استنتاجات؛ ربما أتحدث إليكِ بجديةٍ لا داعي لها؛ إلا أن الانطباع الذي آمل في تركه لديكِ هو أنه على الرغم من أني قد أبدو غارقًا في العمل حتى أذنيّ، فإنكِ أهم بالنسبة إليّ من أي شيءٍ آخر، بل إنكِ منذ وفاة والدتك، صِرت الإنسان الوحيد الذي يمثّل أهميةً حقيقيةً بالنسبة إليّ؛ لذا إن أردتِ أي شيء، فأخبريني به؛ ثوبًا جديدًا، على سبيل المثال، باهظ الثمن بصورةٍ غير مسبوقة. وظني أنكِ ستكتشفين، عندما يتعلق الأمر بسعادتك، أنني لن أسمح لأي تحيُّزاتٍ من جانبي بأن تعترض طريقها.»

رفعت الفتاة بصرها نحو والدها باسمة.

وقالت: «لا أعتقد أن عدم حصولي على ثوبٍ جديد قد يعرِّض سعادتي للخطر.»

«إن الملبس مهم للغاية يا إدنا، علينا ألّا ننسى ذلك، وإن كنت قد استخدمت الثوب مجرد مثالٍ خشية أن تأخذي حديثي بجدية مبالغ فيها. لنعُد إلى المنزل الآن يا صغيرتي. هذا اللقاء هو الأخير بيننا في هذا المكتب، كما تعلمين، وقد اقتحمتَه، بشكلٍ ما، تلك الجدية التي تتسم بها جميع الأمور التي تُؤدى للمرة الأخيرة. والآن، إذا كنت جاهزة، فأنا أيضًا جاهز.»

«ليس تمامًا يا أبي. أنت تعلم أني أحب هذا المكتب — لطالما أحببته — والآن، وبعد هذه الليلة، سيبدو مخيفًا لي دائمًا. كل هذا الحوار كان حول امرأةٍ عديمة الأهمية وملابسها؛ ولكن ما يؤثر فيّ يا أبي هو الوَحْدة الموحشة التي عشتَها طوال حياتك تقريبًا. لم ألحظ ذلك من قبل قط. ومن الآن فصاعدًا، عليك أن تناقش أمورك معي؛ ربما لن أكون قادرةً على تقديم الكثير من المساعدة في البداية، ولكن، فيما بعد، مَن يدري؟ وسيُسعدني ذلك لأنه سيجعلني أعتقد أن تآزرنا ليس من جانبٍ واحدٍ فقط. اتفقنا يا أبي؟»

«اتفقنا يا إدنا.»

جذب الأب ابنته نحوه وتم الاتفاق. ثم أطفأ الأنوار، وهبطا الدرج معًا مسرعَين إلى حيث ينتظرهما سائق عربة الأجرة النائم. كان الضباب قد هبط ووصل إلى قمة رأسه تقريبًا.

صاح سارتويل بحدة: «محطة ووترلو، خط السكك الحديدية الرئيسي.»

قال السائق وقد استعاد يقظته كاملةً وهو يهم بإمساك اللجام: «حسنًا يا سيدي.» وفتح الحارس البوابات.

«هل كل شيء على خير ما يرام يا بركنز؟»

أجاب البواب وهو يمس طرف قبعته: «كل شيءٍ بخير يا سيدي.»

«خذ كامل حذرك.»

«أمرك يا سيدي.»

عاد صليل العربة الآخذ في التضاؤل وهي تسير في الشارع الضيق مرةً أخرى؛ إلى حيث يقف بركنز وهو يُغلق البوابات الكبيرة للمرة الأخيرة هذه الليلة.

الفصل الثالث

بينما كان الأب وابنته يقتربان من ويمبلدون، كان الصمت يخيّم عليهما. ربما كان ذلك لأنهما تحدّثا كثيراً في المكتب. وعندما عبرا بوابة المحطة، قال سارتويل:

«سنستقل عربة أجرة يا إدنا، وسُحقًا للنفقات.»

«لا أُمانع السير على الإطلاق؛ فلا يوجد ضباب هنا.»

«لقد تأخّر الوقت؛ لذا سنستقل عربة أجرة.» وبمجرد أن ركبا العربة، أضاف متأملًا: «إني لأتساءل عن السبب في أن يُنظَر لعربة الأجرة على أنها من مظاهر البذخ في ويمبلدون، بينما يُنظَر لها على أنها اقتصادية في لندن.»

كان واضحًا أنه لا أحد منهما يمكنه حل هذه المعضلة؛ لذا لم يُضِف أيٌّ منهما كلمةً أخرى، حتى توقفت العربة أمام باب حديقةٍ مُسَوّرةٍ في شارع هادئ بالقرب من الحديقة العامة ذات النسيم المنعش. أدخل سارتويل مفتاحه في الباب، وأبقى الباب مفتوحًا وجعل ابنته تمر قبله. وعلى بعد نحو مائة ياردة من الشارع، وقف منزل مربع الشكل محاط بالشجيرات وأحواض الزهور. سار الاثنان بحذرٍ شديدٍ على الطريق المغطاة بالحصى الذي كان يُصدر صوتًا مقرقعًا، وفتحا الباب الأمامي، ودخلا إلى رَدهةٍ خافتة الإضاءة. وضع سارتويل قبعته على حامل القبعات، ودفع باب غرفة الطعام ليفتحه ودخلها، تتبعه ابنته من ورائه هذه المرة. كان ثمّة العديدُ من المقاعد المريحة في الغرفة، عدا واحد. وعلى هذا المقعد جلسَت امرأةٌ طويلةٌ ونحيلةٌ بعض الشيء لم تعُد في ريعان شبابها.

كانت تجلس منتصبةً في مبالَغة، دون أن تسمح لكتفَيها بالاستناد إلى ظهر المقعد. وارتسم على وجهها تعبير صبور جعلها أشبه بضحية صموت، تعبير لا يرتسم إلا على وجه امرأةٍ أساء العالم القاسي معاملتها، ولكنها قرّرت ألّا تسمحَ لمعاملته السيئة بأن تؤثّر على عدالتها الفطرية في تعامُلها مع بَني جلدتها من البشر.

قالت المرأة بلطف، بنبرة شخص ربما يكون مخطئًا فيما يقول وعلى استعدادٍ لتقبُّل مَن يصحّح له خطأه: «أعتقد أني سمعت صوت عربة أجرة تقترب وتتوقف.»

قال سارتويل ملقيًا نفسه على مقعدٍ ذي ذراعَين: «هذا صحيح. عندما تأخر الوقت، ركبت عربة أجرة من المحطة.»

«أوه!»

ثمّة الكثير يمكن أن تعبّر عنه صيغة التعجب تلك التي تبدو بلا معنًى. عنَت هذه الكلمة أن السيدة سارتويل، رغم صدمتها ممّا قيل، قد استسلمت للمحتوم، بإدراكها أنها قد تزوّجت رجلًا لا يُذعن إلى العقل والمنطق، وعلى الرغم من أنها كانت قادرةً على قول الكثير عن تأثير التبذير غير الضروري، فقد كبحت جماح نفسها، مدركةً أنها لن تتلقّى أي إطراءٍ على سماحتها تلك.

مرّت بضع لحظاتٍ صامتة قضَتها السيدة سارتويل في الفحص المُدقّق لأعمال الحياكة التي كانت منهمكةً فيها، ثم رفعَت بصرها ناحية زوجها وقالت:

«إني لأتساءل عمّا إذا كان العمل هو ما أبقاك في المكتب حتى هذه الساعة المتأخرة حسبما أظن.»

«عمل مهم.»

تنهّدت السيدة سارتويل.

وقالت: «لطالما كان ذاك هو الحال. كان يجدر بي أن أعلم ذلك دون أن أسأل. بعض الرجال يجعلون من العمل إلههم، رغم أنهم سيدركون يقينًا أنه إله زائف لا ينفع ولا يضر عندما تحين النهاية. ثمّة شيء اسمه الواجب مثلما هناك شيء اسمه العمل، وعلى الرجل أن يفكّر، ولو قليلًا، في زوجته وبيته.»

بدت تلك العبارة الأخيرة غير قابلة للجدل، حتى إن سارتويل لم يكلّف نفسه عناء الاعتراض. فجلس في مقعده مُسندًا رأسَه إلى الخلف، وأغمض عينَيه، وعقد كلتا يدَيه أمام ركبته. لطالما اعتبرَت السيدة سارتويل هذا التصرّف الملاذ الأخير للشخص المتهكّم؛ تصرّف سيكون مطالَبًا بتبريره، مثلما يتعيّن على الشخص الآثم أن يُبرِّر أفعال الشر التي يأتي بها.

قالت إدنا: «كان لدى أبي الليلة مشاغل أكثر من المعتاد.» كانت تقف بجوار الطاولة وقد خلعَت قبعتها وقفازها.

علَت دهشةٌ خفيفة قَسَمات وجه السيدة سارتويل. فالتفتَت ببطء، وتفحّصت ابنة زوجها ببرودٍ من قمّة رأسها حتى أَخمَص قدمَيها. كان يبدو أنها لم تنتبه إلى وجودها إلا الآن، الأمر الذي قد لا يفسّره إلا أن الفتاة دخلت الغرفة خلف والدها.

قالت السيدة سارتويل: «إدنا، كم من مرةٍ أخبرتكِ بألّا تضعي قبعتكِ وقفازكِ على طاولة الطعام؟! ثمّة مكان مخصص لكل شيء. أنا على يقين من أنكِ عندما تزورين والدك في مكتبه، الأمر الذي تحبينه كثيرًا، تجدين كل شيءٍ في مكانه؛ لأن والدك، على الأقل، رجل منظم. ولا شك في أنكِ لم ترثي عاداتك الفوضوية منه، ويشهد الجميع، ربما عداكِ أنت

ووالدك، بأنكما تعيشان في منزل منظم. من أين جاءت تلك البقعة التي تلطِّخ ثوبك؟»

خفضت إدنا بصرها بسرعة لتنظر إلى تنورتها، وللأسف! كانت عجلة العربة قد تركت علامةً عليها. لم تكن السرعة البطيئة هي العيب الوحيد للعربات ذات الخيل في الأيام الموحلة.

قالت السيدة سارتويل: «إنكِ لخيبة أمل كبيرة بالنسبة إليّ يا إدنا، إنكِ مهملة للغاية، ولا أحد يعلم كم يؤلمني أن أقول ذلك. إنكِ لم ترتدي هذه التنورة إلا منذ ...»

صاح والد إدنا بنبرة قاطعة قائلًا: «إدنا، هل أنتِ جائعة؟»

«لا، يا أبي.»

«هل أنتِ واثقة من ذلك؟»

«تمام الثقة. لا أشعر بأي جوع على الإطلاق.»

«اذهبي إلى فراشك إذن.»

اتجهت إدنا نحو الطاولة إلى حيث تجلس زوجة أبيها، وطبعت قبلةً على خدها.

وقالت: «طابت ليلتك.»

غمغمت السيدة سارتويل متنهِّدة: «طابت ليلتك يا طفلتي المسكينة.»

قبّلت الفتاة والدها وهمست في أذنه في هذه الأثناء قائلة: «أخشى أنني قد عدت طفلتكَ الصغيرة مجددًا بطريقة أمرك لي بأن أذهب لأنام.»

قال والدها: «ستظلين في نظري دائمًا طفلتي الصغيرة يا عزيزتي. طابت ليلتك.»

تنهّدت السيدة سارتويل مرةً أخرى، بينما كانت إدنا تُغلق الباب من خلفها.

وقالت: «ظني أنك تعتقد أنه من اللائق أن تهمس في أذن إدنا بهذه الطريقة أثناء وجودي في الغرفة، وإلا لم تكن لتفعل ذلك. هل تتوقع أن تُكنّ الفتاة أي احترام لي وأنت تسمح لها بأن تهمس ...؟»

«هل ثمّة شيء لنأكله في هذا المنزل؟»

«أنت تعلم أنه دائمًا ما يوجد شيء لتأكله في هذا المنزل.»

«حسنًا، هل ستدقين أنتِ الجرس، أم أدقه أنا؟»

«لا يمكن أن تتوقع أن يظل الخدم مستيقظين طوال الليل ...»

«حسنًا إذن، أعطني المفاتيح وسأذهب لأُحضر لنفسي طعامًا.»

ارتعشت شفتا السيدة سارتويل، بينما كانت تطوي ما تحيك في نظام، وتلفّه حول الإبرة، والكشتبان، والعديد من لوازم الحياكة الأخرى في حزمةٍ واحدة، ثم تضعها في مكانها في سلّة الحياكة. وجلجلت المفاتيح المعلّقة في خصرها وهي تنهض من جِلستها.

وقالت: «أنا على استعداد، ولطالما كنت على استعدادٍ لأن أُحضر لك أي شيءٍ تريد وقتما تريده. قد تكون توقعاتي تفوق الحدود، ولكن أعتقد أنه يجدر بك أن تطلب ما تريد بطريقةٍ متحضّرة. إذا كنت تعامل رجالك كما تعامل زوجتك، فلا عجب في أنهم سيُضربون عن العمل.»

لم يردّ سارتويل، وبقيَ جالسًا في مكانه مغمضًا عينَيه حتى أخبرته زوجته، بصوتٍ متهدج، أن عشاءه جاهز. كانت مأدُبة عامرة، تضم من الشراب أفخر أنواع البيرة أو الكحوليات؛ فقد كانت إحدى نقاط ضعف سارتويل اعتقاده بأن على الرجل لكي يعمل جيدًا أن يأكل جيدًا. وعلى

الرغم من أن زوجته لم تكن تؤمن بهذا التدليل أو تقبله، فإنها لم تكن تتوانى عن توفير كل ما يريد؛ ألَا تكون المرأة بلا حولٍ ولا قوةٍ في موقف مثل هذا؟ وبينما كان رجل البيت يأكل في صمت، رمقَته بنظرةٍ أو اثنتين أثناء عملها في الحياكة، وقالت أخيراً في شفقة:

«أنا واثقةٌ من أن إدنا كانت جائعة، ولكنها خشيَت أن تُفصح عن ذلك؛ فقد كنتَ فظًّا معها للغاية. قد يعتقد المرء أنك إذا كنت لا تُكنُّ أي مشاعر لزوجتك، فسيكون لديك بعض المشاعر تجاه ابنتك الوحيدة.»

قطع سارتويل شريحةً أخرى من اللحم البارد، ونقلها إلى طبقه.

واصلت السيدة سارتويل حديثها قائلة: «لقد اعتدتُ معاملتكَ هذه، وآمل أن أكون اعتدتها بالفعل، ولكنها لا تزال صغيرةً ولا شيء يشوّه شخصية الصغار أكثر من القسوة والغلظة اللتَين بلا مبرِّر. إنك تغض الطرف عن أخطائها الحقيقية، ثم تقسو عليها عندما لا تكون ثمّة حاجة للقسوة. ماذا فعلت الفتاة حتى تأمرها بأن تذهب إلى فراشها بهذه الطريقة؟»

صمتَت لبرهةٍ انتظاراً لسماع إجابة على سؤالها، ولكنه لم يُجِب. كانت السيدة سارتويل معتادةً على ذلك، كما قالت؛ إذ كان قاسياً في صمته مثلما كان قاسياً في حديثه؛ لذا أخذَت تتفحّص خصمها مثلما يفعل شخصٌ يبحث عن نقطة ضعفٍ في درع خصمه يمكن أن ينفذ منها طرفُ سيفه. ثم قبضت بقوةٍ على مقبض السيف، ودفعته ببطءٍ إلى الأمام. فكان أن نحّت الحياكة جانبًا وهي تتنهّد بصوتٍ مسموعٍ بالكاد، وقالت بصوتٍ خفيض:

«مثلما قلت للسيدة هوب عندما زارَتني ...»

التفت سارتويل نحوها فجأةً وصاح: «قلتِ لمَن؟»

«أوه، لم أكن أعتقد قط أنك مهتم بزُواري. أظن أنه مسموح لي بأن يكون لي بعض الأصدقاء. ولكن إذا كنت ترغب في أن أقبع في المنزل طوال اليوم وحيدةً بمفردي، فمرني بذلك فحسب، ولسوف أُطيعك.»

«كُفي عن الهراء إذا كان باستطاعتك ذلك. ماذا كانت السيدة هوب تفعل هنا؟»

«كانت تزورني.»

«حسنًا إذن. أعتقد أنني أفهم ذلك جيداً. ما الغرض من زيارتها؟ أي بدعةٍ جديدة جاءت بها هذه المرة؟»

«أعتقد أن عليك أن تخجلَ من الحديث عن زوجة رب عملك بهذه الطريقة، وهي التي لم تفعل شيئًا سوى أنها شرّفت زوجتك باستشارتها ...»

«بشأن ماذا؟ هذا ما أريد أن أعرفه.»

«بشأن الإضراب.»

«آه!» لاح في عينَي سارتويل بريق غضب، ونظرت له زوجته ببعض القلق.

«السيدة هوب امرأةٌ تسعى إلى فعل الخير. وهي مهتمةٌ كثيراً بالعمال في «المصنع»، وتُفكّر في زيارة زوجاتهم وأسرهم لتتفقّد بنفسها أحوال معيشتهم. تعتقد أنه ربما كان ثمة ما يمكن فعله من أجلهم.»

«حقًا؟»

«نعم. إنها تتساءل عمّا إذا كنت تتحرّى الصبر والكياسة معهم.»

«وإلامَ توصّلت؟ لا شك في أنكِ أخبرتها أنني قد تعلمت الكياسة على يدَيك، وأن كل شيء على ما يرام فيما يتعلق بهذا الشأن.»

صاحت السيدة سارتويل في ثورة: «لقد أخبرتها بالحقيقة.»

«ألا وهي أن ...؟»

«أنك رجل عنيد ومتسلّط لا يطيق أن يعارضه أحد.»

«لقد أصبتِ كبد الحقيقة مرةً واحدةً في حياتك. وماذا قالت؟»

«قالت إنها تتمنى لو أنك راعيت أسر العمال المساكين.»

«وأنتِ قلتِ لها إني لا أراعي أسرتي من الأساس، فمن غير المرجّح أن أُولي الكثير من الاهتمام بزوجات وأسر العمال.»

«لم أقل ذلك، ولكني فكّرت في قوله.»

«يعجبني كبحكِ لجماح نفسك! والآن أنصتي لي يا سارة، أنت تلعبين بالنار ولا تدرين أنكِ تفعلين ذلك. السيدة هوب امرأة فضولية حمقاء مختلة، و...»

«أنت لا تجرؤ على قول ذلك لرب عملك.»

«تعليقكِ هذا يدل على أن امرأةً في مكانتكِ قد تعيش مع رجلٍ سنوات دون أن تتمكّن من فَهْم شخصيته. المشكلة هي أنني سأقول ذلك تحديداً لرب عملي، كما تحبين أن تصفيه، بمجرّد أن تحشر زوجته أنفها في الأمر. وماذا سيحدث حينها؟»

«ستخسر وظيفتك.»

«بالضبط. أو لمزيد من الواقعية في التعبير، سأستقيل؛ سأخرج إلى الشارع.»

«ولكنك لن تفعل شيئًا بهذا الغباء.»

«سيحدث ذلك في اللحظة التي أكون فيها مجبرًا على الإدلاء برأيي للسيد هوب في علاقاته الأسرية. وماذا سيحدث حينها لدَخْل هذه الأسرة؟ هل ستساهم السيدة هوب في الإنفاق عليك، هل تظنين أنها ستفعل؟ هل تطمحين في مكانٍ لكِ على قائمة أعمالها الخيرية؟ أيًا كان رأيكِ فيّ، وسواء أضمرتِه أم أعلنته، فعليكِ أن تُقرّي بأني أضخٌ مالًا يكفي، على الأقل، لاستمرار هذا البيت، وأنا على يقينٍ من أنكِ عاقلةٌ بما يكفي لتقدّري ذلك. أنت لم تستطيعي طوال حياتكِ أن ترَي أبعد من أرنبة أنفك، أو تدركي أن النتيجة تتبع السبب لا محالة مثل القدر المحتوم. لا أستطيع أن أفهم كيف لامرأة أن تصف رجلًا بأنه عنيد ومتسلط، ولا يصبر على أي شيء، ثم تتعمد التشدّق بالحديث لتتسبّب في حدوث التدخّل الذي تعرف حتمًا، إذا كانت تصدّق ما وصفته به، أنه لن يتحمّله. إن ثرثرتكِ اليوم قد تحتّم عليّ البحث عن عملٍ آخر غدًا.»

كانت السيدة سارتويل تبكي خلال الجزء الأخير من هذه الخطبة.

وقالت باكية: «أنا دائمًا مَن يُلقى عليها اللوم في أي شيء خاطئ. أمّا طبعك المتسرع الجامح فلا يُحمّل أي لوم. لو قرّبتني إليك واستشرتني في أمورك ... رجال آخرون يستشيرون زوجاتهم، رجال أفضل منك، وأكثر ثراءً ممّا ستكون عليه يومًا. تقول السيدة هوب إن زوجها ...»

«لا أريد سماع المزيد عن السيدة هوب.»

«أنت مَن أصر على الحديث عنها. لم أرغب في قول أي شيء، ولكنك ظَلِلت تستجوبني حتى بُحت بكل شيء مضطرة، والآن تُلقي باللوم عليّ.»

«حسنًا، فلندع الأمر عند هذا الحد. أحضري لي دورقًا من الحليب، من فضلك.»

«هل أنت واثق من أنك ستشرب الحليب بعد البيرة؟»

«أُطالب بحقي كمواطن بريطاني في أن أكون حرًا في شُرب ما يحلو لي من شراب. دعينا لا نتشاجر حول هذا الأمر.»

«ولكنك بذلك لن يَغمُض لك جفن يا جون. أنا أتحدث من أجل مصلحتك.»

«إن كل ما تفعلينه لصالحي يا سارة، وربما كان هذا هو سبب نفاد صبري.»

«حسنًا، أنت تعلم كيف تُصبح حالتك بعد ليلةٍ بلا نوم.»

«نعم، نعم أعلم. أعتقد أني لن أتمكن من النوم الليلة على أي حال. أحضري الحليب أو أخبريني بمكانه.» كانت السيدة سارتويل تنهض دائمًا عندما يقول زوجها إنه سيُحضر شيئًا بنفسه من خزانة المؤن. ووضعت دورق الحليب بجوار يده.

قال سارتويل: «لديّ العديد من الأمور لأفكِّر فيها. أُريد أن أكون بمفردي.»

كانت تقف بجوار الطاولة وتحدِّق إليه.

وأخيرًا قالت متلعثمة: «طابت ليلتك يا جون.»

رد عليها قائلًا: «طابت ليلتك.»

ظلّت تحدق إليه بنظراتٍ لائمةٍ في صمت، ولكنه لم يرفع رأسه، فاستدارَت في نهاية المطاف مطلقةً تنهيدةً عميقة، وتركَته لتأمُّلاته.

جلس سارتويل في مكانه وقد حفر القلق علاماته عميقًا في حاجبيه. كان الصمت يخيِّم على المنزل بأكمله. وأخيرًا نهض سيد المنزل واتجه

نحو الطاولة. دهن شريحتَين من الخبز بالزبد وقطع قطعةً من الكعكة اللذيذة، ووضع كل هذا على طبقٍ حمله بيدٍ مع كأس للشرب. وبعدما أشعل شمعةً وأطفأ الغاز، بدأ في حركاته البهلوانية لموازنة طبق، ودورق، وشمعة معًا دون أن يسقط منه شيء. في البداية فتح الباب بهدوءٍ وألقى نعلَيه من قدمَيه. صعِد سارتويل الدرج محمّلًا بكل هذا بخطًى خرقاء، وكان يتحرك خلسةً كاللصوص، إلا أنه على الرغم من حذره، أصدر الدرج صوت صرير منذر بالخطر وسط السكون. ثم دخل إحدى الغرف دون أن يصدر صوتًا، وأغلق الباب من خلفه في هدوء وهو يضع حمله الثقيل على طاولة. عندما سقط الضوء على وجه الفتاة النائمة، فتحت عينَيها على اتساعهما، ثم غطّتهما بيدها، وأطلقت ضحكةً خافتة، ضحكةً خفيفة ناعسة، ودفنت وجهها في وسادتها البيضاء.

قال لها والدها: «صه.»

استفاقت الفتاة من سُباتها على الفور.

همس لها والدها قائلًا: «كنت أخشى أنكِ جائعة على أي حال.»

«لم أكن جائعةً في حينها، ولكني جائعة قليلًا الآن.»

«جيد.»

وضع طاولةً صغيرة مستديرة بالقرب من الفراش، ووضع عليها الطبق ودورق الحليب.

«لا شك في أنكِ تعلمين أني عندما قلت لكِ أن تذهبي للنوم، كنت أريدكِ أن تنعمي بقسط طويل من الراحة. لقد كنتِ متعبة.»

«أوه، أعلم ذلك يا أبي.»

«طابت ليلتك إذن يا عزيزتي، ربما كان من الحمق أن أوقظكِ من نومك، ولكن سرعان ما ستخلدين إلى النوم مرةً أخرى.»

«على الفور، ويبدو هذا الطعام مغريًا. لم أكن أرغب إلا في كوب من الحليب. إنه لعطف جمٌّ منك يا أبي.»

وجذبت رأسه نحوها وقبّلته.

وأضافت قائلة: «أتمنى لك نومًا هادئًا.»

«سأحرص على ذلك.»

ثم توقف عند باب الغرفة، وهمس بحذر بعد لحظة صمت قائلًا:

«إدنا، ستحملين هذه الأشياء إلى الطابق السفلي بنفسك في الصباح، في هدوء تام. فالخدم، كما تعلمين لا يحبون أداء أي عمل إضافي أحيانًا.»

«حسنًا يا أبي، فهمت.»

ثم انسلّ سارتويل في هدوء كما لو كان لصًا يتسلل في جُنح الليل.

الفصل الرابع

لم يتخطّ برنارد هوب، المعروف باسم بارني، أبداً دهشته حين وجد نفسه ابنًا لجيمس هوب وزوجته إيوفيميا. كان جيمس هوب، الشريك الأصغر في شركة «مونكتون آند هوب»، رجلًا ضئيل الحجم تسلّل إلى رأسه شيء من الصلع، ويتسم أسلوبه بالاعتذار المستمر. كان يبدو أنه يحاول إضفاء بعض المنطق على كل رأي ينطق به ولا يثق به؛ وكان سرعان ما يتراجع عنه على الفور عند الضرورة. وإن التقيته في الشارع، فستظنه رجلًا تعرض للكثير من التنمر، أو موظفًا من الموظفين المحدودي الدخل في المدينة. كان في مكتبه يعيش خائفًا من مدير شركته، وفي منزله يعيش خائفًا من زوجته. فقد كانت السمة الرئيسة لزوجته هي التعنّت المستبد. كانت السيدة هوب أطول من زوجها بقليل، وعندما تقابلهما وهما في طريقهما إلى الكنيسة، ترى الزوج يتخذ تلك الوضعية الهادئة الوديعة لصبي صغير تعسٍ اكتُشف خطؤه، وتصطحبه معلمته المستقيمة الساخطة إلى الكنيسة معاقبةً إياه. لم تكن السيدة هوب تشارك في أيٍّ من مظاهر العبث الرائج في حي سربيتون، حيث كانت تسكن. فقد كان لديها مهمة وواجب تجاه أقرانها من بني البشر؛ أي تجاه الفقراء، وأولئك الذين لا يمكن بأي حال أن ينقموا على مساعداتها لهم التي لا تخلو من التفضّل. كان لديها اعتقاد بأن الأثرياء لو أدّوا واجبهم، لأصبح العالم مكانًا أفضل وأكثر إشراقًا، الأمر المشكوك في تحققه.

قد يكون علينا أن نشعر بالامتنان بصورة أو بأخرى؛ لأن السيدة هوب لم تتولّ مهمة تغيير هذا العالم؛ فالكثير من السمات المشوِّقة كانت ستختفي في هذه الحالة. لم يكن هوب نفسه مثالًا على السعادة التامة.

لطالما كانت السيدة تضع عدداً من النساء تحت رعايتها، لتكتشف فيما بعد، كالمعتاد، أنهن لا يستحققن رعايتها؛ ومن ثم كانت تتخلّى عن رعايتهن من أجل حالاتٍ جديدةٍ لم تنجح أيضًا. كذلك كانت مطلوبةً دائمًا من قِبَل المؤسسات التي تحتاج إلى أعضاء أثرياء، إلا أن السيدة هوب كانت تملك موهبةً رائعةً في الإدارة، الأمر الذي لم يكن محلّ تقديرٍ دائمًا من قِبَل مَن تعمل معهم. وكان هذا غالبًا ما يُؤدّي إلى حدوث صدام؛ إذ كان الأعضاء الأقدمون يدّعون، بأسلوبهم السوقي، أنها تريد أن تدير كل شيء بأسلوبها، ونصحها أحدهم صراحةً أن تذهب وتُصلح أحوال عمال مصنع زوجها، إذا كانت تريد رعايا يستحقون جهودها. وأدّت هذه الملحوظة إلى تحوُّل انتباه السيدة هوب إلى مصنع «مونكتون آند هوب»، ودفعتها لزيارة السيدة سارتويل، في حي ويمبلدون المجاور.

كان من المفترض بابن هذَين الشخصَين الموقرَين، رغم التناقض بينهما، أن يكون شخصًا متزمتًا وقورًا، ولكنه كان في الواقع وغدًا مزعجًا، وهكذا تستمتع الطبيعة بالمفاجآت غير المتوقعة.

كان بارني عملاقًا عريض المنكبين دمث الخلق، أطول من والده القصير القامة بكثيرٍ مثلما يعلو النصب التذكاري لحريق لندن الكبير أقرب عمود إنارةٍ منه. وكان شخصًا ودودًا وغير متكلّف، ولم يكن يُصافح مثل بقية البشر، بل كان يهوي براحة يده العملاقة من عند كتفه، كما لو كان يقذف كرة كريكت، وبعد تبدُّد صدى صوت ارتطام راحتَي اليدَين معًا، كان يضغط بقوةٍ على اليد التي يصافحها حتى يجفل صاحبها ألمًا. وكان أصدقاء بارني معتادين عند لقائه أن يضعوا أيديهم خلف ظهورهم ويقولوا: «أنا بخيرٍ يا بارني، شكرًا لك»، فكان بارني يضحك ويضربهم على أكتافهم، الأمر الذي كان أخفّ الضررَين رغم صعوبة تحمُّله.

«حيوان مزعج»، هكذا كان يصفه رفاقه في غيابه، إلا أن المصافحة الحماسية من فوق الكتف أو الإطباق المحكم على اليد لم يكن يدل إلا على مدى سعادته البالغة والصادقة بلقاء صديق، ويريد من صديقه أن يعرف أنه لا يوجد أدنى فارق بينهما، رغم كونه فقيراً للغاية بينما بارني ثري للغاية.

ربما كان في الغرب الأقصى، أو في أحراش أستراليا، حيث تكون للعضلات قيمة ما، مكان يسع شخصاً مثل بارني، بل ربما كان ثمّة مكان يناسبه في لندن، ولكن حتى وإن توافر مثل هذا المكان، فالقَدَر وميول بارني نفسها جعلاه أبعد ما يكون عن ذلك المكان. كان بارني فنانًا؛ أي كان يمارس الرسم، أو بالأحرى، كان يمزج ألوانًا معينةً على لوحات القماش. وعلى مدار سنوات، ظل بارني محط أنظار مدرسة جوليان في باريس. فقد كان يعيش في جناحٍ مكونٍ من عدة غرفٍ في فندق جراند هوتيل، وكان يذهب كل صباح إلى المدرسة في شارع رو دو دراجون مستقلًا العربة ومعه سائق وخادم، وكان الأخير يحمل حقيبة أدوات الرسم الخاصة ببارني، بينما كان الأول يظل جالسًا كالتمثال على مقعد القيادة، ممسكًا بسوطه مائلًا بالزاوية الصحيحة. بالطبع لم يكن لطلاب يدرسون الفن أن يتحملوا ذلك؛ فما كان منهم سوى أن أغلقوا بوابات المدرسة ذات يوم وأوسعوا الشاب ضربًا. ظن بارني في البداية أنهم يمزحون معه؛ إذ لم يكن يفهم اللغة الفرنسية جيدًا، وغطّى زئيره القوي على صيحات خصومه الحادة. ثم أمسك بكل منهم على حدة، وكدّسهم أفقيًا في كومة، ثم أخذ يُدحرجهم مراراً وتكراراً، وكلما حاول أحد الطلاب أن ينهض، كان يعيده إلى مكانه بضربة من قبضة يده العملاقة.

وأيًا كان مقدار الإعجاب بالرسم في مدرسة جوليان، فلا شك أنهم قد صاروا يُكنون احتراماً أعمق لقوة العضلات؛ ومن ثم تركوا بارني وشأنه

بعد ما حدث. ودعاهم جميعًا لتناول العشاء في فندق جراند، ولم يتخلّف أحد.

بعد انتهاء رحلته السريعة باعتباره طالبًا للفنون في باريس، جهّز لنفسه مرسمًا ضخمًا في تشيلسي. فُرش المرسم بأغلى المفروشات دون الالتفات إلى التكاليف، وكان يحوي كل ما يجدر بمرسم أن يحوي؛ ستائر من الشرق، وجلود نمور من الهند، وسجاجيد شرقية، ودرعًا قديمة، وحوامل للوحات بجميع الأشكال، وأرائك فخمة مفروشة بأفخر المنتجات الفارسية.

صاح بارني في هيرست هالديمان وهو يصافحه بقوة: «أخبرني. ما رأيك في هذا؟»

كان هالديمان أحد أكثر الطلاب الذين التقاهم بارني في باريس موهبة، وأصبح يمتلك حاليًا عُليّة في لندن يمارس فيها الرسم عندما يتوفر له الوقت لذلك، وكان ينفّذ رسومات بالأبيض والأسود لصالح المجلات والمطبوعات الأسبوعية المُصوّرة ليدعم نفسه ماديًا. كان بارني قد دعا جميع أصدقائه القدامى الذين تعرّف عليهم في باريس، واحدًا واحدًا، لمشاهدة مرسمه الجديد.

قال هالديمان: «رائع! ويمكنني القول دون حرج إنه لا يوجد في لندن مرسم يضاهيه.»

رد بارني قائلًا: «كان هذا بالضبط هو هدفي. قيل لي إن السير ريتشارد دوبس يمتلك أفخم مرسم في لندن. لم أقل شيئًا، ولكني بدأت العمل، وها أنا ذا. هل رأيت مرسم دوبس من قبلُ يا هيرست؟»

«لا، إنه ليس ودودًا مثلك يا بارني؛ فلم يدعُني إلى مرسمه من قبل.»

«لا بأس، سأُحضر لك دعوة، وأريدك أن تخبرني صراحةً عن رأيك في مرسمي مقارنةً بمرسمه.»

«شكرًا لك يا صديقي، ولكن لا تكلّف نفسك عناء الحصول على دعوة من أجلي. فليس لديّ أي وقت؛ لقد حضرت لزيارتك هنا، كما تعلم، فقط لأننا كنا ندرس معًا في باريس. إن مرسم دوبس يملك ميزةً كبيرة لا يملكها الكثيرُ من المراسم، وهي أن به رجلًا يجيد الرسم.»

«أوه، نعم يا هالديمان، هذا صحيح. كل هذا بسبب ما حدث في باريس، كما تعلم. فمنذ أن كدّست الطلبة بعضهم فوق بعض، انتقموا لأنفسهم بادعاء أنني لا أجيد الرسم؛ ولكن يجب عليك أن تترفع عن مثل هذه الأمور يا هالديمان. أنت تعلم أنني رجل واضح وصريح، وأصبحت أملك أفضل مرسم في لندن بشهادة الجميع؛ ولكن هل يشكّل ذلك فارقًا بيني وبين أصدقائي القدامى؟ إطلاقًا، وجلوسك هنا معي يثبت صحة ما أقول. أنا بوهيمي بطبيعتي، أحتقر الثراء، وأقرب أصدقائي فقراء لا يملكون من حطام الدنيا شيئًا. وأنت تعلم ذلك يا هالديمان.»

أشعل هالديمان سيجارةً أخرى من سجائر هوب الفاخرة. كان بارني قد استورد هذه السجائر بنفسه من مصر، وقال إنها من نفس النوع الذي يدخنه الخديوي حتى أخبره أحد المراسلين الحربيين بأن الخديوي لم يكن مدخنًا. فعدّل بارني قليلًا من إطرائه عليها.

«خذ ما يحلو لك يا صديقي العزيز. ستكتشف بنفسك أنها ليست سيئةً مثل بقية أنواع السجائر. أنا أستوردها بنفسي؛ فلم أعد أثق في أولئك المستوردين الأوغاد. إن الخديوي ليس مدخنًا، ولكنه لا يحتفظ إلا بأفضل أنواع السجائر من أجل ضيوفه، وهذا هو النوع نفسه الذي يُورّد له.»

واستطرد بارني قائلًا: «والآن، دعنا نتحدث عن الرسم. إني لأجرؤ على القول إن دوبس لم يكن معروفًا على الإطلاق في وقت ما. حسنًا إذن. أنا أيضًا غير معروف على الإطلاق. ولن يشتري أحد لوحاتي. ولا أخفي هذه الحقيقة. ولمَ أخفيها؟ لقد أرسلت لوحةً إلى معرض برمنجهام؛ لا أقول إنها رائعة، ولكن يمكنني أن أزعم أنها تحمل طابعي الخاص. ولكنهم رفضوها!»

«أنت تُذهلني!»

«أقسم لك بشرفي إنهم فعلوا يا هالديمان. برمنجهام! فكِّر في الأمر! إنها مدينة تصنع المسامير ومواسير البنادق.»

قال هالديمان في حزن: «الفن في إنجلترا ينحدر إلى الحضيض.»

«لا أعتقد أن الأمر بهذا السوء. لا، لقد ضحكت عندما أعادوا لي اللوحة التي لم أبذل فيها الكثير من الجهد، مع الأسف. قلت إني قادر على انتظار الفرصة المناسبة، ويمكنني ذلك حقًا. سيأتي الناس يخطبون ودي يا هالديمان، أراهنك أنهم سيفعلون.»

«إنهم يفعلون بالفعل يا بارني؛ أولئك الذين يريدون اقتراض المال منك.»

«اسمع يا هيرست، لا تلُمني على أموالي البغيضة. هل ذنبي أنني ثري؟ هل أسمح لثرائي بأن يميز بين رجلٍ وآخر؟ نحن نتحدث عن الفن وليس المال.»

«هذا صحيح. كنا نتحدث عن لوحاتك. استمر.»

«كل ما أردت توضيحه هو أن على المرء أن يتعامل مع الأمور برصانة. إذا رفضَت برمنجهام إحدى لوحاتك، كنت ستكتئب أسبوعًا كاملًا.»

«لقد عاملتني برمنجهام بطريقة مختلفة يا بارني. فقد قبلوا اثنتَين من لوحاتي. إن كآبتي سببها ما أخبرتني به الآن.»

ابتسمَ بارني في وجه ضيفه. فها هي حجته قد أُثبتت، ولكنه كبت رغبته في قول «لقد قلت لك ذلك»، ولكنه لم يستطع أن يدع الموقف يمر دون تزيينه بالقليل من الحكمة.

«لقد فهمت ما أعنيه يا هالديمان، فهمت ما أعنيه. ألَا تدفعك حقيقة قَبول برمنجهام للوحاتك إلى التوقف والتفكير؟»

«لا أدري ماذا أقول. إن ما تقول حلّ عليّ كالصاعقة. سألتحق بالأكاديمية في القريب العاجل.»

«أوه، الأمر ليس بهذا السوء. أتعلم يا هالديمان، أنت تملك موهبةً من نوعٍ معين ...»

«بارني، أنت تبالغ. لا شك أنني أحب الإطراء، ولكن من الأفضل أن يكون بكياسة. إن طريقة إطرائك فظة.»

«أنا لا أُطري عليك يا هالديمان، حقًا لا أُطري عليك. قد يغضب معظم الزملاء الآخرون مما سأقول، ولكنك رجل عقلاني ...»

«ها أنت تعيد الكَرة مرةً أخرى.»

«اسمعني. إن لديك موهبةً من نوع معين ... ربما أسلوب كما يجدر بي أن أدعوها؛ مهارة متواضعة في الأسلوب.»

«آه، هكذا أفضل. والآن، استمر.»

«لقد حصلت على الإطراء والجوائز في باريس بفضل أسلوبك، وهذا وجهك إلى الوجهة الخاطئة. إن ما تؤديه بصورة جيدة ما هو إلا ما أدّاه

الكثير من الرجال الآخرين بصورة جيدة من قبلك. أنت مجرد شخص عادي وسط حشد من الأشخاص. أما أنا فأكافح من أجل التفرد.»

«أنت محق يا بارني.»

«لست أنا من يقرر ذلك؛ على أي حال، التفرد والقوة هما ما أرغب في رؤيتهما في لوحاتي، ويومًا ما سيظهر ناقد يملك فكرًا غير منحاز بما يكفي ليلاحظ هاتَين المزيتَين. وحينئذٍ سيكون يوم سعدي قد حلّ. تذكر كلماتي هذه، سأؤسِّس مدرسةً يومًا ما.»

«مثل مدرسة جوليان؟»

«لا، مثل مدرسة ويسلر. أنت تعي جيدًا ما أعنيه. تلك هي طريقتك المزعجة لإظهار شعورك بالغضب؛ لأنني كنت صريحًا بما يكفي وأخبرتك بالحقيقة.»

«ظني أنه لا أحد منا يُحب الصديق الصريح مهما تظاهرنا بذلك. حسنًا، لا بد أن أذهب. فلديّ عمل لإحدى المجلات.»

«لا تذهب الآن. فأنا لم أصل إلى نصف ما أريد قوله بعد. إليك ما أريد عَرْضه عليك. اترك غرفتك وتعالَ اسكن معي. إن الميزة الكبرى التي تميزني عليك أنني أستطيع الانتظار. وإذا طلبَت مني إحدى المجلات رسومات بالأبيض والأسود، فسأقول لهم «لا، اذهبوا إلى أولئك الرسامين الفقراء الذين لا بد أن يعملوا وإلا تضوروا جوعًا. أما أنا، فأعمل من أجل المستقبل، وليس من أجل الحاضر!» هذا ما سأقوله لهم. سأمنحك غرفة نوم، دون أن تدفع إيجارًا، وركنًا في هذا المرسم. لن يكلِّفك هذا بنسًا واحدًا، ولا حتى لوحة الرسم. يمكنك أن ترسم ما يحلو لك، وليس ما يطلبه العامة. وبذلك ستكون مستقلًا.»

«كلٌّ منا ينظر إلى الأمور من منظور مختلف يا بارني. وإني لأرى ذلك أسوأ صور التبعية. هذا كرم كبير منك، ولكنه مُحال، كما أنك لم تفكر في خطر أن أصبح مجرد مقلد لك؛ ظِل للمتفرد الجديد. لا يمكن أن أخاطر بأن أكون كذلك، كما تعلم.»

«أن تكون ظلًا لرجل واحد أفضل من أن تصبح ظلًا لكثيرين، وهذا ما أنت عليه الآن.»

«ربما أكون كذلك بالفعل؛ ولكن على كلٍّ منا أن يهتم بشئونه بطريقته الخاصة. إلى اللقاء يا بارني.»

هبط هالديمان الدرج دون أن يشعر بالبهجة من فيض الود والجود الذي أبداه هوب كما كان متوقعًا. وعلى الدرج التقى بوالدة بارني التي رمقته من قمة رأسه حتى أخمَص قدمَيه بنظرة استهجان. فلم تكن الأم راضيةً عن الرفقة المنخرط فيها ابنها، وكانت تخشى أن يكون تأثيرهم عليه ضارًا.

صاح بارني عندما دخلت والدته قائلًا: «أماه! لم أتوقع حضورك اليوم. ما رأيكِ في المكان؟»

رفعت الأم نظارتها اليدوية إلى عينَيها وأخذت تتفحص الغرفة في صمت.

وأخيرًا قالت: «هذا هو المرسم إذن يا برنارد. لا يعجبني كثيرًا. لمَ كلٌ شيء مهمل وغير منظم هكذا؟ أم لم يكن لديك ما يكفي من الوقت لترتيبه؟»

«تلك هي المتعة بالنسبة إلينا نحن الفنانين يا أمي. إنه مرتب هكذا، وسيظل هكذا دومًا.»

«إنه لا يعجبني إذن. لماذا لم تُحضر أحداً ليفرش لك سجادةً كما ينبغي؟ وكل هذه البُسُط مبعثرة بهذه الطريقة الفوضوية، وقد يتعثّر بها أحد. وما الغرض من قطعة الحديد البالية التي هناك؟»

«إنها درع يا أماه.»

«أوه، حقّاً؟ لا أعرف كيف يمكن لأحدٍ أن يؤدي أي عمل مفيد في مكان مثل هذا، ولكني أعتقد أنه مناسب تماماً للرسم، لقد عثرتُ عليه بسهولة. فلا شك أن سكان أي حي يعلمون جيداً أين يُمارَس أي حُمقٍ جديد يُضاف إليه. لا شك أنك تعرضت للاحتيال في كل ما اشتريت. ولكن هذا لا يهمني من قريب أو بعيد. لقد جئت للتحدُّث معك عن الشركة.»

«أي شركة تقصدين يا أمي؟»

«أي شركة؟! أقصد الشركة بالطبع. شركة والدك وشركتك، فلديّ أمل في أن يأتي الوقت الذي يزداد فيه اهتمامك بها عمّا هو عليه الآن. يبدو أن العمال ينوون الدخول في إضراب.»

«يا لهم من متسولين حمقى! ما السبب الذي يدفعهم إلى ذلك، وماذا تتوقعين مني أن أفعل؟ آمل أنكِ لا تتوقعين مني أن أتحدث إليهم؛ فأنا أبغض طبقة العمال. فهم عادةً ما يكونون حمقى، وإلا فما عملوا مقابل هذه الأجور الهزيلة التي يتحصّلون عليها. ثم يُنفقون ما يجنون من مالٍ على البيرة الرديئة، ويعودون إلى منازلهم ليضربوا زوجاتهم. لا يمكنني أن أتحدث بالمنطق مع العمال، كما تعلمين، يا أمي.»

«لا، لا أعتقد أنك تستطيع ذلك. بل وأشكُّ في بعض الأحيان أنك تستطيع التحدُّث بالمنطق مع أي شخص. إن كدح هؤلاء العمال هو ما يمكّنك من قضاء وقتك عاطلاً في مكان كهذا. هناك أشخاص كثيرون

يستحقون بين الطبقات العاملة، وإن كان غالباً ما يكون من الصعب العثور عليهم. لقد وضع العمال بعض المطالب التي لن يكلّف سارتويل، مدير الشركة، نفسه عناء سماعها حتى. ويبدو لي أنه لا يتحرى العدل في تعامله معهم. كان يجدر به، على أقل تقدير، الاستماع لِما يريدون قوله، وإن لم تكن مطالبهم ستكلّف الشركة أي شيء، فلا بأس من تلبيتها.»

صاح الشاب متحمساً: «أي عقلية إدارية تلك التي تملكينها يا أمي!»

ردت عليه السيدة بفخر مبرر: «لقد نشأت في عائلة حقّقَت الثراء عبر امتلاك عقليات إدارية متميزة. ما أريد منك أن تفعله الآن هو أن تقابل هذا المدعو سارتويل؛ فلا شك في أنه سيوليك اهتمامه لأنه يعلم جيداً أنك ستصبح في وقتٍ ما وليّ نعمته؛ ومن ثم سيتعامل معك باحترام.»

قال بارني مشككاً في كلامها: «لست واثقاً من هذا. ظني أنه يراني مجرد أحمق.»

«حسناً، حانت فرصتك إذن لكي تريه أنك لست كذلك، هذا إن بلغت به الوقاحة أن يفكر فيك بهذه الطريقة. لا بد أن تقابله في منزله وليس في المكتب، هذا عنوانه. أخبره بأن يلتقي العمال وأن يتوصل معهم إلى حل وسط. أخبره بأن يقدّم تنازلات غير مهمة، وهكذا سيتوصل إلى تسوية. الأمر لا يحتاج إلا لقليل من الكياسة والذكاء.»

«مني، أم من سارتويل يا أمي؟»

«من كليكما. إنني أتوقع الكياسة منك لأنك ابني.»

«ولكن، لمَ لا يتحدث أبي إلى سارتويل؟ أنا لا أعلم شيئاً عن الشركة، على النقيض من أبي؛ يبدو أنها تقع في نطاق اهتماماته تماماً، أليس كذلك؟»

«إن والدك يا برنارد رجل جبان، ويخاف من مدير شركته بالفعل. إنه يرى أن ذلك يُعد تدخلًا في إدارة الشركة ولا يريد أن يتطفل، على حد قوله، كما لو أن اهتمام المرء بشئونه يُعد تدخلًا! إنه يخشى أن يستقيل سارتويل، ولكن هذا الرجل يعرف مصلحته تمامًا. سأخاطر بإقدامه على الاستقالة، وأريد منك أن تقابله في منزله؛ فلا طائل من محاولة إشراك والدك في هذه الأمور.»

«لا تعجبني هذه المهمة يا أمي، إنها تبدو تدخلًا بالفعل.»

رفعت السيدة هوب نظارتها اليدوية إلى عينَيها مرة أخرى من حاملها الطويل المنقوش على هيئة قوقعة السلحفاة، وأخذت تتفحص المرسم مرةً أخرى.

ثم قالت بنبرة لا تحمل أي تحيز: «لا بد أن هذا المكان قد كلفك الكثير من المال يا برنارد.»

أقر الشاب بصحة قولها: «نعم.»

«ظني أني سأُضطر لأن أكتب لك شيكًا آخر عما قريب. بكم تريده؟»

رد عليها الشاب قائلًا: «من المؤسف أنني أُزعجكِ دائمًا هكذا يا أمي؛ لذا من الأفضل أن تكتبي هذه المرة ثلاثمائة.»

قالت الأم وهي تنهض من جلستها: «حسنًا إذن، ستجد الشيك جاهزًا من أجلك عندما تعود إلى سربيتون بعد أن تزور سارتويل في ويمبلدون. إنه في طريقك، كما تعلم.»

«حسنًا يا أمي. ولكن يجب ألّا تلوميني إن لم أنجح في مهمتي. سأبذل قصارى جهدي، ولكن سارتويل ليس سوى متسول أخرق من الصعب التعامل معه.»

أجابته السيدة وهي تنهض: «كل ما أطلبه منك يا برنارد هو أن تبذل قصارى جهدك.»

الفصل الخامس

بعدما انصرفت السيدة هوب، جلس بارني على أريكة فخمة في مرسمه وهو يفرك ذقنه في تأمل.

وقال لنفسه: «لا بد أن أحصل على هذا الشيك في أسرع وقت ممكن. لا طائل من تأجيل الأمور المهمة، كما أن التأجيل قد يضر بالمخطط الذي تحيكه أمي في رأسها. خيرًا فعل أبي أن طلب مني ألّا أخبر أمي بأمر الشيكات التي يعطيها لي. وما بين الاثنَين، يمكنك أن تدبِّر أمور معيشتك يا صديقي بارني. حسنًا، إلى ويمبلدون إذن!»

هندم الشاب نفسه ببعض العناية، وركب عربةً ذات حصان، وقادته إلى محطة ميدان سلون، حيث جاء قطار في موعده بالضبط أقله إلى ويمبلدون.

لو كان بارني رجلًا عميق الفكر، أو لديه خبرة بعادات وطرائق العمال، أو كان قادرًا على الاستنباط، لتوصل إلى حقيقة أن فرصة عثوره على السيد سارتويل في منزله في هذا الوقت من اليوم؛ معدومة. ولكن لا يجدر بنا أن نفترض أن بارني شخص منعدم الفكر؛ فعندما أخبرته الخادمة بأن السيد سارتويل لا يكون متواجدًا في المنزل أبدًا إلا في المساء أو الصباح الباكر، اتهم بارني نفسه في الحال بالرعونة لأنه اضطُر لقطع الطريق من تشيلسي إلى ويمبلدون ليكتشف حقيقةً بديهيةً للغاية كتلك. ومن ثم اعترف لنفسه بأنه كان قادرًا على التفكير في الأمر قبل أن يتصرف، لو أن عقله لم يُغش بالتفكير في الشيك المنتظر.

لم يكن بارني ممّن يستوعبون التفاصيل المفاجئة بسرعة، فظل واقفًا على عتبة الباب لا يعرف ماذا عليه أن يفعل بعد ذلك، في حين ظلت الخادمة تراقبه بنظرات شكٍّ واضحة، متسائلةً عمّا إذا كان قد أتى لبيع شيءٍ ما، أو فقط ليطلب تحصيل قيمة اشتراكٍ ما، إلا أن حقيقة أن هناك عربةً تنتظره أمام بوابة حديقة المنزل طمأنتها من ناحيته قليلًا؛ لذا قطعت الصمت قائلة:

«هل تريد أن تترك له أي رسالة يا سيدي؟»

تجاهل بارني هذا السؤال، الأمر الذي جعله يعلو في نظر الخادمة، وغامرت بأن تُكوِّن في نفسها رأيًا دقيقًا تمامًا عنه:

«أعتقد أنه لن يعود للمنزل قبل بضع ساعات، أليس كذلك؟»

«بلى يا سيدي.»

فكّر بارني لبرهة، وفجأةً اتخذ قراراً يدل على فطنته وحسن تقديره.

قال بارني: «لن أنتظر إذن.»

سألته الخادمة: «ما الاسم الذي عليّ أن أخبره به يا سيدي؟»

«لا عليك، لا يهم. سأعود مرةً أخرى، ولكن ها هي بطاقتي. أنا ابن السيد هوب، أحد مالكَي الورش.»

أخذَت الخادمة البطاقة، وظهرت السيدة سارتويل في الردهة، كما لو كانت تتنصّت على كلمات الزائر، الأمر الذي كان لديها كل الحق لفعله بالطبع؛ فالمرء عمومًا يرغب في معرفة من يطرق باب منزله.

سألت السيدة سارتويل: «هل سمعتك تقول إنك السيد هوب؟»

قال بارني في تواضع وبذلك التهذيب الذي اكتسبه في باريس: «بل ابنه يا سيدتي.»

«هلّا تتفضل بالدخول؟ معذرة، إن زوجي ليس في المنزل. هل أتيت لتتحدث معه بشأن الإضراب؟ أنا في غاية القلق والانزعاج. لقد أتت والدتك لزيارتي بالأمس، ودار بيننا حديث طويل عن هذا الأمر.»

«نعم، إن والدتي تهتم كثيراً بالعمال، ولكن لا يمكنني القول إن لديّ الاهتمام ذاته بأمرهم. كل ما أردته أن أتحدث إلى السيد سارتويل عن الأمر بصورة غير رسمية؛ ولهذا السبب أتيت لزيارته في المنزل وليس في المكتب.»

دخل بارني إلى الرّدهة، وظل ممسكًا بقبعته في يده ليخبر مُضَيفته بأن ثمّة عربةً تنتظره. فلم يكن ينوي أن يبقى إلا بضع لحظات. كان يعتقد أن من الأفضل أن يحصل على أي شيء ليخبر به والدته عن زيارته لويمبلدون؛ فقد كانت محقّقًا لا يرحم، وإذا استطاع خوض حديثٍ يمكنه أن يبلغ به والدته، فقد تقدّر له حسن نواياه وتعطيه الشيك.

فُتح باب غرفة الضيوف، وعندما دخلاها وجدا إدنا سارتويل جالسةً في مقعدٍ وثيرٍ غارقةً حتى أذنَيها في قراءة كتاب، حتى إنها لم تسمع كلمةً من الحوار الذي دار عند مدخل المنزل. نهضَت إدنا مرتبكةً بعض الشيء، وقد احمرّ وجهها بشدة لدى رؤيتها رجلًا غريبًا يدخل الغرفة برفقة زوجة أبيها. لم تقل الأخيرة شيئًا للفتاة، ولكنها رمقتها بنظرة، تكاد تنطق، تخبرها بأن تغادر الغرفة.

كان أول ما دار بخَلَد بارني عندما رأى إدنا أنها على وَشْك الهرب من الغرفة، ولا بد أن يحاولَ مَنْع هذا الفرار بطريقةٍ لبقة. كان العبء الأكبر الذي يُثقل كاهل بارني في الحياة، كما كان يخبر أصدقاءه كثيرًا، أن الفتيات في إنجلترا كُنّ يسارعْنَ دائمًا للفت انتباهه إليهن،

الأمر الذي جعل هالديمان يقول له ذات مرة إنهن قادراتٌ على أن يكتشفْنَ سريعًا النقطة الأضعف في دفاعاته. أما في هذه اللحظة، فثمّة فتاة «مذهلة»، على حد وصف بارني لها، توشك أن تغادر الغرفة دون حتى أن تُعيد النظر نحوه. وشيمة الشباب الانجذاب لغير المألوف.

قال بارني بأسلوبٍ ساحرٍ للغاية: «هل هذه ابنتكِ يا سيدة سارتويل؟»

أجابته السيدة ببرود: «بل ابنة زوجي.»

غمغم بارني في رقة: «آه، فكّرت بالفعل أنه من المستحيل أن يكون لكِ ابنةٌ بالغة.» كان بارني يجد دائمًا أن هذا النوع من المجاملات يحقق نجاحًا باهرًا مع النساء اللاتي تخطّين منتصف العمر، ولم يخب ظنه هذه المرة أيضًا.

استطرد بارني قائلًا: «لا تتركي الغرفة بسببي يا آنسة سارتويل.» وأضاف، عندما أدرك أن السيدة سارتويل لا تنوي تقديمه لإدنا: «أنا برنارد هوب، وقد أتيت للقاء والدك والتحدث إليه بشأن الإضراب. وكما تعلمين، هذا الموضوع يمسنا جميعًا، وأرجو منكِ أن تشاركينا اللقاء.»

بمجرد أن ذكر بارني والدها والإضراب، أدرك أنه استرعى انتباه الفتاة، التي توقفت ونظرت إلى زوجة أبيها. ووقعت تلك السيدة الحائرة في مأزق. فلم تكن ترغب في إغضاب ابن السيدة هوب، ولم تكن تريد أن تبقى ابنة زوجها في الغرفة. فتردّدت للحظةٍ ثم صمتت.

قال بارني بتلك الشهامة التي لطالما وجدها عصيةً على المقاومة: «اسمحي لي بأن أدعوكِ للجلوس في غرفة ضيوفك، وأنتِ أيضًا يا سيدة سارتويل. سنتبادل الآن حديثًا خفيفًا غير رسمي، والذي أعلم يقينًا أنه سيُفيدني كثيرًا عندما أتحدّث إلى السيد سارتويل؛ إذ لا أُخفي عليكما أنني أخشاه إلى حدٍّ ما.» اتسعَت عينا إدنا لدى سماعها حديثه ذاك؛ فكثيرًا ما

سمعت الناس يقولون إنهم يتهيّبون والدها، ولكنها لم تستوعب قط سبب ذلك.

جلسَت السيدة سارتويل منتصبة الظهر عاقدةً يدَيها في حِجرها، وكانت تعبس في وجه ابنة زوجها، كلما سنحَت لها الفرصة لذلك دون أن يراها بارني. لم يعجبها على الإطلاق المنحى الذي اتخذته الأحداث، إلا أنها لم تجد طريقةً للتدخل دون أن تبدو وقحةً مع ضيفها.

قال بارني بصوتٍ مبتهجٍ ومرح: «كما تعلمان، تهتم أمي كثيراً بالعمال، وكذلك أنا.» كان يظنّ أن مشاعره النبيلة تلك ستروق لإدنا سارتويل. «وأعتقد أن علينا جميعاً — جميعنا — إذا صح التعبير — أن يكون لدينا درجةٌ من الإحساس بالمسئولية تجاههم. هل تفهمين ما أقصد يا سيدة سارتويل؟»

ردّت عليه السيدة التي وجّه السؤال إليها قائلة: «بالطبع. وسيعود الفضل إليك في ذلك يا سيد هوب»، ولكنها نطقت العبارة ببعض الحدة، كما لو كان ما تقوله كذباً.

«أوه، لا، على الإطلاق. أعتقد أن هذه طبيعتي. فظني أنه من الطبيعي بالنسبة إلى كل من نشأ نشأةً صحيحة أن يراعي إخوانه من البشر. ألَا ترين ذلك يا آنسة سارتويل؟»

قالت إدنا بصوت خافت دون أن ترفع بصرها نحوه: «بلى.»

صاح بارني وقد تملّكته حماسة مَن توصل إلى اكتشاف مذهل: «والعمال «هم» إخواننا في الإنسانية.»

قالت السيدة سارتويل بنبرة حزينة: «هل تعني أننا حراس إخواننا؟»

وافقها بارني، معتبراً مقولتها تلك مقولةً مبتكرة، قائلاً: «بالضبط، بالضبط. ما كنت لأجد تعبيراً أنسب من ذلك عن الموقف، ولو قضيت

اليوم بأكملِه أفكر. تصوّرَت أمي أنه ربما يوافق السيد سارتويل على لقاء العمال ومناقشة الأمر معهم، مع تقديم بعض التنازلات البسيطة، وحينئذٍ سيُصبح كل شيءٍ على خير ما يرام. هل تفهمان ما أعنيه؟»

تنهّدت السيدة سارتويل وقالَت: «يبدو اقتراحًا معقولًا للغاية، ولكن لا قيمة لرأيي، ولا سيّما في منزلي.»

«لا تقولي ذلك يا سيدة سارتويل. أنا واثقٌ من أن الجميع يُقدِّرون رأيكِ كل التقدير؛ كل من يحالفه الحظ ويسمعه. أؤكد لكِ أنني أقدِّر رأيكِ تمامًا. والآن، ما رأيكِ يا آنسة سارتويل؟»

ابتسم الشاب في وجه الفتاة بطريقته الساحرة، إلا أن تعبير وجهه الساحر هذا ضاع هباء؛ فقد كانت إدنا تنظر إلى السجادة، وقد بدَت مرتبكة.

وأخيرًا قالت: «أعتقد أن أبي، الذي يقضي جل وقته تقريبًا في التعامل مع العمال، يفهم الوضع أفضل منا. إنه يمتلك خبرةً كبيرة في التعامل معهم، وحسب علمي أنه فكّر في هذه المشكلة كثيرًا؛ ومن ثم يتراءى لي أن نصيحتنا لن تكون ذات قيمةٍ فعليةٍ له.»

تمكّن بارني بالكاد من كتم صافرة إعجابٍ طويلة. هكذا الأمر إذن. هذه الآنسة الخجول لها رأيٌ خاص بها، وكان يبدو جليًا أنها ستُناصر والدها في مواجهة الجميع. حتى هذه اللحظة، كان الجميع يوافقون بارني الرأي، ما عدا أولئك الطلبة الأوغاد بالطبع، الذين لا يُقدِّرون الناس حقّ قدرهم، والأهم من ذلك أن جميع النساء يوافقْنَه الرأي؛ لذا كان لهذه المعارضة المحدودة، والتي كان التعبير عنها مهذبًا للغاية، نكهةٌ جديدةٌ منعشة. لقد تغيّر اتجاه الرياح، وعليه أن يعدِّل أشرعته لمُواكَبتها.

«بالفعل يا آنسة سارتويل، لقد وضعتِ يدكِ على نقطة الضعف في قضيتنا. هذا بالضبط ما قلته لأمي. قلت: «إن السيد سارتويل هو المسئول، ولا بد من أنه ملمٌّ بالأمور.» بنفس الكلمات التي قلتِها للتو تقريبًا يا آنسة سارتويل.»

سكن جبينَ السيدة سارتويل سحابةٌ من التجهُّم والعبوس.

وقالت بحدّة: «لا شكّ في أن مُلّاك الشركات لا بد أن يكون لهم رأيٌ في طريقة إدارتها.»

صاح بارني بمرح ملوحًا بيده: «يبدو أن نزعة العصر الحديث تسير في الاتجاه المعاكس تمامًا يا سيدتي العزيزة. يبدو أنها تتجه نحو فكرة أن ملاك الشركات لا بد أن يكونوا الأقل مشاركةً في إدارتها من بين «جميع» مَن تحقّ لهم المشاركة. ولست واثقًا من صحّة ذلك، ولكنه منطقيٌّ إلى حدٍّ ما. كنت أسمع والدي يقول دائمًا إن السيد سارتويل هو المؤسس الحقيقي للشركة. فلمَ يتدخّل في عمله إذن؟» رفعت إدنا رأسها ونظرَت إلى الشاب المتحمس بامتنان؛ فلم تعجبها المشاعر التي بدأ في التعبير عنها فحسب، بل أعجبَتها أيضًا النبرة الرجولية في صوتِه. لطالما وجد بارني أن هذه النبرة جذابة للغاية، ولا سيّما مع الفتيات الصغيرات القليلات الخبرة، وكان يعرف أنه يبدو في أفضل حالاته عندما يعتمد هذه النبرة، إذا لم يكن أيٌّ من أصدقائه المولعين بالانتقاد حاضرًا. حتى إنه كان يستطيع أن يتظاهر بالاستياء الشديد، إذا كان الحضور متعاطفًا، وكان متحرِّرًا من التأثير المفسد للشباب المتشائمين الذين التقاهم في بوهيميا.

«والآن يا آنسة سارتويل، إليكِ اقتراحي. تحدثي إلى والدك، ثم إذا سمحت لي السيدة سارتويل بالطبع، فسأحضر لزيارتكم مرةً أخرى، ويمكنني أن أحكم ممّا ستقولين لي إذا ما كان الأمر يستحقّ عناء إزعاج

السيد سارتويل بنصائحنا. نحن جميعًا لدينا هدفٌ واحد؛ وهو الرغبة في مساعدة السيد سارتويل إذا استطعنا لذلك سبيلًا. وإذا لم نتمكّن من مساعدته، فلا ضير من ذلك. هل تفهمين ما أعنيه؟»

وافقَت السيدة سارتويل على ذلك على مضض. ولم تقُل إدنا شيئًا.

«ربما تعلمان يا سيدتيّ أنني فنان؛ رسام لوحات. وأعمل، إن جاز التعبير، في الماضي والمستقبل. فلا أشعر بأني أنتمي إلى الحاضر، وإلى تلك التفاصيل التافهة التي أعلم أن من المفترض أن أتركها إلى أولئك الذين يعلمون كيفية التعامل معها. وأخبرت والدتي بذلك. ولكن سواء تمكّنا من مساعدة السيد سارتويل أم لم نتمكن من ذلك، لا بد أن تسمحا لي بأن أشكركما على الوقت الرائع الذي قضيته معكما عصر اليوم. إن لديّ مرسمًا في تشيلسي. ويُقال إنه الأجمل في لندن، ولكني لا أهتم كثيرًا بما يُقال عنه؛ فهو بالنسبة إليّ مجرد مكان للعمل. ولكن حتى حياة الفنانين لا تخلو من بعض مظاهر الترويح والاستجمام، وعصر الثلاثاء من كل أسبوع، من الثالثة حتى الخامسة، أكون في المنزل للقاء أصدقائي. وعادةً ما تكون أمي هي من يستقبل ضيوفي، وعليكِ أن تعديني بالحضور يا سيدة سارتويل، هلّا تفعلين؟ سأُرسل لكِ الدعوات، وثقي بأنكِ ستلتقين بأشخاصٍ رائعين. هل تعدينني بالحضور؟ أنا واثقٌ من أن أمي ستُسرُّ بحضورك.»

قالت السيدة سارتويل وقد لانَت تحت تأثير لُطف هذا الشاب: «يُسعدني أن أقبل دعوتك.»

«وماذا عنكِ يا آنسة سارتويل؟»

نظرت إدنا بريبةٍ إلى زوجة أبيها.

فقال الشاب في إصرار: «ستُحضرين الآنسة سارتويل معكِ، أليس كذلك؟»

قالت السيدة سارتويل بنبرةٍ أقل ودًا قليلًا: «يسعدني دائمًا أن أفعل أيّ شيء لإسعاد إدنا، ولكن الرأي رأي والدها.»

«عليكِ إذن أن تمارسي تأثيركِ عليه يا آنسة سارتويل، وتحصلي على موافقته. أنا واثقٌ من أنه لن يرفض طلبكِ إذا كنت مهتمةً بالحضور.»

قالت إدنا: «سيُسعدني كثيرًا أن أحضر.»

«إذن سنعتبر الأمر محسومًا.»

عندما ركب بارني العربة التي تنتظره، قال لنفسه: «آه يا بارني، ها أنت تُعمل ذكاءك وحِنكتك في المواقف الشائكة كالمعتاد. يا لها من فتاةٍ رائعة! ولها فكرها الخاص أيضًا، وإن كانت خجولةً للغاية. مَن كان يتوقّع أن سارتويل العجوز العابس لديه ابنةٌ بهذا الجمال. لا بد أن أقنع أمي بالتخلّي عن تركيزها عن تلك القضية؛ فمن الجلي أن الفتاة لا تريد أن يتدخّل أحدٌ في شئون والدها وإدارته للموقف. وإذا تمكّنت من إقناع أمي بذلك والحصول على الشيك أيضًا، فأنا إذن دبلوماسيٌّ بارع.»

الفصل السادس

لم تكن المسافة بين ويمبلدون وسربيتون كبيرةً نسبيًا. فيمكن لقطار هُمام، عازم على إنجاز هذه المهمة الفذة، أن يقطع تلك المسافة في خلال سبعِ أو ثماني دقائق، وحتى أبطأ القطارات «المحلية» لا يستغرق أكثر من اثنتَي عشرة دقيقة. كان بارني شابًا مفعمًا بالنشاط والحيوية؛ وحيثما كان الأمر يتعلق بشيك، كان يدرك عواقب التأخير؛ لذا قرر، بما أنه قريب من سربيتون، أن يذهب لزيارة والدته ويسوّي المسألة. كان الشاب غالبًا ما يُطمئن نفسه بأن يقول بداخله إنه ليس غبيًا، ومكّنته الدقائق القليلة التي استغرقها في تأمل الموقف، بينما كان يقطع الرصيف رقم ثلاثة جيئةً وذهابًا منتظرًا القطار، من وضع خطة.

كان عقل بارني يعمل بطريقةٍ مرتبةٍ كانت تُمكّنه من التخطيط للحصول على أي شيءٍ يريد. فقد اعتاد أن يقول: «أفضل شيءٍ يا بني أن تعلمَ جيدًا ما تريد؛ ومن ثم تحاول الحصول عليه.» وفي أثناء محاولة الحصول على ما يريد، كان الشاب يطأ بقدمَيه أي شيءٍ يعترض طريقه: كالحقيقة على سبيل المثال. فكان هدفه الوحيد هو تحقيق النجاح؛ النجاح الحقيقي الذي يصل به إلى أهدافه. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية، لم يكن يهتم بالوسيلة.

في هذا الموقف، كان بارني يريد منع أي تدخّل في عمل سارتويل، وكان يعلم أنه إذا ما امتلك ما يكفي من الشجاعة لاعتراض مخطط والدته، فإن مثل هذه المعارضة ستجلب التدخل الذي كان يرغب في تجنّبه، وفي الوقت نفسه ستضعه هذه المعارضة على القائمة السوداء لدى والدته، الأمر الذي سيضره ماديًا.

قال بارني لنفسه: «سيتطلب الأمر قدراً من التفكير»، ما يدل على أنه قد قدّر الصعوبات المحيطة بالموقف على نحو صحيح، وأدرك مدى قِصَر المسافة بين ويمبلدون وسربيتون.

سربيتون أجمل ضواحي مقاطعة سري وتحظى بخدمة قطارات ممتازة. وهي مكونة من منازل كبيرة، ومنعزلة، من الفئة التي يُطلق عليها في لغة سماسرة العقارات «مطلوبة». ينجذب سماسرة البورصة القادمون من المدينة إلى المكان؛ بسبب خدمة القطارات السريعة والمنازل المطلوبة على حدٍّ سواء؛ ولهذا السبب يعيش الكثير منهم في هذه الضاحية. وقد أضفى التجار وأصحاب المصانع الأثرياء المتقاعدون على المكان طابعًا من الخصوصية لم يكن ليكتسبه مطلقًا، لو كان مجرد منتجع للنبلاء، أو مكان لإيواء الطبقات العاملة. فالتجار الأثرياء والمتقاعدون هم من أعطَوا إنجلترا سُمعتها كبلد بارد ومهيب. ولا شيء يضاهي ركوب عربات القطار ذات الدرجة الأولى من سربيتون المعزولة — «باستثناء فوكسهول ووترلو فقط» — التماسًا للخصوصية الجافة. ففي بعض الأحيان، قد يصادف دوق أو ماركيز تعس الحظ آتٍ من ضيعته في جنوب غرب البلاد مباشرة؛ مجموعةً من سكان سربيتون ويُعلّق تعليقًا بريئًا وودودًا. ولكنه يتجمّد في صمتٍ عندما يصطدم بتلك النظرات الباردة من ركاب العربة الخمسة الآخرين.

تبدو سربيتون، في نظر الغرباء، مكانًا ساحليًا. فبعض شوارعها واسعة ومُقسّمة بمتنزهات ضيقة مُسيّجة. ثمة مقاعد متناثرة هنا وهناك، والأشجار منتشرة في كل مكان، وتوجد قاعة مؤتمرات في وسط المدينة، كما يقام عرض بحري على النهر، ويُقام حفل موسيقي وعرض للموسيقى العسكرية مساء كل أربعاء خلال شهور الصيف، وأضفى كل هذا على الضاحية طابع المنتجع الساحلي، ولم يكن ينقصها سوى ذلك الرصيف الطويل الشبيه بأرجل العنكبوت المصنوع من الحديد الزهر،

والذي قد تبنيه سربيتون على ضفة النهر على حدائق قصر هامبتون كورت التي تشبه مياه البحيرة فيها، في فصل الربيع، محيطًا شاسعًا أصفر اللون. عندما يُبنى هذا الرصيف، من المؤكد أن رسوم الدخول ستصل إلى أربعة بنسات؛ أي ضعف رسوم دخول برايتون؛ إذ تميل سربيتون إلى التأكيد على خصوصيتها بطريقة تروق لخيال أصحاب الأموال. فهي تفخر بحقيقة أن أسعارها المحلية مرتفعة. ويجري انتخاب لجنة تطوير سربيتون للإشراف على تنفيذ هذا المخطط، ولضمان أن تكون تكلفة تذكرة الموسم من الدرجة الأولى تفوق أي مكان آخر يبعد المسافة نفسها عن لندن بجنيهين.

كان منزل عائلة هوب ضخمًا، ومربعًا، وأصفر اللون، وعتيق الطراز إلى حدٍّ ما — كانت عبارة «قصر مهيب» هي ما استرعى انتباه السيدة هوب في جريدة «تايمز» قبل أن تحث زوجها على شرائه — وكان مبنيًا على أرض مترامية الأطراف كثيفة الأشجار. استقل بارني إحدى عربات الحنطور المفتّحة الأبواب، المصطفة في المحطة لاستئجارها، وهي فئة من المركبات تضيف إلى المظهر الساحلي لسربيتون.

طلب بارني من السائق أن ينتظر، وصعد الدرج مهرولًا حتى وصل إلى باب المنزل وطرقه؛ إذ لم يكن للباب الأمامي جرس كأحد مظاهر الحداثة. وجد بارني والدته جالسةً في غرفة الضيوف ومعها صديقتها ليدي ماري فانشو، التي حضرت من منزل والدها الريفي في نواحي دوركينج. كانت ليدي ماري فتاةً جميلة وخجولة نوعًا ما؛ فقد تخضّب وجهها بحمرة جميلة عندما دخل بارني الغرفة، وكانت تُكن إعجابًا كبيرًا بأعمال الشاب الفنية السابقة التي لم تحصل على ما تستحق من التقدير، وكان إعجابها ببارني الرسام يفوق إعجابها ببارني صاحب المصنع. ولم يعترض والدها على التعارف بين عائلته وعائلة هوب، بعدما تأكّد يقينًا

من أن ملكية بارني لمرسمٍ لن تتعارضَ بأي حالٍ من الأحوال مع انتقال ملكية المصنع المُربِح إليه في نهاية المطاف.

صاح الشاب وهو يصافح الفتاة: «كيف حالكِ يا ليدي ماري.» وأضاف مخاطبًا والدته: «كيف حالكِ يا أمي؟» وقبّلَ وجنتها.

قالت الأم وقد لاحت لمحة من الحِدة في نبرة صوتها: «بارني، لم أتوقع رؤيتك في سربيتون بهذه السرعة. لقد اعتقدت أنك ستعكف على أداء المهمة التي أوكلتها لك.»

واصل الشاب حديثه في مرح وهو يدفئ يدَيه على نار المدفأة: «لقد أتممت المهمة يا أمي. أنا لا أؤجل عمل اليوم إلى الغد؛ إلا أني لا أعني أن اليوم مناسب لأداء أي عمل.» وأردف مخاطبًا ليدي ماري: «الطقس فظيع»، وأيّدت عبارته المقتضبة.

«نعم يا أمي؛ إن شعاري هو إذا كان ثمّة عمل يستحق الأداء، فهو يستحق أن يُؤدى بسرعة — فما يُنجَز سريعًا، يُنجز مرتَين — أعتقد أن ثمّة مثلًا يُعطي هذا المعنى، كما تعلمين. وإذا لم يكن ثمّة مثل بهذا المعنى، فلا بد من إيجاده.»

نهضت ليدي ماري لتغادر الغرفة؛ إذ بدا جليًا أن ثمّة نقاشًا سيدور بين الأم وابنها.

قالت السيدة هوب: «اجلسي يا صغيرتي. لن نتحدث عن أمور خاصة. عمال «المصنع» ينوون الإضراب عن العمل. ومدير المصنع رجل عنيد ومستبد برأيه، لا يتورع حتى عن إرهاب موظفيه ...»

قاطعها بارني، الذي كان في هذه اللحظة واقفًا موليًا ظهره إلى النار، وقد باعد بين ساقَيه على سجادة المدفأة، قائلًا: «أدعو ذلك تنمرًا.»

واصلت الأم حديثها بهدوء دون أن تولي أي اهتمام لتعقيب ابنها: «لذا، يبدو لي أن هذا الرجل، المفتقر تمامًا إلى الكياسة، قد لا يهتم بما يشعر به مرءوسوه. جميعنا ملزَمون بواجبات تجاه الطبقة العاملة، ولكنها، للأسف، حقيقة ينساها كثيرون على ما يبدو.»

قالت ليدي ماري بصوتٍ خافت، وقد خفضت بصرها، إن هذا صحيح بالفعل.

«هل التقيت السيد سارتويل إذن يا برنارد؟»

«نعم، التقيت سارتويل، وتحدثت إلى بعض الرجال ... أقصد مع ... مع الزعماء.»

«تقصد القادة يا برنارد.»

«نعم، شيء من هذا القبيل. لا أدعي أنني أفهم طبقة العمال اللعينة تلك، كما تعلمين، إلا أن ثمّة الكثير من المنطق في حديثهم. إنهم يعون تمامًا ما يريدون.»

«وهل وجدت السيد سارتويل عنيدًا؟»

«لا، باركك الرب، لا يا أمي. إن سارتويل هو أكثر رجل عقلاني قابلته على الإطلاق.»

«حقًا؟ لم يخطر ببالي قط أن أُصنّفه ضمن هذه الفئة.»

«ربما كنتِ مخطئةً بشأن سارتويل يا أماه؛ فلن تجديه يعترض طريقك على الإطلاق. إنه على أُهبة الاستعداد لفعل أي شيء تريدين فعله. «بارني يا بني»، هكذا قال لي عندما أخبرته بتصوركِ بشأن هذه المشكلة: «بارني، رغم كل ما قيل وتم، فهذا شأن يخص النساء أكثر ممّا يخصنا».»

وقفت السيدة هوب ناصبةً قامتها في شموخ وحدة وقالت: «شأن يخص النساء! هل أفهم من حديثك يا بارني أن هذا الرجل يقصدني أنا والسيدة مونكتون؟»

«حسنًا، لقد كنا نتحدث معًا بانفتاح، رجلًا لرجلٍ يا أمي ... و... تبًا! إنك تعلمين أنه شأن يخصكِ والسيدة مونكتون أكثر ممّا يخص مونكتون العجوز ووالدي؛ فأنا لا أعتقد أنهما يوليان الأمر الكثير من الاهتمام.»

رفعت السيدة هوب نظارتها إلى عينَيها ببطء، وحدّقت في ابنها الذي كان في تلك اللحظة ينظر إلى سجادة المدفأة، مرتكزًا بثقل جسده على أصابع قدمَيه تارةً، ثم يعود للوقوف على كعبَيه تارةً أخرى.

«ليس لديّ أدنى فكرة عمّا تتحدث عنه يا برنارد.»

«أنا أتحدث عن الإضراب المُقترح يا أمي، عن مطالب العمال.»

«تقصد التماساتهم يا بني. إن العمال يلتمسون لقاءً مع السيد سارتويل، وهو يرفض ذلك، كما لو كان رئيسًا للوزراء.»

«هذا تحديدًا ما قلته للسيد سارتويل. قلت له: «سارتويل، أنت تعامل العمال باستعلاء.» وأقر بذلك دون مواربة، ولكنه يعتقد أنه إذا اجتمع بالعمال، فلن يجديَ ذلك أي نفع إلا إذا خضع لمطا... لالتماساتهم.»

«كان بإمكانه أن يتوصل لحل وسط؛ كان بإمكانه تقديم بعض التنازلات وكان كل شيء سيسير بسلاسة مرةً أخرى. إنه لا يملك أي كياسة.»

«صدقت، هو كذلك بالفعل. ولكن العمال يريدون شيئًا واحدًا فقط، وليس الكثير. ومطلبهم منطقي تمامًا؛ لقد تحدثت إليهم وشعروا بسعادةٍ بالغةٍ عندما سمعوا أنكِ تناصرينهم. ولن تقع أي مشكلات معهم في

المستقبل إذا ما تعامل سارتويل معهم بعقلانية لا أكثر. إنهم يرون الموقف على النحو الآتي: يعملون عشر ساعات يوميًا ويتقاضون حوالي جنيهًا واحدًا أسبوعيًا ... أو ... آه ... شيء من هذا القبيل ... لقد نسيت المبلغ بالتحديد رغم أنهم ذكروه لي بالشلنات والبنسات. أما أبي ومونكتون فيعملان أربع أو خمس ساعات يوميًا — ودون جد — ويذهبان في الصيف إلى سويسرا وفي الشتاء إلى الجزائر، ويتقاضى كلٌّ منهما من الشركة عشرين ألف جنيه سنويًا. وهذا يراه العمال جوراً، وبالطبع أتفق معهم في ذلك. هذا أمر شائن وجائر، وقلت لهم ذلك. إن العمال على استعداد للتحلي بأقصى درجات السخاء والكرم. لكي يتوصلوا إلى تسوية، سيُوافقون بأن يتقاضى الشريكان عشرة أضعاف ما يتقاضاه العمال المُجدُّون؛ أي إن مونكتون وأبي سيتقاضى كلٌّ منهما خمسمائة جنيه سنويًا من الشركة، وستُقسَّم أربعون ألف الجنيه بين العمال. ورأيت أن هذا العرض سخيٌّ للغاية، وأخبرتهم بذلك.»

خلال هذا العرض البارع لآراء العمال، وإن كان مُلفّقًا، ظلت السيدة هوب تحدِّق في ابنها في دهشة كانت تتزايد مع كل لحظة تمر. وعندما انتهى من حديثه، هبّت واقفة، وبدت، وقد انعقد لسانها من الدهشة وعقدت حاجبَيها، عابسة. وظلت ليدي ماري تتنقل بنظراتها في قلق مشوب بالخوف بينهما. بدا أن ثمّة عقلانيةً جمّة في حُجة الشاب، إلا أن ثمّة أمرًا خاطئًا يشوب هذا العرض.

وأخيراً صاحت السيدة هوب قائلة: «خمسمائة جنيه سنويًا! ... لي أنا!»

«حسنًا ... في الحقيقة هي لأبي ... ولكن لا فارق بينكما بالطبع.»

«خمسمائة جنيه سنويًا! برنارد، لو أخبرني أحدٌ قبل ساعةٍ من الآن أنك أحمق كنت ... خمسمائة جنيه سنويًا! ... كيف يمكن لأحدٍ أن

يدبِّر معيشته بخمسمائة جنيه سنويًا؟»

نظر بارني لأمه مؤنبًا. كان واضحًا أنه قد شعر بالإهانة.

«نفس طريقة كلام سارتويل، وظني أنه أيضًا يعتقد أني أحمق، فقط لأني أحاول أن أستوعب مشكلة العمال. لقد تراءى لي أنه إذا كان بإمكان عامل يعول اثني عشر طفلًا أن يعيش بخمسين جنيهًا سنويًا، فإن زوجَين مسنّين لم ينجبا إلا ابنًا واحدًا، على وَشْك أن يجنيَ ثروةً من الرسم، يمكنهما تدبير أمورهما بعشرة أضعاف هذا المبلغ.»

«لم أعد أُطيق معك صبرًا يا برنارد.»

«قال لي سارتويل، ثم انظر إلى رأس المال المُستثمر ...»

«بالطبع. إنه محق تمامًا، وأي شخص يملك ذرة عقل سيُدرك ذلك. لقد أُنفقت عدة آلاف من الجنيهات على المباني وفي تطوير الشركة. لم يفكر العمال قط في ذلك، ويبدو أنك أيضًا لم تفكر فيه.»

«تعرفين يا أمي أن هذا النوع من العمل لا يستهويني. غير أن ما قاله سارتويل عن الاستثمار جعلني أفكر ...»

قالت أمه متعجبةً في ازدراء شديد: «تُفَكِّر!»

واصل بارني حديثه بهدوء قائلًا: «نعم؛ لذا توجهت إلى العمال لأسمع منهم ما سيقولونه عن هذا الأمر. فقالوا على الفور إن رأس المال قد استُردّ مرارًا ومرارًا. فعدت إلى سارتويل لأرى إذا كان هذا صحيحًا، وقد كان. حسنًا، ثم ...»

«ثم ماذا؟»

«في ظل هذه الظروف، بدا لي أن العمال قد قدّموا عرضًا سخيًا للغاية. إذا رسم لي أحدهم لوحةً يمكنني أن أبيعها مقابل خمسمائة جنيه وارتضى

بأن يأخذ خمسين جنيهًا لقاءها تاركًا لي الأربعمائة والخمسين جنيهًا الأخرى، فسأرى أنه رجلٌ في غاية السخاء.»

«توقّف عن هذا الهراء من فضلك. هل سيلتقي سارتويل بالعمال؟»

«أعتقد أنه سيفعل.»

«عليك إذن أن تعود إلى المدينة على الفور وتخبره بألّا يفعل شيئًا من هذا.»

قال الشاب معترضًا: «ولكن يا أمي ...» جال ببصره في الغرفة في عدم ارتياح، ورأى أن ليدي ماري قد تسلّلت من الغرفة خلسة.

«لا تقل شيئًا. لقد تسبّبت في الكثير من الضرر بالفعل. فلتحاول أن تصلحه.»

«ولكني قلت لك! إنه أمر شاقٌ بالنسبة إليّ يا أمي. عندما وعدتِني بأن تعطيني شيكًا بثلاثمائة جنيه، لم أتخيّل أنه سيكون عليّ أن أرى سارتويل العجوز مرةً ثانية وأن أتراجع عن كل ما قلته له. سيظن حينها أني أحمق.»

«إنه يظنّك ذلك بالفعل. ولكن لا يهم ما يظنّه بك. ما عليك إلا الاهتمام بما سيفعل. عليك أن تقابله على الفور وتُوقف هذا الهراء المتعلق باجتماعه مع العمال.»

هزّ بارني رأسه في كآبة.

وقال: «لا أدري كيف سأواجهه مرةً أخرى يا أمي. أُفضّل أن أخسر شيك الثلاثمائة جنيه.»

«لا شأن للشيك بهذه المسألة. آمل أنك لا تهتم بهذه المسألة من أجل الثلاثمائة جنيه. ولكني سأكتب لك شيكًا بخمسمائة جنيه، إذا كان

ذلك سيرضيك. لا أريد سماع كلمة أخرى عن مسألة الخمسمائة جنيه السنوية تلك. كن متسقًا في أفعالك وكلامك على الأقل يا برنارد.»

«أشكرك يا أمي، سأحاول. وبينما تكتبين الشيك، سأتحدث إلى ليدي ماري قليلًا.»

قالت له أمه وهي تنهض: «حسنًا.» ولم يبدُ أنها انزعجت من طلبه.

عندما عادت الفتاة إلى الغرفة مرةً أخرى، كان وجه بارني مشرقًا للغاية بعد الانتهاء من هذا النقاش المطول.

قالت ليدي ماري بتواضع: «خشيت أن أُعيق مسار حديثكما؛ فأنا لا أعرف الكثير عن العمال.»

قال بارني: «إن قضية العمال قضية شديدة التعقيد، وأخشى أني لست ملمًا بجميع جوانبها أيضًا، ولكنها مثيرة إلى أبعد الحدود، أؤكد لكِ أنها الأكثر إثارةً على الإطلاق. لقد أصبحت أنا نفسي رجلًا كادحًا الآن. فقد أصبح مرسمي جاهزًا وأصبحتُ أعمل كما لو كنت ... لنَقُل تركيًا ... أو زنجيًا؟»

«أعتقد أن صانع المسامير هو التشبيه الذي تحتاجه.»

«على الأرجح. لا أعتقد أن التركي قد يعمل إذا كان يحق له الاختيار. بالمناسبة يا ليدي ماري، أنا أنظِّم «حفل استقبال» في مرسمي كل ثلاثاء من الثالثة حتى الخامسة. وأتمنّى لو تمكنتِ من الحضور. أقنعي والدكِ بأن يُحضرك. فأنا أرغب في وجود لورد حقيقي، كما تعلمين، كي ... حسنًا ... كي يضفي إلى التجمع قيمة.»

ضحكت ليدي ماري.

وقالت: «سيُسعدني كثيراً أن أحضر. فلم أذهب إلى مرسم منذ أن رُسمت لوحة لي. سأسأل أبي، ولكنه لا يخرج من المنزل كثيراً.»

«أعلم أنكِ ستتمكنين من إقناعه بالحضور؛ لذا سأعتبر ذلك وعداً.»

وفي الرّدهة، أخذ بارني شيكًا من والدته.

وقالت له: «احرص على أن تذهب للقاء سارتويل على الفور واحرص على ألّا تفسد الأمور مرةً ثانية.»

ولكن الفتى المسكين لم يفعل شيئًا سوى أن ادعى أنه قد نفّذ أوامرها السابقة! ولم يعلق بارني على تقلب مزاج النساء. وطبع قبلةً على كلتا وجنتَيها، مثلما يفعل أي ابن بار، وانصرف.

الفصل السابع

في أي بلد آخر غير إنجلترا، قد يُعتقد أن تسمية زقاق كريه الرائحة باسم لايت ستريت (شارع النور) أُطلقت عليه من قِبَل أحد الساخرين. كان المكان يُسمى «روز جاردن كورت» (ساحة حديقة الزهور). ولأن ثمّة سببًا لكل شيءٍ تقريبًا في هذا العالم، فربما كان سبب التسمية أنه كان هناك في وقتٍ ما حديقة في هذا المكان، وربما كانت الزهور تتفتح فيها. كان مدخل الساحة عبارةً عن ممر مقوّس كُتب اسمها أعلاه من جانب زقاق لايت ستريت. وعلى يمين هذا الممر وقف حانوت «روز آند كراون» والذي كان معروفًا محليًا باسم «الحانة»، وكان باب قسم الخمور المعبأة يؤدي إلى الممر، الأمر الذي كان مناسبًا تمامًا لسكان الساحة. وعلى يسار الممر المقوس، كان ثمّة متجر للملابس المستعملة، وكانت البضائع، التي كانت مستعملةً حد الاهتراء، تتدلى من حبال بالية حول بابه.

وقف عمود إنارة على حافة الرصيف في مقابل مدخل الساحة، ملقيًا ضوءَه على أرضية الممر المقوس، وكانت إنارته الضعيفة إلى حدٍّ ما تدعم بضوء شعلةٍ غازيةٍ فوق باب قسم الدورق والزجاجة. وعند الطرف الآخر المظلم من روز جاردن كورت، وقف عمود إنارة آخر. كانت الساحة مرصوفةً على نحو غير مستوٍ بكتل كبيرة من الحجارة، وكانت موحلةً دائمًا بسبب التدفق الزائد للماء من صنبور كان يمد السكان بالماء.

كانت الساحة محاطة بمبانٍ من خمسة طوابق، وفي هذه الهوة المستطيلة التي كوّنتها هذه البنايات المتداعية، كان الهواء راكدًا،

وشديد الرطوبة، وثقيلًا، ومحملًا بالكثير من الروائح. ولم تكن الريح التي تهب على لندن من الجنوب، أو الشمال، أو الغرب، قادرةً على تحريك هواء ساحة روز جاردن السام. وكانت الريح القادمة من تلال سري تُصَفِّر بسعادة فوق أسطح المباني كما لو أنها تصيح في هواء الساحة قائلة: «هيا اخرج، هيا اخرج وأعطِ الناس فرصةً ليتنفسوا»، ولكنها لم تكن تتلقى أي إجابة من الساحة؛ فالهواء في داخلها صامت وكئيب، كما لو أنه اكتسب طابعه من سكان المكان.

في بعض الأحيان، في أوائل فصل الربيع، كانت الريح الشرقية المثابرة تزأر بصخب عبر النفق، وتأخذ الهواء الكريه الرائحة على حين غرة، وتُلقي به رأسيًا إلى الأعلى فوق أسطح المباني، لتملأ الساحة بزوبعة قارصة، وتُبعثر قصاصات الورق والأسمال رافعةً إياها نحو السماء، إلا أن سكان الساحة لم يكن يعجبهم ذلك. فكانوا يغلقون النوافذ، ويرتجفون، ويتمنّون لو توقفت الريح عن الهبوب. وفي اليوم التالي، كان الهواء يهدأ ويصمت في الساحة، ويلتقط روائحه مجددًا، فيشعر الجميع بأن الأمور قد عادت لطبيعتها.

كانت الساحة ملكيةً تُدر أرباحًا طائلة. ولم يكن أيٌّ من سكانها يعلم مَن هو مالك المباني أو الأرض. وكان الرجل الذي يتولى جمع إيجارات الغرف يجمعها مقدمًا قبل أن يحين موعد سدادها، وقال ذات مرة لمالك حانة «روز آند كراون» إن الساحة مربحة باعتبارها استثمارًا أكثر ممّا لو كانت موجودةً في منطقة جروسفينور سكوير. وكان المتعارف عليه بين الناس أن المالك أوكل إدارة هذه الملكية لإحدى الشركات، وأن جامع الإيجارات يمثّل هذه الشركة. لم يكن من الممكن أن ينتظر أحد من الشركة أن تُنفق أي أموال على الإصلاحات، ولم يكن التواصل مع المالك ممكنًا، وفضلًا عن كل ما سبق، كان ثمّة طلبٌ متواصلٌ على الغرف، فإن

لم تُعجب التجهيزات أحد المستأجرين، كان يمكنه أن يرحل؛ فثمّة عشرات آخرون جاهزون ليحلوا محله.

لم يكن سكان هذا الجُحر البشري مجرمين. فكان أغلبهم يؤدون أعمالًا مفيدة لكسب قوت يومهم. بل إن المجرمين، حال إدانتهم، يوضعون في أماكن صحية أكثر من ذلك بكثير، مع ضمان الحصول على ما يكفيهم من طعام، على النقيض من سكان الساحة. وإذا كان حال أي سجن في المملكة بنفس سوء أحوال ساحة روز جاردن، لانخلع قلب الأمة العطوف من فرط الاستياء، ولشعر بعضٌ من المسئولين الوضيعين بوطأة الاحتقار الشعبي الصادق. لم تكن الساحة إلا مثالًا واضحًا على مساكن الطبقة العاملة البريطانية، في أكثر مدن العالم رشادًا، واتساعًا، وفخرًا، وثراءً، في نهاية القرن التاسع عشر، بعد ألف عام، أو نحو ذلك، من بداية التقدم. كانت منازل بعض العمال أفضل حالًا، ولكن بعضها أيضًا كان أسوأ حالًا؛ فعلينا ألّا ننسى أن «مساكن الحرفيين والعمال المُحسّنة» موجودة بيننا. كان سكان «المساكن المُحسّنة» مُكبّلين بقيود شتى تحدٌ من حريتهم، أما الساحة فكانت تنعم بالحرية؛ حرية الخروج والدخول كما يحلو لك، حرية الشرب حتى الثُمالة، حرية التسكع أو العمل، حرية التضور جوعًا.

كانت الميول الشخصية لسكان الساحة تشبه كثيرًا ميول «مرتادي» نوادي ويست إند الفاخرة. فكانوا يهوَون الشرب والمقامرة. كانت «الحانة» عند المدخل، وهناك، أو عند الحلاق، كان يمكنهم المراهنة بالقليل من المال على حصان لا يعلمون عنه شيئًا هناك. من مميزات البلد الحر أن المرء يمكنه أن يشرب حتى الثمالة من البيرة أو الشمبانيا على حدٍّ سواء، وبتكلفة أقل بكثير. وتكون النتائج في كلتا الحالتَين واحدةً على نحوٍ يثير التعجُّب. وثمة اعتقاد عام بأن رجل الشرطة في بيكاديللي قد يرفق بسكيرٍ يرتدي ملابس سهرة أكثر ممّا قد يرفق زميله في طريق ووترلو برجل يرتدي معطفًا من الفرو.

لم يحدث الكثير من المشكلات بين ساحة روز جاردن والشرطة، على الرغم من أن سكان الساحة، ولا سيّما النساء، يحتقرون الشرطة إلى حدٍّ ما. كان كل ما تطلبه الشرطة من سكير من سكان الساحة، إذا ما كان يرغب في العراك، أن يتعارك داخل الساحة، وليس في طريق عام مزدحم مثل لايت ستريت. وفي داخل الساحة، كانت زوجات المتعاركين يتدخلن عادةً للفصل بينهم قبل أن تصل المعركة إلى نهايتها، وفي بعض الأحيان، كان يقف شرطي طويل القامة يراقب الفصل بين الخصمَين في معركتهما المؤقتة، دون أن يقول شيئًا إلا إذا قاوم أحد المتعارِكَين زوجته التي تدفعه ناحية عتبة باب منزله صارخة، إذ يقول الشرطي حينها: «كفى أيها الرجل، لا تفعل ذلك»، وحينئذٍ، وعلى نحو يثير الاستغراب، تمتعض المرأة من تدخُّل الضابط لحمايتها، ولكن عندما يشرع زوجها في سب أحد رجال الشرطة وإهانته، سرعان ما تطلب من زوجها أن «يخرس فمه الـ... هذا»، مستخدمةً صفةً دموية ومعبرة في الوقت نفسه. وعادةً ما يمسك رجل شرطة قوي البنيان بأحد سكان الساحة من مؤخرة عنقه، عندما يراه يسير مترنحًا عبر شارع لايت ستريت، مالئًا الأجواء بصخب غنائه أو صياحه في تحدٍّ سافر؛ ومن ثم يجرجره بسرعة عبر الشارع، وتتأرجح ساقا الرجل دون أن يتمكن من التحكم فيهما، كما لو كان إنسانًا آليًا مصنوعًا من الشمع، حتى يصلا إلى مدخل الساحة، وبعد أن يتلقى الدفعة المطلوبة من الضابط، يندفع الرجل عبر الممر المقوس، وبمجرد أن يصبح في الداخل، من المفترض أن الضابط قد أتم مهمته: على أي حال، بمجرد أن يدخل إلى الساحة، لن يمكنه الخروج إلا من الطريق نفسه الذي دخل منه، وقلة فقط هم مَن كانوا يثملون، لدرجة نسيان أن ثمّة رجل شرطة يتجول في الحي بصورة دائمة. كان الدفع عبر الممر المقوس هو طريقة شارع لايت العطوفة المشابهة لما يحدث في شارع بيكاديللي، عندما يوضع رجل برفقٍ في عربة أجرة ويخبَر السائق

بوجهته. قلةٌ قليلة فقط هم من كانوا يُلقى القبض عليهم في منطقة لايت ستريت، ولا بد أن يكون ما فعلوه شائنًا لدرجةٍ جعلتهم يستحقّون استخدام العنف ضدهم كملاذٍ أخير.

عبر لايت ستريت، كان مارستن يسير بخطوات رشيقة، وواسعة، ومفعمة بحيوية شاب بصحة جيدة، يأخذ هذه الحياة على محمل الجد، ويؤمن بأن ثمّة ما يمكن تحقيقه فيها. توقّف مارستن برهةً أمام حانة «روز آند كراون» وأومأ بتحيةٍ لبعض الرجال الذين يتسكّعون هناك.

سألهم قائلًا: «هل ستذهبون إلى الاجتماع الليلة يا رجال؟»

هز أحدهم رأسه بالنفي، وهزّ آخر كتفَيه في لا مبالاة؛ وبدا جليًا في الحال أنه لا أحد منهم لديه أدنى اهتمامٍ بالاجتماع ما دامَت «الحانة» لا تزال مفتوحة.

قال مارستن: «إنه اجتماع مهم. ستقدم اللجنة تقريرها الليلة، ومن المرجّح أن يتم التصويت على القيام بالإضراب أو عدم القيام به. هل أنتم واثقون من أنكم لا تحبذون القيام بإضراب؟ احضروا الاجتماع إذن وصوتوا ضده.»

قال أحدهم وهو يُخرج غليونه من فمه: «لست واثقًا من ذلك. إن الأجر الذي سنتقاضاه خلال الإضراب جيد مثل أجر صاحب العمل، ولكننا سنؤدي عملًا أقل مقابله. فأنا بحاجة إلى عطلة قصيرة.»

ردّ مارستن قائلًا: «ربما كان أجر الإضراب جيداً مثل أجر صاحب العمل ما دام مستمراً، ولكنه لن يستمر.»

فأجابه الرجل قائلًا: «عندما ينتهي الإضراب سنعود إلى العمل.» وضحك الرجال الآخرون.

قال مارستن: «بعضكم لن يعود إلى العمل. هكذا هو الحال دائماً بعد انتهاء أي إضراب. لطالما كان من الأفضل الحفاظ على وظيفة جيدة ما دامت متوافرة لنا.»

كرّر المتحدث باسم الحشد المتجمع في «الحانة» ما قاله سابقًا في لا مبالاة: «حسنًا، أنا بحاجةٍ إلى عطلة قصيرة.»

صاح مارستن مستاءً: «يا إلهي! إذا لم تهتموا بأحوالكم أكثر مما تفعلون الآن، فكيف تتوقعون أن تتحسن؟»

أجابه الرجل الآخر بمرح: «حسنًا، لقد فكرت، عندما رأيتك قادمًا نحونا، أنه من الأفضل أن تدعونا لشرب البيرة معك.»

قال الشاب باقتضاب: «لقد أسكرتك البيرة بالفعل»، ثم استدار واختفى في ظلام الساحة.

راح الجمع يدخِّنون في صمت بضع دقائق بعدما غادرهم.

ثم قال أحدهم أخيرًا مشيرًا بغليونه في الاتجاه الذي غادر فيه مارستن: «إنه شاب مغرور.»

وعلق آخر ساخرًا: «أوه، إنه يعرف أكثر مما نعرف.»

ثم حلّ صمت أطول من سابقه، قبل أن يتحدث المتحدث باسم المجموعة، الذي كان يمعن التفكير في المسألة، قائلًا:

«ما رأيكم أن ندخل إلى الحانة ونشرب المزيد من البيرة؟ بعد ذلك، نذهب إلى الاجتماع ونصوت لصالح الإضراب. ونلقنه درسًا. تعجبني وقاحته حقًا. لقد تحدث عن السُّكر، سنريه إذن من السكران.»

وافق الجميع على هذا الاقتراح باعتبار أنه يوضِّح موقفهم. ومن المؤسف أن مارستن لم يعلم نتيجة حواره القصير مع رفاقه من العمال.

كان مارستن شابًا غضًا قليل الخبرة وأمامه الكثير ليتعلمه. فلم يكن يعلم أن الرغبة في تحسين المرء أحواله ليست رغبةً عامة لدى الجميع، وحتى وإن كانت ثمّة بوادر رغبة في ذلك، لا يحب الناس أن يُكرهوا على تحسين أحوالهم. فالكياسة، كما أخبرته السيدة هوب، تحقِّق أكثر ممّا تحقّقه النوايا الحسنة. فبعض البيرة وتربيتة ودودة على الكتف كان من شأنهما أن يضمنا له عدة أصوات ضد الإضراب. والخطأ الذي ارتكبه بافتراض أن الإنسان العادي يُحركه العقل والمنطق لم يُسدِ له شيئًا سوى أن قوّى شوكة «ذلك الأحمق جيبونز».

في غضون ذلك، عبر الشاب من أسفل الممر المقوّس وسار عبر الساحة، حتى وصل إلى مدخل المنزل رقم ثلاثة. كانت الباحة وأزواج الدرج الخمسة القذرة أقل ارتياداً قليلًا من بقية منازل الساحة، التي كانت بدورها أقل ارتياداً قليلًا من منازل لايت ستريت؛ نظرًا لقلة الأقدام التي كانت تخطو عليها. صعد مارستن الدرجات المؤدية إلى الطابق الأول، وتوقف عند أحد الأبواب عند بسطة السلم. ومن خلف الباب، تصاعد صوت نغمات دندنة صادرة من أرغن مزماري، فأحجم مارستن عن طرق الباب بينما كان يستمع إلى ذلك الصوت. ثم ظهرت امرأة رثة المظهر تهبط الدرج من الطابق الثاني حاملةً دورق ماء في يدها. توقفت المرأة عندما رأت غريبًا يقف في الطابق الأول، وراحت تنصت إلى صوت الموسيقى بدورها. لم يتمكن اللحن الحزين الذي كان يُعزف من تهدئة الثورة التي تعتمل في صدر المرأة، التي انفجرت ثائرةً ضد قاطني الغرفة.

صاحَت المرأة قائلة: «أوه، نعم. إن أمثال هؤلاء يستمتعون بوقتهم دائمًا. أرغن مزماري، حقًا. فليحفظنا الرب! نحن لا نرقى لمستوى هؤلاء. أرغن مزماري! هنا في ساحة جاردن! لا خير يأتي من مثل هذا البذخ. ماذا يفعلون، أريد أن أعرف؟ هراء!»

أشاحت المرأة بيدها تعبيراً عن احتقارها لما يحدث، وهبطت الدرج حاملةً الدورق. كان زوجها يُنفق فائض ماله في «الحانة»، مثلما يفعل الرجال، وليس على توافه مثل الآلات الموسيقية المستعملة. لم تكن تطيق البذخ، ومعها كل الحق في ذلك.

طرق مارستن الباب عندما توقف العزف، وفتح جو برونت الباب بنفسه.

قال بِود: «ادخل يا بني»، ودخل مارستن.

نهضت فتاة طويلة القامة، ربما كانت في الرابعة عشرة، أو السادسة عشرة، أو الثامنة عشرة، من فوق مقعدٍ مواجه للأرغن المزماري. كانت الفتاة نحيلةً وشاحبة ذات عينَين واسعتَين مثيرتَين للشفقة أضافتا لمحةً من الجمال الحزين على قَسَمات وجهها. قال مارستن وهو يصافحها: «كيف حالكِ يا جيسي؟ هل تحسّن السعال بأي حال؟»

أجابته الفتاة: «أعتقد أن الحال كما هو لا يتغير أبداً.»

قال والدها بخشونة: «من الصعب أن تتحسن حالتها في هذا الجحر.»

كان برونت يتحدث بلكنة سكان يوركشاير. وكانت قامته وبنيته تدلان على المقاطعة التي ينتمي إليها، وكان «من الصعب تصديق أن هذه الفتاة النحيلة ابنته. وعلى الرغم من أن الكثير من جيران جو برونت كانوا ناقمين على تعاليه عليهم، واعتبار نفسه وابنته النحيلة العديمة الفائدة أفضل منهم، كانوا حريصين تماماً ألّا يعبروا عن آرائهم هذه في وجوده؛ فقد كان رجلًا صارماً ومستبداً، صموتًا ومتجهماً، تسبق قبضته لسانه، ولم تكن متأهبةً فحسب، بل فعالة أيضًا. كان كل من في الساحة يخشَونه، وكانوا يتعاملون معه بمبدأ دع الفتنة نائمة. كان مع السيدة التي تحمل الدورق كل الحق في سخطها على جو برونت. فقد كانت

تجر «زوجها» للمنزل بصعوبة ذات ليلة من «الحانة»، على الرغم من محاولاته الكثيرة للفرار. ونجحت بالفعل في دفعه وجره وصولًا إلى بسطة الطابق الأول، عندئذٍ أدرك فجأةً قسوتها التي بلا داعٍ حين جرجرته من الحانة العامة بإضاءتها الباهرة، وما يملؤها من مرحٍ وخمرٍ وصحبة جيدة، إلى الغرفة الخلفية الكئيبة الكائنة في الطابق الثاني من المنزل التي لا تحوي أي صحبة سوى لسانها السليط، فأطبق قبضته وطرحها أرضًا، فاصطدمت مؤخرة رأسها بباب برونت أثناء سقوطها. وعندما فتح برونت باب غرفته، رأى الزوج يسير — أو ربما كان من الأدق أن نقول يترنح — فوق جسد زوجته المُسجى على الأرض. فأمسك جو بتلابيب الرجل الثمل، وأطاح به في الهواء كالريشة من فوق درابزين السلم. فتدحرج الرجل الذي عُومِلَ بقسوةٍ على السلم حتى خرج إلى الساحة، حيث رقد مكوّمًا يتألم. ثم حمل برونت المرأة إلى غرفتها. لم تكن المرأة تعي ما حدث بالكامل، وشرعت من فورها تبدي لمنقذها رأيها فيه بكلمات لم تكن مترابطةً في البداية. قالت له إنها تريد أن تعرف مَن يظن نفسه ذلك الوحش الضخم، حتى يتدخل بين رجلٍ وامرأته. وإن زوجَها لو كان واعيًا لأذاقه الأمرّين، ولكنه استأسد على رجلٍ أفرط في شرب الخمر. فهبط برونت الدرج وحمل الرجل «الفاقد الوعي»، الذي أفرط في شرب الخمر دون شك، إلى غرفته وتركه هناك مع زوجته.

صرخت الزوجة قائلة: «لقد قتلت الرجل الثمل وهو لم يؤذك يومًا.»

فقال برونت: «لم يحالفني الحظ بعد، إنه سكران ولا يمكنه أن يؤذي حشرة.»

وقد كان كذلك بالفعل. خرج جو من الغرفة وأغلق بابها خلفه، وتركهما ليُنهيا شجارهما إذا أرادا ذلك.

تعاطف سكان الساحة مع السيدة سكيمينس عندما قصت عليهم الواقعة. وكانت النساء أكثر سخطًا من الرجال. فكن يرين أنه من المشين أن يتدخل عملاق متوحش متجهم مثل برونت، في نقاشٍ بسيطٍ بين زوجَين يحدث في كل الأسر العادية المترابطة. وبقدر ما كن يكرهن الشرطة، بدا لهن أن استدعاءها قد بات ضروريًا الآن أكثر من أي وقتٍ مضى.

قالت سيدة ضخمة الجثة: «لو أنه حاول أن يكسر كل عظمة في جسد زوجي يا سيدة سكيمينس، لأمسكت به من شعره.»

قالت السيدة سكيمينس: «لا أعلم إن كنت سأتمكن من فعل ذلك يا سارة»، فلم تكن ترغب في الاستسلام لاتهامات النساء بأنها لم تبذل كل ما في وسعها، وفقًا لملابسات الواقعة، من أجل زوجها وهو بهذا العجز. «لقد تلقيت ضربات في الرأس، والوجه، والظهر، ثم اصطدم رأسي بالباب، وفقدت الرؤية في إحدى عينيّ، وبعد كل هذا، كان زوجي يدوس عليّ، لو كنت مكاني لما تبقّى لديكِ نَفَس يمكنكِ من القبض على شعر أحد.»

تحسّست السيدة سكيمينس برفقٍ الجزءَ من وجهها تحت عينها، الذي لا يزال مكدومًا ومتورمًا، وشعرت أنها قد عرضَت قضيتها جيدًا؛ ففي واقع الأمر، قُبل دفاعها باعتباره حُجةً دامغة زادت من قتامة فعل برونت الوحشي الذي لا مبرر له.

اندهش الرجال مما حدث بالطبع، ولكنهم لم يكونوا متشددين في إدانتهم لفعلة برونت مثلما فعلت الزوجات. فلم يكن سكيمينس يُكن في صدره أي ضغينة تجاه المعتدي، إلا أنه قال إنه لم يستطع استيعاب السبب الذي دفعه لأن يلقيه من فوق الدرج. وردًا على التساؤلات المتعاطفة من رفاقه في حانة «روز آند كراون»، قال لهم إنه، على الرغم من أنه كان خائفًا، فقد ظل ثابتًا ولم ينسحب من المعركة.

واستطرد قائلًا بصوتٍ أقرب للأسف من الغضب: «فليرحمنا الرب! ماذا حلّ بالعالم؟ إن سألتموني فسأجيب بأني على وَشْك أن أفقد الأمل. حين يتكالب برونت والشرطة على رجلٍ إذا ما رفع يده ليضرب امرأته، فهذا يعني أن الساحة لم تعُد مكانًا يصلح لرجلٍ سكيرٍ كادحٍ ليعيش فيه.»

ولكن لم يجرؤ أحد على الاعتراض على الرجل القادم من يوركشاير، وعلى رأسهم سكيمينس نفسه، بالرغم من أن الساحة باعتبارها مجتمعًا قد أصبحت تتجنّبه أكثر من أي وقت مضى.

سأل مارستن الشاب بعدما حيّا الأب وابنته: «هل ستحضر الاجتماع الليلة يا سيد برونت؟»

«لا، لن أحضر.»

«ولمَ لا؟»

«ولمَ أحضر؟»

«كما تعلم يا سيد برونت، ثمّة أزمة على وشك الحدوث. ستقدم اللجنة تقريرها. لقد رفض السيد سارتويل لقاءهم، ومن المرجح أن هذا التصرف سيُغضِب جيبونز والآخرين. وسيتم التصويت على خوض الإضراب من عدمه، وأنا من المعارضين للإضراب؛ على الأقل ليس في الوقت الحالي.»

قال برونت: «وأنا مثلك تمامًا.»

«احضر الاجتماع إذن وأعلن رفضك للإضراب.»

«لا أجيد الحديث. تحدث أنت.»

«لن يستمعوا إليّ، ولكنهم سينتبهون لما ستقوله أنت.»

«على الإطلاق يا بني. ولكن لا يهمني ذلك على الإطلاق، ولو مثقال ذرة.»

«ما الذي لا يُهمك؟ خوض الإضراب أو عدم خوضه؟»

«أنا لن أُضرب عن العمل. يمكنهم أن يفعلوا ما يحلو لهم.»

«ولكن، إذا أمرتنا النقابة بالإضراب، فسيكون علينا أن نفعل.»

«لا، لن أفعل.»

«بفرض أن الإضراب قد نجح في تحقيق أهدافه، وقد يحدث ذلك — فالنقابة العمالية قوية للغاية — ماذا ستفعل حينها؟»

«سألتزم بعملي، ولن أشغل بالي بأي شيء آخر.»

«ولكن لن تدعك النقابة وشأنك. إذا فشل الإضراب، فسيحمل جميع العمال ضغينةً ضدك، وإذا نجح، فستجبرك النقابة على ترك العمل في المصنع. فلا فائدة من ضرب رأسك بالحائط يا سيد برونت.»

قال برونت: «تحدث أنت؛ فقد حُبيت بفصاحة اللسان.»

«أنا صغير السن للغاية. لن يستمعوا إليّ الآن. ولكن سيأتي يوم يستمعون فيه إليّ، وكذلك السادة. وحينها سأكرس حياتي طواعيةً لقضية العمال.»

كان مارستن يتحدث بحماسة الشباب، واعتراه شعور ببعض الارتباك عندما أخرج محدثه غليونه من فمه وضحك.

«علامَ تضحك؟»

«أضحك عليك. يُسعدني أن أعرف أن ثمّة شخصًا يؤمن بنا، ولكن كما قلت بنفسك، أنت لا تزال صغيراً وستتعلم المزيد في المستقبل.»

«ألَا تؤمن بنفسك وأقرانك من العمال؟»

«لا أفعل. فأنا أعرفهم جيداً أكثر من اللازم. بعرق جبينهم يجنون خبزهم. ربما لم أقُل المثل بدقيق عبارته، ولكن هذا هو المعنى المقصود. ولطالما كان الأمر كذلك في الماضي، والحاضر، وسيظل كذلك إلى الأبد. آمين.»

صاح الشاب وقد نهض من مقعده وظل يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا منفعلًا: «لست معترضًا على ذلك يا سيد برونت. ثق في ذلك. ولكني أريد أن أرى الجميع يعملون. ما أعترض عليه هو أن يجني المرء خبزه من عرق جبين رجل أجير، كما قال أحدهم. يا إلهي! انظر إلى أعدادنا. نحن نفوق أولئك المتبطلين عدداً بنسبة عشرة إلى واحد، بل مائة إلى واحد، في كل دول العالم. وكل ما نحتاج إليه هو قائد إيثاري.»

نظر له الرجل العجوز، وقد ارتسمَت على شفتَيه المزمومتَين ابتسامة ساخرة.

وقال: «انظر إلى عدد حبات الرمال على الشاطئ. هل يمكن لأي قائد أن يصنع منها حبلًا؟ الأعداد لا تُهم يا صديقي. اعتنِ بنفسك يا مارستن ولا تعبأ بالعمال، هذا هو قانون العالم. يمكنك أن ترفع نفسك لأعلى، ولكنك لن تتمكن من رفعهم جميعًا معك. لقد كسروا قلوب، بل ورءوس، كثيرين حاولوا أن يحسنوا من أحوالهم. ربما تعتقد أنك تواجه السادة ورأس المال فقط. لن يؤذيك السادة، بل الرجال الذين تقاتل من أجلهم هم مَن سيخذلونك. انتظر حتى يرتفع رأسك قيد أنملة فوق الحشد، وستهبط عليه عصا كل حقيرٍ منهم يرى أن له الحقّ مثلك تمامًا في أن يكون قائدًا. ليس المال هو نقطة قوة السادة، بل قدرتهم على تمييز الرجل الجيد بمجرد رؤيته، ومساندته عندما يصبح في صفهم. فلا تغرنك الأعداد. ما نفعها؟ إن رجلًا واحدًا يتمتع بالإصرار ولا يحتاج إلى

أن ينشغل بمَن سيسانده؛ إذ يدرك جيداً أن رؤساءه سيدعمونه في السراء والضراء، يمكنه أن يهزم أي شرذمة من الدهماء. لمَ تتمكن فرقة صغيرة من الجنود أن تنهي أي أعمال شغب؟ لأنها تحت إمرة رجل واحد. عندما يقول لهم «اقفزوا»، يقفزون، وعندما يقول «أطلقوا النار»، يطلقونها. هذا هو سر نجاحهم.»

وضع برونت غليونه في فمه مرةً أخرى، وبدأ يدخِّن بعنف وعاد إلى صمته المعتاد. فلم يكن مارستن قد سمعه يطيل الحديث هكذا من قبل، وظل واقفًا في مكانه متأملًا ما قيل. وكان برونت هو من بادر بالحديث وكسر الصمت.

قال بخشونة: «اعزفي «اللحن الجنائزي» يا جيسي.»

ترددت الفتاة لحظة، وبدت غير راغبة في بدء العزف في وجود مارستن، وعلا وجنتَيها القليل من حمرة الاضطراب، ولكن نزعة الطاعة لديها كانت قويةً ومتأصلة؛ فلم يكن والدها رجلًا يمكن عصيانه. قرّبت الفتاة مقعدها من الأرغن المزماري، وبدأت تعزف «اللحن الجنائزي» لشوبان، وعلى الرغم من سوء عزفها، فقد ظل بالإمكان تمييز اللحن.

بدا الهدوء يغمر برونت أثناء استماعه للحن الحزين. فاتكأ في استرخاء في المقعد، ورفع بصره إلى السقف وهو يدخِّن بلا توقف. جلس مارستن يتأمل فيما قاله برونت. فهو لم يكن في سن تؤهله لأن تكون آراؤه راسخة، وغير قابلة للمعارضة؛ لذا أرّقته ملاحظات برونت. كان يأمل ألّا تكون صحيحة، ولكنه خشي أنها قد تكون كذلك بالفعل. أقحم الإيقاع الحزين للموسيقى المعزوفة، التي بدت أنها تهدئ نفس الرجل العجوز، نفسه في أفكار الرجل الشاب وجرها جرًا نحو القنوط؛ فقد لاحت في ذاكرته لا مبالاة الرجال أمام الحانة وأصابته بالإحباط. وتمنى لو توقفت جيسي عن العزف.

قال برونت متنهداً بعمق عندما توقفت عن العزف: «آه. هذه أعظم معزوفة موسيقية على الإطلاق. إنها تُعزف في رأسي طوال اليوم. اهتزازات الماكينات في المصنع تبدو مُنغّمةً معها. ويمكن سماعها في صخب الشوارع. هيا يا فتى، سأذهب معك؛ لأنك تريد ذلك، وليس لأني أرى أنه سيعود بأي نفع. سأتحدّث إذا أردت، ولكني أعلم أنهم لن يهتموا كثيراً بما سأقول؛ لن يصغوا على الأرجح. ولكن دعنا نذهب يا فتى.»

الفصل الثامن

خرج برونت ومارستن من ظلمة ساحة روز جاردن إلى ضياء شارع لايت، الذي كان في ليالٍ معينةٍ من الأسبوع يبدو كسوقٍ ممتد، إذ كانت تصطف على جانبَيه عربات يد محملة بالفاكهة والخضراوات، مضاءة بمصابيح الجازولين المتوهجة. وكان البخور — ذو الرائحة الكريهة — يُحرق شكرًا لإله الرُّخص. وكانت حشود من النساء، في ثياب رثة، يتفاوضْنَ مع بائعين ليسوا أفضلَ منهن حالًا؛ فقد كانوا يلتقون ويتساومون على مستوى الفقر المشترك بينهم.

انعطف الرجلان إلى شارع جانبي ومنه إلى حارة أضيق، وتوقفا أمام مبنًى ضخم كانت تقدِّم فيه جماعة جيش الخلاص خدماتها؛ مبنًى أُجر مؤقتًا لموظفي شركة مونكتون آند هوب لمناقشة شكاواهم. كان المكان مكتظًا بالحضور حتى الأبواب، وواجَهَ الوافدان الجديدان بعضَ الصعوبة في شقِّ طريقهما بمحاذاة أحد جانبَي الجدران، الجانب الأقرب إلى المنصة الرئيسية، حيث عثرا أخيرًا على مساحةٍ يمكنهما الوقوف فيها في منتصف المسافة بين الأبواب والمتحدثين.

كان سكيمينس جالسًا في أحد المقاعد يبدو عليه القلق الشديد، وعلى غير طبيعته، لا يعرف المتوقع منه تحديدًا، وترتسم على شفتَيه ابتسامة استهجان شاحبة من وقتٍ لآخر، عندما كان بعض رفاقه المحتشدون يُبدون تعليقاتٍ مسموعةً عن المكانة التي بات يتمتّع بها، والهيبة الفطرية التي يتصنّعها في منصبه هذا. وأدلى أحدهم برأيه («إذا ما سُئل») أن سكيمينس يليق به أن يمسك بإناء الخمر في يده اليمنى، بدلًا من المطرقة التي من المفترض أن يحفظ النظام باستخدامها.

جلس أعضاء اللجنة على صفٍّ من المقاعد في مؤخرة المنصة، وبدا على أغلبهم عدم الارتياح الشديد مثلما بدا على رئيسهم. وكان العديد من المراسلين يكتبون على الطاولة المخصصة لهم. ومن وقتٍ لآخر، كان أحدهم يهمس بسؤالٍ إلى رئيس اللجنة أو أحد أعضائها، وكانوا جميعهم يحصلون على الإجابة نفسها تقريبًا: «لا أعلم، اسأل جيبونز.»

كان واضحًا تمامًا أن جيبونز هو رجل الساعة. فقد كان واقفًا على قدمَيه بحكم منصبه رئيسًا للجنة وأمين نقابة العمال، وكان على وشك الانتهاء من قراءة تقرير اللجنة، عندما وجد برونت ومارستن مكانًا ليقفا فيه في جانب القاعة.

«... وأخيرًا، تطلب لجنتكم الإذن لإبلاغكم بأنه من منطلق رفض السيد سارتويل لجميع المبادرات المقدّمة من لجنتكم، ورفضه التشاور معها سواء من خلال رئيسها، أو باعتبارها هيئة، فقد تقرّر تجهيز هذا التقرير ورفعه إليكم من أجل اتخاذ إجراءٍ حاسمٍ بهذا الشأن.»

وبعدما انتهى جيبونز من قراءة الوثيقة، وضعها على طاولة المراسلين ليَطّلعوا عليها عن كثب. كان جيبونز هو من كَتَب التقرير بنفسه، وكان فخورًا نوعًا ما بصياغته بطبيعة الحال، وكان يأمل في أن يراه منشورًا في الصحف. والتفت بعد ذلك ليواجه جمهوره، بعدما حيّا الرئيس.

وقال: «الآن، أيها السادة، وقد سمعتم التقرير. لقد فعلَت اللجنة التي عُينت من قِبَلكم، وفُوِّضت من قِبَلكم، وتعمل من أجلكم، والمُخَوَّلة بموجب سلطتكم، كلّ ما في وسعها للتوصّل إلى حلٍّ ودي لهذه المسألة؛ فقد طرقت جميع الأبواب، ولم تتوانَ عن استخدام أي وسيلةٍ مشروعة، ولم تألُ جهدًا، في سبيل التوصل إلى اتفاقٍ عادلٍ لكلٍّ من رب العمل والموظف على حدٍّ سواء. ولكن، أيها السادة، واجهت لجنتكم منذ البداية عقبةً لم تتمكّن

من تخطيها، عقبةً أجهضت جميع جهودها. لقد أحالت شركة «مونكتون آند هوب» اللجنة إلى السيد سارتويل المدير، الذي رفض رفضًا قاطعًا أن يلتقي اللجنة ويناقش أي شيء معها. هذا الرجل، الذي كان هو نفسه عاملًا ذات يوم، أصبح يتعالى الآن ...»

في هذه اللحظة، جذب أحد المراسلين طرف سترة جيبونز، ودار بينهما حديث هامس. وبعدما انتهى، واصل جيبونز حديثه قائلًا: «طرح عليّ أحد السادة الصحفيين سؤالًا، وهو سؤال جيد للغاية. لقد سألني عما إذا كنا قد هدّدنا السيد سارتويل بأي شكلٍ من الأشكال بالإضراب عن العمل، كما يُشاع. أيها السادة، نحن لم نهدِّد أحدًا بأي شكلٍ كان.» (تعالَت الهُتافات). «لقد تواصلنا مع السيد سارتويل بنفس الاحترام الذي كنا سنتواصل به مع أحد أعضاء حكومة جلالة الملكة، إذا كان لدينا التماسٌ نرغب في عرضه. لُب المسألة إذن هو أن السيد سارتويل يرفض رفضًا قاطعًا أن يتعامل مع رجاله عندما تكون لهم ...»

صدر صوتٌ من جانب القاعة يقول: «هذا ليس صحيحًا.»

التفتَت رءوس الحضور نحو مصدر الصوت، وبدَت عليهم البهجة من المقاطعة. فقد كانَت تبشِّر بمرحٍ سيليها. وصدرت همهمات ملؤها الترقب الممتزج بالمتعة والبهجة. التفت جيبونز بحدةٍ إلى حيث صدر الصوت.

تساءل قائلًا: «ما الذي ليس صحيحًا؟»

«ليس صحيحًا أن السيد سارتويل يرفض لقاء رجاله.»

«هل أنت أحد رجاله؟»

«نعم. هل أنت منهم؟»

سرت همساتٌ من الاستمتاع الحاد بهذه الضربة المباشرة لجيبونز. حتى الخطيب المُفوه نفسه فُوجئ بهذا الرد السريع، ولكنه تمالك نفسه

على الفور.

واصل أمين النقابة حديثه قائلًا: «ظني أنك ربما تكون شخصًا أُرسِل إلى هذا الاجتماع لمقاطعته. سيظل هذا واردًا، ولكننا سنتجاوز تلك النقطة الآن. لن نحذوَ حَذو السيد سارتويل، وإذا كان أحد أصدقائه حاضرًا بيننا، فسيُسعدنا أن نستمع لِما يريد قوله في الوقت المناسب. كنت على وَشْك أن أقول عندما تمّت مقاطعتي...»

صاح الصوت: «لقد أجبت سؤالك، فلتُجب سؤالي.»

وجّه جيبونز بصره نحو الرئيس طلبًا للحماية، فطرق سكيمينس بمطرقته بوهنٍ على الطاولة أمامه وهو يقول: «النظام، النظام»، ولكن بصوتٍ بدا يأمل في ألّا يسمعه أحد.

سأل جيبونز بنبرة غضبٍ في صوته: «ما سؤالك؟»

«هل أنت أحد موظفي شركة مونكتون آند هوب؟»

«أنا أمين نقابة العمال التي يمثّل موظفو هذه الشركة جزءًا منها، واسمح لي بأن أُضيف أنه أقوى اتحاد عمال في لندن. كما أني رئيس هذه اللجنة المُشكّلة من موظفي هذه الشركة. أنا لم أسعَ لتولي هذا المنصب، ولكني انتُخبت بالإجماع لتوليه؛ ومن ثمّ أزعم أني فعليًا أحد موظفي شركة مونكتون آند هوب، وأنه لا أحد هنا أحق مني بالتحدث نيابةً عن هؤلاء العمال، أو الدفاع عنهم في وجه الظلم. وسأخبر الرجل الذي يقاطعني — سأخبره في وجهه — أنه لا شيء سيرهبني للتخلّي عن واجبي، سواء كان هذا الترهيب من قِبَله أو من قِبَل السيد سارتويل، ما دمت أحتفظ بثقة الرجال الذين وضعوني هنا. فأنا لا أعترف بأي سادةٍ آخرين. وإذا أردت أن تُخاطب هذا الحشد، فاصعد هنا على المنصة وواجه

الأمر مثل الرجال، ولا تقف في مكانك متوارياً تنبح كالكلب. دعنا نَرَك.»

تعالى هُتاف قوي لهذه الكلمات. لقد بدأت المعركة، وكان الجمهور مبتهجًا. كان هذا هو نوع الحوار الذي يحبون سماعه.

ضرب برونت مارستن على ظهره ودفعه إلى الأمام.

صاح قائلًا: «كن على قدر التحدي يا فتى. أنا في ظهرك. سأتبعك، وسأخبرهم ببعض الحقائق عن العاطلين. سنسيطر على هذا الاجتماع لو أننا تصرفنا على النحو الصحيح. هلمّ يا رفيقي.»

توجه مارستن نحو المنصة، وكان الحشد يُفسح له الطريق. تسمّر جيبونز في مكانه للحظات، وبدا متفاجئًا بهذه المعارضة غير المتوقعة، ثم عاد ليجلس على مقعده على رأس اللجنة. هلّل الحشد المرح عندما رأوا الشاب يقف أمامهم.

بدأ مارستن حديثه قائلًا: «رفاقي العمال ...»

نبّهه شخص ما في منتصف القاعة حيث سُمعت ضحكة، قائلًا: «خاطب الرئيس.» حتى إن سكيمينس نفسه قد ارتسم على شفتَيه شبح ابتسامة. احمرّ وجه المتحدث قليلًا وقال في ارتباكٍ وعجلة:

«سيدي الرئيس، رفاقي العمال ...»

هلّل الحشد بحماس، ومرت لحظات قبل أن يتمكن مارستن من حملهم على سماعه مرةً أخرى. تسلل شعور باليأس إلى نفسه بينما كان يقف أمامهم. كان من الجلي أنهم يرَون الحدث برمته مزحةً كبيرة، شيء أشبه بالترفيه في حفلٍ موسيقي ولكن من دون بيرة، وكان هذا عيبًا بالنسبة إليهم بالطبع، ولكنهم أيضًا لم يدفعوا أيّ رسومٍ مقابل الدخول، وكانت هذه ميزةً بالنسبة إليهم؛ إذ تبقى معهم المزيد من المال لإنفاقه

على المسكرات بعد انتهاء هذا التجمع المسلي. وتساءل، بينما كان ينظر إلى الجمع المازح الهائج، عما إذا كان ينظر للموقف بجديةٍ مبالغٍ فيها. ولمعَت في ذهنه جملة سمعها في محاضرةٍ عن الاشتراكية. فقد قال المحاضر: «ليس الرأسمالي أو الحكومة هما مَن عليك قهرهما، بل العمال أنفسهم.»

عندما انحسر الهرج والفوضى وأصبح من الممكن سماع صوت مارستن، واصل حديثه قائلًا:

«لقد أكد السيد جيبونز أن المدير رفض التشاور مع موظفيه، وزعمت أنا أن هذا ليس صحيحًا. فقد أخبرني السيد سارتويل نفسه أنه على استعدادٍ لاستقبال وفدٍ من عمال المصنع. وقال إن ...»

صاح جيبونز وقد هبّ واقفًا وخطا خطوةً نحو الأمام: «ماذا يعني ذلك؟»

صاح برونت من بين الحشد المتجمّع في القاعة: «لا تقاطع المتحدث.»

صرخ جيبونز وقد بلغ منه الغضب مبلغه: «لقد قاطع حديثي أيضًا.» ثم التفت نحو الشاب، الذي ظلّ واقفًا في مكانه صامتًا ينتظر توقّف النقاش الدائر بينهما، وسأله أمين النقابة:

«متى أخبرك سارتويل بذلك؟»

«مساء يوم الثلاثاء.»

ردّد جيبونز العبارة وهو يتقدم نحو مقدمة المنصة: «مساء يوم الثلاثاء! مساء يوم الثلاثاء! وها أنت ذا تقف أمامنا بكل صفاقةٍ لتعترف بذلك.»

سأل مارستن، وقد بدا يحاول تمالك أعصابه، ولكنه كان يزم شفتَيه بقوة حتى ابيضتا: «ولمَ لا أفعل؟»

«لمَ لا تفعل؟ سأخبرك بالسبب. لأنك تسلّلت من خلف ظهور أعضاء اللجنة التي شاركت في تعيينها. هذا هو السبب.»

«لم أشارك في انتداب اللجنة.»

«لقد شارك جميع عمال المصنع في انتداب اللجنة. وإن لم تكن قد صوّتت، فقد تخلّيت عن واجبك. وإذا كنت قد صوّتتَ ضد اللجنة، فأنت ملزمٌ بنتيجة التصويت مثلما كانت اللجنة ستلتزم بالنتيجة لو كانت خسرت التصويت. هكذا تسير النقابات العمالية، إما أن ننهض معًا وإما أن نسقط معًا. ولكنك رغم معرفتك بانتداب لجنةٍ للتعامل مع هذه المسألة بالذات، ذهبت زاحفًا إلى سارتويل، وقوّضت جهود رفاقك في نقابة العمال.»

تحدّث مارستن من بين أسنانه المطبقة، مصدرًا هسيسًا حادًا، رغم خفوته، لدرجة أنه وصل إلى الطرف الآخر من القاعة، قائلًا: «محض كذب!» ثم اتجه الشاب ناحية خصمه بخطوات واسعة وهو يضم قبضة يده اليمنى ويفردها. كانت لحظة مشحونة، وكتم الحضور أنفاسهم. وتوقع الجميع أن الخطوة التالية ستكون لكمة.

ظل جيبونز واقفًا في مكانه دون أن يطرف له رمش. ولم تتحرك عضلة في وجهه سوى جفنَيه اللذَين انغلقا على عينَيه جزئيًا ليتركا شقّين ألقى من خلالهما نظرةً قاسيةً على مارستن، إلا أن إجابته لم تكن في نفس قسوة نظراته.

فقال بهدوء، الأمر الذي بدا مخيبًا لآمال مستمعيه: «إذا كان هذا محض كذب، فلست أنا مصدره. كل ما فعلته هو أني صُغت ما قلته أنت

في عبارة أكثر اقتضاباً؛ هذا كل ما فعلت.»

في هذه اللحظة صرخ برونت، الذي ظل مسيطراً على غضبه بصعوبة خلال هذا الحوار الدائر على المنصة، بأعلى صوته قائلًا:

«أعطِ الفتى فرصةً ليتحدث وأغلق فمك السخيف هذا. لقد دعاك بالكاذب مثلما يفعل الرجال ولم تجرؤ على مواجهته بوصفك رجلًا. اجلس أيها الأحمق!»

اعترض أمين النقابة وهو يلتفت إلى سكيمينس قائلًا: «لا بد أن أطلب الحماية من الرئيس.» نهض سكيمينس واقفًا في تردد نوعًا ما، شاعراً بأنه من المتوقع منه أن يفعل شيئًا، وضرب سطح الطاولة أمامه بالمطرقة ثلاث أو أربع مرات.

وصاح قائلًا: «النظام، التزموا النظام. إذا حدثت أي مناوشاتٍ أخرى من أيٍّ من الحضور، فسيُطرد مسبِّبها من الاجتماع.»

صاح برونت: «ماذا! تطردني من الاجتماع! يا إلهي! سأمنحك الفرصة لتفعلها.»

شق الرجل الضخم طريقَه نحو المنصة مُزيحًا من أمامه بعضًا من الرجال الذين حاولوا اعتراضه؛ حفاظًا على القانون والنظام. أما أغلب الحضور فبدا جليًا أنهم يرَون أنه يجب ألّا يُمنع الرجل الغاضب من التقدم نحو المنصة، فهلّلوا لتدخّله وصاحوا بتعليقاتٍ مشجعة.

قفز برونت على المنصة وتوجّه مباشرةً نحو الرئيس، وضرب سطح الطاولة بقبضته المضمومة وصاح:

«ها أنا ذا يا سكيمينس. أَخرِجْني من الاجتماع الآن؛ هل تسمعني؟»

صمت برونت منتظراً سماع رد، ولكنه لم يتلقّ أي رد. وبدا سكيمينس، الذي تراجع إلى الخلف، متأهبًا للفرار حال حاول برونت أن يهجم عليه. حدّق الرجل من يوركشاير فيه غاضبًا، إلا أن الرجال الواقفين على المنصّة بدا أنهم يفكّرون في أن وقت الاعتراض لم يَحِن بعد. وفي الوقت نفسه، كان الحضور يطالبونه بصوتٍ عالٍ أن يلقي خطابًا.

قال برونت وقد هدأ قليلًا عندما لم يعارضه أحد: «ليس لديّ الكثير لأقوله يا رفاق، كما أني لست خطيبًا مفوهًا. فما أنا إلا عامل، وكل ما أريده هو فرصة لأجني قوت يومي. ولكني سأقول الآتي: قرأت في الصحف منذ وقتٍ ليس ببعيد أن ثمّة سبعةً وعشرين ألف عامل مثلنا عاطلون عن العمل في إنجلترا حاليًا. سبعة وعشرون ألف عامل متلهفون للحصول على عمل. والآن، ما الذي يطلبه منكم جيبونز هذا؟ إنه يطلب منكم التخلي عن وظائفكم وترك أماكنكم؛ ليأخذها بعضٌ من السبعة والعشرين ألف عامل أولئك. وكل ما سيكون على سارتويل فعله حينها أن ينشر إعلانًا في الصحف، وسيمكنه أن يملأ المصنع بخمسة أضعاف عددكم من العمال في غضون يومَين. لطالما كان تَرْك وظيفة أسهل من الحصول على واحدةٍ جديدةٍ في العصر الحالي. أعلم هذا لأني جربته بنفسي. وأغلبكم جربه. فاستمعوا إلى نصيحتي ولا تُمضوا أكثر من ذلك في هذا الهراء. وإذا كان سارتويل، كما قال مارستن، على استعدادٍ لمناقشة الشكاوى، فرأيي أن نُرسل له وفدًا مؤلفًا من عمال الشركة، ليس بينهم غرباء مندسون. ماذا فعلت النقابة من أجلنا؟ إنها تأخذ أموالنا كل أسبوع، هذا كل ما أراه. والآن وبعد أن أصبح لديهم الكثير منها، ها هم يُريدون إهدارها في محاربة رجلٍ ذي نفوذٍ قويٍّ مثل سارتويل.»

كان مارستن جالسًا على حافة المنصة. دائمًا ما ندرك أخطاء الآخرين أسرع مما ندرك أخطاءنا، ولم يعجبه هجوم برونت على النقابة العمالية في حديثه. فقد كان يرى أنه كان من الأفضل عدم قول ذلك على الملأ،

كما أنه كان يؤمن بجدوى النقابة العمالية إذا ما حظيَت بقيادةٍ رشيدة. لقد كانت حربه على جيبونز لا على المؤسسة.

كان جيبونز جالسًا في مقعده، وسرعان ما قيّم المتحدث. ورأى أن الخطاب كان له تأثيرٌ على الحضور، وأن سيطرته عليهم تتسلّل من بين يدَيه. كان القرار الذي اتخذه ينطوي على مخاطرةٍ كبيرةٍ مع هذا الرجل القوي، ولكنه عزم أمره على أن برونت يجب أن يُقاد إلى الغضب، حيث من المرجح، في غمرة عنفه، أن يخسر الأفضلية التي كسبها. وبهدوء، وبإشارة من عينه، جمّع جيبونز أتباعه المخلصين الذين كانوا متناثرين في أرجاء القاعة؛ ليعطوا انطباعًا بأن الهتاف ليس جماعيًا عندما يحين وقته، وتقدّم هؤلاء الرجال في تلك اللحظة بالتدريج نحو المقدمة أثناء حديث برونت. وصعد واحد أو اثنان منهم بهدوء إلى المنصة ودخل في حوارٍ هامسٍ مع أمين النقابة، ثم اتخذا مكانَيهما ومعهما آخرون خلف مقاعد أعضاء اللجنة. وعندما ذُكر اسم سارتويل، نهض جيبونز من مقعده.

وقال: «سيدي الرئيس، لا يمكنني أن أسمح بـ...»

حينها التفت برونت نحوه كأسد هائج.

وصرخ وهو يشمّر عن ذراعيه: «إياك أن تقاطعني وإلا ألقيتك من تلك النافذة.»

قال الرئيس بصوتٍ واهن: «النظام، التزموا النظام.»

فصاح الرجل الثائر: «وسألقيك فوقه! فعلتها من قبل.»

قال جيبونز بهدوء: «فلتحترم الاجتماع إن لم تكن تحترم الرئيس.»

وصاح رجل في مقدمة القاعة: «أنت تحادثنا كما لو كُنا مجموعةً من الحمقى.» التفت برونت بعينَيه المتقدتَين بالغضب، كثور محاصر لا

يعلم إلى أين عليه أن يندفع، نحو آخر من تكلم. ووجه قبضته المضمومة نحوه، ولوّح بذراعه المكشوفة نحو الحضور.

وصاح بأعلى صوته كأسد يزأر قائلًا: «وماذا أنتم غير ذلك؟ مجموعة من الحمقى الملاعين، جميعكم. مسلوبو الإرادة منساقون كالأنعام خلف رجل يفوقكم حمقًا. نعم، ما أنتم إلا مجموعة من ببغاوات حمقى، هذه حقيقتكم، لا يكفي مجموع ذكائكم أجمعين ليُدير حجر رحًى. ما أراكم سوى شرذمة أصابتكم البيرة بالبلادة، ولم يتبقّ لكم من إدراك إلا ما يكفي لترَوْا ما إذا كان الكوب في أيديكم ممتلئًا أم لا.»

في هذا الوقت كان الحاضرون في القاعة قد صاروا في حالة سخط وعلى وشك الانفجار غضبًا. وانفتح باب صغير على يمين المنصة يؤدي إلى زقاق، وانسلّ عددٌ من ضعاف القلوب، لدى رؤيتهم لعاصفةٍ على وَشْك الاندلاع، وانسلوا إلى الخارج في هدوء. وتحوّل الاجتماع إلى حشدٍ هائج، يطالب أفراده بسفك دم الرجل الذي وقف يتحدّاهم ويكيل لهم الإهاناتِ ويحقّر من شأنهم.

خطا جيبونز، وقد شحبت شفتاه رغم الحزم البادي عليهما، خطوةً إلى الأمام. وقال: «لقد اكتفينا من حديثك. فلتغادر المنصة!»

استدار برونت كما لو كان يدور على محور ارتكاز، واندفع نحو أمين النقابة. تراجع الأخير إلى الخلف برشاقة، بينما عدا أحد أتباعه وقفز ضاربًا برونت بقدمه في معدته مباشرة. كانت الدفعة شديدة، وكان الهجوم مفاجئًا وغير متوقع، لدرجة أن برونت، رغم قوته الغاشمة، تراجع إلى الخلف بعنف وتكوّم جسده مثل شريط قياس معدني، ثم سقط على ظهره من فوق المنصة على الأرض. وعلى الفور، انقض عليه مجموعة من الرجال، وطاردوه، على الرغم من اللكمات التي راح يوزعها يمينًا ويسارًا، عبر الباب المفتوح المؤدي إلى الزقاق. وفي لمح البصر،

أُغلق الباب وقُفل بالمزلاج، ليصبح برونت في الخارج والمعتدون عليه في الداخل. حدث كل هذا بدقة وسرعة بالغتين، لدرجة أن رجال الشرطة، الذين كانوا متأهبين منذ بعض الوقت، لم يصلوا إلى الباب إلا بعدما أُغلق بالمزلاج. أما الحضور، الذين لم يُكَوِّنوا فكرةً عامةً واضحةً عما حدث، خلاف السقوط المفاجئ لبرونت على ظهره، فقد صاحوا مهللين بأعلى أصواتهم، الأمر الذي جعل جيبونز يشعر بالامتنان لذلك. فلم يكن يريد أن يعلموا أن الشرطة قد ألقَت القبض على برونت في الخارج، وكان حريصًا بشدة على ألّا يحدث أي اعتقال داخل القاعة إذا كان الاعتقال حتميًا لا مفر منه؛ ففي هذه الحالة، لن يحول حتى سب برونت العنيف للعمال دون التعاطف العام معه من قبلهم. وبينما كان صوت الهتاف يصم الآذان، سمع جيبونز صوت ضربة هائلة على الباب، ضربة كادت تقصم المزلاج، وجعلت وجوه الواقفين بالقرب منه تشحب. وكسرت ضربة قوية أخرى إطار الباب وظهرت أصابع دامية للحظة قبل أن تختفي. ثم كانت ثمّة دلالة على حدوث عراك قوي لم يستمر طويلًا في الزقاق، ثم هدأ كل شيء عدا صدى صوت الهتاف الرنان.

اتجه جيبونز إلى مقدمة المنصة ورفع يده في إشارة للحضور بأن يصمتوا.

وقال: «أشعر بأسف بالغ لما أبداه ذلك المتحدث الأخير من ملاحظات، وعبارات لم يكن ينبغي أن تصدر منه، ولكن دعونا نتذكر جميعًا أن الكلمات القاسية لا يمكنها كَسْر العظام. ولكن يكفي ما قيل الليلة، وحان الوقت للعودة إلى قضيتنا. أيها السادة، لقد سمعتم تقرير اللجنة؛ فما رأيكم؟»

وقف رجل من الجالسين في وسط القاعة وقال: «رأيي أن نُضرب عن العمل.»

وصاحت عدة أصوات قائلة: «أنا أؤيد ذلك.»

همس جيبونز في أذن الرئيس الحائر: «ابدأ التصويت.»

نهض سكيمينس واقفًا.

وقال: «لقد سمعتم الاقتراح جميعكم. فليقل الموافقون نعم.»

وارتفعت صيحة شبه جماعية بـ «نعم». وكان الرئيس على وشك العودة إلى مجلسه، إلا أن جيبونز سرعان ما أضاف قائلًا: «المعارضون.»

فنادى الرئيس، وهو متذبذب بين الجلوس والوقوف: «لا يوجد معارضون.»

لم تُسمع أي أصواتٍ معارضة؛ إذ كان مارستن قد غادر ليرى ما حل بصديقه، وتسلّل الرجال الخوّافون هاربين عندما شعروا ببوادر اضطراب.

قال سكيمينس وهو يعود لمقعده وقد بدت على وجهه أمارات الارتياح التام: «تمّت الموافقة على الاقتراح.»

فأضاف جيبونز بصوت عالٍ، دون أن يتمكن من إخفاء رضاه عن النتيجة، قائلًا: «وبالإجماع.»

الفصل التاسع

ثمّة شوارع في تشيلسي مخصصة فعليًا لاستديوهات الرسم. كانت عبارةً عن مبانٍ عريضة وقصيرة من طابق واحد تحتوي واجهاتها الأمامية على الكثير من الأبواب، وفي الخلف صفٌ من نوافذ كبيرةٍ تتألّف من ألواح عديدة من الزجاج تسمح بدخول الضوء القادم من الشمال الذي يحبه الرسامون، وكانت هذه المباني مصطفةً على جانبَي الشوارع التي أسماها بارني بأسلوبه الفكاهي الارتجالي شوارع «الشفق القطبي الشمالي»؛ وذلك لأن «الأضواء القطبية الشمالية» تغمرها، كما كان يقول دائمًا. كانت هذه المراسم ملائمةً تمامًا للرسامين العاديين الذين يعرضون لوحاتهم في الأكاديمية الملكية وأماكن من هذا القبيل، إلا أن رساماً ذا جوهرٍ حقيقي (وبالمصادفة يملك حسابًا مصرفيًا يعتمد عليه) كان يرغب في شيءٍ أفضل من هذه الحظائر؛ لذا اشترى بارني منزلًا وجهّزه ليلبّي احتياجاته. كان كريجنبوتوك هاوس، كما أسماه بارني تقديرًا متأخرًا للعبقري توماس كارلايل، منزلًا من ثلاثة طوابق تفصله عن الشارع قطعة أرضٍ محيطة به. وكان أن ترك الغرف في الطابق العلوي على حالها، وخصّص بارني غرف نومٍ لنفسه ولأصدقائه؛ فقد كان كرم ضيافته لا يُضاهى وبلا حدود. فُتحت الأقسام جميعها في الطابق الأول بعضها على بعض، بحيث كوّن هذا الجزء من المنزل شقةً واحدة واسعة، ما عدا مساحة خصّصها لتكون منصة تكريمٍ فخمة يُصعَد إليها، بطريقة مهيبة تليق بمعابد الفنون، عن طريق درجاتٍ حجرية عريضة حلّت محل الدرج الخشبي التقليدي الذي اكتفى به سكان المنزل السابقون. ومن أجل توفير الدعم الضروري للطابق العلوي، بعدما أُزيل جميع أقسام الطابق السفلي، وُضعت في سقف الطابق السفلي ألواح مربعة ضخمة من الخشب،

أعطت المرسم الفسيح مظهر سقف الحظيرة الضروري للغاية لإنتاج أعمالٍ فنيةٍ راقية.

اعترضت والدة بارني على البرودة القارسة لدرجات السلم الحجرية العارية. فقالَت إنه من منطلق وجود هذا السلم داخل المنزل، ولأنه ليس السلم المؤدي إلى مدخل المنزل الأمامي، فلا بد من وضع سجادةٍ عليها. أقر بارني بأنه في ظل الظروف العادية من الأفضل فعل ذلك بالفعل، وعرض طواعيةً تقديم تنازلٍ ما إذا طرأ حدث يستدعي وضع سجادة. إذا زاره أحدُ أفراد العائلة المالكة، فسيضع على الدرج السجادة الحمراء التقليدية التي اعتادَت أقدام العائلة المالكة السير عليها. بل إنه أقرّ لوالدته بأنه قد اشترى بالفعل لفةً من السجاد الأحمر، وكانت في تلك اللحظة موضوعةً في الخزانة الموجودة أسفل الدرج؛ لكي تكون جاهزةً في أي لحظة. ولكن في الأيام العادية ستظل درجات السلم عارية؛ لأن درجات السلم الحجرية في قصر «بيتي» كانت عاريةً دائمًا، وبما أن بارني كان ينوي أن يجعل لمنزل كريجنبوتوك، في نهاية المطاف، شهرةً وصيتًا في عالم الفنون مثل معرض فلورنسا، فسيحذو حذوَه فيما يتعلق بدرجات السلم. فلا شيء يضاهي البداية الصحيحة.

في الطابق الأرضي من المنزل، كانت غرفة الطعام والمطبخ، وأسفله يوجد قبو عامر بما لذّ وطاب. كانت الرّدهة مدهونةً بلون أحمر قانٍ غني، وينفذ الضوء إليها عبر نافذتين من الزجاج الملون اللامع رُكِّبتا أثناء تحويل المبنى من مسكن إلى مرسم. وعندما كان أحد يُطري على هاتين النافذتين، كان بارني يقول: «نعم. إنهما جيدتان إلى حد مرضٍ، ولكنهما ليستا أصليتين، كما تعلم، ليستا أصليتين. لا، إنهما مجرد نسختين منفّذتين بحرفية من جزء من نافذة في كاتدرائية كولونيا في عام ١٥٠٨. وقد وضعتهما هنا مؤقتًا؛ لأني كنت منشغلًا إلى حد أنني لم يتيسّر لي وقت لتصميم شيء أفضل بنفسي، وهذا ما سأفعله فيما بعد.»

ولكن من بين جميع الملحقات الزخرفية التي يحتويها هذا المرسم، ربما كان أكثرها إثارةً للاهتمام «خادم» بارني الذي ألبسه زيّ خدم مميزًا يجمع بين اللون الأزرق، والقرمزي، والفضي، كان جذابًا إلى أبعد الحدود. على الرغم من أن بارني لم يتيسر له الوقت الكافي، لتصميم نافذةٍ من الزجاج الملوّن تتفوّق على نوافذ كاتدرائية كولونيا جمالًا، فقد كان مجبرًا على تصميم هذا الزي؛ فلم يكن بالإمكان نسخ هذا الزي من الخارج، ولم تكن عائلة هوب من العائلات المرموقة ذات التاريخ الطويل؛ لكي يكون للخدم لديهم زيٌّ مميزٌ خاص بهم. فلا شيء يُضفي على أي مكان طابعًا مميزًا ووقارًا مثل «خادم» يرتدي ملابس فاخرة، ذات تصميم يدل على البذخ والترف بغض النظر عن التكلفة، ويتعاظم التأثير إذا كان جليًا أن «الخادم» لا يؤدي أي وظيفة ضرورية، أيًا كانت؛ فقلةٌ فقط من الناس هم من يصلون إلى قمة عدم الفائدة المطلق. وتدرك الفنادق الكبرى في هذا البلد مدى التميز الذي تكتسبه عبر امتلاكها كائنًا ذا رونق وهيبة على عتبات أبوابها، يقود النزلاء الوافدين في عظمة وشموخ بإشارة من يده نحو رَدهة الفندق. غير أن هؤلاء الأشخاص المتواجدين في هذا المكان لتزيينه غالبًا ما يحطّون من قدر أنفسهم، عبر فَتْح أبواب عربات الأجرة وأداء أعمال مفيدة أخرى، منحرفين بذلك عن وظيفتهم الأصلية، وهي، كما يُصر بارني، إسعاد أنفسهم عبر أن يكونوا حِسان المظهر لا غير.

عندما شكا أحد ضيوف بارني ذات مرة من أن الرجل الذي يقف عند قمة الدرج رفض أن يقوده إلى داخل المرسم، وضع بارني يده اليمنى على كتف الضيف بود أخوي، وقال له:

«إنه يعلم جيدًا، يا صديقي العزيز، أني سأطرده في الحال إذا ما نسي نفسه إلى حد الإجابة على سؤال.»

فسأله الضيف ببعض الاستياء: «وما الغرض من وجوده إذن؟ لا أرى له فائدة.»

أجابه بارني مهدئًا إياه: «هذا صحيح، هذا صحيح. لو رأيت له فائدة، فسيكون عليّ أن أطرده من العمل وأبحث عمن يحل محله، وأؤكد لك أنه ليس من السهل العثور على أشخاصٍ عديمي الفائدة يبلغ طولهم ست أقدام وبوصتَين. لا يا صديقي العزيز، ليس من السهل العثور عليهم، ثِقْ بما أقول. إن الناس عازفون تمامًا عن التفكير؛ حتى إنهم «سيطرحون» أسئلةً غبية. وأنا أنوي مقاومة هذه العادة قدر استطاعتي. هل تريد أن تعرف الغرض من وجوده؟ إذا وضعت تمثالًا رخاميًا عند قمة الدرج، لم تكن ستشعر بالإهانة إذا لم يردّ على استفسارك، ولم تكن ستسأل عن جدوى وجوده. ثمّة الكثير من الأشياء المفيدة في هذا العالم، لدرجة أن شيئًا لم تلوثه النفعية لا بد أن يحتفي به كل إنسانٍ مفكر عاقل، وإن أردنا إنقاذ هذا البلد النفعي ببشاعة، فعلينا، نحن معشر الفنانين، أن نقود المسيرة.»

ولكن كان لهذا الرجل المهيب الواقف أعلى الدرج استخداماته بالرغم من ذلك؛ فعندما دخل هالديمان ورجل آخر، استجابةً لدعوات بارني الشديدة الود لحضور واحد من «حفلات الاستقبال»، إلى رَدهة المنزل في الطابق الأرضي، وأبصرا هذا الرجل المذهل يقف أمامهما مثل تمثال زاهي الألوان على مستوًى أعلى منهما، قال هالديمان مبهورًا: «يا إلهي!» وتلمّس طريقه متعثرًا إلى الخارج عائدًا من حيث أتى، وتبعه الرجل الآخر الذي لم يَقل عنه ذهولًا، وكان رسامًا أيضًا يذوق الأمرّين في مجال الرسومات بالأبيض والأسود لصالح الصحف. تبادل الرجلان النظرات، بعدما ابتعدا لمسافة آمنة عن المرسم، وتوقفا عن السير أثناء ذلك. كان ذهولهما أقوى من أن يقويا على الكلام، إلا أن هالديمان علّق بجدية قائلًا:

«كان يجدر بي أن أتوقع شيئًا من هذا القبيل. تخيّل دخولنا إلى المرسم مرتديَين ملابسنا هذه! لقد نجونا بأعجوبة! أعرف مكانًا في شارع كينجز رود يمكننا أن نشتري منه شيئًا لنشربه. لنذهب إلى هناك ونرى إذا كان بإمكاننا التعافي من هذا الموقف الحَرِج. بارني، بارني، يا للأفعال التي تتم باسمك!»

وهكذا نبّه التمثالُ الحي بارني في صمت لوصول صديقَيه البوهيميين، اللذين لم يكن عليهما غبار في باريس، كما تعلم، ولكن لم يكن من المستحب وجودهما على الإطلاق، عندما يستقر المرء ليبدأ عملًا جادًا ويتوقع حضور النبلاء في حفلاته.

كان الوقار الهادئ الذي يتسم به «خادم» بارني يقابله النشاط البالغ لذلك الصبي المتأنق، الذي كان يفتح باب المرسم للحضور بشكلٍ أنيق. ربما يمكن تشبيه «الخادم الصغير» بقاربٍ طوربيدي صغيرٍ يمخر عباب البحر تحت ظل سفينةٍ مدرعةٍ مهيبة. فبينما كان الفتى الصغير يفتح الباب بيده اليسرى، كان يرفع يده اليمنى إلى قبعته ملقيًا تحيةً شبه عسكرية ترحيبًا بالضيوف القادمين، وتوديعًا للضيوف المغادرين.

كان من الصعب تخيُّل مكان أكثر ملاءمةً للتجمعات الفنية على غرار «حفلات استقبال» بارني من مرسم بارني. كانت الشقة واسعة، وتحتوي على الكثير من الأركان والزوايا التي استغلها متجر الأثاث في شارع توتنهام كورت رود على الوجه الأمثل. فكانت مفروشةً عند الأركان بأرائك صغيرة تكفي لشخصين، واحتوت على أركان معزولة مجهّزة بمقاعد فخمة، وتناثرت الأرائك الجذابة في جميع الأنحاء، وعلى الأرضية، فُرشت أنعمُ أنواع السجاد الشرقي. وألقت المصابيح الشرقية بضوءٍ خافت على الأجزاء المعزولة والتي كانت ستصبح مظلمةً لولاها، وأينما يمكن تعليق ستارة، تجد ستارةً معلقة. وكانت أبرز لوحات بارني،

التي كانت توضع في أُطر ذهبية وفضية أو من الخشب الطبيعي، مزينةً على نحو رائع، ولمنع غير الفنانين من إحراج أنفسهم بمحاولة تخمين موضوعات اللوحات، كُتبَ اسم كلٍّ منها بحروفٍ سوداء واضحة على الجزء السفلي من الإطار. كان هناك لوحات «جسر باترسي عند منتصف الليل»، و«تشيلسي وسط الضباب»، و«شارع تشيني رو في الثالثة صباحًا»، وغيرها من اللوحات الشهيرة، إلا أن ثمّة لوحةً رائعةً لنهر التيمز باللونَين القرمزي والأصفر، هي التي أظهرت قدرة بارني على رسم لوحاتٍ رائعة، تلك اللوحة التي، إذا ما أمكننا الوثوق في المقولة الشهيرة، حاول كثيرٌ من كبار الرسامين رسمها، ولكنهم فشلوا بسبب الطبيعة العصية لهذا النهر الشهير التي تحول دون رسمه بهذه الألوان التي تُظهره بهذا التوهج.

كان حفل «ما بعد الظهيرة» في مرسم بارني في أَوْجِه عندما دق جرسَ الباب شابٌّ لم يتلقّ بطاقة دعوة، إلا أن «الخادم الصغير» لم يكن يعرف ذلك، وفتح الباب على مصراعَيه وحيا الزائر بحركةٍ أنيقة منمّقة من يده، كما لو كان دوقًا. أجفل الوافد كثيراً عندما رأى انتصار الطبيعة والفن الواقف عند قمة الدرج مثلما فعل هالديمان، ولكن على الرغم من أنه وقف للحظاتٍ ذاهلًا، فإنه لم يعد أدراجه. وراوده هاجس مبهم للحظة بأن هذا الرجل قد يكون بارني نفسه، إلا أنه تخلّى عن هذه الفكرة بعدما أمعن التفكير فيها. كان مقبلًا على عالمٍ لم يألفه، ولكن همست له فطرته السليمة بأن سكان هذا العالم لا يرتدون ثيابًا على هذه الشاكلة.

سأل الشاب: «هل السيد برنارد هوب موجود؟»

أجابه الصبي بانحناءة وإشارة من يده ليدخل: «نعم يا سيدي. كعادته دائمًا. هلا تخبرني باسمك يا سيدي؟»

«مارستن.»

صاح الصبي نحو أعلى الدرج: «السيد مارستن.»

لم يتأثر تمثال أبي الهول المزخرف القابع عند قمة الدرج بهذا الإعلان، ولكن ظهر خادم آخر أقل بهرجةً أزاح الستائر الثقيلة، بينما كان مارستن يصعد الدرج، وعندما دخل، سبقه نداء اسمه وسط همهمة الأحاديث الدائرة في الداخل. كان المشهد الذي وقعَت عليه عينا مارستن عندما دخل المرسم محرجًا نوعًا ما، بالنسبة إلى رجلٍ خجول، ولكنه شعر بالارتياح عندما لاحظ، بعد لحظات من وقوفه منقطع الأنفاس عقب دخوله، أنه لم يسترعِ انتباه أيٍّ من الحضور تمامًا.

بدَت الحجرة الكبيرة مكتظةً بالناس على نحوٍ محيِّر، وكان ثمة صف من الرجال يقفون مولين ظهورهم للجدار، كما لو كانوا جزءًا من الديكور الجداري. كان الكثير منهم يمسكون بأقداح شاي في أيديهم، وبدا الملل على وجوههم جميعًا بصورة أو بأخرى. كانت الأرائك والمقاعد مرتبةً على هيئة صفوف، كما لو كانوا سيشاهدون عرضًا، وكانت المقاعد جميعها مشغولة، وأغلب الجالسين من النساء. كان ثمّة خادمان يجولان في أرجاء الحجرة لتقديم الشاي والكعك، بينما كان بارني نفسه يتنقّل بين الحضور، كما لو كان فراشةً عملاقة في حديقة زهور، ينثر رقةً وفكاهة أينما حل. ودائمًا ما كانت تصدح ضحكة مبهجة تضفي البهجة على الهمهمات الرتيبة للأحاديث الدائرة. كان واضحًا أن الحضور، ربما باستثناء تلك المجموعة التي كانت تقف عند الجدران في جدية، يستمتعون بوقتهم.

ومع تحوُّل الزحام أمام عينَي مارستن الشاب تدريجيًّا إلى أشخاص، توقف قلبه عن الدق فجأة، ثم عاد ليدق مجددًا بسرعة أكبر، حين أبصر إدنا سارتويل جالسةً على أحد المقاعد الأمامية، تبتسم لدى سماعها تعليقًا

فكاهيًا من بارني، الذي كان مائلًا باتجاهها. قبل لحظات، كان مارستن يحاول قهر رغبته في التراجع، عبر إخبار نفسه بأن جميع هؤلاء الأشخاص المتبطلين لا يمثلون شيئًا بالنسبة إليه، أما الآن، بعدما لاحظ وجود الشخص الذي يمثل كل شيء بالنسبة إليه، فقد أصبح عليه أن يقمع ذعره المتزايد بأسلوبٍ جديد. وعلى الرغم من صعوبة موقفه وعدم شعوره بالراحة، كان يعلم أنه لن يفرّ من أرض المعركة يجرٌ أذيال الخيبة قبل حتى أن تبدأ المهمة التي كلّف نفسه بها. فقد كان طبعه الحقيقي عنيداً ككلاب البولدوج، وهو الأمر الذي لم يختبر حدوده من قبل، على الرغم من أن هذا اللقاء المفاجئ مع عدد من الأشخاص يتبوءون مكانةً اجتماعية أعلى منه؛ قد وضع عبئًا ثقيلًا على شجاعته الأدبية. وعبثًا راح يُخبر نفسه أنه ليس أقل من أيٍّ منهم؛ فلم يكن في أعماق نفسه يصدّق ذلك؛ لذا لم يكن لكل هذه الطمأنة قيمةٌ تُذكر بالنسبة إليه. وفي نهاية المطاف، استجمع شجاعته، وتحدث إلى الخادم الذي أزاح الستار من أجله.

قال له: «هلا تخبر السيد هوب أني أود التحدث إليه للحظات؟»

اقترب بارني من الوافد الجديد بوجه باسم ويد ممدودة.

وقال: «كيف حالك، كيف حالك؟ يسعدني أنك قد وجدت بعض الوقت لتحضر حفلي المتواضع. لقد وصلت في الوقت المناسب؛ في الوقت المناسب تمامًا.»

تفحّص بارني مظهر ضيفه سريعًا بعين الفنان، وأدرك فجأةً أن ملابسه لا تحمل طابع شارع بوند، دون أن يدرك حقيقة أنها أفضل حُلّة يمتلكها الضيف. فاختفت الابتسامة من على وجه الفنان.

وأضاف قائلًا: «معذرة! ظننت أني أعرفك، ولكني لا أعتقد الآن أنني قد تشرفت بـ...»

«لا. لا توجد معرفة سابقة بيننا يا سيد هوب. أنا أحد عمال مصنع والدك.»

«حقًا. هل جئت حاملًا لي رسالة منه؟»

«جئت للقائك من تلقاء نفسي. وكنت أتمنى بشدة أن أتحدث إليك بشأن العمل.»

«أوه، ولكن، يا صديقي، كما تعلم! هذا يوم «حفل الاستقبال» الذي أنظّمه. ولا أتحدث عن العمل في هذه الأيام، أبدًا. وإذا أردت أن تشتري أيًا من لوحاتي، أو كانت لك أي طلبات أخرى، فسيكون عليك أن تأتي في يوم آخر.»

«لم آتِ للحديث عن اللوحات، بل للحديث عن أمر مختلف تمامًا وأكثر جدية.»

«هلا تسامحني على مقاطعتك يا صديقي؟ لا يوجد شيء جاد إلا الفن، واليوم لن أتحدث حتى عن الفن.»

قال مارستن بانفعال: «حياة الناس أكثر جديةً من الفن.»

«لا ترفع صوتك من فضلك. لا شك في أن الأمور مختلطة عليك، ولكني لا أملك وقتًا لتصحيح مفاهيمك اليوم. وكل ما يجب قوله بشأن تعليقك الأخير أن حياة الناس إلى زوال، أما الفن فسرمدي. لهذا السبب، الفن هو أهم الأمرين. ولكننا سنتغاضى عن ذلك. ألَا يمكنك أن تأتي لنتحدث في يومٍ آخر؟ ثق أني سأسعد بلقائك في أي وقت.»

«ألَا يمكنك أن تمنحني خمس دقائق من وقتك نتحدث خلالها على السلم في الخارج؟»

«مستحيل. لا يمكنني ترك ضيوفي. كما ترى، سنستقبل الإيرل الراقص خلال لحظات معدودة. وسموه الآن يرتِّب تنوراته أثناء حديثنا. لا بد أن أعود لضيوفي.»

«سأنتظر إذن حتى يُنهي الإيرل رقصته، إذا كان هذا هو سبب حضوره.»

«لك هذا يا صديقي العزيز، لك هذا. إنها فكرة رائعة. وأنا على يقينٍ من أنها ستعجبك، ورغم أني لم أشاهد الرقصة بنفسي، فأنا أرى أنها فريدةٌ من نوعها. فلتحصل على كوب من الشاي. كنت سأرسل لك بطاقة دعوة لو اعتقدتُ أن أيًا من العاملين لدى والدي مهتم بأحدث الحركات الفنية، ولكن لا تعبأ بأمر الدعوة. إذا أردت البقاء دون دعوة، فسيسعدني ذلك. من الرائع حقًا أن تزورني بهذه الطريقة المفاجئة؛ هكذا أحب أن تسير الأمور، بطريقة بوهيمية تمامًا. أنا واثق من أنك ستعذرني الآن لتركك»، وانصرف عنه بارني ليرى إذا ما كانت جميع ترتيبات ظهور الإيرل قد تمت.

أُزيح تمثال عرض الأزياء إلى أحد أطراف الحجرة المواجه للحضور، وأُسدلت ستائر سميكة على النافذة الشمالية الكبيرة تاركةً المكان شبه مظلم، وسُمعت أصوات فحيح وقرقعة إضاءة الجير في الرواق، ما دفع الفضوليين من الحضور إلى الالتفات برءوسهم ليروا ما يحدث.

وقف مارستن مستندًا إلى الجدار بجوار رجلٍ آخر، قال له بنبرةٍ يغلب عليها الضجر:

«من يكون هذا الرجل برنارد هوب؟»

أجابه مارستن، متعجبًا من أن أحد الضيوف قد يسأل شخصًا لا يعرفه عن مضيفهما: «إنه فنان.»

رد الرجل الآخر: «هذا واضح. ولكن، من تكون عائلته، أم ليس له عائلة؟»

«والده أحد أثرى رجال الصناعة في لندن.»

«يا إلهي، كنت واثقًا من ذلك. كنت أعلم أن ثمّة شيئًا يتعلق بالتجارة في أصوله؛ فالرجل مهذب للغاية.»

قوطع الحديث الدائر بينهما في هذه اللحظة، حين وقف جسمٌ ما على حامل عرض اللوحات، وفي اللحظة نفسها، سطع ضوء باهر من الرواق عليه. سرت موجة من التصفيق وانحنى الإيرل، الذي كان شابًا بدون لحية ربما كان في العشرين من عمره. كان يشبه الفتيات في تنوراته الضيقة المحزّزة. كان سليل عائلة نبيلة عريقة أسّسها راقص شغوف في عهد الملك تشارلز الثاني، ووفقًا للترتيب المعتاد للأمور، كان لا بد أن تتفجر مَلَكة الرقص هذه من جديد لدى آخر أفراد العائلة.

تحول اللون الأبيض إلى الأحمر وبدأت رقصة التنورة. وأثناء العرض، كان الحضور يصفقون بحرارة؛ فجمهور لندن من السهل إرضاؤه دومًا، لا سيّما إذا كان الدخول وحضور العرض مجانًا. ولكن إحقاقًا للحق، كان الإيرل الصغير الرشيق يستحق الحفاوة التي استُقبل بها؛ فقد كان أداؤه نموذجًا للأناقة والرشاقة معًا، كما أن تلاعبه بالتنورات العديدة التي كان يرتديها، كان مثاليًا. وأضفَت الألوان المتنوعة التي سقطَت على القماش أثناء رفرفته ودورانه تأثيرًا غريبًا ورائعًا لحركات سموه السريعة، وأعطى المشهد الختامي الباهر، حينما سقط ضوءٌ قرمزي على الحرير الخفيف الذي يخفق عاليًا فوق رأس الراقص، النبيل الشاب الرشيق مظهر أحد الشهداء القدامى تحوطه ألسنة اللهب.

رُفعت الستائر، ونهض الحضور المبهور واقفًا، وتجمّعوا حول مضيِّفهم يهنِّئونه على نجاح حفل ما بعد الظهيرة. تقبّل بارني هذه التهاني بامتنان

جَذِل، وتلقّى الإيرل الشاب في تواضع حصته المستحقة من الإشادات، بعد أن ظهر أخيراً من خلف الكواليس، وقد ارتدى ثيابه وعاد إلى حالته الذهنية الطبيعية، ولكنه كان يلهث قليلًا؛ لأن أصحاب الموهبة الحقيقية واثقون دائمًا أنهم سيجدون التقدير في هذه المدينة العظيمة، ودع السفهاء يقولوا ما يحلو لهم.

أخذت إدنا سارتويل تتلكأ ببطء للحظاتٍ حول دائرة الزحام التي أحاطت ببارني والإيرل الصغير، ثم شقّت طريقها متمهلةً نحو الباب، منتظرةً زوجةَ أبيها التي اتجهَت نحو مضيِّفها على مهلٍ لتشكرَه. كان الرجال الذين ظلوا واقفين بمحاذاة الجدار قد خرجوا إلى الشارع بالفعل، وغادر جميع الضيوف الآخرين تقريبًا.

وقف مارستن وحيداً في نفس المكان الذي شاهد منه العرض، محدقًا بقلب يخفق بقوةٍ في الفتاة التي أحبها. اقتربَت الفتاة منه ببطءٍ دون أن تنظر نحوه؛ إذ كانت تراقب زوجة أبيها التي كانت تقف وسط الجمع الملتف حول بارني الذي كان في تناقص سريع. كانت تتحرّك كما لو كانت فاقدةً الوعي، كما لو أن الشاب قد نومها مغناطيسيًا، وكان يجرها نحوه بقوة الإرادة فحسب. وأخيراً لمسته تنورتها وتخدرت أعصابه حتى أطراف أصابعه. وعلى نحو شبه لا إرادي، غمغم قائلًا:

«مرحبًا يا آنسة سارتويل.»

أدارت الفتاة رأسها نحوه في حركةٍ سريعة، ولوهلة التقت عيناهما دون أن تعرفه.

قال مارستن بصوت أجش بعدما أدرك أنها لم تعرفه: «اسمي مارستن. التقيت بكِ ذات ليلةٍ في مكتب والدك عندما كنا نتحدث عن الإضراب.»

ردت قائلة: «أوه، نعم. لم أتذكرك للوهلة الأولى. فلم ... لم أتوقع أن ...»، ثم صمتَت وبدا عليها الارتباك، وأشاحَت بوجهها بعيداً عنه.

قال الشاب متمّمًا جملتها نيابةً عنها: «أن تجديني هنا»، واستجمع شجاعته؛ فقد ألقت الحقيقة المبهجة بأنه يتحدث إليها بالفعل بواقعها الذي لا يُصدّق عليه. «لم أكن أعلم أن ثمّة حفلًا كهذا مُقام هنا. لقد حضرت للتشاور مع السيد هوب بشأن الموضوع نفسه ...» واحمرّ وجهه عندما عادت إلى ذهنه ذكرى موضوعٍ ما، وشعر بأن شجاعته التي اكتسبها حديثًا قد بدأَت تتراجع مجدداً. ثم لملم شتات نفسه واختتم عبارته ببطءٍ قائلًا: «... عن الإضراب، كما تعلمين.»

قالت إدنا وقد استرعى الموضوع اهتمامها في الحال: «أوه. هل من جديدٍ بشأن الإضراب؟»

«نعم، كان ثمّة اجتماع ليلة أمس، وتم التصويت بالإجماع على الامتناع عن العمل.»

شحب وجه الفتاة.

وقالت: «وهل بدأ العمال الإضراب بالفعل؟ هل حضرت إلى هنا اليوم لهذا السبب؟»

«لا، لن يبدءوا الإضراب حتى يوم السبت القادم. لقد بذلت قصارى جهدي لأمنع حدوثه، ولكني لم أفلح. وطلبت من والدك الحصول على إجازة عصر اليوم، ومنحني إياها دون أن يسألني عن السبب. وخطر لي أننا قد نستطيع القيام بشيء خلال الأيام القليلة التي تفصلنا عن الإضراب، بعدما تخمد حماسة الاجتماع. ولهذا السبب حضرت إلى هنا، ولكني أخشى أني لن أحظى بأي مساعدة هنا.»

«هل يعلم والدي؟»

«عن الإضراب؟ نعم.»

غشي القلق وجه الفتاة الساحر. وأخيراً قالت: «أنا آسفة للغاية. أنا واثقةٌ من أن ما حدث ليس خطأ والدي؛ فهو يرفق بالجميع. حتى وإن كان صارماً في بعض الأحيان» — ثم رفعت عينَيها مرسلةً نظرةً خجولةً إلى الشاب جعلَت نبضات قلبه تتسارع — «إنه عادلٌ دائماً.»

«نعم، أعلم أن هذا صحيح. سينتصر على العمال؛ ولهذا السبب أريد أن تكون الغلبة للناصحين المحايدين. لطالما كان العمال مستضعفين. وأغلب من يتشدقون بأنهم أصدقاؤهم حمقى، والعمال أنفسهم هم الأكثر حمقاً على الإطلاق.»

«ألَا ترى أنك تقسو قليلاً على العمال؟ هل وصلت إلى هنا في الوقت المناسب لتشاهد الإيرل الراقص؟»

نظرَت إليه وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة واضحة، وابتسم لها مارستن أيضاً ابتسامةً أضاءت وجهه على نحو رائع، وأنشأت بينهما رابطة صداقة عابرة.

قال: «لقد نسيت الإيرل.»

«يجب أن أذهب الآن. فأنا أرى زوجة أبي تبحث عني. أتمنى أن تنجحَ في تدارُك المشكلة في المصنع.»

مدت يدها نحوه لتصافحه، فأمسك بها برقة؛ خشية أن يقبض عليها بقوةٍ مبالغٍ فيها ويفصح عمّا في قلبه.

كانَت السيدة سارتويل وابنة زوجها آخر المغادرين.

ألقى بارني نفسه على إحدى الأرائك وأشعل سيجارة.

وقال: «حسنًا، يا صديقي الشاب، ها قد أصبحنا بمفردنا أخيرًا. خذ ما يحلو لك من سجائر، واسمح لي بأن أقدِّم لك مشروبًا أقوى من الشاي الذي نمتّع به النساء. لدينا العديد من أنواع الشراب في الخزانة، كل ما عليك فعله هو أن تذكر نوعك المفضل من المشروبات الكحولية، بينما أطلب لنفسي براندي وصودا. قد لا تصدق ما سأقول، ولكن حفلات ما بعد الظهر هذه قد تكون أكثر إرهاقًا للمرء من يوم عملٍ كاملٍ في المصنع. ولا يعني هذا أني قد عملت في المصنع من قبل، ولكن أعتقد أنك قد قلت إنه مجال عملك.»

قال مارستن بعدما رفض عروض الضيافة التي قدّمها مضيِّفه: «هذا صحيح. أريد التحدث إليك بشأن المصنع. لقد قرر العمال ليلة أمس الإضراب عن العمل.»

«متسولون حمقى.»

«أتفق معك في هذا تمامًا. إن تصرفهم أسوأ من الحمق نفسه؛ ولهذا السبب حضرت إليك لأرى إن كنت مستعدًا للتدخل بأي شكلٍ بهدف بث مزيد من الرضا في نفوسهم.»

«حسنًا، الآن دعنا نرَ، أعتقد أني نسيت اسمك، أم أخبرتني به؟ أوه نعم، مارستن، شكرًا لك، ثمّة الكثير من الأمور تزحم فكري. كما ترى يا سيد مارستن، إن الأمر لا يخصني من قريب أو بعيد، وإن كان لا بد أن أُقر بأن عرضك أن أكون مُحكِّمًا يسعدني كثيرًا. وهذا ثاني عرض يصلني في هذا الشأن في غضون أيام قليلة؛ لذا أعتقد أنني دبلوماسي بالفطرة. ولكن، كما ترى، لا متعة لديّ تضاهي الاهتمام بشئوني، وهذا الإضراب لا يعنيني.»

«أعتقد أنه يعنيك. لا شك في أن كل الترف الذي تعيش فيه هنا قد جنيته من وراء العمال الذين أتحدث باسمهم الآن.»

«صديقي العزيز، حديثك الآن يخلو من أي إطراء ولا يمنحني أي سعادة على الإطلاق، أؤكد لك هذا. فما تقوله يعني أن لوحاتي لا تُباع.»

«لم يكن لديّ أي نية للتلميح بأي شيء من هذا القبيل. فأنا على يقين من أنك قادر على بيع أي لوحة ترسمها.»

«آه، إنك تبالغ في الثناء على الفطنة الفنية لدى الجمهور البريطاني التي تُعد — في الوقت الحالي — شرفًا لا يستحقه الجمهور البريطاني. سيدركون قيمة الفن في النهاية — فالجمهور البريطاني العظيم دائمًا ما يفعل ذلك — ولكن ليس بعدُ يا صديقي، ليس بعد. تحلّ بالصبر، وسترى الأموال تنهال عليك. يؤسفني أن هذه اللحظة — كيف يجدر بي قول ذلك؟ — حسنًا، لم تأتِ حتى الآن. إن العمال الذين تشرّفهم بالانتماء إليهم، في الوقت الراهن — كما قلت أنت بفظاظة لا داعي لها — يُعوِّضون العجز المالي الذي أعاني منه. إلا أن الجمهور سيدفع مقابل هذا العجز في نهاية المطاف؛ سيدفعون كل بنس منه يا صديقي. هل ترى هذه اللوحات المعلّقة على الجدران؟ حسنًا، لقد حدّدت سعر كل واحدة منها بألفَي جنيه. وأجد بعض الصعوبة في بيعها بهذا المبلغ؛ إذ لم يُبدِ أي قطاع من الجمهور البريطاني العظيم، حتى وقتنا هذا، أي رغبة في شرائها مني مقابل هذا المبلغ الضخم. وما عاقبة ذلك؟ أقسم أنني سأرفع سعرها خمسمائة جنيه كل عام، وكلما طال بقاؤها على الجدار، سيزداد المبلغ الذي سيكون عليهم دفعه مقابلها، وهم يستحقون ذلك تمامًا. عشر لوحات مقابل عشرين ألف جنيه هذا العام. وفي العام القادم، ستساوي خمسة وعشرين ألف جنيه، وهكذا. ومع زيادة أسعار ممتلكاتي بهذا المعدل، سأكون أحمق إن حضضت الناس على الشراء. إن أسعار إيجارات العقارات في بلجرافيا لا تُقارن، باعتباره استثمارًا، بلوحاتي. لذا، كما ترى يا مارستن، عندما يصبح النجاح حليفي، لن يكون المصنع سوى مصدر تافه للدخل مقارنةً بفُرشاتي.»

«ولكن ماذا ستفعل في غضون ذلك؟»

«في غضون ذلك، تسير أموري على الوجه الأمثل، شكرًا لك. لن يكون للإضراب أدنى تأثير عليّ مطلقًا. قد يتعيّن على العمال تقليل كمية التبغ الخشن أو أيًا كان المزيج المريع الذي يدخّنونه، ولكني لن أقلّل من عدد السجائر التي أدخّنها ولو سيجارةً واحدة. ليس لي ناقة ولا جمل في هذا الصراع. وإذا أراد العمال القتال، يا ألله! رأيي أن تدعهم يفعلون.»

«لم يبدأ القتال فعليًا بعد، ولن يبدأ حتى السبت القادم. والآن هو الوقت المناسب لتدخّل رجل رزين للتوصل إلى اتفاق ودي. ألن تحاول حتى يا سيد هوب؟»

«عزيزي مارستن، إن الطريق أمام من يُعين نفسه وسيطًا دون سلطة تُخوّل له ذلك؛ طريقٌ شاقٌ وصعب. كنت أقرأ في الجريدة الصباحية اليوم عن اجتماعكم الرائع ليلة أمس، ولاحظت أن رجلًا حاول التدخل فأُطيح به من على المنصة وأُلقي في شارع جانبي. تلك هي فكرة العمال عن كيفية إنهاء المناقشات الفكرية. أنا نفسي أحب العمال، ولكني أتمنى أحيانًا لو أنهم لا يستخدمون نعال أحذيتهم ذات المسامير في النقاش. بالمناسبة، هل رأيت ما حدث؟ كنت هناك على ما أعتقد؟»

«نعم. إن برونت، الرجل الذي طُرد، أحد أفضل العمال في المصنع، ولكنه سريع الغضب للغاية. وقد فقد السيطرة على أعصابه ليلة أمس، بسبب استفزاز شديد تعرض له، وعندما أُخرج من القاعة، حاول كسر بابها. وتدخلت الشرطة، وصرع ثلاثةً منهم. كان الأمر كارثيًا؛ إذ غُرّم خمسة جنيهات صباح اليوم، وكنت أحاول جمع المال من أجله حتى لا يُسجن، ولكننا ضمن الأقلية — فقد أثار سخط زملائنا من العمال — ولست على وفاق مع العمال أيضًا.»

قفز بارني واقفًا على قدميه.

وقال: «هل قلت صرع ثلاثةً منهم؟ رجلٌ رائع. يعجبني هذا. إن أكثر خَصلة مشينة في شخصيتي هي أني أستمتع بالاعتداء على رجال الشرطة، ولكني أقدِّر فائدة قوات الشرطة بوجه عام. هل قلت خمسة جنيهات؟ إنها التكاليف إذن، لا أفهم هذه الأمور كثيراً، ولكني أعتقد أنه عادةً ما يكون هناك تكاليف، أظنٌ بسبب إضافة الإهانة إلى الإصابة. هل عشرة جنيهاتٍ تكفي لإطلاق سراحه؟ جيد. ها هي. ثلاثة جنيهاتٍ فقط مقابل رجل شرطة ليس بالمبلغ الباهظ، عندما تفكِّر في أن بعض الرفاهيات هنا تتكلّف أكثر من هذا المبلغ. لا تشكرني يا مارستن، أرجوك؛ أؤكد لك أن هذا يسعدني.»

بعدما أخذ مارستن المال، دخل أحد الخدم وقال بصوتٍ خافت: «يريد سمبسون أن يعرف إن كان يمكنه الانصراف يا سيدي.»

«يا إلهي، نعم. ظننت أنه قد انصرف منذ وقت طويل. سمبسون هو الرجل المزخرف ذو الطول الفارع البالغ ست أقدامٍ الذي يقف على قمة الدرج، لعلك رأيته أثناء دخولك. يا للمسكين! ليس مسموحاً له بفعل أي شيء عدا أن يقف مكانه ويبدو جميلًا؛ لذا أعتقد أنه بدأ يشعر بالملل. تخيّل تفانيه في الطاعة على طريقة الفتى الواقف على سطح السفينة المحترقة في نهاية القرن التاسع عشر! لقد نسيت أمره تماماً؛ إذ انهمكت تماماً في محادثتك المثيرة للاهتمام. حسناً يا مارستن، أنا آسف، لا يمكنني أن أكون مُحَكِّماً، ولكن يمكنك زيارتي مجدداً، وإخباري بما ستئول إليه الأمور. طاب يومك!»

الفصل العاشر

في يوم السبت، أخذ العمال أجورهم المستحقة، واحداً تلو الآخر، وخرجوا من بوابات المصنع في هدوء متجهمين. خلال الأيام التي فصلت بين الاجتماع والإضراب، لم يحاول أيٌ من الطرفَين التواصل مع الطرف الآخر. وإذا كان سارتويل قد استعد للصراع، فقد تمت هذه الاستعدادات في سرية تامة؛ حتى إن جيبونز لم يتمكن من اكتشافها. وأصدر سكرتير النقابة بياناً للصحافة، عرض فيه موقف العمال بعباراتٍ معتدلةٍ كان لها تأثيرٌ كبير على جذب تعاطف الرأي العام إلى حدٍّ كبير نحو جانب العمال. كان البيان وثيقةً جديرة بالإعجاب، وقد نشرته أغلب الصحف، وكتب بعضها مقالات افتتاحية، عبّرت فيها عن أسفها لحقيقة أنه في هذا البلد المستنير وفي هذا العصر الصناعي، أُجبر بضع مئات من العمال، العمود الفقري للأمة، الراغبين في الكد والعمل، على الخروج إلى الشارع احتجاجاً على طاغيةٍ مستبدٍّ رفض حتى مناقشة أخطائهم المزعومة. وأشارت الصحف إلى أن كون مطالب العمال عادلةً أم لا هو مسألة هامشية؛ فالقضية الأساسية هي أن المدير رفض لقاء وفد منهم، وقالت الصحف إنها مُضطرة إلى استنكار هذا السلوك المتغطرس.

رأى مالكا الشركة ضرورة الرد على هذا البيان. إلا أن المدير لم يتفق معهما في الرأي؛ فلم يتم الرد على البيان.

عُين خفراء أمام بوابات المصنع، وظهر في الحي عدد إضافي من رجال الشرطة، وإن لم يكن بالكثير، كما لو أن الأمر مصادفة؛ ولكن لم يكن بيد الخفراء أو رجال الشرطة شيء يفعلونه. ففي يوم الإثنين، نظر بضعة رجال كانوا يتسكعون في المكان إلى أعلى نحو المداخن الشاهقة، وللمرة

الأولى في حياتهم رأوها بلا دخان يتصاعد منها. لم يكونوا قد لاحظوا الدخان من قبل، إلا أن غيابه الحالي خلق فراغًا غير متوقع في المشهد الضبابي. بدا الأمر وكأن إصبع الموت قد لامس تلك المداخن المهيبة النحيلة، كما أن الصمت غير المعتاد للمكان، الذي اعتاد الناس دومًا صخبه الدائم، أضفى على الموقف شعورًا بجديةٍ موحشةٍ لم يتطلعوا إليها يومًا.

في يوم الثلاثاء، وصلت حاويات محملة بمعدات جديدة إلى المصنع، وحاول الخفراء إيقافها، ولكن دون جدوى. وعند استشارة جيبونز بشأن هذا الأمر، أبدى وجهة نظر معقولة ومتفتحة حياله.

إذ قال: «دعوهم يُدخلوا المعدات الجديدة كما يحلو لهم. فهذا سيعني وظائف لمزيد من العمال عندما نعود إلى العمل. لن نتدخل في شئون سارتويل إلا إذا حاول ملء المصنع بموظفين آخرين.»

وعلى مدار ما تبقّى من الأسبوع، تصاعد من داخل المصنع صوت طرق الحديد بالحديد، ولكن لم يتصاعد أي دخان من المداخن الطويلة.

قال أحد العمال وهو يتجرع البيرة من كوبه: «هل تُسمي ما يحدث حربًا؟ أنا أسميه عيدًا للعمال.»

وفي يوم السبت، صُرِف راتب الإضراب للعمال في مقر الشركة، وحصل كل عامل على أجره المعتاد؛ إذ كانت النقابة العمالية ثرية. لقد كان بالفعل عيدًا للعمال؛ إذ يحصل الجميع على أجورهم بدون عمل.

تمكّن سارتويل خلال الأسبوع الأول من الإضراب من إجراء إصلاحات وإضافة ماكينات ومعدات كان المصنع في حاجة إليها منذ أمد بعيد، إلا أن ثمّة نتيجةً أخرى اعتبرها أكثر أهميةً من ذلك. فقد تمكّن السيد مونكتون والسيد هوب من تجديد طاقتيهما، إن جاز التعبير. فقد أصاب الذعر هذَين الرجلَين الطيبَين رغم ما بهما من جُبن؛ بسبب ترك

موظفيهما العمل، والتعليقات المناوئة لهما من قِبَل الصحافة. ولما لم يحدث جديدٌ خلال الأسبوع، استعادا تدريجيًا ما أطلقا عليه شجاعتهما، وأصبحا أكثر التزامًا بالقتال عندما آن أوانه، على الرغم من عدم إدراكهما لذلك. كان من الصعب عليهما التراجع أو الاستسلام بلباقة وكياسة، بعدما التزما الصمت طوال أسبوع كامل من السلام والهدوء، حال حدث عنف بعد ذلك.

ربما فترت يقظة الخفراء قليلًا بمرور الوقت وعدم وجود شيء لفعله. غير أنهم تلقّوا هزةً عنيفة ذات صباح بدّدت أوهامهم. عندما وصلوا إلى بوابات المصنع رأوا الدخان يتصاعد من المداخن من جديد، وسمعوا طنين الآلات، كان المصنع يعمل بكامل طاقته، وكان العمال السابقون خارج أسواره.

وسرعان ما انتشر الخبر، وتجمّع العمال حول البوابات من جميع الجهات. وصل جيبونز مبكرًا إلى مسرح الحدث، مثل قائد عسكري نشط مستعد لقيادة جنوده إلى المعركة. فقد أدرك أن المعركة قد آن أوانها، ولجأ إلى التهدئة عندما تحدث إلى العمال الثائرين. فقال لهم، لا بأس، فقد توقع حدوث هذا وكان مستعدًا له.

كانت البوابات مغلقة، وعندما طلب جيبونز الدخول للتحدث إلى المدير، قوبل طلبه بالرفض القاطع. ولم يُهدِّئ هذا الرفض من ثورة العمال أو يحد من سخطهم. وحاول رجال الشرطة منع التجمهر قدر إمكانهم، إلا أن المهمة ازدادت صعوبةً أكثر فأكثر مع تزايد أعداد العمال.

عند الظهيرة، جاءت عربة، كان واضحًا أنها محملة بالمؤن، عبر الشارع، وعندما أدرك الحشد أن وجهتها هي المصنع، علت صيحةٌ من بين الحشود بضرورة قلب العربة.

ومرةً أخرى، أثبت تأثير جيبونز المهدئ على العمال جدواه، وعبرت العربة البوابات التي أُغلقت من خلفها بسرعة، وسط سباب العمال الذين وقفوا يشاهدونها مكتوفي الأيدي.

توجّه جيبونز برفقة مساعديه إلى مقر القيادة، حيث عقدوا جلسة مباحثات. كان ثمّة احتمال أن سارتويل، خلال الأسبوع الأول من الإضراب، عندما كان من المفترض أنه يُدخل معدات جديدة، كان يبني أيضًا مساكن لعماله الجدد، وكان يخطّط لإبقائهم داخل أسوار المصنع ليُبعدهم عن تأثير النقابة.

لم يتوقع جيبونز هذه الخطة، ولم يكن مستعدًا لها.

قال سكرتير النقابة: «سوف يخرج العمال من المصنع حتمًا إن آجلًا أو عاجلًا، وعندما يخرجون سنتحدث إليهم. ظني أنهم سيخرجون الليلة في الموعد المعتاد، وأقترح عليكم أن نتصرف بناءً على هذه الفرضية. وإذا ثبت لي أنها خاطئة، فسنجتمع مرةً أخرى الليلة، وسيكون لديّ اقتراحات أخرى لعرضها عليكم. لن يمر وقت طويل قبل أن نعرف إذا كان مفسدو الإضراب سيخرجون أم لا. وحتى ذلك الحين، عودوا إلى مواقعكم بين الرجال وأوصوهم بألّا يُبدوا أي عداء عندما يظهر مفسدو الإضراب، وعندما يخرجون اعملوا جميعًا على إقناع أكبر عدد ممكن منهم بالحضور إلى القاعة الكبيرة، حيث يمكننا التحدث إليهم. أخبروا الرجال بأنه إذا حدث أي عنف فإنهم بذلك يحقّقون ما يريده سارتويل تمامًا. لا نريد استعداء الشرطة، وسيظلون محايدين على الأقل، ما دام الصدام لم يحدث.»

لقيت هذه النصيحة ثناءً من كل من سمعها، ورُتبت تفاصيل الخُطة، وانصرفوا جميعهم إلى موقع الصراع.

في تمام السادسة، فُتحت بوابات المصنع، ولم يمر وقت طويل حتى تدافع «مفسدو الإضراب» عبرها إلى الشارع. لم يكن ثمّة صياح أو سباب، إلا أن المضربين رمقوا الوافدين الجدد بنظرات عابسة، في حين بدا الانزعاج على وجوه الأخيرين، وبدا الخوف واضحًا على كثير منهم جراء هذا الاستقبال.

صاح جيبونز: «أيها الرجال، من قائدكم؟ أريد أن أتحدث إليه.»

توقف الطابور لحظةً على الرغم من تعليمات الشرطة بعدم التوقف. وتبادل العمال النظرات، وسرعان ما أدرك جيبونز الموقف؛ لقد كانوا جميعًا غرباء بعضهم عن بعض، إذ جاءوا من جميع أنحاء إنجلترا. وأكّد أحد الرجال هذا التخمين عندما قال بصوت عالٍ:

«لا قائد لنا.»

فصاح جيبونز: «ستتحدث أنت نيابةً عنهم إذن. هل كنتم تعلمون، عندما حضرتم للعمل هنا، أن ثمّة إضرابًا عن العمل؟»

ردّ المتحدث باسم العمال الجدد متجهمًا: «نعم، سمعنا عن شيء من هذا القبيل.»

«هل تنتمون إلى نقابة عمالية؟»

«لم تفعل النقابة العمالية شيئًا من أجلنا.»

«هل تُدركون أنكم تأخذون الخبز من أفواه عمال آخرين؟»

«علينا أن نضع الخبز في أفواهنا نحن.»

في هذه اللحظة، ربت قائد الشرطة على كتف جيبونز.

وقال: «لا يمكنني أن أسمح باعتراض طريقهم هكذا.»

فرجاه جيبونز قائلًا: «امنحني دقيقتَين فقط.»

«لا، ولا دقيقة واحدة حتى.»

التفت جيبونز نحوه في غضب.

وقال: «اسمع. تحلّ ببعض الذكاء والفهم. ألَا تُدرك أني بإشارةٍ واحدةٍ من يدي سيمحوك هذا الحشد ورجالك من على وجه الأرض؟»

«لن يمنعني هذا من الزجِّ بك في السجن.»

«بالطبع لا. يمكنك أن تلقي القبض عليَّ بهدوء، وقتما تشاء، أو يمكنني أن أحضر إليك في قسم الشرطة في أي وقت تحدِّده، ولكن إذا حاولت التدخل الآن، فسيحدث شغب وستكون أنت المسئول. أنا من يكبح جماح هذا الحشد، وليس الخوف منك. لا توجد عربات في هذا الشارع، وليس من المرجح أن تمر. ومن ثمّ، فإننا لا نُعيق أي شيء، وأنا حريص مثلك على أن يلتزم الرجال بالقانون. يا إلهي! قد تتفاقم الأمور في أي لحظة وتنشغل بالسيطرة على العمال، فاتقِ شر الحليم إذا غضب. وتذكر، أنت لا تعمل لدى سارتويل. كل ما أريده هو التحدث قليلًا مع هؤلاء الرجال، ثم سنترك الشارع لك.»

تردَّد قائد الشرطة لحظة. فقد كان منظر الحشد يُنذر بالشر.

ثم قال وهو يتراجع إلى الخلف: «أسرع إذن.»

صاح جيبونز: «تعالَوا معنا. لا يمكننا أن نتحدث هنا. تعالَوا إلى القاعة الكبيرة، وإذا لم يعجبكم ما نقول، فلن تضاروا في شيء. هذا بلد حر.»

استدار سكرتير الاتحاد كما لو أنه على يقين تام من أن الحشد سيتبعه، وتبعه العمال الذين لا قائد لهم. اندس مساعدو جيبونز بينهم، وبدءوا يتحدثون مع الغرباء. وقبل أن تمضي نصف ساعة، كان «مفسدو

الإضراب» جميعهم جالسين في قاعة جيش الخلاص يوقِّعون على أوراق انضمامهم للنقابة العمالية، ويوضعون على قائمة المستحقين لأجور الإضراب.

وكان هذا نصرًا كبيرًا لجيبونز؛ الضربة الأولى، كما يقول الرياضيون.

في صباح اليوم التالي، عندما فُتحت بوابات المصنع، لم يمر عبرها أيٌّ من العمال، ومرةً أخرى وجد سارتويل نفسه دون موظفين. وبعدما ظلت البوابات مفتوحةً على مصراعَيها طوال نصف ساعة، أُغلقت مجددًا، وعلا صوت تهليل يصمُّ الآذان مع إغلاق المصراعَين الحديديَّين الضخمَين.

ولكن لم يكن سارتويل قد استنفد حيله بعد؛ فعلى مدار اليومَين التاليَين، امتلأ المصنع بالعمال مرةً أخرى، وتمكّن جيبونز من استمالتهم أيضًا وإخراجهم من سيطرة المدير.

واستمرت اللعبة على هذا المنوال، ما أقنع العمال بأن سكرتير نقابتهم يملك بعض الحيل، وأنه خصم لا يُستهان به للمدير. كان جيبونز يتصرّف أمام العمال بثقةٍ ويتحدّث بيقينٍ تام، ربما كان أبعد ما يكون عن الشعور به بداخله؛ إذ كان إرهاقه وقلقه يتصاعدان أكثر وأكثر كلما طالت المواجهة. كان هو وحده من يدرك مدى خطورة زيادة استنزاف موارد النقابة، عبر الدعم الإجباري للعمال الجدد الذين استمالهم لمغادرة العمل لدى سارتويل، الأمر الذي قلب جميع حساباته السابقة رأسًا على عقب. كانت ثمّة محاولةٌ لتخفيف العبء عن كاهل الاتحاد عبر حثّ العمال الجدد على العودة من حيث أتوا، وحقّقت نجاحًا جزئيًا مع المجموعة الأولى، إلا أن الآخرين أصروا إصرارًا شديدًا على الحصول على حصتهم من أجر الإضراب، ورفضوا حتى التفكير في جدوى العودة إلى منازلهم. طلبوا الحصول على ما وُعدوا به، وإلا فسيقتحمون المصنع

اقتحاماً جماعياً، وهو التصرف الذي من شأنه التسريع بإنهاء المواجهة. كان جيبونز يلقى دعماً جيداً من ذلك القطاع من الصحافة الذي كان يسهب بصورة يومية في الحديث عن تطورات الإضراب. وذات صباح، دعت كبرى هذه الصحف الرأي العام لمساندة الإضراب. فقد أشارت هذه الصحيفة إلى أن المضربين ربما كانوا يقاتلون في البداية من أجل حقوقهم، ولكنهم في واقع الأمر يقاتلون من أجل جميع البشرية العاملة، وطُرحت القضية بطريقةٍ شديدة الإقناع والإيجاز في مقالةٍ افتتاحية، استُخدم فيها التباعد المزدوج بين السطور، وافتتحت الصحيفة نفسها قائمة المساهمات لدعم الإضراب بتبرع معتبر. هل سيظل الشعب الإنجليزي بمعزل عما يحدث ويُحوِّل هؤلاء العمال إلى عبيد، مستخدمين سلاح الجوع المقيت ضدهم؟ لم تعتقد الصحيفة أن مثل هذا المستوى من اللامبالاة قد يكون موجوداً، وكان لهذا الاعتقاد ما يبرره إلى حد كبير؛ إذ سرعان ما انهالت المساهمات، إلى جانب رسائل غضب واستياء من جميع أنحاء البلاد، نشرتها الصحيفة ضمن أعمدتها كما هو متوقع.

حلت أولى أزمات الإضراب على العمال عندما أُعلن فجأةً أن أجر الإضراب سيُخفّض، بدايةً من السبت القادم، إلى ربع المبلغ الذي كانوا يتقاضَونه في ذلك الوقت. كان ثمّة الكثير من التذمر وبعض التساؤلات عما يقاتلون من أجله، ولكن في المجمل قوبل القرار بهدوء، وإن لم يخلُ من الاستياء.

قال جيبونز عندما اضطُر على مضض لإخبار العمال بمسألة خفض الأجر: «سيكون النصر حليفنا حتماً. إن الشركة تخسر نحو ألف جنيه أسبوعياً؛ بسبب توقُّف المصنع عن العمل، ومن غير المرجح أن يتحملوا هذه الخسائر طويلاً، حتى وإن كان ذلك مجاملةً لسارتويل.»

لم يمتلك جيبونز الشجاعة الكافية لكي يُخبر العمال بأنه على الرغم من خفض الأجور، فإن النقابة لا يمكنها أن تصمد أكثر من أسبوع آخر، وأن مواردها فعليًا على وشك النفاد، وأن أجور الإضراب المستقبلية ستعتمد حتمًا على التبرعات القادمة من مصادر خارجية، وهو مصدر غير مستقر تمامًا للمال؛ فالجميع يعلم جيدًا مدى قِصر عمر الحماسة، وكيف أن جمع الأموال نقدًا يدمِّرها.

إن للقيادة الحكيمة مقوماتٍ كثيرة، وإحدى مسلماتها أن عليك أن تسعى لاكتشاف أشد نقاط الضعف لدى عدوك. لم يخطر ببال جيبونز أو أيٍّ من مساعديه أن القلعة التي يهاجمونها تكفي مهاجمتها من جبهةٍ واحدةٍ لتنهار أسوارها مثل أسوار أريحا؛ لم يخطر بباله قط أن سارتويل كان يحارب في معركتَين في الوقت نفسه؛ معركة ضد العمال، والأخرى ضد مالكي الشركة، وكانت المعركة التي يخشى نتائجها أكثر من بين المعركتَين هي معركته مع الأخيرَين. كان سارتويل بين نارَين؛ فقد حث مونكتون وهوب على مغادرة إنجلترا حتى ينتهيَ النزاع، وأن يتركا إدارة الأمر له. ولكنهما ترددا، فكان من عادتهما أن يعدا سارتويل في المساء بشيء، ولكن في صباح اليوم التالي كانا يغيران ما كان يحلو لهما أن يطلقا عليه قرارهما. فكانا دائمًا ما يخشيان حدوث الأسوأ. ورأيا بعين الخيال المصنع يحترق وقوات الشرطة تطلق النار على العمال. وناشدا سارتويل أن يتوصل إلى اتفاق مع العمال. لقد قال إن الإضراب سينتهي خلال ثلاثة أسابيع، ولكن ها هو ذا ما زال مستمرًا، ولم يفتُر عزم العمال قط. وإذا كان مخطئًا بشأن فترة استمرار النزاع، أليس من الممكن أن يكون مخطئًا أيضًا في معاملته للعمال؟ ألم يكن من الممكن التوصل إلى تسوية؟

كان على سارتويل أن يقاوم ذلك، ما استنزف قواه أكثر من الإضراب نفسه. كان يتصفح الصحف كل يوم؛ خشية أن يجد بها رسالةً من

الشركة رداً على انتقادات اليوم السابق، الأمر الذي من شأنه أن يكشف للرأي العام على الفور حقيقة الأوضاع.

كان جيبونز يؤمن بأن العمود الفقري لأي معركة هو المال، مثلما كان الحال في الكثير من الحالات؛ إلا أنه لو أتاح لنفسه القليل من الوقت للتفكير في الأمر، لوجد أنه لو كانت المعركة تُدار على أساسٍ مادي، لما لاح للمضربين أدنى فرصةٍ للانتصار؛ لأن شركة مونكتون آند هوب أكثر ثراءً من النقابة بكثير. وكان يؤمن بمواجهة الشيطان بالنار. من المفترض أن الأمثال تمثّل خُلاصة حكمة العصور، إلا أنها كثيراً ما تمثّل خلاصة حماقة العصور. إذا كان شخص على وشك مواجهة مبارز محنّك في ساحة الشرف، فعليه أن يختار مسدساً إذا كان له الاختيار من بين عدة أسلحة. فلتحارب الشيطان إذا شئت، ولكن ليس بالنار. عندما قال مارستن مخاطباً جيبونز: «السيد سارتويل يعرف بالتحديد حجم الأموال التي تملكها النقابة في البنك»، أجابه سكرتير النقابة بثقة أن بإمكان سارتويل الاطلاع على حسابات النقابة إذا شاء، وربما يفيده ذلك كثيراً. إن حقيقة أن رجلاً مثل سارتويل رأى أن الأمر يستحق أن يكتشف ما يفعله العدو؛ لم توحِ لجيبونز بأن التجسس على سارتويل، ليكتشف كيف تسير الأمور داخل مكتب مدير المصنع، قد لا تكون فكرة سيئة. كان مارستن قد اكتشف أموراً عديدة مع تطور أحداث المعركة، ونقلها إلى جيبونز الذي قابلها بتجاهلٍ تامٍّ معتبراً إياها أموراً بلا قيمة، واعتبر مارستن طوال الوقت عدواً في معسكر العمال.

كان السيد هوب الرعديد يجتاز بوابات المصنع كل يوم متجهاً إلى مكتبه، دون نظرة ولو خاطفة إلى الحشد الذي كان يوجّه له هتافات الاستهجان، وتعليقات لا تسر الأذن قط. كان يخشى لحظة وصوله ومغادرته، ولكنه رأى أن من الشجاعة أن يواصلَ فعل ذلك، وتخيّل أنه

سيكون قد تخلّى عن واجباته باعتباره مواطنًا بريطانيًا حرًا، إذا ما تخلى عن موقعه في هذه الأوقات الخطرة.

لو كان جيبونز نافذ البصيرة، لكان دعا السيد هوب إلى سربيتون، ولم يكن الأمر ليتطلب سوى محادثة لعشر دقائق لتتضح له حقيقة الأمور؛ إذ كان صاحب المصنع الضئيل الرعديد شفافًا كالكريستال. لو تمكن سكرتير النقابة من استدراج أحد الشريكَين إلى مكان اجتماع العمال المضربين، الأمر الذي كان من السهل تحقيقُه مثلما حدث مع «مفسدي الإضراب» الذين جُمعوا من جميع أنحاء البلاد، لحصل دون شك على بيان عام كان من شأنه أن يجعل استقالة سارتويل حتمية. وهكذا يكون جيبونز قد قاد جيشه إلى النصر، وفي الوقت نفسه وضع عدوه حيثما كان جيشه في تلك اللحظة؛ خارج بوابات المصنع.

ولم تكن هذه الطريقة إلا واحدةً من طرق عديدة من شأنها تحقيق النصر للقائد الماهر. فلو كلف جيبونز نفسه عناء استيعاب التأثير الذي أحدثَته بضع مقالاتٍ افتتاحية صحفية قصيرة في أفكار الشريكَين، لسعى جاهدًا للاتفاق على نشر سلسلة من المقالات عن الأعمال الخيرية التي تشتهر بها الشركة، مع بعض الإسقاطات الأخلاقية عن أن الخير يبدأ ممن تعول. ولا شك في أن هذه الخطوة كانت ستزلزل الأرض تحت قدمَي سارتويل؛ فقد كان مونكتون وهوب فخورَين بالخير الذي من المفترض أن تنشره عطاياهما، وقبل نشوب هذه الأزمة، كانا يعتبران نفسَيهما صاحبَي عمل عادلَين يعاملان موظفيهما بإنصاف، كما كانا بالفعل، وكما كانا يفعلان بالفعل.

أمَا وقد تسرب إليهما الشك بشأن هذه الصورة الآن، فقد انتابهما شعور مزعج بأنهما ربما أهملا واجباتهما تجاه موظفيهما. كان سارتويل يسيطر عليهما عندما يكون في حضرتهما، وكانا يدركان قيمته جيدًا

لدرجة جعلتهما يعزفان عن المخاطرة بخسارته. وكانا يدركان أيضًا أنهما إذا وافقا على مطالب العمال من دون موافقته، فسيخسرانه، وثمّة منافسون لهما في لندن سيسعدون كثيراً بتعيينه لديهم، ولكن على الرغم من إدراكهما ذلك، انتابهما التردد، ولم يكن الأمر يتطلب إلا القليل من الفطنة والدبلوماسية من جانب جيبونز لكي يحقق نصراً كاملًا.

الفصل الحادي عشر

لم يُبدِ سارتويل أي أمارات إنهاك بسبب النزاع القائم. فكان يسير من المحطة إلى مكتبه كل صباح في موعده المعتاد، كما لو أن كل شيء يدور كما يريد تمامًا. وكان دائمًا ما يرتدي ملابسه بأناقة تامة، ودائمًا ما يحمل في يده شمسيةً مطوية على نحو أنيق ولم يرَه أحد يفتحها من قبل؛ فقد كان يستقل عربة أجرة عند سقوط الأمطار. كان يبدو أن الشمسية جزء منه، حِلية لا تنفصل عنه، ولم يرَه أحد يسير في الشارع من دونها. ولم يكن أحدٌ يستطيع أن يعرف أن سارتويل اشترى حُلّة جديدة؛ فكل حُلّة كانت طبق الأصل من سابقتها، ودائمًا ما كان يبدأ بارتدائها قبل أن تظهر علامات الاهتراء على سابقتها.

لم يتغير الكثير في سلوك سارتويل تجاه عماله مثلما لم يتغير ملبسه. فلم يكن يبقي عينَيه في الأرض أثناء عبوره الشارع متجهًا نحو بوابات المصنع، ولم تظهر في أسلوبه أي عدوانية على الجانب الآخر. لقد ترك العمال عملهم، وهذا شأنهم؛ فكان يومئ لهم أو يلقي عليهم تحية الصباح باقتضاب، كما اعتاد أن يفعل قبل حدوث الأزمة. قلة فقط من العمال هم من كانوا يقظين بما يكفي لكي يفعلوا شيئًا خلاف رفع أصابعهم نحو قبعاتهم، أو الرد عليه بالغمغمة المعتادة، «صباح الخير يا سيدي.» فالعادة تتغلغل في الإنسان بقوة، كما ذُكر مرات عديدة من قبل.

كان أكثر الأطراف المعنية رغبةً في انتهاء الإضراب هو سارتويل نفسه، ولكنه لم يكن أقلها إصرارًا على أن ينتهي كما يريده أن ينتهي. كان سارتويل يدرك نقاط الضعف في دفاعاته التي لم يستغلها جيبونز، بانعدام بصيرة لم يكن مفهومًا لمدير المصنع.

الغريب في الأمر أن جيبونز لم يكن هو الشخص الذي يخشاه سارتويل في هذا النزاع، بل مارستن. لقد كان يدرك أن الشاب من أشد المعارضين للإضراب، ولكنه كان يدرك أيضًا أنه ربط مصيره بمصير العمال، وعلى الرغم من أن قادة الإضراب، حتى ذلك الوقت، كانوا يتجنّبون مارستن، بدعوى أنهم يعتبرونه خائنًا مستترًا للقضية، كان سارتويل لا يزال يخشى أن يلجئوا في النهاية لاستشارته، وأن يُرشدهم إلى المخرج من المصاعب التي يواجهونها. وحمل مدير المصنع على عاتقه مسئولية معرفة كل ما يمكن معرفته عمّا يفعله خصومه، وأدرك نجاحًا مذهلًا في ذلك. كان يعلم بزيارة مارستن لبارني والفشل الذي باءت به هذه الزيارة، ولكنه لم يكن لديه أدنى ثقةٍ في حسن إدراك بارني للأمور، وكان يخشى أن يتفوّه الفنان بأي تلميحات، من شأنها أن تكشف للعمال مدى حرص شركة مونكتون آند هوب على التوصل إلى تسوية للنزاع مهما كانت الشروط. وبمرور الوقت، وبعدما رأى سارتويل أن جيبونز لا يزال يتجنّب مارستن، تضاءل قلقه أكثر وأكثر. فقد كانت الأمور تتجه سريعًا نحو وضع كارثي، وحينها ستكون مساعدة مارستن بلا طائل.

بعد بضعة أيام من الإعلان عن تقليل أجر الإضراب، رأى سارتويل، بينما كان يقترب من البوابات في الصباح، مارستن يقف وحيدًا عند ناصية الشارع. وكاد مدير المصنع يتجاوزه دون تبادل أي تحية، إلا أن الرجل الأكبر سنًا توقف فجأة، واستدار نصف استدارة ليواجه مارستن وقال بحدة:

«هل أنت في نوبة حراسة يا مارستن؟»

«لا يا سيد سارتويل.»

«لعلهم لا يثقون بك لتكون واحدًا منهم.»

«أعتقد أني لست في دائرة ثقتهم، ولا في دائرة ثقتك يا سيد سارتويل.»

«وضع غير مريح، أليس كذلك؟ كنت لأتخذ أحد الجانبَين لو كنت مكانك يا مارستن.»

«لقد اتخذت أحد الجانبَين بالفعل. أنا في صف العمال قلبًا وقالبًا.»

«في هذه الحالة، ربما تخشى أن يراك أحد تتحدث إليّ. فربما يتصادف مرور بعض العمال من هذا الطريق.»

«لا أخشى أن يراني أحد أتحدث إلى أي شخص كان يا سيد سارتويل.»

«آه، أنت شاب صغير؛ ومن ثم تتحلى بالشجاعة. لقد شهدت أمورًا أتفه من هذه المحادثة خسر الناس حياتهم بسببها، ولكن ربما تغيّرت العصور والأساليب عما كانت في صغري. من المؤسف أن تكون في الجانب الخطأ الذي لا يُقدِّر شجاعتك هذه. إن سادة هذا العالم دائمًا ما يقدِّرون الموهبة والشجاعة، ويُجزلون العطاء مقابلهما. ولكن عامة الناس لا يفعلون المثل. ولهذا السبب عادةً ما يُهزمون في أي معركة، وهذا السبب من بين أسباب عديدة تفسر هزيمتهم. أود أن أقول لك بضع كلمات؛ إن ناصية الشارع ليست مكانًا مناسبًا لمحادثة خاصة، هل يمكنك أن تحضر إلى مكتبي بعد ساعة؟»

«هل تريد التحدث عن الإضراب؟»

قال سارتويل وهو ينظر ببعض التركيز والاستغراق إلى الشاب: «نعم. على حد علمي لا يوجد أي موضوع يحظى باهتمام مشترك بيننا عدا ذلك.»

«رائع. لم يكن سؤالي إلا لأخبرك بأنه أيًا كان ما ستخبرني به، فسأستغله بما يصب في صالح العمال.»

هز سارتويل كتفيه في لا مبالاة.

وقال: «لك الحرية الكاملة في استخدام المعلومات التي سأمنحها لك كما تريد. فأنا أعلم جيداً أن العمال وقادتهم يتوقون لنصائحك.»

واصل الرجل العجوز طريقه في نشاط، بينما وقف الشاب الأصغر سنًا وقد احمر وجهه من الغضب؛ بسبب السخرية المستترة في عبارته الأخيرة.

قال مارستن في نفسه غاضبًا: «يا إلهي، كم أود أن أقاتل هذا الرجل!»

استدار مارستن واتجه مسرعًا إلى مقر قيادة الإضراب. وهناك وجد جيبونز ولجنة الإضراب مجتمعين، بينما كان بعض العمال يتسكعون عبر المكان. توقف الحوار الدائر فيما بينهم بمجرد دخول مارستن، ونظر أعضاء اللجنة ورئيسها إليه في ازدراء.

سأله جيبونز باقتضاب: «ماذا تريد؟»

«لقد التقيت السيد سارتويل منذ قليل في الشارع، وقال إنه يريد إخباري بشيء ما عن الإضراب، وطلب مني أن أحضر إلى مكتبه بعد ساعة. ووعدته بأن أفعل، ولكني أخبرته بأن أي معلوماتٍ سأحصل عليها منه سأستخدمها بما يصبُّ في صالح العمال.»

«وأظنُّك قد حضرت إلى هنا لتحصل على بعض المعلومات لتمنحها له في المقابل؟»

كان مارستن قد قرّر أنه لن يسمح لنفسه بأن تنجر إلى الغضب، ولكنه وجدها مهمةً ليست سهلة. وبناء على ذلك قال لنفسه إنه سيؤدي واجبه وسيساعد رفاقه إذا تسنى له ذلك؛ فالموقف شائك للغاية ولا يحتمل تبادل الاتهامات.

«لا، لن أخبره بأي شيء. إذا أراد الحصول على أي معلومات، فسأحيله إليكم. فكّرت أنه ربما يقول شيئًا يكون ذا فائدة لنا؛ لذا حضرت لأخبركم بأني ذاهب للقائه في مكتبه.»

«لنا؟ من تعني بكلمة لنا؟»

رد الشاب بسرعة، رغم إدراكه بأنه لن يتمكن من الالتزام بقراره بالحفاظ على هدوئه أثناء الحديث، قائلًا: «العمال المضربين. أنا مضرب عن العمل أيضًا مثل الآخرين. لقد خسرت وظيفتي، حتى وإن لم تخسرها أنت.»

قال جيبونز دون أن يولي اهتمامًا لما ألمح إليه مارستن: «حسنًا، لست بحاجة لأن تأتي إلى هنا لنمنحك إذنًا بزيارة مكتب السيد سارتويل. أعتقد أنك ذهبت إليه مرات عديدة من قبل.»

«لم أخطُ إلى مكتبه منذ بداية الإضراب.»

«أوه، حقًّا؟»

«لا، لم أفعل. هل تهدف لادعاء أنني فعلت ذلك؟»

«أنا لا أدّعي شيئًا. كل ما في الأمر أن من الغريب أن تحضر إلى هنا تصيح قائلًا إنك ستذهب للتشاور مع سارتويل. لا شأن لنا بهذه المسألة. اذهب وعُد كما يحلو لك؛ فأنا لا أهتم.»

تعالت همهمات استحسان من أعضاء اللجنة لموقف رئيسهم الصارم، فاستدار مارستن، الذي رأى أنه لا فائدة من تأخير الأمر أكثر من ذلك، على عقبَيه وانصرف. أومأ الرجال الذين يتسكعون عند الباب لمارستن في ودٍّ أثناء خروجه، واستأنفت اللجنة مباحثاتها على ما يبدو، كما لو أنها لم تُقاطع.

سار الشاب في الشارع دون أن ينظر يمينًا أو يسارًا، وفي قلبه غصة، فضلًا عما ألم به من غضب، من التفاهة الحمقاء لأحقاد جيبونز الذي يُفضِّل أن يجرح رجلًا ويهينه لأنه لا يحبه، بدلًا من قَبول يد المساعدة التي يمدها إليه عن طيب خاطر.

حادث مارستن نفسه قائلًا: «يا للاختلاف في أسلوب سارتويل! إن لديه سببًا أقوى من جيبونز ليكرهني، إلا أنه طلب أن يجتمع بي. إنه لا ينظر بعين الاحتقار حتى إلى أتفه ورقة في يده، بينما جيبونز قد يتخلّص من ورقته الرابحة، ليتني كنت دنيئًا وخائنًا لزملائي بما يكفي لكي أرفض إخبارهم بما قد أعرفه. سارتويل، الذي غادرني غاضبًا في لقائنا الأخير، يتوقف ليتحدث معي في الشارع؛ فقط لأنه يرى أن بإمكانه الاستعانة بي لخدمة مصالح رؤسائه. لم يزد إعجاب سارتويل بي أكثر مما كان عليه عندما تركته، وبدا هذا جليًا في النبرة اللاذعة في حديثه، ولكنه نحّى مشاعره الشخصية جانبًا على أمل أن يربح نقطة على حساب الخصم؛ بينما جيبونز، ذلك الأحمق، على الرغم من تعاملي الودود معه، يبذل قصارى جهده ليدفع أحد الرجال إلى معسكر العدو. أتساءل عما يرغب سارتويل في اكتشافه. لن أخبره بشيء؛ ولكن أي رجل هذا لتقاتل في صفه ... أو ضده!»

صاح الخفير الواقف عند البوابة: «مهلًا أيها الفتى. إلى أين أنت ذاهب؟»

«أنا ذاهب لألتقي السيد سارتويل.»

«لا، لن تفعل.»

«لا بأس يا رفيقي؛ لقد حضرت من مقر القيادة رأسًا. لقد جئت بموافقة اللجنة وبناءً على إذن من جيبونز.»

سأله الخفير هامسًا بينما تجمع مضربون آخرون حولهما: «ماذا يحدث؟»

«هل انتهى الأمر؟ هل سنستسلم؟»

«لا جديد. سأعرف المزيد بعد الاجتماع. ربما لدى سارتويل اقتراح يريد أن يعرضه علينا؛ أما نحن فليس لدينا أي اقتراحات.»

تراجع العمال إلى الخلف وهم يزفرون جميعًا في وقت واحد، زفرة ربما عبرت عن الراحة، وربما خيبة الأمل. فلم يزد عزمهم على الصمود بعدما قلت أجور الإضراب. كان تنظيمهم يتداعى ويتآكل، وكان كل عامل يدرك ذلك، ويشك في زملائه. فلم تعد لديهم أي عزيمة للقتال.

عبر مارستن الفناء المهجور الصامت، وصعد الدرج، وطرق باب مدير المصنع. وجد سارتويل بمفرده في المكتب واقفًا أمام مكتبه وأمامه بضع أوراق.

بدأ مدير المصنع حديثه بفظاظة، وقد رفع بصره عن مكتبه، قائلًا: «مارستن، أنت تعتقد أني طلبت منك الحضور إلى هنا لكي أحصل على معلومات منك، وعازم بقوة على ألا تخبرني بأي شيء. هذا صحيح. يعجبني الرجل الوفي للجانب الذي اختاره. سنُبقي السفينة عائمةً قدر استطاعتنا؛ فإن غرقت، غرقنا معها. قد تندهش إذن حين تعرف أنني لن أطرح عليك أي أسئلة. فمن شأن هذا أن يهدئ أفكارك ويُمَكِّنك من إيلاء

كامل انتباهك لما أريد إخبارك به. ولكني آمل أن تحترم كلمتك، وتتذكر الوعد الذي قطعته على نفسك منذ قليلٍ في الشارع.»

«أي وعد؟»

«هل نسيته؟ ربما اعتقدتَ أنه تهديد. لقد قلت إنك ستمنح العمال المعلومات التي ستحصل عليها مني. أنا ألزمك بهذا. أن تخبر جيبونز بها لا يعني بالضرورة أن تخبر العمال. وأنت قلت إنك ستخبر العمال.»

«سأقص الحوار الذي سيدور بيننا كما هو على جيبونز واللجنة.»

«آه، ليس هذا ما قلته. لم يرد ذكر جيبونز أو اللجنة في حديثنا صباح اليوم.»

«على ما أذكر، قلت إني سأستخدم المعلومات التي أحصل عليها منك فيما يصب في صالح العمال.»

«بالضبط. أنا حريص على مصلحة العمال مثلك تمامًا، وما سأقوله لك يجب أن يصل إليهم. وإذا ما أخبرت جيبونز واللجنة به، ولم يخبروا به العمال؛ إذ سيراعون تمامًا ألّا يخبروهم، فسأعلم حينها إذا كنت رجلًا تحترم كلمتك أم لا. سيلتقي المضربون اليوم في قاعة جيش الخلاص. وإذا لم يخبرهم جيبونز بما سيكون قد عرفه حينئذٍ، فسأنتظر منك أن تؤدّيَ دورك وتضيف ما يوضّح لهم الموقف. عندما كنت في هذا المكتب آخر مرة، عرضت عليك بيانًا كُتب أعلاه موارد النقابة العمالية في ذلك الوقت. وكان بقية البيان فارغًا، ولكنه امتلأ الآن. فقد أصبح يتضمن بيانات بالنفقات، الأسبوع تلو الآخر، حتى آخر أجر حصل عليه العمال المضربون. إذا ألقيت نظرةً على هذا البيان، فسترى أن النقابة قد أفلست.»

«إذا كان هذا هو كل ما تريد إخباري به يا سيد سارتويل، فسأقول لك إنه ليس خبراً جديداً. فقد أصبح العمال يعلمون بالفعل أنهم يعتمدون الآن على التبرعات العامة.»

«وهل ما زالوا يثقون في جيبونز قائداً لهم؟»

«نعم.»

«عظيم. سأخبرك الآن بالأخبار الجديدة؛ جديدة بالنسبة إليك، وإلى جيبونز، وإلى العمال. إن أغلب هذه الأموال ذهب إلى أولئك المتسكعين من شرق لندن. كنت على ثقة تامة في حماقة جيبونز وغباء اللجنة، حتى إنني أرسلت عبر البوابات رجالًا، ليسوا عمالًا مثلكم، بل مجموعة من البؤساء التعساء العاطلين الذين كانوا على استعدادٍ تامٍّ لأخذ أجر الإضراب، بشرطٍ واحدٍ فقط ألّا يتفوهوا بكلمةٍ واحدة. ولم يخطر ببال جيبونز قط أنني إذا كنت قادراً على ملء المصنع بعمال، تمكنت من نقلهم إلى مرفئنا النهري على متن سفينةٍ بخارية، فسأكون قادراً على إطعامهم وتسكينهم هنا، أو نقلهم إلى منازلهم ذهاباً وإياباً بالطريقة نفسها التي جاءوا بها. جمعهم جميعاً في مقر النقابة بصيحة واحدة، وهو ما توقعته منه تماماً، ولكنه لم يحاول أن يعرف إذا ما كانوا عمالًا بحق أم لا.»

«أنت تعني إذن أنك أفلست النقابة بواسطة خدعة.»

هز سارتويل كتفَيه.

وقال: «سمها خدعة إذا أردت ذلك. إن الإضراب عن العمل ما هو إلا حرب، ولا يجدر بك أن تتوقع أن تكون أسلحتها أوراق الزهور. ولكن فضلًا عن ذلك، أنا لا أفكر إلا في المصلحة الفعلية للعمال. كنت قادراً على ملء المصنع بعمال مهرة؛ نعم، بل وأكثر منهم عشر مرات. ولكن، إذا فعلت ذلك، فما مصير العمال المضربين بعد انتهاء النزاع؟ سيدخل

بعضهم السجن، وستُكسر جماجم البعض الآخر، وسيصبحون جميعهم عاطلين. أنا أريد أن يعود رجالي إلى هنا. أريدهم أن يدركوا أنهم اتبعوا أحمق ونصّبوه قائداً لهم. لقد مارسوا لعبةً سحرية جميلة لبعض الوقت؛ فقد أكلوا أموالهم وشربوها؛ وها هي ذي العطلة قد انتهت. إذا ما عادوا إلى العمل الآن، فسيجدون وظائفهم في انتظارهم؛ أما إذا ماطلوا أكثر من ذلك، فسأملأ المصنع بعمال حقيقيين، ولا تملك النقابة حالياً أموالاً لرشوتهم.»

«إذا أخبرت العمال بكل هذا، فسيندلع شغب. وسينقَضون على العمال المزيفين الذين استولوا على أموالهم.»

«لا، لن يفعلوا. فقد أخبرت العمال المزيفين بالمدة التي سيستمرون خلالها في الحصول على المال إذا ما التزموا الصمت. وبعد خفض الأجر الأسبوع الماضي، تفرق المتسكعون. قد ينقض العمال على جيبونز، وأعتقد أنه يستحق ذلك تماماً.»

«والاحتمال الأكبر أن يهاجموك أنت.»

«فليجربوا. والآن، أعتقد أن هذا هو كل ما لدي يا مارستن. لم أطلب منك أي ردود، وظني أني قد منحتك بعض المعلومات المثيرة للاهتمام. أنا على استعداد لأن أواصل العمل، مع موظفي الشركة السابقين، أو من دونهم، الأمر يرجع لهم. وسيكون أفضل صديقٍ للعمال هو من ينصحهم بالتخلي عن هذا الإضراب الأحمق، والانكباب على عملهم من جديد.»

الفصل الثاني عشر

وجد ألبرت لانجلي نفسه مضطراً إلى البحث عن غرفةٍ أرخص. فكان الشاب النحيل مستاءً للغاية من ضياع الكثير من المال على المأكل، والملبس، والإيجار. لا يمكن لإنسان أن يعيش دون طعام، وقد جرّب لانجلي ذلك، ليس لأنه خبيرٌ اقتصادي، بل بسبب النسيان إلى حدٍّ كبير، واندهش حين اكتشف أن الجوع قد فرض نفسه فعلياً على انتباهه، بعد انقضاء مدة كافية من الوقت. وأجبره المُناخ الإنجليزي المتقلب، فضلاً عن اللوائح التي سنها هذا الكِيان الأخلاقي المُسمى بالشرطة، على تغطية جسده؛ كما كان في حاجة إلى غرفة في الأساس للحفاظ على جفاف أكوام مؤلفاته الموسيقية. كانت كنيسة القديسين شهداء الشرق تكفل حياةً كريمة للغاية لكاهنها، وحياةً رديئة للغاية لعازف الأرغن بها، على الرغم من أنه لو كان الناس يحصلون على أجورهم وفقاً لكفاءتهم المهنية في هذا العالم، لانعكست رواتب رجال الدين والموسيقيين. فمن كانوا يدخلون الكنيسة كانوا لا يأتون من أجل سماع العظة، بل للاستماع إلى الموسيقى.

لم يطلب لانجلي زيادةً في الأجر قط؛ لأنه كان يدرك في أعماق روحه الموسيقية أنه يستفيد بالفعل من كرم السلطات الكنسية، وعاش في خوف دائم من أن يأتي يوم يكتشفون فيه ذلك، ويطردونه، ولن يلومهم أحد على ذلك. كان السماح له بالعزف على هذه الآلة الرائعة، التي تكلّف تركيبها مبلغاً كبيراً جداً من المال، امتيازاً كان يشعر بأن عليه أن يدفع مقابلاً عنه، إذا كان أميناً بحق كما يراه الشمامسة. كان يحاول أن يرضي ضميره المُعذب عبر إخباره بأنه كان سيرفض تقاضي المال، لولا

أن هذه النوتة الموسيقية الباهظة الثمن للغاية، حتى عندما كان يسير أميالًا مرةً كل أسبوع؛ ليشتريها من المتجر الذي يبيعها بأقل سعر في لندن، ولكن هكذا يفعل المذنب سعيًا لتهدئة رقيبه الداخلي، وهو يعرف تمام المعرفة، وهو يفعل ذلك، مدى سفسطائية أعذاره. كان سلوك لانجلي ولغة جسده يدلان على وعيه بسلوكه المخادع؛ فكان يتذلل إلى الكاهن ومَن هم في السلطة. ولم يكن أيٌّ من هؤلاء الرجال العطوفين المخدوعين يُبادر بالحديث إلى عازف الأرغن، من دون أن يلقيَ في صدره الرعب من أن أوان الزجِّ به إلى الخارج قد حان. ولكن بصرف النظر عن أقاويل الفلاسفة الأخلاقيين، أحيانًا ما يزدهر الأشرار على هذه الأرض حينما لا ينبغي لذلك أن يحدث، بينما يعاني الأبرياء من آثامٍ ارتكبها آخرون. ولنا في حالة بلشر مثال، وعلى الرغم من أنه من الإنصاف الإقرار بأن حظ بلشر العاثر قد تسبب لعازف الأرغن في الكثير من وخزات الضمير، فهل تُفيد وخزات الضمير إذا ما وقع الضرر بالفعل؟ إذا ما تسبّبنا في وقوع كارثة لإنسان آخر، بسبب أنانيتنا، لا يمكن أن يكونَ في الندم الذي يعقبها إصلاحٌ للضرر.

كان بلشر هو ذلك العامل الكادح المجتهد الذي يضخُّ الهواء في أرغن كنيسة القديسين الشهداء، وإلى جانب عمله خلال القداس المعتاد، كان من ضمن مهامه أيضًا الحضور إلى الكنيسة، عندما يرغب عازف الأرغن في التدرُّب على المقطوعات الموسيقية المختارة، التي كانت تُبهج المصلين فيما بعد. وكان هذا هو الظلم الواقع على بلشر. فلم يكن لدى لانجلي ذرة «رحمة»، كما قال نافخ الأرغن المثقل بالعمل لرفاقه المتعاطفين معه في حانة «روز آند كراون». كان أهون على بلشر أن يسير خلف عربة مجلس الكنيسة طوال اليوم، حاملًا مجرفةً من العبودية التي فرضها عليه عازف الأرغن الغافل، الذي لم يفكِّر قط في أن حني الظهر على رافعة النفخ عملٌ أصعب من حني الأصابع على مفاتيح الأرغن. بالإضافة

إلى ما سبق، كان لانجلي يستطيع الجلوس أثناء ممارسة عمله، بينما لا يمكن أن يفعل بلشر المثل. وبطبيعة الحال، اشتكى الرجل المُضْطهَد هذا الإجحاف، وأقر لانجلي على الفور بعدالة الشكوى، وفي الوقت نفسه أبدى خوفًا شديدًا من وصول شائعة تتعلق بسلوكه غير المُبرّر إلى مسامع السلطات الكنسية. وندم بلشر المخلص على تحمّله هذا العبء طوال هذه المدة الطويلة؛ إذ عرض عازف الأرغن المجحف في الحال على نافخ الأرغن اتفاقًا ينص على أن يدفع له مبلغًا إضافيًا كل أسبوع، بشرط ألّا يبوح بشيء عن العمل الإضافي الذي يقوم به. وكان بلشر تعس الحظ، أكثر من كونه مخطئًا؛ إذ لم يكن يجيد العمليات الحسابية، ولم ينتبه إلى حقيقة أن ثمة سقفًا لدخل عازف الموسيقى، وهو سقف منخفض للغاية. كان رجلًا يتعرض للاستغلال وسوء المعاملة، وكان يعلم ذلك؛ لذا كان عادةً ما يطلب المزيد من المال، وكان يحصل عليه، إلى الحد الذي أصر لانجلي عنده أنه لم يتبقّ من دخله ما يسد رمقه، فضلًا عن شراء النوتات الموسيقية. كان بلشر يتوق إلى مرافقة عربة مجلس الكنيسة، وهدّد بالشكوى إلى الكاهن، وهو ما فعله في نهاية المطاف، ولكن دون أي ذكر لمسألة حصوله على أجر إضافي؛ لأنه لم يرغب في كشف ما ارتكبه عازف الأرغن في حقه بكل ما به من بشاعة. فقد أخبر الكاهن بأنه يفضّل مرافقة عربة مجلس الكنيسة خلال جولاتها، على أن يرافق عازف أرغن لا تأخذه الشفقة بإنسانٍ فقيرٍ بائس. كان مستعدًا دائمًا لضخ كمية معقولة من الهواء في الأرغن، ولكن إذا كان عازف الأرغن لا يُجيد أداء وظيفته لدرجة توجب عليه التدرب كثيرًا هكذا، فمن الصعب على الرجل الذي يُدير العَتَلة أن يتحمّل وزر عدم كفاءته. وجّه الكاهن الشكر إلى بلشر على نقده الموسيقي، وقال إنه سينظر في الأمر.

بينما كان بلشر العفيف يتخذ طريقه إلى خارج الكنيسة مرفوع الرأس، كما يليق برجل أدى واجبه أن يفعل، كان عازف الأرغن الظالم

يزحف عبر الشوارع الجانبية، ونادراً ما كان يجرؤ على دخول الكنيسة في غير أوقات الصلوات. وكان يتجنّب لقاء الكاهن قدر الإمكان، ولكنه عثر عليه في نهاية المطاف. وضع العجوز الطيب يده على كتف الرجل المُدان، وقال:

«سمعت أنك ترهق بلشر في العمل.»

همهم عازف الأرغن المتوتر معتذراً: «سأكون أكثر انتباهاً في المستقبل يا سيدي. أخشى أني كنت أفرط في العزف، ولكنه فن مختلف ...»

قاطعه القس قائلًا: «لا شك في ذلك. لقد وضعت بعض الترتيبات التي من شأنها أن تلبي طموح بلشر، الذي يبدو أنه يميل إلى مرافقة عربة مجلس الكنيسة، وسنركّب النافخة الهيدروليكية التي كان يجب علينا تركيبها منذ سنوات. ستَرى أنها ملائمة تماماً لعملك يا سيد لانجلي؛ فهي جاهزة للعمل طوال الوقت ولا تشكو أبداً.»

حاول عازف الأرغن أن يشكر الكاهن، إلا أن حلقه بدا لا يطيع أوامره لبذل أي جهد آخر غير ازدراد ريقه مرةً أو مرتَين على الأكثر. ابتسم الرجل العطوف عندما رأى الالتواءات العجيبة لفم لانجلي وحركة جفنَيه السريعة، ثم استدار عازف الأرغن فجأةً وانصرف، وأخذ الخوف يؤرِّقه بعد ذلك من أن يكون الكاهن قد اعتبره وقحاً وناكراً للجميل، إلا أن العجوز كان أدرى بعازف الموسيقى بكثيرٍ من دراية عازف الموسيقى بنفسه.

في وقتٍ لاحق، عندما التقى لانجلي مصادفةً ببلشر الساخط الذي تعرّض لظلمٍ بَيِّن، بينما كان يَسير خلف العربة التي لطالما ذكرها، ولكنها لم تكن كما توقّع على الإطلاق، خشي الشاب المواجهة، وشعر بذلك الإحساس الداخلي بعدم الراحة المُسمى تأنيب الضمير.

قال بلشر لزميله عندما أخذتهما جولتهما إلى مكان قريب من كنيسة القديسين الشهداء: «أهذه هي أخلاق المسيحية! يضعون مضخة ماء راشحةً على العربة، يخطفون اللقمة من فم رجل فقير كادح، ويقتطعون من أجره الذي يعيش عليه بالكاد! بل إن القانون يجبرنا على دعم الكنيسة أيضًا.»

ولكن كان بلشر رجلًا متسامحًا حقًا، ويجب ألّا نحكم عليه من خلال كلماته القاسية عن الكنيسة التي كان مجبرًا على دعمها ماديًا، بموجب تشريع قانوني صارم من وجهة نظره؛ إذ كان حتى هذه اللحظة يتجاهل ما يفعله لانجلي ويذهب إليه من وقتٍ إلى آخر، ويتقبّل البنسات القليلة التي كان يدفعها له ثمنًا لراحة ضميره.

قال بلشر برحابة صدر وشهامة، بينما كان يحتسي كوب البيرة: «أنا لا ألومه بقدر ما ألوم ذلك الأحمق العجوز اللئيم الذي يعظ الناس في الكنيسة. هو من جعلني أتبع العربة.»

كما ذكرنا من قبل، كان لانجلي مُضطرًا إلى البحث عن مسكن أرخص، وكان هذا نتاجًا لخطئه بقدر ما كان نتاجًا لدخله المحدود. تخوض صاحبات العقارات في أحياء لندن الأكثر فقرًا حربًا لا تتوقف ضد الظروف. فالمستأجرون قليلًا ما يدفعون قيمة الإيجار، ويدفعون أقل القليل إن فعلوا، وفي بعض الأحيان يختفون تمامًا، وتخسر صاحبة المنزل أموالها؛ وإذا بقوا، فلا أمل في فرض أي مصروفات إضافية؛ تلك المصروفات المطاطة التي عادةً ما تقود أصحاب النُّزُل في ويست إند إلى الثراء. فشروط العقود نهائية وشاملة دائمًا. ولم يترك سلوك عازف الأرغن مع صاحبات العقارات العديدات والمتعاقبات اللاتي تعامل معهن؛ مجالًا للدفاع عنه. فكانت هؤلاء النساء الطيبات، بعدما يترك الشقة التي يستأجرها، يتحدثن عن أساليبه الملتوية والمخادعة في حزن ومرارة،

وكان لديهن مبرر عادل في ذلك في الواقع. فعندما كان يصل إلى مكان جديد لأول مرة، كان ينزع إلى الاعتذار عن أي مضايقات تصدر عنه، ويحرص بشدةٍ على ألّا يُسبِّب أي مشكلات؛ وهو أسلوبٌ لا يُناسب شخصًا يعيش في لندن الصاخبة المزدحمة، بل في عالم حالم لا يوجد إلا في خياله، ما كان يدفع مُضيِّفته الطيبة، فقط بدافع التجربة ودون أي أحكام سابقة، إلى وضع شيء إضافي تافه في فاتورته الأسبوعية على مضض، ولم يكن الغرض من وضعه في الفاتورة حقًا إلا إزالته مرةً أخرى إذا ما أثار شكوى من جانبه، أو تركه كما هو إذا ما أُغفل. وفي ظل هذه الظروف، كانت صاحبة المنزل بالطبع تتوقع شجارًا، قد تنهال عليها خلاله أوصاف مهينة تنال من نزاهتها المالية، بينما تعمد إلى تصحيح الخطأ بأعذارٍ بليغةٍ لخطئها المؤسف، والتأكيد للساكن أنه لن يتكرّر مرةً أخرى. وبعد بضع تجارب من هذا القبيل، والتي كانت مشروعةً وملائمة تمامًا في بلدٍ تجاري كإنجلترا، بل إنها في واقع الأمر الطريقة الوحيدة لاكتشاف إلى أي مدًى يمكن الاعتماد على النزيل كأحد الموارد المالية المستمرة، تعود الحياة إلى مسارها الطبيعي بهذا الهدوء الوادع، الذي يُضيف كثيرًا إلى راحة ومتعة الإقامة سواء في شقة مفروشة في البلدة أو في قصر يُطل على المتنزّه.

ولكن، لم يكن لانجلي ينتهج أسلوبًا مباشرًا وواضحًا مع صاحبات العقارات قط. فبدلًا من الإشارة إلى الخطأ وقت اكتشافه، كان يغلق فمه في خنوع ويدفع الفواتير ما دام كان قادرًا على سدادها، وكانت قيمة الفواتير ترتفع أكثر وأكثر كل أسبوع. وهكذا لم يكن للسيدة المخدوعة أي فرصة؛ إذ لم يكن بوسعها أن تعلم حين تصل قيمة الفاتورة إلى أقصى حد يسمح به دخله الأسبوعي. وفي نهاية المطاف، كان عازف الأرغن يحمل ربطة نوتاته الموسيقية تحت إبطه، ويخرج متسللًا كاللص تحت ستار الليل، ليبحث عن مسكن أرخص، تاركًا أجرة أسبوع بدلًا من

مهلة الإشعار السابق، ملفوفةً في قطعة من الورق في مكان بارز؛ إذ لم يكن يملك الجرأة الكافية لمواجهة صاحبة العقار وإخبارها بشجاعة أنه سيرحل.

في ساحة روز جاردن، كان ثمّة أكثر من أسرة يمكن تشبيهها بآلة الأكورديون؛ في سهولة طيها وفردها حسب المساحة المتاحة. فأسرة سكيمينس، على سبيل المثال، يمكنها أن تشغل الغرف الثلاث التي استأجرتها في الساحة، أو يمكنها أن تكتفي بغرفتين، أو حتى غرفة واحدة عند الحاجة لذلك. وكانت المساحة المتبقية تؤجّر من الباطن عند توافر الفرصة لذلك، وهنا عثر لانجلي على مسكن يمتاز على الأقل بانخفاض إيجاره. رمق رجل الشرطة الواقف عند مدخل الساحة الوافد الجديد بشك، وقرّر أن يراقبه. كان عازف الأرغن معتاداً على التحدّث إلى نفسه بعنف بينما يسير في الشوارع، ولم تكن يداه العصبيتان تهدآن ولو لحظةً واحدة؛ فقد كانت أصابعه الطويلة النحيلة تعزف لحنًا ما على مفاتيح أو أوتار خيالية، لحنًا لا يمكن سماعه خارج نطاق مخيلته الموسيقية.

عندما رأى الشرطي المتشكك الواقف عند مدخل الساحة عازفَ الموسيقى يخرج، وهو يخمش الهواء الفارغ أمامه بسبابتَي يدَيه المعقوفتَين كالمخالب، مقطبًا جبينَه بصورةٍ مخيفة، وفي حلقه غمغمة متوعدة، قال الشرطي في نفسه:

«ها هو ذا أحد الفوضويين، إذا كان لهم وجود من الأساس»، ولم يكن يعلم أن هذا الرجل الضئيل المسكين كان يجذب مقابض أرغن خيالي ضخم يُصدر نغمات سماوية. كان رجال الشرطة دائمًا ما ينظرون إلى لانجلي بارتياب عندما ينتقل إلى مكان جديد، حتى عرفوا أنه عازف الأرغن في كنيسة القديسين الشهداء في الشرق.

ذات ليلة، بعد فترة قصيرة من استئجاره الغرفة الخلفية في الطابق الثاني في المنزل رقم ٣، كان لانجلي يهبط الدرج عندما توقف مشدوهًا على بسطة الدرج المقابلة لباب غرفة برونت. فقد سمع أحدهم داخل الغرفة يغتال ببطء وتردُّد الجزء الأول من «اللحن الجنائزي» لشوبان. أصابه صوت العزف بغصة، فظل يقترب ببطء حتى وصل إلى الباب، وأصابعه تدق تلقائيًا على إطاره، كابتًا بصعوبة رغبةً في الصراخ احتجاجًا على انتهاك لحن بدا له مقدسًا. وفجأةً توقف العزف، ولم تمر لحظة حتى فُتح الباب على مصراعَيه ما جعل المستمع المشدوه يتعثّر إلى داخل الغرفة، حيث قفز عليه عملاق، كما بدا له، وأمسكه من كتفَيه، وطرحه أرضًا بجوار الجدار المقابل حيث سقط مكوّمًا. ثم ركل العملاقُ الباب مغلقًا إياه ضامًا قبضتَيه، وقد الْتوت قسمات وجهه من الغضب، ووقف فوق الرجل الممدّد على الأرض ينظر إليه متوعدًا.

صاح برونت قائلًا: «أيها الخسيس المتلصص التعس! لهذا السبب إذن استأجرت غرفةً مع عائلة سكيمينس؛ حتى تتلصص عليّ وتستطلع أخباري. لقد رأيتك تصعد هذا الدرج زاحفًا خشية النظر في وجه أي رجل نزيه. لأنني لم أتقاضَ أجر الإضراب، يريد جيبونز أن يعرف كيف أعيش، أليس كذلك؟ أنا أعلم ألاعيبه جيدًا. أنت جاسوس جيبونز، وأرسلك لتعيش مع ذلك الخائن الآخر؛ سكيمينس. إن سكيمينس نفسه خائف؛ لأنه يعلم مدى ثقل يدي.» واستطرد برونت وهو يشمّر عن ساعدَيه: «والآن، ستتلقّى ما تلقّاه سكيمينس. سأُلقي بك من فوق الدرابزين، ويمكنك أن تخبر جيبونز بذلك، وأخبره بأن يحضر بنفسه المرة القادمة، وسأكسر كل عظمةٍ في جسده.»

تعلّقت جيسي بوالدها وهي ترجوه باكيةً ألّا يؤذيَ الرجل المسكين. فدفعها برونت بعيدًا عنه، ولكن بلا قسوة.

وقال: «اجلسي يا جيسي واهدئي، ولا تزعجيني يا حبيبتي. لن أفعل شيئًا سوى إلقاء كومة العظام هذه على الدرج، وأُعطيه ما يستحقه أمثاله من المتلصصين.»

استجمع لانجلي شجاعته، مستغلًا تغيُّر نبرة صوت خصمه أثناء تحدُّثه إلى الفتاة، وقال متلعثمًا:

«أؤكِّد لك يا سيدي ...»

صاح برونت وهو يلتفت إليه بعنف: «لا تدعُني «سيدي» أيها الوغد، ولا تجرؤ على إنكار أنك أحد جواسيس جيبونز. لقد أمسكت بك متلبسًا، تذكر هذا.»

«لن أنكر شيئًا، إذا كان هذا يغضبك، ولكني لم أسمع باسم جيبونز في حياتي من قبل، ولست إلا عازف أرغن مسكين. ووقفتُ عند الباب عندما سمعت صوت الأرغن المزماري. وأؤكِّد لك أني لم أفعل ذلك لأي سبب آخر. أعلم أنه لم يكن عليّ أن أفعل ذلك، وأعتقد أنني بذلك أصير متلصصًا. لن أفعل ذلك مرةً أخرى أبدًا، أبدًا، إذا ما تقبلت عذري لما اقترفت هذه المرة.»

كانت ثمّة لمحةٌ من المذلة الشديدة في أسلوب الموسيقي، جعلَت استجداءه يزيد استياء برونت بدلًا من أن يقلِّله. فكان الرجل الضخم يحتقر كل شيء صغير وتافه.

فسأله: «أوه، أنت عازف أرغن؟ لا أصدقك! إن عازفي الأرغن لا يعيشون في ساحة جاردن. ولكن سنرى إن كان هذا صحيحًا، سنرى. انهض.»

استجمع لانجلي قواه ووقف على قدمَيه مترنحًا. وكانت كل حركة يفعلها تعزِّز شكوك الرجل الآخر.

قال برونت بنبرة رجل أحكم السيطرة على خصمه: «والآن، اجلس أمام الأرغن المزماري واعزف. تذكر أنك قلت إنك عازف أرغن.»

اعترض لانجلي قائلًا: «نعم، ولكني لا أعرف كيف أعزف على هذه الآلة على الإطلاق. أنا أعزف على أرغن الكنيسة.»

«الأرغن واحد لا يتغير، سواء كان في الكنيسة أم خارجها. إذا ما تمكّنت من العزف على أحدها، فستتمكن من العزف على الآخر.»

تردّد الرجل وبدأ اليأس يتسلّل إلى قلبه. كان برونت يود بشدة لو فتك به، وربما كان وجود الفتاة في الغرفة فقط هو ما كان يكبح جماحه حتى هذه اللحظة.

سأل لانجلي: «هل لديكم أي نوتات موسيقية؟»

«لا، ليس لدينا أي نوتات موسيقية. فهي تعزف سماعيًا.»

«هل تسمح لي بأن أصعد إلى غرفتي لأُحضر نوتةً موسيقية؟»

كان الأمر مكشوفًا للغاية.

فصاح برونت ضاربًا سطح الطاولة بقبضته: «بحق الرب! إذا ظَللت واقفًا مكانك تُثرثر هكذا لدقيقة أخرى، فسوف ألقي بك على الدرج حتى ينكسر عنقك. اجلسي يا جيسي ولا تتدخلي. إن هذا الرجل إما يمكنه العزف، وإما لا. كنت أعلم أنه كاذب، وهو واقف يرتجف هكذا لأن عليه إثبات ذلك. والآن، أيها الجبان، إما الأرغن أو الدرج؛ اختر بسرعة.»

جلس الموسيقي المغلوب على أمره على مضض على الكرسي المقابل للآلة الموسيقية. كان يعزف على الأرغن المزماري في بداية مشواره مع العزف، وكان يدرك أنه يُصدر نغماتٍ غليظة في أفضل الأحوال. ولكن بمجرد لمسة من أصابعه الرقيقة عليه، بدا وكأن روح الألحان بشتى

أنواعها تنبعث منه، وتملأ جنبات الغرفة البائسة. وقف برونت لحظات مشدوهًا وقد تدلّت يداه على جانبَيه في ارتخاء، ثم غاص في مقعده ذي الذراعَين. أما جيسي فراحت تُحدِّق بثبات، بعينَين واسعتَين شجيتَين، إلى ضيفهما، الذي بدا أنه تحوّل؛ إذ اختفت من وجهه كل الخطوط التي رسمها الذعر والرعب عليه، وحلت محلها نشوة عميقة، وصار غافلًا عن كل ما يحيط به. ظل يعزف اللحن تلو الآخر، وكان كل لحن يؤدي إلى اللحن التالي له ويذوب فيه، وفي نهاية العزف، تحولت مجموعة من النغمات الصغيرة بالموسيقى إلى لحن شوبان الجنائزي المهيب، وبدأ الأرغن، كما لو كان كائنًا واعيًا، يبكي وينوح على الموتى. خلال ذلك، لم ترفع الفتاة عينَيها عن ساحر الألحان أمامها، وقد اغرورقتا بالدموع، بينما دفن والدها وجهه بين يدَيه.

عندما انزلقت أصابع عازف الأرغن السحرية أخيرًا من فوق المفاتيح، وانحسرت الإشراقة الجزلة عن وجهه مع امتزاج الموسيقى المحتضرة بالصمت، هب برونت واقفًا على قدمَيه.

وصاح قائلًا: «ألَا لعنة الرب على حماقتي وتفاهتي! لا أتخيل كيف أسأت إليك هكذا يا فتى وأنت تعزف مثل الملائكة. وكأنني لم أسمع موسيقى من قبلُ في حياتي.»

وضع برونت يده الضخمة برفق وحنو على كتف الرجل الآخر، على الرغم من أن الشاب، الذي بدا لم يَستفِق بعدُ من حلمه، قد انكمش في خوف من هذه اللمسة. «هلا تسامحني يا فتى؟ لا أعتقد أني آذيتك.»

«لا، لا؛ لا بأس. أنت تحب الموسيقى إذن؟»

«الموسيقى! لن أنساها ما حييت، إن هذا اللحن يرنُّ في رأسي طوال اليوم. يبدو وكأن العالم بأكمله يضبط خُطى أقدامه على نغماته.»

وللمرة الأولى، رفع الشاب بصره نحو برونت وقد الْتمع بريق الأخوة في عينَيه.

وقال: «أنا أيضًا أشعر بأنه لا شيء حولنا عدا الموسيقى العذبة. إنها تُلطّف أصوات الأرض القبيحة، أو تستخدمها كأنها نغماتٌ ثانوية ... كأنها ... كأنها خلفية. يُخيّل إليّ أحيانًا أن أبواب السماء قد تُركت مواربة، وسُمح لنا — بعضنا — بالإنصات، لتعويضنا عن أي متاعب نمر بها، أو لندرك مدى تفاهة كل شيء آخر.»

تخضّب وجه الشاب النحيل بحمرة الخجل المشوب بالارتباك، عندما وجد نفسه يتحدّث بهذا الشكل إلى شخصٍ آخر، على الرغم من أن ما قاله لم يكن إلا خلاصة أفكارٍ عديدة، طالما ناجى نفسه بها من قبل. وبنظرةٍ اعتذاريةٍ خاطفةٍ رمق بها الفتاة التي كانت تنظر نحوه بعينَين مفتوحتَين لا تطرفان، كما لو كانت في حالةٍ من الغشية، واصل لانجلي حديثه في عجالة:

«إن اللحن الجنائزي لحن صعب، ويجب ألّا يحاول أحدٌ عزفه إلا بعد دروس كثيرة. وسيُسعدني أن أتولّى تعليم ابنتك الموسيقى إذا ما سمحتَ لي بذلك. فلدَيها أذن موسيقية.»

هزّ برونت رأسه في أسف.

وقال: «ليس لدينا ما يكفي من المال لإنفاقه على دروس الموسيقى.»

فقال عازف الأرغن كما لو كان ما يقول سببًا منطقيًا: «أنا أيضًا لا أملك الكثير. أنا فقير؛ ولذلك لست بحاجة إليه. على الفقراء أن يساعد بعضهم بعضًا. فإن لم يفعلوا ذلك، مَن سيفعل؟ لطالما كان الفقراء رحماء بي.» وتذكر صاحبات العقارات العديدات اللاتي سكن لديهن، وكيف كن يحرمن أنفسهن لإعالته، كما كن يعترفن عادة، دون أن

يتوقعن للحظة أنه سيهجرهن الواحدة تلو الأخرى. ثم أضاف، متذكراً المحرك الهيدروليكي في الكنيسة، وصبر السلطات المستمر على عازف الأرغن بها: «والأثرياء أيضاً.»

قال برونت متنهداً: «حسناً أيها الفتى، يمكنك أن تأتي متى استطعت، وحتى إن أتيت لأي غرض آخر، فتأكد من أنك ستلقى ترحيباً شمالياً حاراً.»

الفصل الثالث عشر

كان سارتويل يفتخر بكونه رجلًا قليل الأخطاء. فكان قادرًا على تتبُّع حدث محللًا أسبابه ونتائجه بيقين عقلاني مستساغ، وربما جعلته هذه الميزة البسيطة قليل الصبر بعض الشيء مع الآخرين، ممن قد لا يملكون فطنةً مماثلة، بشهادة زوجته التي لم تكن لتتوانى عن الإقرار بذلك. ربما كانت هذه المرأة المنصفة ستشعر برضًا داخلي، وإن كان له ما يبرِّره، لو علمت كم كان زوجها مخطئًا في تقديره لمدى تأثير الأخبار التي عهد إلى مارستن بمهمة نقلها إلى المضربين عليهم. لقد تخيّل سارتويل أن العمال، في خضم غضبهم من تعرُّضهم للخداع، سينقلبون على جيبونز ويمزِّقونه. واعتقد أن جيبونز لن يجرؤ على أن يخبر أتباعه من السذج الغافلين، كما دأب سارتويل على تسميتهم، كيف تعرَّضت النقابة للخداع، وظلت طوال أسابيع تدعم العمال المزيفين الذين ألقى بهم المدير إليها طُعمًا التقموه بكل سذاجة. واستنتج المدير أنهم سيعودون حتمًا إلى المصنع بعد أن يُنزلوا انتقامهم بجيبونز ويعزلوه. فقد نفدت أموالهم، وخبت حماستهم للإضراب، وباتت الصحف توجز آخر أخبار الإضراب في خبرٍ لا يتجاوز السطرَين، وتوقفت التبرعات فعليًا، فماذا تبقّى لهم إذن سوى العودة أو المجاعة، ذلك الحليف القوي للسادة في كل أنحاء العالم؟

ولكن نسي سارتويل أن الإنجليز يعرفون كيف يتحمّلون الجوع. فما من هندي يشد الحزام على بطنه للسيطرة على آلام الجوع بعزم يفوق عزم مواطن إنجليزي يُصر على أسنانه ويتحمل الجوع، إذا اقتضت الحاجة. فقد جاع الإنجليز على الجليد بالقرب من القطب الشمالي، وتحت الشمس الحارقة في الصحراء.

لقد واجه الإنجليزي المجاعة وجهًا لوجه في القلاع المحاصرة أثناء الحروب، دون أدنى تفكيرٍ في الاستسلام، ووزّع حصص الطعام غير الكافي على متن طوف في عرض المحيط بدقة متناهية. وجلس الشاعر في عليته يتضور جوعًا دون صياح أو صراخ يشكو به جوعه، وقال العالم: «آهٍ لو كنا نعلم.» في الغابات والسهول، في الأدغال وعلى قمم الجبال، وربما كان الأسوأ من كل ما سبق في المدن الكبرى، حيث الوفرة والرخاء، أظهر الإنجليزي أنه يعلم كيف يتحمل الجوع، مرددًا قول الشاعر:

«لم تطرف لي عين، ولم يُدوِّ صوتي بصرخة ألم.»

عندما سمع جيبونز ما كُلِّف مارستن بإخبارهم به، قال على الفور: «هذا كذب»؛ إلا أن أعضاء اللجنة تبادلوا النظرات فيما بينهم وبدا القلق على وجوههم؛ خشية أن تكون هذه هي الحقيقة بالفعل.

قال مارستن: «السؤال الأهم هو هل ستُخبرون العمال بذلك؟»

«بالطبع سأفعل، إذا تيقنت من صحته، ولكني لا أصدق كلمةً واحدة منه. ربما تريد أن تستمتع بكونك حامل الأخبار السيئة للعمال.»

«أنوي إخبارهم بالفعل إن لم تفعل أنت.»

«بالطبع. آسف لأننا لا نستطيع أن نرضي غرورك.»

صرفت اللجنة مارستن ودخلت في اجتماع سري مغلق، ولم يمر وقت طويل حتى انفض، ليجتمعوا مرةً أخرى في المساء مباشرةً قُبيل التجمع الكبير في قاعة جيش الخلاص. وفيما بين الاجتماعَين، بحث جيبونز وأعضاء اللجنة الآخرون بجدٍّ عن العمال المزيفين المزعومين، ولكنهم لم يعثروا على أي منهم؛ إذ اختفوا بلا أثر. كان واضحًا أنهم قد علموا بما يدور، ففر «مفسدو الإضراب» السابقون؛ خوفًا من انتقام أصحاب الحق

الشرعيين في أموال النقابة، حتى لا يقعوا تحت طائلة أي أذًى قد يلحق بهم.

عندما اجتمعت اللجنة للمرة الثانية في ذلك اليوم، كان أعضاؤها منقسمين على أنفسهم فيما يتعلق بمدى صحة إفشاء هذا السر للعمال. فرأى البعض أن من الأفضل إبلاغ العمال بهذه الأخبار السيئة تدريجيًا، فيما رأى البعض الآخر أن أسوأ الأشياء يجب الكشف عنه مرةً واحدة. غير أن جيبونز قال إنه لا يوجد في واقع الأمر أي خيارٍ ولا بد من إخبار العمال بالحقيقة كاملة؛ فإذا حاولت اللجنة الخروج بأنصاف حلول، فلا شك في أن مارستن سيقف في مكانه، ويروي لهم كل ما أخبره به سارتويل. ومن ثم استقر الرأي على إخبار العمال بالحقيقة كاملةً ولا شيء سواها.

عندما وقف جيبونز هذه الليلة أمام جمهوره في القاعة الكبرى، رأى أن عليه التعامل مع مجموعة من الرجال اختلف مزاجهم تمامًا عن مزاج ذلك الحشد الذي صوّت سابقًا بسعادة، وحماسة، لصالح الإضراب. فلم يعد العمال يمزحون كثيرًا فيما بينهم كالسابق، بل كانوا يجلسون في أماكنهم في صمت وتجهّم. بدا أن شعورًا بحدوث أمر سيئ يطغى على القاعة، وعندما تقدم جيبونز لمقدمة المنصة، شعر بأن المُناخ العام للمكان معادٍ له، وأن عليه أن يمضي في الأمر بحرص شديد، وإلا فسيخسر سيطرته على العمال. كان يدرك جيدًا أنه خطيبٌ مُفوه، ولكنه كان يدرك أيضًا أن العمال قد ضاقوا ذرعًا بعض الشيء بكثرة الكلام، دون تحقيق نتائج ملموسة من كل هذا.

بدأ جيبونز حديثه قائلًا: «الاتحاد هو الناتج الطبيعي للأوضاع الحديثة للعمالة. إن العامل اليوم يمكن تشبيهه بأنبوب واحد في أرغن ضخم. لا يمكنه أن يُصدر أكثر من نغمة واحدة فقط. فهو يُمضي حياته بأكملها

يؤدي جزءاً واحداً من شيء ما. إنه لا يبدأ بتصنيع سلعة تجارية، ويعمل عليها، ثم يُنهيها، مثلما كان الحال في الماضي، بل أصبح فحسب يتسلمها من عاملٍ آخر ترك بصمته عليها، فيضع بصمته هو الآخر عليها، ثم يمرِّرها إلى عاملٍ آخر، وهكذا تنتقل السلعة من يدٍ إلى يدٍ حتى تصل إلى العامل الذي سيضع البصمة الأخيرة. إن عامل اليوم ليس إلا مجرد ترس صغير في عجلة ضخمة للغاية؛ لذا فإن لم يتحد مع أقرانه، يصبح عاجزاً. كان العامل في الماضي أكثر استقلالاً بكثير. فكان يبدأ عمله وينهيه بنفسه. فإن كان صانع براميل، كان يصنع البرميل بأكمله، ثم يركِّب الطوق والرأس. وإذا جاز تشبيه أحدنا بأنبوب واحد من أنابيب الأرغن، فقد يُشَبَّه عامل الأمس بآلة الفلوت، حيث يمكنه أن يعزف مجموعةً كاملة من النغمات. فالعامل ...»

صاح عامل نفد صبره يجلس في المقدمة: «آه، كف عن هذا! لا نريد فلسفة، بل نريد أجر الإضراب أو أجر السيد.»

ارتجت القاعة بهتاف: «اسمع، اسمع!» وبدا أن الرجل الذي قاطع جيبونز قد عبّر عمّا يجيش في صدور الحضور. فوقف جيبونز لحظات ينظر إليهم.

ثم صاح بصوت أشبه بالنفير: «حسنًا، سأكف عن ذلك. هذا ليس وقت فلسفة، كما قال صديقنا، بل وقت أفعال. عندما يتجرد رجل من ملابسه ليتشاجر، ماذا يتوقع؟»

ليتلقّى إجابةً غير متوقعة وهي «الجلد بالسياط.»

ليس من الآمن أبداً أن يعتمد خطيب على الجمهور في الإجابة عن أسئلته، إلا أن أصوات الضحكات التي تعالت في القاعة أخبرت جيبونز بأن الحشد أصبح في مزاج أفضل، وكان هذا هو أقصى ما يتمناه.

قال جيبونز: «عندما يخلع مواطن إنجليزي معطفه ليُقاتل، فهو لا يستجدي أي معروف من خصمه، ولكنه يتوقع مواجهةً نزيهة وعادلة، وإذا كان المتفرجون من الإنجليز، فسيحصل على ما أراد، سواء أعجبهم أم لا. فلا يتوقع أن يُضرَب تحت الحزام، ولا يتوقع أن يُعلق من رقبته بالحبال، ولا يتوقع أن يُضرب إذا انكفأ على الأرض. لقد خلعنا ملابسنا من أجل معركةٍ عادلةٍ مع المدير سارتويل، وقاتلنا كما يجدر بالرجال أن يقاتلوا. لم نخالف قانونًا، ولم نُثر أي شغب. حتى الشرطة، التي تتوق دائمًا لإلقاء القبض على أي مضربٍ عن العمل، لم تمسّ أيًا منا. كانت معركة عادلة، ونزيهةً وشريفة. كانت معركةً عادلة من جانبنا، وأفتخر بأني كنت جزءًا منها. والخطأ الذي ارتكبته عندما تصوّرت أننا نواجه خصمًا شريفًا؛ رجلًا لن يلجأ إلى مخالفة قواعد الحلبة. لم أتوقّع مخالفة قوانين اللعب، لم أنتبه للخداع. وبعد ما عرفته الليلة، أقول — وأنا على استعدادٍ تامٍّ لتحمّل تبعات كلماتي — إن سارتويل لص، بل لص جبان في نظر أي رجل نزيه. فقد كان يعلم أن أموالنا هي أساس معركتنا. كان يدرك أن تجويع زوجات وعائلات عمالنا الذين لا حول لهم ولا قوة هو أقوى حلفائه. لم يجرؤ على اقتحام النقابة وسرقة أموالنا؛ خوفًا من الوقوع تحت طائلة القانون، إلا أنه سلك مسارًا أكثر خسةً وجبنًا لتنفيذ هذه السرقة. لقد استغل جشع بعض الرجال العاطلين عن العمل — يا لهم من بؤساء! لا ألومهم على شيء، فلا شك في أنهم كانوا يتضورون جوعًا — وأخبرهم بأنهم إذا ما تنكّروا في هيئة موظفين لديه، فستضمهم النقابة إلى صفوفها، وتدفع لهم أجورًا، ما دام لم تُثَر شكوك حولهم؛ أي ما دام ظل هؤلاء الرجال صامتين، سيظل بإمكانهم الحصول على أجر الإضراب. بقدر ما كنت دومًا أحتقر سارتويل، لم يخطر ببالي أن ينحدر إلى حد اللجوء إلى حيلة مثل هذه. الرجل الذي يسطو على مصرفٍ يمتلك بعض الشجاعة، ولكن أن يغري رجل مجموعةً من الفقراء التعساء

لارتكاب جريمة، بينما يقف هو على مسافةٍ آمنةٍ ليجنيَ ثمار ما فعل؛ فلا توجد كلمةٌ مهذبة في اللغة يمكنها وصفه. والآن، أيها الرجال، ها قد صرتم على علمٍ بما حدث، ونتيجة ذلك أن أصبحت خزانتنا فارغةً كما لو أن سارتويل قد حطمها بعتلة حديدية. وينتظر المدير في ترقُّب أن يجني ثمرة سرقته لنا. سيفتح غداً أبواب المصنع أمامكم لتدخلوا منها وتُكملوا انتصاره علينا. والسؤال الذي أطرحه أمام هذا الجمع الليلة: هل ستدخلون؟»

هتف الجميع في صوت واحد ارتفع إلى سطح المبنى: «أبداً! فلنتضور جوعًا أولًا!»

في بداية مواجهته للحشود في تلك الليلة، كان جيبونز يخشى ألّا يتمكن من استنهاض العمال من حالة البرود البادية عليهم تجاهه، وبينما كان يلقي خطابه، أظهرت له الهمهمات المتزايدة بين العمال ثم عواصف الغضب العنيفة التي اندلعت وسطهم أنه قد امتلك زمامهم؛ وفي النهاية، وبكلمة واحدة منه، لن تتمكن الشرطة بكل قواتها في هذا الجزء من لندن أن تنقذ المصنع من الدمار وألسنة اللهب.

صاح أحد الحضور: «فلنقتحم المصنع!» وبدأ الرجال جميعهم يتحركون استجابةً لهذه الدعوة.

فصاح جيبونز بصوته الجَهْوري الذي غطّى على صخب هتافاتهم: «لا يا رجال. لن يتجه أحد إلى المصنع. فليعد الجميع إلى بيوتهم الليلة، ولكن عودوا إلى أرض الإضراب في الصباح. يجب ألّا نُنفِّذ للعدو ما يصبو إليه عبر أي محاولة للعنف. في الغد، سنعترض طريقَ مونكتون وهوب ونطالبهما بحقوقنا شخصيًا. وليتحملوا نتائج رفضها. لن نتعامل مع سارتويل بعد اليوم.»

هلّل الجميع لهذا القرار، وانفضّ الاجتماع في هدوء.

في صباح اليوم التالي، احتشد العمال أمام البوابات التي كانت لا تزال مغلقة، وراحوا يطلقون صيحات تهديد غاضبةً ضد مدير المصنع. قالوا إن دعوة جيبونز إلى التهدئة كانت منطقيةً كفاية في البداية، ولكن مضى وقت التهدئة. زادت أعداد قوات الشرطة، الذين ظلوا يحاولون تفريق الحشد قدر الإمكان، ليواجهوا بذلك أصعب مهمة واجهوها منذ بداية الإضراب. فقد كان مزاج المضربين سيئًا للغاية، ولم يطيعوا أوامر رجال الشرطة ولم يتعاملوا مع دفعاتهم لهم بالهدوء الذي أظهروه سابقًا؛ إلا أن رجال الشرطة أظهروا الكثير من ضبط النفس، وكان واضحًا أنهم قد تلقّوا تعليمات بعدم استخدام هِراواتهم إلا ملاذًا أخيرًا.

قضى سارتويل الليلة في مكتبه لعلمه أن ثمة أزمةً على وشك الحدوث، وتعالت صيحات الحشد المتزايد عندما لم يظهر في موعده المعتاد.

كان جيبونز يطوف بين رجاله محاولًا، بالقول والفعل، أن يسيطر عليهم، ويمنع وقوع صدام. كانوا يهتفون له، ولكنهم لم يلتفتوا كثيرًا لِما يقول.

بعد العاشرة بقليل، وصلت عربة وتوقفت عند أطراف التجمع، واستُقبلت بوابل من صيحات الاستهجان. أسرع جيبونز ووقف أمام العربة وخاطب راكبها.

قال: «سيد هوب ...»

صاح الضابط المسئول: «تراجع!»

فصاح جيبونز: «سيد هوب، أريد أن أتحدث إليك قليلًا.»

انزوى السيد هوب الضئيل في أحد أركان العربة، عاجزًا عن الكلام، وقد شحب وجهه كورقة بيضاء.

دفع الضابط جيبونز وقال: «قلت لك تراجع!» وضربه بقوة نوعًا ما في صدره.

«دعه يُجبِْني. هل ستمنح عمالك دقيقةً من وقتك؛ العمال الذين جعلوك ثريًا؟»

كرّر الضابط كلمته دافعًا جيبونز إلى الخلف أكثر: «تراجع!»

ظلّت العربة تتقدم مقتربةً من البوابة شيئًا فشيئًا. كان العمال يستشيطون غضبًا كالبحر الهائج، ولكن كتم الجميع أنفاسهم.

«اسمعني يا سيد هوب. إن عمالك يتضورون جوعًا. وكل ما يطلبونه هو ...»

دفع الضابط جيبونز إلى الخلف مرةً أخرى. وعلق كعب جيبونز في أحد أحجار الرصف، وسقط على ظهره.

هاج الحشد كالموج، وأغرق رجال الشرطة للحظات، وغمر الشارع كما لو أن سدًا تهدّم. وبدا سائق العربة في مقعده العالي وهو يحاول السيطرة على حصانه المرتعب، كما لو كان غريقًا وسط محيط هائج جاثمًا على طوق نجاة. ثم وقع في ذلك الخطأ التكتيكي عندما بدأ يستخدم سوطه في ضرب من حوله. فقد رُفعت العربة في الحال وانقلبت لترتطم بالأرض ما أدّى لتهشّم زجاجها. وتجمع رجال الشرطة معًا وهم يضربون بهِراواتهم يمنةً ويسرةً في هِياج يضاهي ثورة الحشد الخارجة عن السيطرة. وظل رجال الشرطة يشقون طريقهم بصعوبة حتى كوّنوا دائرةً حول العربة المنقلبة، وحمل اثنان منهم السيد هوب الذي كان عاجزًا عن الحركة بسبب الخوف والرعب، وأُحيط هذان الرجلان، وبينهما الرجل الضئيل، بمجموعة من رجال الشرطة الذين وقفوا كتفًا بكتف، وشقّوا طريقهم عبر الزحام الكثيف نحو البوابات، وسرعان ما فُتح الباب

الصغير الملحق بالبوابة الكبيرة وأُغلق، بعد أن دخل السيد هوب وبرفقته شرطي يسنده.

ارتفع جيبونز بهيئة شعثاء، وقد اختفت قبعته، وتمزّق معطفه، وتلطّخ وجهه بالدم، فوق مستوى الحشد المناضل بالوقوف على العربة المنقلبة.

وصرخ: «يا رجال، بحق الرب، لا تقاوموا رجال الشرطة! تراجعوا! تراجعوا!»

كان كمن يصرخ في مهب الرياح. فقد انقضّ رجال الشرطة على العمال مثل الشياطين، وسرعان ما بدأ الحشد يتراجع إلى الخلف، ولكن ليس لأن جيبونز أمرهم بذلك. وخلال مدة وجيزة للغاية، كان رجال الشرطة يسيرون وحدةً واحدة عبر الشارع، لا يعترض طريقهم أي شخص. ورقد من تبقى من أولئك الذين بدوا قبل بضع دقائق قوة لا تُضاهى على الرصيف يئنون، أو يتكئون على الجدران، ونُقل المصابون بإصابات خطرة إلى المستشفى، فيما نُقل الآخرون إلى مخفر الشرطة.

على الرغم من الهزيمة التي تعرضوا لها في الصباح، تجمع العمال مرةً أخرى حول المصنع بعد ظهيرة اليوم نفسه، وازدادت أعداد الحشد المُهدِّد عمّا سبق؛ ويرجع ذلك إلى نشر الصحف المسائية أخباراً مقلقة في جميع أرجاء لندن عن أحداث الشغب، كما أطلقوا عليها، واجتذبت هذه الأخبار العاطلين من جميع أنحاء المدينة الكبرى. كانت أشد الشائعات المنتشرة أن العمال سيدمرون المصنع؛ وسينهبون المخابز في شارع لايت؛ وأنهم سلّحوا أنفسهم وعلى وشك التحرك في مسيرة في ميدان ترافلجار. وتحت قيادة قائد مستميت ثابت العزم، لم يكن أحد ليتوقع ما قد يحاولون تحقيقه، إلا أن جيبونز، الذي تدثّر بمعطف آخر، ووضع الكثير من اللاصق الطبي على وجهه، راح يدعو إلى التهدئة واحترام القانون. وقال إنهم سيخسرون تعاطف الرأي العام إذا جنحوا إلى العنف، إلا أن بعضاً من

مستمعيه اعترضوا قائلين إن تعاطف الرأي العام «لم يعُد عليهم بأي خير.» فقال جيبونز: «إن ما نريده، وما نريد أن نحصل عليه هو التحدُّث إلى المالكَين. سيخرجان من المصنع حتمًا عما قريب.»

خرج المالكان بالفعل في نهاية المطاف معًا، وكان من الصعب أن تجد رجلَين أكثر خوفًا من مونكتون وهوب في جميع أنحاء البلاد ذلك اليوم. كانا محاطَين بدزينة من رجال الشرطة نمّ سلوكهم الصارم على أنهم ممن يجب عدم العبث معهم. أُغلقت البوابات في الحال خلف هذا الموكب المهيب الذي سرعان ما سلك طريقه عبر الشارع، بينما تعالَت صيحات الاستهجان والامتعاض من الحشد أثناء مروره.

صاح أحد العمال: «لا نُكن أي ضغينة لهما. أخرجوا لنا سارتويل وسنريكم ماذا سيحدث.»

كانت كراهية مدير المصنع وليس مالكَيه هي الشعور السائد لدى الحشد. فهلّل الرجال لهذا التعليق، وهتفوا ضد المدير المكروه ثلاث مرات.

عندما اختفى الرجلان وحرسهما عن الأنظار، تخلّت قوة الشرطة عن يقظتها، واندفع الحشد ليملأ الفجوة التي أخلتها قوة الشرطة. وبعدما أصبح السيدان في أمان وبعيدَي المنال، بدا أن أكثر لحظات اليوم حرجًا قد انقضَت. لم يكن من الممكن أن تعرف الشرطة أن الاستياء الحقيقي لدى الحشد لم يكن موجهًا ضد الرجل الذي قُلبت عربته هذا الصباح.

قال مارستن مخاطبًا برونت: «أرجو ألّا يغامر سارتويل بالخروج الليلة. سيتطلب الأمر ما يزيد على اثني عشر رجل شرطة لحراسته حال خروجه.»

رد برونت قائلًا: «إن لديه قدرًا من الذكاء، وسيظل حيث هو.»

لم يكن برونت أو مارستن حاضرَين خلال معركة الصباح، ولكنهما توجّها إلى مكان الإضراب في عصر ذلك اليوم، شأنهما شأن الكثيرين ممن لا يوجد لديهم ما يشغلهم.

وبينما كان برونت يتحدث إذا بالباب الصغير الملحق ببوابة المصنع يُفتح، ليخرج منه سارتويل بمفرده تمامًا. كانت يده خاويةً من أي شيء يمكن اعتباره سلاحًا إلا من مظلته الرفيعة الأنيقة المعتادة. كانت قبعته الحريرية تلمع وملابسه أنيقة ومهندمة، كما لو كان نموذج عرضٍ لدى خياط. بدا أكبر سنًا بقليل عما كان عليه عند بداية الإضراب، إلا أن جسده النحيل القوي البنية كان منتصبًا كالعادة، وحملت عيناه نظرة السطوة الصارمة تلك التي كان يجبن أمامها كل من عمل تحت إمرته في وقت أو آخر.

خيّم صمت لحظي على الحشد. حتى إن صياح بائع متجول في شارع بعيد كان مسموعًا. كان الجميع يدرك أن قذف حجر أو طوبة، أو حتى رفع ذراع، سيكون بمثابة شرارة في مصنع للبارود. كانت ضربة واحدة كافيةً وحينها لن تتمكن كل قوات الشرطة في لندن من إنقاذ حياة ذلك الرجل، الذي يعبر المنطقة الخالية بين بوابات المصنع متجهًا نحو الحشد. كان كافيًا أن تمضيَ تلك الكتلة الصامتة من البشر قُدمًا لتُزهق حياة سارتويل على أحجار الرصف.

سار سارتويل، دون أن يتوقف أو يُسرع الخطى، عبر المساحة الفاصلة بثقة واضحة في أن العمال سيُفسحون له الطريق. لم يُبدِ في سلوكه أي أمارات خوف، ولم يُبدِ أيضًا أيًا من أمارات خُيَلاء السلطة، ولكن كان في نظرة عينه الحادة واتزان وضعية رأسه ذلك الشيء المجهول الذي يميز السادة؛ ذلك الشيء الذي يُلزم الجميع بالطاعة في الحال ودون نقاش.

تفرّق الحشد أمامه، ولم يتلفت سارتويل حوله. وبحكم العادة، رفع عامل، أو اثنان، يده لتحيته أثناء مروره، وتلقى في المقابل تلك الإيماءة المقتضبة التي لطالما كانت رده على هذه التحية. وانشق المحيط البشري أمامه كما فعل البحر الأحمر أمام قائد اليهود، وعبر مدير المصنع خلاله دون أن يُمس.

صاح برونت وقد صعد إلى مكان أعلى من بقية زملائه ملوحًا بقبضته في وجه السماء البريئة التي لم ترتكب في حقه أي أذًى: «يا إلهي! لم أرَ في حياتي في شجاعة هذا الرجل.»

الفصل الرابع عشر

قال برونت: «تعالَ معي يا مارستن. دعنا نغادر هذا الحشد. أريد أن أتحدث إليك.»

شق الرجلان طريقهما إلى شارع أهدأ، وسارا جنبًا إلى جنب متجهَين نحو ساحة روز جاردن، ويتبادلان أطراف الحديث في الأثناء.

قال الرجل اليوركشايري: «لا بد أن ينتهي هذا الإضراب الغبي، وقد حان وقت إيقافه. لقد سئمه العمال، وضاق به السادة ذرعًا، ولكن لن يستسلم أيٌّ من الطرفَين للآخر؛ لذا لا بد من إيجاد طريقةٍ للخروج من هذا الوضع المعقد، وأنت أصلح رجل للعثور على هذه الطريقة.»

«كيف؟ لن يطيح العمال بجيبونز، وسارتويل يفضّل الاستقالة من منصبه قبل أن يقبل لقاء جيبونز. تذكر كيف استمال جيبونز العمال ليلة أمس، على الرغم من سخطهم عليه قبل بدء الاجتماع.»

«نعم، أعلم هذا. ولكن يا صديقي، ثمّة شقاق في المعسكر الآخر مثلما هو الحال في معسكرنا. إن خروج سارتويل بهذه الطريقة الآن كان تحديًا لرؤسائه مثلما هو تحدٍّ لمرءوسيه. وحقيقة الأمر أن مونكتون وهوب كانا يريدان أن يخرج معهما برفقة حراسهما الشخصيين. ولكنه رفض. ومما سمعت، كان السيد هوب خائفًا صباح اليوم؛ حتى إنه لم يكن ليستطيع التحدث حتى ولو كانت حياته تتوقف على ذلك. ولا بد أن جدلًا محتدمًا قد وقع بين ثلاثتهم اليوم. إن سارتويل يستخف بالخطر المحدق به، بينما المالكان يبالغان في تقديره. وما أنا على يقينٍ منه أن ثمة خلافًا بين سارتويل والسيدَين، وعندما يعلمان أنه قد خرج الليلة

بمفرده بينما يحرسهما دزينة من رجال الشرطة، فستثور ثائرتهما أكثر من أي وقت مضى، هذا إن كان ما زال لدى أيٍّ منهما أيٌّ قدرةٍ على ذلك. والآن، ما يجب عليك فعله غدًا هو لقاء مونكتون أو هوب، أو كلَيهما إذا أمكن. سترى بنفسك أنهما لن يقتربا من المصنع مرةً أخرى حتى ينتهيَ الإضراب. سأذهب للقاء السيد هوب أولًا لو كنت مكانك. فهو من تعرّض لأشد أشكال الرعب. أخبره بأنك ترغب في إنهاء الأزمة، وسيستمع لك بصدر رحب. من المرجّح أن لديه خطةً خاصةً به لن يسمح له سارتويل بتجربتها. وإذا ما حصلت منه على وعد بأن يمنحنا ما نريد إذا ما أطحنا بجيبونز، فسنُعلن ذلك في الاجتماع، وسترى، إذا نفّذنا الخطة على النحو الصحيح، سيُعزل جيبونز. وحينئذٍ لن نواجه أي متاعب مع سارتويل.»

قال مارستن مترددًا: «يبدو لي هذا الفعل خيانة.»

صاح به برونت وقد نفد صبره بعض الشيء: «هذا صحيح يا فتى، ألم يكونوا يعاملونك على أنك خائن منذ بدء الإضراب؟ ما الفارق إذن إذا بدا الأمر وكأنه خيانة؟ فكِّر في زوجات العمال وأطفالهم، إن لم تكن تفكر في العمال أنفسهم؛ فكر فيمن لم يفكر بهم أحد طوال هذه الأسابيع، العاملات اللاتي يعملن في الطابق العلوي من المصنع. إنهن يتحصلن على أجر إضراب ضئيل، كما أنهن لا يحق لهن التصويت في الاجتماعات، ويعانين ويجُعْن رغم استعدادهن للعمل. هل هذه خيانة؟ أنا على استعداد لأن أكون خائنًا ألف مرة لأرى المصنع يعمل من جديد.»

قال مارستن: «سأفعل ذلك.»

لم يكن الشاب يمتلك أي أموال لينفقها على أجرة القطارات؛ ومن ثم، في صباح اليوم التالي، ولّى وجهه شطر الغرب وسار على طريق بورتسموث بتؤدة، قاطعًا مسافة الاثني عشر ميلًا بين لندن وسربيتون.

أثناء سيره على الطريق الممهّد على نحوٍ رائع، المؤدّي إلى منزل عائلة هوب، تخيّل أنه رأى مالك المصنع بين الأشجار في الحديقة الخلفية؛ حيث كان يذرع دربًا جيئةً وذهابًا في اكتئابٍ شديد. تردّد مارستن برهة، ولكنه قرر أخيرًا أن يطلب مقابلته بطريقةٍ رسميةٍ عبر مدخل المنزل. رمقه الخادم بارتياب واضح، وبعدما أخبره بغرض الزيارة، سرعان ما عاد له الخادم ليخبره بأن السيد هوب لن يتمكن من مقابلته. وأُغلق الباب في وجهه، إلا أن مارستن كان على يقين من أن السيد هوب لم يُؤخذ رأيه في هذه المسألة؛ لذا بدلًا من الخروج من البوابة التي دخل منها، دار حول المنزل حتى وصل إلى الحديقة الخلفية، حيث وجد السيد هوب الذي صُعق من رؤية رجلٍ غريبٍ يظهر أمامه فجأة.

بدأ مارستن حديثه قائلًا: «أنا أحد عمال مصنعك يا سيد هوب»، قادًا بذلك طمأنة الرجل الضئيل، إلا أن كلماته كان لها تأثير معاكس تمامًا. تلفت السيد هوب من حوله يمنةً ويسرة في جنون، ولكنه لم يرَ مهربًا، فاستسلم بزفرة عميقة إلى الحوار المتفجر، أو أيًا كان الشكل الذي ستتخذه حجج هذا العامل.

وأخيرًا، سأل صاحب العمل متلعثمًا: «ماذا تريد؟» «أريد أن أنهي هذا الإضراب.»

صاح السيد هوب والدموع في عينَيه توشك أن تسيل: «أوه، وأنا أيضًا، وأنا أيضًا!»

«إذن يا سيد هوب، ألن تسمح لي بأن أتحدث إليك بضع لحظات، لنرى إذا ما كان باستطاعتنا العثور على مخرجٍ من هذه الأزمة؟»

أجابه العجوز المرتعد: «بالطبع، بالطبع»، وقد بدا عليه الارتياح عندما أدرك أن موظفه السابق لا ينوي استخدام العصا الغليظة التي كان يحملها في يده بغرض الاعتداء عليه.

«دعنا نبتعد عن المنزل قليلًا، حيث يمكننا التحدث بهدوء. هل لديك أي اقتراحات؟»

«حسنًا، يبدو أن المشكلة الأساسية هي أن السيد سارتويل لن يقبل لقاء جيبونز.»

قال الرجل العجوز كما لو أنه يهمس لنفسه: «آه، سارتويل! سارتويل رجل عنيد ... عنيد وصعب الإقناع ... صعب الإقناع.» ثم التفت فجأةً نحو مارستن وسأله: «أنت لست جيبونز، أليس كذلك؟»

«بلى، اسمي مارستن. وجيبونز هو الرجل الذي حاول التحدُّث إليك بالأمس عند البوابات.» ارتعدَت فرائص العجوز عندما تذكّر الواقعة.

وقال: «كان ثمّة الكثير من الرجال هناك ولم أتمكّن من تمييز أيٍّ منهم على نحوٍ خاص، كما أن الأمر برمته حدث فجأة. لا أذكر جيبونز. لقد كان الأمر فظيعًا، فظيعًا!»

«آمل أنك لم تُصب بسوء.»

«لا، لا. مجرّد خدشٍ أو اثنين. شيء لا يُذكر. والآن، ما الذي يمكننا فعله بشأن الإضراب؟»

«هل أنت على استعدادٍ لتلبية مطالب العمال إذا ما انقلبوا على جيبونز، وأرسلوا وفدًا إلى السيد سارتويل؟»

«أوه، بالطبع، على أتم استعداد. لا أتذكر ما يطلبه العمال، ولكني سأمنحه لهم؛ سأفعل أي شيء لأوقف هذا النزاع الانتحاري. هل يعرفك سارتويل؟»

«نعم يا سيدي.»

«بالطبع يعرفك. فهو يعرف كل العاملين في المصنع بالاسم. إنه رجل رائع، رجل رائع! كثيراً ما تمنيت لو كان لي تأثيرٌ أكبر عليه. والآن، فلتذهب للقاء السيد سارتويل، إنه يسكن في ويمبلدون، إنه في طريقك، وقد طلبت منه ألّا يذهب إلى المصنع اليوم؛ لذا ربما تجده في منزله، وربما يمكن أن تُرتِّبا معًا موضوع استقبال وفدٍ من العمال. وربما كان من الأفضل ألّا تخبره بأنك الْتقيتني؛ نعم، أنا واثقٌ من أن هذا أفضل. ثم سأتحدث أنا إليه بشأن تلبية مطالب العمال. سأتخذ إجراءً حاسمًا، وكذلك سيفعل مونكتون. وسنكون حازمَين معه.» ثم تلفّت العجوز حوله في خوف. وقال: «سنُخبره بأننا ندعمه ضد جيبونز، وأن عليه أن يسوِّي الأمر مع العمال على الفور بمجرد أن يتخلّوا عن جيبونز. هل تعلم لماذا يرفض مقابلة جيبونز؟ هل يُكنُّ كراهيةً شخصيةً للرجل؟»

«أوه، لا، إنها مسألة مبدأ بالنسبة إلى السيد سارتويل. إن جيبونز ليس من عمالك.»

«آه، نعم، نعم. تذكرت الآن. هذا تحديداً ما أخبرني به سارتويل. حسنًا، أنا في غاية الامتنان لك لحضورك إليّ، وآمل أن تنتهي هذه الأحداث المؤسفة. إلى اللقاء! ثمّة قطارٌ سيتحرّك بعد نصف ساعةٍ يتوقف في ويمبلدون.»

«شكرًا لك يا سيد هوب، ولكني أقطع طريقي سيراً اليوم.»

«يا إلهي، إنها مسافةٌ طويلة، والطريق ملتوٍ. القطار سيوصلك إلى هناك في غضون دقائق معدودة.»

ضحك مارستن.

وقال: «أنا لا أمانع السير.»

حدّق فيه العجوز بضع دقائق.

ثم قال: «يعني هذا أنك قطعت المسافة كاملةً من لندن إلى هنا سيراً هذا الصباح!»

«إنها اثنا عشر أو ثلاثة عشر ميلًا فقط.»

«يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي! لقد فهمت، لقد فهمت. نعم، كان سارتويل محقًا. لستُ رجلًا ذكيًا للدرجة، وإن كنت أعتقد أن المدير لا يجدر به أن يقول ذلك أمام شريك رب عمله. تعالَ معي إلى المنزل للحظات.»

«أعتقد أن عليّ أن أنطلق الآن.»

«لا، لا، تعالَ معي. لن أؤخرك، ولن أقبل بالرفض. سأتخذ إجراءً حاسمًا، كما أخبرتك. كنت أملك القليل جدًا من إثبات الذات في الماضي. تعالَ معي.»

قاد الرجل المقدام ضيفه نحو منزله، محافظًا على أن تظلّ الأشجار فاصلةً بينه وبين المنزل قدر الإمكان ولأطول فترةٍ ممكنة. ثم هُرع مسرعًا عبر المساحة الخالية من الأشجار، وصعد درجات السلم الخلفي للمنزل بحذر، ودخل إلى رَدهةٍ واسعة، ثم تسلّل دون صوتٍ حتى دخل غرفةً مربعةً تُطل على المرج الشاسع والحديقة الخلفية. كانت جدران الغرفة مزدانةً بالكتب، وفي منتصفها طاولة من خشب البلوط الصلد، محاطة من الجانبَين بمقاعد وثيرة. دقّ السيد هوب الجرس، وأمسك بالباب مواربًا قليلًا.

ثم همس للشخص الذي لم يتمكّن مارستن من رؤيته عبر فتحة الباب المواربة قائلًا: «هل لدينا أيٌ لحمٍ بارد في الأسفل يا سوزي؟»

«نعم يا سيدي.»

«حسنًا إذن، أحضري منه ما يكفي شخصَين، وبعض المخلل، وخبزًا وزبدًا، وبعض الجبن.» ثم التفت نحو مارستن وسأله: «هل تشرب النبيذ

أم البيرة؟»

قال الشاب وهو يبلّل شفتيه ويتحدث بصعوبة: «حقيقةً يا سيد هوب، أنا لست جائعًا على الإطلاق.»

ولم يكن هذا صحيحًا؛ فمجرد ذكر أصناف الطعام جعلَه يشعر بالدوار الشديد لدرجة أنه اضطُر إلى الاستناد إلى المكتبة.

همس المضيِّف وهو يغلق الباب برفق: «أحضري زجاجة بيرة من فضلك.»

ثم قال لمارستن: «اجلس، اجلس. «تقول إنك لست جائعًا؟ لا شكّ أنك جائعٌ بعد أن سرت هذه المسافة الطويلة، بغض النظر عن حجم وجبة الإفطار التي تناولتها قبل مغادرتك.»

وبينما كان مارستن يأكل، لم يقُل السيد هوب شيئًا، ولكنه جلس يستمع إلى الأصوات خارج الغرفة بقلقٍ شديدٍ لم يتمكن من إخفائه. وفجأةً نهض من جلسته وأغلق الباب بالمفتاح بحذر، وبدأت أنفاسه تتصاعد بسهولة أكبر بعدما فعل ذلك.

ثم قال الرجل العجوز بعدما أنهى مارستن وجبته: «والآن، عليك أن تذهب إلى ويمبلدون بالقطار. فالوقت مهم، الوقت مهم. هاك بعض المال من أجل النفقات.»

«لا يمكنني أن أقبل منك مالًا يا سيد هوب، ولكني أشكرك على أي حال.»

«هراء، هراء. إنك تمثّلني، كما تعلم.»

«لا يا سيدي، بل أمثِّل العمال.»

«حسنًا، لا فارق. فائدة الفرد هي فائدة للجماعة. خذ، خذ، أنا أصر. لقد قرّرت التدخل في الأمر. فلتدعُ هذه الأموال أجرًا إذا شئت. لا شك في أنك لم تكن راغبًا في الإضراب عن العمل.»

«لم أرغب في الإضراب عن العمل، ولكني فعلت.»

«لا فارق، لا فارق. لا بد أن تأخذ المال.»

«أُفضِّل ألّا أفعل يا سيدي.»

رأى مارستن مدى قلق مضيِّفه، الذي كان يتصرف مثل رجل ينتظر وقوع مصيبة على رأسه، ما أضعف من إصراره على عدم أخذ المال. فقد أدرك أن السيد هوب، ولسبب ما، يريده أن يأخذ المال وينصرف.

أصر العجوز على موقفه بلهفة قائلًا: «لا، لا. يجب ألّا ندع التوافه تعترض طريق النجاح.»

وبينما كان يتحدث، سُمع صوت متعجرف في الرّدهة، وكان صوت امرأة. طغى شحوب مفاجئ على وجه السيد هوب، ذكّر مارستن بالشحوب الذي علا وجهه عندما كان الاثنا عشر رجل شرطة يرافقونه وشريكه عبر الحشد.

همس العجوز بصوت مبحوح: «خذ، خذ، خذ المال ولا تقل شيئًا بشأنه؛ لا تقل شيئًا بشأنه.»

أخذ مارستن المال، ووضعه في جيبه. ورنّ الصوت في الرّدهة مرةً أخرى.

وكان يسأل: «أين السيد هوب يا سوزان؟»

«كان في الممشى الخلفي منذ دقائق يا سيدتي.»

سُمع صوت خطوات صارمة تعبر الرّدهة، ثم صوت الباب الخارجي يُفتح ويُغلق، ثم سُمع بوضوح صوت خطوات أقدام على الحصى يشق الصمت.

تلاشى القلق من على وجه السيد هوب كما لو كان سحابةً عابرة مرت، وظهر شبح ابتسامة على شفتَيه. وبدا وكأنه قد نسيَ وجود مارستن تحت وطأة اللحظة.

وغمغم في نفسه قائلًا: «فتاة ماهرة يا سوزي؛ وكذلك كنتُ، كذلك كنتُ.»

قال مارستن وهو ينهض: «إلى اللقاء يا سيد هوب، وشكرًا لك. سأذهب لألتقي السيد سارتويل في الحال.»

قال العجوز وهو يلقي نظرةً خاطفة عبر النافذة: «نعم، نعم. في الحال، في الحال.» ثم أضاف وقد انخفض صوته واستحال إلى نبرة اعتذراية، كما لو كان يطلب معروفًا: «هلّا تأخذ معك بعض المال لكي تعطيه إلى اللجنة لتوزّعه على العمال دون ذكر من أرسله، دون ذكر من أرسله؟ فكما تعلم، قد تستغرق المفاوضات بضعة أيام، وظنّي أنهم في حالٍ سيئة، في حالٍ سيئة.»

حتى مارستن نفسه ابتسم لهذا الاقتراح.

وقال: «لا أدري كيف يمكن ترتيب هذا الأمر. سوف أُضطر إلى إخبار العمال بأني قد ذهبت للقائك، أو بعضهم على الأقل، وقد يسيئون فهم الأمر. أعتقد أنه ربما ...»

«فهمت، فهمت. لا شك أن ثمّة صعوبةً في هذا الأمر. سأرسل المال بالطريقة المعتادة إلى الصحف. هذه أفضل خطة.»

قال مارستن في ذهول: «إلى الصحف؟»

نظر إليه العجوز منزعجًا.

ثم قال: «لم أقصد ذكر هذا. فكما تقول، قد يُساء فَهْم الأمر، قد يُساء فهمه. يبدو أن العالم مصنوع من سوء الفهم، ولكنك لن تبوح بأي شيء عن هذا الأمر، أليس كذلك؟ لقد فعلت ذلك بطريقةٍ ملتوية، حتى لا أوذيَ مشاعر أحد، تحت اسم «فاعل خير»، مجرد مبالغ صغيرة، مبالغ صغيرة من حين لآخر. قال سارتويل إن الإضراب سينتهي في غضون أسبوعَين أو ثلاثة. إنه رجل حاذق. سارتويل رجل حاذق، ولكنه كان مخطئًا في ذلك. جميعنا نخطئ في بعض الأحيان. لا يهمني أن يعرف أني شاركت في تمويل الإضراب دون الكشف عن هُويتي؛ فقد يعتقد أن هذا قد أطال من عمر الإضراب، وربما كان ذلك صحيحًا، ربما كان صحيحًا. من الصعب على المرء أن يحدِّد واجباته في ظرفٍ مثل هذا، صعب للغاية. لذا ربما من الأفضل ألّا تبوح بشيءٍ ممّا قلته لك إلى أي شخص.»

«لن أنطق بحرفٍ واحدٍ بشأنه يا سيد هوب.»

«عظيم، عظيم. أنا سعيد للغاية لحضورك، وسأتحدّث إلى سارتويل بشأنك عندما نعود إلى العمل مجددًا. والآن، اخرج من باب المنزل الأمامي هذه المرة، وعندما تتحدث إلى السيد سارتويل احذر من قول أي شيءٍ قد يبدو انتقادًا لأفعاله بأي شكل. لا تغضبه، لا تغضبه. فاللّين هو الطريق الأفضل بوجه عام. وإذا اقتضَت الضرورة إجراءً حاسمًا، فدَع الأمر لي، دع الأمر لي.»

أوصل صاحب المصنع موظّفه بنفسه إلى الخارج عبر مدخل المنزل الأمامي، وسار الشاب بنشاطٍ في اتجاه محطة سربيتون.

الفصل الخامس عشر

عندما وصل مارستن الشاب إلى المنزل المحاط بالأسوار في ويمبلدون، اكتشف أن سارتويل لم يعبأ كثيراً برغبات رئيسه؛ إذ غادر منزله متجهًا إلى المصنع في موعده المعتاد في الصباح. ويبدو أن السيد هوب لم يكن حاسمًا بما يكفي، عندما أخبر مدير مصنعه بألّا يذهب إلى مكتبه في اليوم التالي.

وقف مارستن على عتبة باب المنزل مترددًا؛ فلم تكن لديه أدنى فكرةٍ عن التصرُّف الأفضل الذي عليه اتخاذه تاليًا. وبعد أحداث أمس، كان من الصعب محاولةُ ترتيب لقاء مع مدير المصنع في مكتبه.

قالت الخادمة بعدما لاحظت حيرته: «السيدة سارتويل ليسَت في المنزل أيضًا، ولكن الآنسة سارتويل في الحديقة. ربما تود مقابلتها؟»

ربما! تسارعَت نبضات قلب الشاب لمجرد ذكر اسمها. كان يحاول إقناع نفسه بأن تلكؤه عند المنزل يرجع إلى خيبة أمله؛ لأنه لم يجد مدير المصنع في منزله، إلا أنه كان يدرك أن حواسه جميعها كانت متحفزةً لإلقاء نظرةٍ عليها أو سماع صوتها. كان يأمل في سماع صوتها، أو لمحها ولو للحظةٍ خاطفة. لم يكن يريد أي شيء في العالم في هذه اللحظة سوى أن يتحدث إليها، أن يلمس يدها، ولكنه كان يعلم أنه إذا التقاها، وعلم والدها بلقائهما، فسيتأجّج سخط سارتويل العنيف عليه، ممّا يعرِّض مهمته للخطر بلا أدنى شك. فلن يرى سارتويل في زيارته إلى ويمبلدون إلا حيلةً للفوز بلقاءٍ مع الفتاة. لقد وثق به برونت، وودّعه داعيًا له بالتوفيق، وقد يعتمد مصير العمال الثائرين الذين يوشكون على إثارة الفوضى، على نجاح مهمته. وقد يتضوّر النساء والأطفال جوعًا في

مقابل دقائق معدودة، يحظى فيها بلذة الحديث مع إدنا سارتويل. لم يكن قد تعرّض لمثل هذا الإغراء من قبل، ونحّاه جانبًا برفضٍ واهٍ متردد.

وزفر قائلًا: «لا، كنت أريد لقاء السيد سارتويل. سأذهب للقائه في مكتبه.»

صفقت الخادمة باب المنزل بقوة. فلا شك في أنه لم يكن يحتاج لاستغراق كل ذلك الوقت حتى يقول «لا»، تاركًا إياها واقفةً عند الباب.

إلا أن قصر الكلمة لا يعبّر عن مدى مشقّة نطقِها. ولكن صوت إغلاق الباب المدوي الناتج عن تردُّده جعله يقرِّر التخلّي عن تردده في خوض اللقاء الذي لا مفر منه. ربما لا يكون من المجاملة لسارتويل في شيءٍ أن نقول إن ابنته عندما سمعت الباب يُغلق بهذا العنف، ظنّت أن والدها عاد إلى المنزل، وأن ثمّة خطبًا ما. فلم يكن الصبر من شيم سارتويل، وعندما كانت زوجته تحاول، مدفوعةً فقط بحسٍّ قويٍّ بالواجب تجاهه، أن توضّح له بعضًا من أخطائه الكثيرة، كان الرجل، بدلًا من أن يشعر بالامتنان لها، عادةً ما يُنهي النقاش الذي لا يُراد به إلا مصلحته، بأن يصفق الباب بعنفٍ خلفه ويذهب إلى الحديقة العامة بطقسها الرائع، حيث يمكن للمرء أن يسير أميالًا دون أن يمر بالطريق نفسِه مرتَين.

أسرعَت الفتاةُ نحو مقدمة المنزل لدى سماعها صوت إغلاق الباب المدوّي، وانتابَها قلقٌ شديدٌ عندما رأَت مارستن عند البوابة تقريبًا. وخطر لها على الفور أن خطبًا ما ألمّ بوالدها، وسرعان ما لحقت بالشاب، وتأكّدت مخاوفها من ارتباكه الواضح لدى رؤيتها.

قالت وهي تلهث: «أوه، سيد مارستن، هل وقع خطب ما؟ هل حدث مزيد من الاضطرابات في المصنع؟»

قال مارستن متلعثماً: «لا، لا أعتقد ذلك.»

«أنا واثقة من أن خطباً قد وقع. أخبرني، أخبرني. لا تتركني فريسةً للقلق.»

«أظن أن كل شيء على ما يرام.»

«ولمَ تقول إنك «تظن»؟ ألست واثقاً من ذلك؟ هل حضرت إلى هنا قادماً من المصنع؟»

«لا، لم أفعل. لقد حضرت لتوي من سربيتون. كنت أريد التحدث إلى السيد سارتويل، ولكن لم أجده في المنزل.»

قالت الفتاة وكأن عبئاً قد انزاح عن صدرها: «آه.» ثم سدّدت إليه نظرةً ثاقبة مربكة إليه، أعادت لعقله صورة والدها بصورة غير مفهومة. «من سربيتون؟ هل حضرت لتوك من سربيتون؟»

قال بتلعثم: «نعم.»

«هل ذهبت للقاء السيد هوب؟»

بدا الارتباك جلياً على وجه مارستن، ولاحظت الفتاة ذلك. فاشتعل وجهها احمراراً من فرط غضبها.

وقالت: «إذا كانت زيارتك سرية، فلا أتوقع منك بالطبع أن تجيب عن سؤالي.»

«لم يكن مقصوداً بها أن تكون زيارةً سرية، ولكن ... ولكن طلب مني السيد هوب ألّا أذكرها.»

«ألّا تذكرها لوالدي؟»

«لأي شخص.»

حدّقت إدنا سارتويل إلى وجه الشاب التعس بنظرةٍ ملؤها التأنيب، والاحتقار كذلك للأسف.

ثم قالَت في استياء: «يمكنني أن أستشفّ من تعبيرات وجهك أنك لا تريد أن يعرف والدي أنك كنت تتحدث إلى السيد هوب بشأن الإضراب.»

رد عليها مارستن بدفعة شجاعة أدهشته هو نفسه: «إن وجهي لا يخبركِ بكل ما أفكّر فيه يا آنسة سارتويل. لقد التقيت السيد هوب لأجل الإضراب، وكانت رغبته هو، وليست رغبتي، ألّا يعرف السيد سارتويل أنني كنت هناك. ولكني مخطئ في قول إنها لم تكن رغبتي. فأنا أيضًا لا أريد أن يعرف بها السيد سارتويل.»

صاحَت الفتاة وقد اشتعل وجهها غضبًا: «حسنًا، أنا أعتبر هذا خيانة.»

فسألها مارستن وقد شحب وجهه في الوقت الذي تخضّب فيه وجهها بحمرة الغضب: «لمن؟»

«لوالدي.»

«ربما كانت خيانة، كما تقولين، ولكن ليس للسيد سارتويل. ربما كانت خيانةً لجيبونز؛ فهو أمين النقابة العمالية وقائد الإضراب، بينما أنا أحد أعضاء النقابة وأحد العمال المضربين. لا يمكن أن أكون خائنًا للسيد سارتويل وهناك حربٌ بيننا.»

قالت الفتاة بازدراء: «لم تكن ثمّة حربٌ بينكما عندما كنت تظن أنه يمكنه أن يسديَ إليك معروفًا.»

حدّق إليها الشاب في دهشةٍ عقدَت لسانه عن الكلام.

وواصلت حديثها قائلة: «نعم، لقد أخبرني بما حدث في تلك الليلة عندما ذهبت إلى المكتب آخر مرة. لقد رفض طلبك، وكنت غاضبًا منه

حينئذ. ظننتك حينها محبطًا ليس أكثر، وتحدّثت إليه نيابةً عنك، ولكنه قال لي إنني لا أعرف أيّ شيءٍ عنك، وأنا أصدّقه الآن. لم أتصوّر قط أنك الشخص الذي قد يتآمر من خلف ظهر رب عمله.»

قال مارستن ببطء: «آنسة سارتويل، أنت مخطئة تمامًا في رأيكِ بي. فأنا لا أحمل في صدري أيّ ضغينةٍ تجاه السيد سارتويل، وآمل أنه لا يحمل أيّ ضغينة تجاهي أيضًا. لقد تحدثتِ للتو عن خيانةٍ اقترفتها؛ إنها خيانةٌ لجيبونز كما قلت لك. إنني أستهدف الإطاحة به إذا ما تمكنت من استمالة ما يكفي من العمال ليُصوّتوا معي. وحينئذٍ سيصبح الطريق ممهدًا للسيد سارتويل ليضع حدًا لهذه الأزمة، التي أثق تمامًا أنها تؤرّقه ربما أكثر من أي شخصٍ آخر.»

«ولكن ما دام الأمر هكذا، لماذا لا تريده أن يعرف ذلك؟»

«ألا تعلمين السبب؟ حتى لا يرتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبته أنتِ. لقد سمحتِ لي مشكورةً بأن أشرح لك الأمر، أما السيد سارتويل فقد لا ينتظر ليسمع أيّ تفسيرات.»

قالت إدنا نادمةً وهي تمد يدها إليه: «لم أكن رءوفةً بك، أليس كذلك؟ سامحني من فضلك. والآن أريد أن أفهم كل شيء عن هذا الأمر؛ لذا تعالَ معي إلى الحديقة حتى لا يقاطعنا أحد. فقد يحضر أحد بينما نقف هنا عند البوابة، وحينئذٍ سأُضطر إلى الدخول إلى المنزل؛ فقد ذهبت أمي إلى سربيتون لتطمئن على السيد هوب. هل أصيب أمس؟»

«لا. سأذهب معكِ يا آنسة سارتويل، ولكن بشرطٍ واحد.»

سألته الفتاة ببعض الدهشة: «وما هو؟» فقد كانَت قد استدارَت ناحية الحديقة متوقعةً أن يتبعها.

«ألّا تخبري السيد سارتويل بأنكِ تحدثتِ معي.»

«لا يمكنني أن أعدك بذلك. فأنا لا أُخفي شيئًا عن والدي.»

«حسنًا إذن. هذا عين الصواب بالطبع، ولكن في هذه الحالة، عندما تخبرينه بأنكِ تحدثت إليّ، أخبريه بأني حضرت لمقابلته، وأن الخادمة قالت إنه والسيدة سارتويل ليسا موجودَين في المنزل، وأنها سألَتني عما إذا كنت أودُّ مقابلتك. أخبري والدكِ بأنني قلت «لا»، وأنني كنت في طريقي للانصراف عندما أتيتِ أنتِ وتحدثتِ إليّ.»

نظرَت له الفتاة مباشرة، وقد تغضّن جبينها الأملس قليلًا في حيرة. كانت الفتاة في حيرةٍ من أمرها.

فقالَت: «أنت تقول ذلك لأنك لا تفهمه. لم يكن ليُمانع على الإطلاق أن تتحدّث معي بشأن الإضراب؛ لأنه يثق بي تمام الثقة، ولكن قد لا يعجبه الأمر إذا عرف أنك ذهبت للقاء السيد هوب.»

«بالضبط. ألَا ترين أنكِ إذا أخبرتِه بأنكِ تحدثت معي، فسيكون عليكِ أن تخبريه بما قيل؟ وسيعرف بطريق غير مباشر أنني قد ذهبت إلى سربيتون، ولا شك في أنه سيغضب، وسيغضب أكثر عندما يعرف أني لم أكن أنوي إخباره بأمر الزيارة. في واقع الأمر وبعد هذه المحادثة التي دارَت بيننا، سأذهب إليه مباشرةً وأخبره بأني تحدثت إلى السيد هوب، رغم أني على يقينٍ تامٍّ من أن هذا الفعل سيُحبط كل خططي.»

«كل هذا لمجرد أني تحدثت إليك بضع دقائق؟»

«نعم.»

أطرقت الفتاة بوجهها الذي تعلوه الحيرة نحو الأرض، وظلت تركل الحصى على الممشى بطرف حذائها الأنيق في شرود. غمرها الشاب بنظراته وزاد حنين قلبه إليها. وأخيرًا رفعت بصرها نحوه على حين غرةٍ وقد ارتسمَت على شفتَيها ابتسامة مرتبكة.

وقالت: «آسفة أنني استوقفتك. لعلك لا تعلم ما يعنيه أن ينصبّ اهتمامك على شخصٍ واحدٍ دون بقية العالم مجتمعًا. إن أبي هو كل شيءٍ بالنسبة إليّ، وعندما رأيتك، خشيت أن يكون قد ألمّ به مكروه. لا يبدو من الصواب أن أخفيَ عنه أي شيء، ولا يبدو من الصواب أيضًا أن أفعلَ شيئًا من شأنه أن يعرقل الوصول إلى تسويةٍ سريعةٍ للأزمة. لا أعلم ما يجدر بي فعله.»

متى تردّدت امرأة ووقعت في حيرة من أمرها، ولم يسارع رجلٌ لاستغلال ترددها مستخدمًا أسلحتها ضدها؟

قال مارستن في لهفة: «ألَا ترين أن عقل السيد سارتويل مزدحمٌ بأمورٍ تفوق قدرة البشر على التحمل؟ لماذا إذن نُضيف على قلقه قلقًا بإخباره بأني حضرت إلى هنا، أو ذهبت إلى سربيتون؟ إن التفسيرات التي تبدو مرضيةً من وجهة نظرك قد لا تكون مرضيةً من وجهة نظره. وحينئذٍ سيُقلق نفسه دون أي داعٍ.»

«هل تعتقد أنه سيفعل؟»

«أعتقد! أنا واثق أنه سيفعل.»

«نعم، أعتقد أن ما تقوله صحيح. حسنًا إذن، أعدك ألّا أخبره بزيارتك إلا إذا سألني مباشرة. والآن تعالَ معي؛ أريد أن أعرف كل ما تخطّط له، وما قاله السيد هوب. وربما يمكنني أن أقترحَ عليك شيئًا من شأنه أن يساعدك؛ فأنا أعلم يقينًا ما سيفعله والدي، وما لن يفعله، أكثر من أي أحدٍ منكم.»

تقدّمَته إدنا عبر ممشى الحديقة، وتوقّفت أخيرًا حيث تناثرَت بضعة مقاعد تحت شجرةٍ وارفة الظلال.

وقالت: «اجلس. يمكننا أن نتحدّث هنا دون أن يقاطعَنا أحدٌ تمامًا.»

جلس مارستن في مواجهة إدنا سارتويل، في العزلة الهادئة لأبعد مكانٍ في أعماق الحديقة المُسوّرة. لم يكن ليتخلّى عن مكانِه هذا مقابل آخرَ في الجنة، وشعر أن الحظ يحالفه. ولكن قدر الإنسان أن يدفع مقابل متعته حتمًا إن آجلًا أو عاجلًا، وسرعان ما اكتشف مارستن أن القدر يطالبه بالمقابل. ولكنه لم يكن يملك رصيدًا في مصرف الآلهة.

بدأت إدنا حديثها قائلة: «على الرغم من أنني قد وعدتك، فأنا واثقة من أنك مخطئ في اعتقادك بأن والدي سيستاء إذا علم أننا تحدثنا معًا عن الإضراب، وإذا كنتُ قد قلت إنني لن أخبره بحضورك إلى هنا، فهذا ليس لأني أخشى أن يضايقه ذلك، بل لأني سأُضطر حينها أن أخبره بزيارتك إلى سربيتون أيضًا، وكما تقول، قد يعتقد أن زيارتك للسيد هوب غير مبررة، مهما كانت نواياك. ولكن الأمر مختلف تمامًا بالنسبة إليّ. سوف يسخر فقط من نقاشنا حول الموقف، مثلما يسخر من أحاديثي مع السيد برنارد هوب التي تدور في هذه الحديقة نفسها.»

«آه، هل يأتي السيد برنارد هوب إلى هنا؟»

«نعم، إنه يتردد علينا كثيرًا منذ بداية الإضراب. فهو مهتم أيما اهتمام بأحوال العمال.»

«حقًا؟ إنه أمر يستحق الكثير من الإشادة.»

«هذا ما أقوله بالفعل، إلا أن والدي لا يفعل شيئًا سوى السخرية منه. إنه يعتقد أن السيد هوب ما هو إلا كومة كبيرة من الـ... الـ...»

قال مارستن بسرعة بعدما لاحظ ترددها: «من الحماقة.»

قالت إدنا وهي تضحك بتحفظ: «حسنًا، نعم، وإن كنت أرى هذا الوصف مبالغًا قليلًا، وليس هذا ما كنت أنوي قوله. ولكني لا أعتقد أنه كذلك. ربما يكون طائشًا، أو بالأحرى، كان طائشًا، ولكن ذلك كان

قبل أن يدرك المسئوليات الملقاة على عاتقه. أظنه شابًا جادًا للغاية، ولكنه يبالغ في التواضع بشأن ذلك، ويقول إنه يأمل في أن تعوِّض جديته أي قدراتٍ تنقصه من شأنها أن ...»

«إنه يحتاج إذن إلى كل الجدية التي يمكنه جلبها ليحلّ هذه المسألة.»

صاحَت إدنا بحماس: «أوه، إنه يدرك ذلك. كما قال إنه إذا كان ثمّة مَن يوجّهه لطريق الصواب، فسيبذل كل ما في وسعه لمساعدة العمال في تحسين أحوالهم. وأخبرته أن فكره المتذبذب هو ألدُّ عدوٍّ له.»

«إنه متذبذب، أليس كذلك؟»

«إلى أقصى حد. على سبيل المثال، قد يغادرك اليوم وهو مقتنعٌ تمامًا بأن إجراءً ما صحيح. ثم يعود في الغد، بعدما يُعيد التفكير فيه، وبحوزته عددٌ كبيرٌ من الاعتراضات حتى إنه لا يكون واثقًا من صحتها. ويقول — وهو محق تمامًا في ذلك — إن المسألة معقدةٌ للغاية، ولا بد أن يُنظر لها من جميع جوانبها، وإلا فستقع أخطاء حتمًا.»

«ولهذا السبب لا يفعل أيّ شيء، على ما أعتقد. فحينئذٍ سيكون واثقًا من عدم ارتكاب أي أخطاء.»

كان في صوت الشاب بعضُ المرارة جعلت الفتاة تنظر إليه في دهشة. لا شكّ في أن شخصَين يهتمان لأمر العمال من صميم قلبَيهما مثل كلٍّ من هوب ومارستن، لا بد أن يكونا ممتنّين لأي مساعدةٍ يقدّمها أحدهما للآخر، إلا أن مارستن لم يُبدِ أي استمتاعٍ بالاستماع لأهداف بارني النبيلة الإيثارية.

«لمَ تقول إنه لا يفعل شيئًا؟»

«حسنًا، عندما التقيته قبل بَدْء الإضراب، أملًا في أن يستخدم نفوذه في تفادي الأزمة، لم يُظهر أي رغبةٍ في تحسين أحوال أي أحدٍ إلا نفسه. كان مترفًا وسعيدًا، فلمَ إذن يشغل نفسه بأمر العمال؟ حتى إنه وصفهم بأنهم «متسولون حمقى» عندما أخبرته بأنهم قد صوّتوا لصالح الإضراب عن العمل.»

صاحَت إدنا في جذل: «أرأيت، من السهل للغاية، كما قلت بنفسك، أن يُسيء الرجال فَهْم بعضهم البعض. فبضع كلماتٍ توضيحيةٍ من شأنها أن تظهر لك كيف أنك أسأت الحكم على السيد برنارد هوب. لقد كان ينوي بالفعل استخدام نفوذه في صالح العمال، وحضر إلى هنا قاطعًا كل تلك المسافة من تشيلسي ليتحدث إلى أبي حول هذا الموضوع، تمامًا مثلما فعلت أنت اليوم، ولم يكن أبي في المنزل، مثلما هو الحال اليوم. فأخذنا أنا والسيد هوب وأمي نناقش الأمر، ووافَقَنا الرأي تمامًا في أنه لن يكون من العدل بالنسبة إلى أبي أن يكون ثمّة أيٌ تدخّل. ورفض التدخّل في النزاع من أجل والدي.»

وأمام هذا الدفاع المستميت عن بارني، لم يجد الشاب ما يقول، ولكن حدث ما جنّب الشاب ضرورة الرد؛ فقد أجفل كلٌ من المتحدّثة والمستمع عندما سمعا صوتًا أجشّ بالقرب من المنزل يدعو الفتاة باسمها.

فهبت إدنا واقفةً في انزعاج، ونهض مارستن أيضًا.

«إنها زوجة أبي تُناديني. لقد عادَت. لم أدرك أن الوقت قد تأخّر إلى هذا الحد. ماذا نحن فاعلان؟ يجب ألّا تراك هنا، ولكنك لن تستطيع الخروج دون المرور عبر المنزل.»

«يمكنني أن أقفز من فوق السور. مَن يسكن في المنزل المجاور؟»

«إنه خالٍ، ولكن السور عالٍ، وثمّة زجاج مكسور على قمته.»

«لا بد أن أجرِّب على أي حال.»

عبرا سياج الشجيرات ليصلا إلى الجدار الفاصل بين المنزلَين.

وقالت إدنا: «أوه، أنا واثقةٌ من أنك لن تتمكّن من القفز من فوق السور، وستُجرَح يداك.»

خلع مارستن معطفه، وألقاه مفرودًا فوق الزجاج المكسور المتناثر، وتراجع إلى الخلف إلى أقصى مدًى سمح له به سياج الشجيرات، ثم ركض بأقصى سرعةٍ ليقفز، وأمسك بقمّة السور بكلتا يدَيه حيث غُطِّي الزجاج بالمعطف. وفي اللحظة التالية كان قد قفز فوق السور يرتدي معطفه، بينما كان حذاؤه يسحق الزجاجات المكسورة.

رفعَت إدنا رأسَها نحوه وهمسَت له، وقد توهّج وجهُها من فَرْط الإثارة: «أنت لم تجرح نفسك، أليس كذلك؟ أنا سعيدةٌ للغاية. إلى اللقاء!»

قال مارستن بصوتٍ خفيضٍ ولكنه مسموع: «لحظة واحدة. لم تواتني الفرصة لإخبارك بخططي.»

«أوه، أرجوك، أرجوك اقفز؛ فقد تصل أمي إلى هنا في أي لحظة.»

سُمع نداء «إدنا!» مرةً أخرى آتيًا من داخل المنزل.

فهمس مارستن قائلًا: «لا يزال كل شيءٍ على ما يرام. ولكن لا بد أن أعرف رأيك في خططي. سأكون هنا في نفس الموعد غدًا، وإذا كانت الساحة خالية، هلا تلقين بشالٍ، أو شريط، أو أي شيء، على السور حيث كان معطفي حتى يمكنني رؤيته من هذا الجانب؟»

«هيا اذهب. إذا رآك أحد هنا فسيُفسِد ذلك كل شيء. لا أعرف ماذا أقول بشأن الغد. سأفكّر في الأمر.»

«تذكري أنني سأكون على هذا الجانب من السور. وعليكِ أن تستوضحي كل شيء جيداً، حتى تُعطيني رأيكِ فيه؛ فهذا أمرٌ مهم للغاية.»

«حسنًا، حسنًا. أعدك بهذا، ولكنّك تخاطر بكل شيءٍ ببقائك هنا.»

هبط مارستن في حديقة منزل رجل آخر، وواصل اقتحامه لها دون اكتراثٍ فوق وعبر أي شيء اعترض طريقه، حتى وصل إلى بوابتها، فعبرها ليصبح في الشارع مرةً أخرى. كانت كلمة «للإيجار»، المكتوبة على نوافذ المنزل وعلى لافتة موضوعة فوق السور العالي، مطمئنةً بالنسبة إليه.

تمتم مارستن ضامًا قبضته: «آه، بارني هوب، لم تقدِّم يداك أي خير لهذا العالم قط. إن القفز من فوق السور لمرة واحدة يساوي عبور البوابة لدزينة من المرات. أظن أني بحاجةٍ إلى تعليماتٍ بشأن واجبي تجاه أرباب عملي، مثلما تحتاج أنت لتوضيحٍ لالتزاماتك تجاه العمال.»

الفصل السادس عشر

«إدنا، أين أنت؟»

«أنا هنا يا أماه.»

«لقد سمعتني أناديك، لماذا لم تجيبيني؟»

«لقد أجبتكِ وقلت إني آتية. كيف حال السيد هوب؟»

«أعصابه متعبةٌ للغاية. يعتقد أنه لم يُصب بضرر، ولكني واثقةٌ من أنه تضرّر نفسيًا، وهذا الضرر أسوأ كثيراً من الجراح الخارجية، وقد أخبرته بذلك. لقد أصبح يخاف بشدة، ويفزع كلما وجّهَت له زوجته عبارةً عادية. نصحته أن يذهب إلى الطبيب ليكتشف ما ألمّ به قبل فوات الأوان. أخبرتني السيدة هوب أنه يتصرف بغرابةٍ شديدة. فقد أكل أقلّ القليل على الإفطار صباح اليوم، ولكنه، قبل الغداء، طلب إحضار وجبةٍ ضخمةٍ إلى غرفة مكتبه، والتهمها بمفرده.»

«ربما لأنه لم يأكل جيداً على الإفطار.»

«لا يا بنيتي، أنت لا تعين ما تتحدثين عنه. ثمّة بعض الأصناف لا يمكن للسيد هوب الاقتراب منها إلا ويمرض بعدها. السيدة هوب حريصة جداً على نظامه الغذائي. هناك المخلل على سبيل المثال؛ إنه لم يأكل منه قطعةً واحدةً منذ ستة عشر عاماً، ولكنه تناول منه كميةً كبيرة اليوم، وشرب زجاجةً كاملة من البيرة، فضلًا عن اللحم البقري والجبن، والكثير من الأصناف الأخرى. والسيدة هوب المسكينة تجلس مغلولة اليدَين في انتظار موته. لم أرَ مثل نظرة الاستسلام الملائكية تلك على وجه بشرٍ من قبل.»

«على وجه السيد هوب؟»

«إدنا، لا تكوني وقحة. تعرفين جيداً أنني أعني السيدة هوب.»

«لم أكن أُدرك ذلك حقًا يا أماه. اعتقدت أن السيد هوب ربما استسلم. ماذا يقول؟»

«يقول إنه لم يُصب بأي أذًى، ولكن كل ما تفعله السيدة هوب هو التنهُّد وهز رأسها أسفًا. فهي تعلم ما سيحل به.»

«أؤكد لكِ أن الرجل المسكين كان جائعًا ليس أكثر، وأنه مل من فرط الالتزام بالنظام الغذائي. آمل أنه استمتع بوجبته.»

«إدنا، إن خبرتكِ محدودة للغاية، وآسف أن أقول إن عقلكِ كذلك محدود للغاية لتفهمي ما أعنيه بذلك. لطالما كانت أعضاء الهضم لدى السيد هوب ضعيفةً دائمًا. ولولا أن زوجته توليه رعايةً خاصة، لمات منذ أمدٍ بعيد. لقد غفلَت عنه بضع دقائق صباح اليوم، ورفضت تلقي جميع الاتصالات، فيما عدا اتصالي وواحدة أو اثنتَين من أعزّ صديقاتها، وحدث ما حدث. إنها تخشى أن اضطراباتِ الأمس قد دمّرت أعصابه بالكامل، ولم يعُد يدري ما يفعل، على الرغم من إصراره على أنه يشعر بأنه على ما يرام كما هو دائمًا، ولكني قلت للسيدة هوب إني كنت سأطلب المشورة الطبية على الفور لو كنت مكانها. من الذي حضر للقاء والدكِ بينما كنت في الخارج؟»

«لم أدخل المنزل منذ مغادرتك.»

«ماذا؟! كنتِ في الحديقة طوال هذا الوقت! إدنا، متى ستتعلّمين تحمُّل بعض المسئولية؟ كيف تتوقعين من الخادمات أن يؤدين واجباتهن إذا ما أهملتِ أنتِ واجباتكِ ولم تتابعيهن؟»

«إنكِ تُدرِّبينهن جيداً يا أمي، حتى إنني لم أرَ ضرورةً لمتابعتهن أثناء غيابك.»

«نعم، أنا أدرِّبهن، وأؤدّي واجبي نحوهن، كما آمل، ولكن لديكِ أنت أيضًا واجبات لتؤديها، على الرغم من استخفافكِ بها. لقد نسيت أن كل ساعةٍ تُضيِّعينها سدًى سيكون عليكِ تفسير سبب إضاعتها في اليوم العظيم.»

«لم أكن أضيِّع وقتي، وحتى إن فعلت، لا يمكن للمرء أن يفكر في اليوم العظيم طوال الوقت.»

كانتا قد وصلتا في تلك اللحظة إلى غرفة الضيوف، فجلست السيدة سارتويل وهي تحدِّق إلى ابنة زوجها بحدة مخففة.

ثم قالت بجدية: «إدنا، أتوسل إليكِ ألّا تسمحي لنفسكِ بأن تكوني وقحة. فهذه هي الطريقة نفسها التي يتحدث بها والدك، وعلى الرغم من أننا نأمل أن تُغفر له، فليس من اللائق أن تتحدث فتاةٌ في مثل عمركِ بهذه النبرة. إن والدكِ لا يعي المتاعب التي سيجلبها على نفسه بالطريقة التي يتبعها في تربيتك، وإذا ما أخبرته بأنكِ كنت تخدعينه، فلن يصدق. ولكن، ذات يوم، للأسف! سيرى الحقيقة.»

صاحَت إدنا وقد بدأ الشحوب يزحف إلى وجهها بسرعة: «كيف أخدعه؟»

هزّت زوجة أبيها رأسها في حزنٍ وتنهّدت.

ثم قالت: «إذا لم يخبركِ قلبك، فربما من الأفضل أن ألتزم الصمت. لقد ورثت عنه طابعه الانفعالي اللعين يا فتاتي المسكينة. لقد شحب وجهكِ من الغضب لمجرد محاولةٍ بسيطةٍ مني لتقويم سلوكك.»

«أنتِ لم تقوّميني. بل قلت إني أخدع والدي، وأنا أسألكِ ماذا تعنين بذلك؟»

ابتسمَت السيدة سارتويل ابتسامةً رقيقة، وإن لم تخلُ من الحزن.

وقالت: «يا للتشابه! يا للتشابه! أكاد أرى أمامي والدكِ يتحدث ولكن بصوتك.»

«حسنًا، هذا يُسعدني. إنكِ لا تطرين عليّ عادة.»

«وهذا دليلٌ آخر على وقاحتك. أنتِ تعلمين جيدًا أني لا أُطري عليكِ عندما أقول إنكِ تُشبهين والدك. بل على النقيض تمامًا. ولكن سيأتي يوم يدرك فيه ذلك. نعم، سيأتي بلا أدنى شك.»

«أنت تعنين أنه سيدرك أني أخدعه، ولكنكِ لم تخبريني كيف أخدعه.»

«أنت تخدعينه لأنكِ تحرصين أشد الحرص، في حضرته، على ألّا تُظهري الجانب الأسوأ من شخصيتك. أوه، يا إلهي، إنكِ تراعين ذلك جيدًا! تكونين في غاية الوداعة والخجل في وجوده. ولكنه سيكتشف حقيقتكِ ذات يومٍ وسيحزن كثيرًا. انتظري حتى تتعارض إرادتاكما العنيدتان، وحينئذٍ سيعرف كلٌ منكما حقيقة الآخر. لا شك في أن الأمور بينكما الآن سلسة وهادئة تمامًا، ولكن هذا لأنكِ لا تطلبين معرفة ما يعنيه، ولا تخبرينه بأنكِ لا تعبئين باليوم العظيم.»

استطردت الفتاة حديثها والدموع تكاد تنهمر من عينَيها، قائلة: «إن أبي لا يهدّدني أبدًا بعذاب الآخرة، كما تفعلين أنت دائمًا، كما أنه لا يكيل لي الاتهامات؛ لذا لا أحتاج لأن أسأله عما يعنيه. ربما كنتُ شريرة، ولكنك تقولين أشياء تبدو دائمًا أنها تُخرج الجانب السيئ من شخصيتي.»

قالت السيدة برقة: «أنت اندفاعية للغاية. في البداية لم تتورعي عن التطاول عليّ، ثم ها أنت تقولين إن شخصيتكِ سيئة، وأنا لم أدّعِ هذا قط. فلستِ أسوأ من أبيك.»

«أسوأ؟ أتمنى فقط لو كنتُ نصفه.»

«آه، هذا لأنكِ لا تعرفينه مثلما لا يعرفكِ هو. أنت تعتقدين أنه يثق بكِ تمام الثقة، ولكنه لا يفعل شيئًا من هذا القبيل. لماذا كان حريصًا كلَّ هذا الحرص على أَخْذ الصحف معه صباح اليوم؟»

«لا أعلم بالطبع. ولمَ لا يفعل؟ إنها ملكه.»

«ملكه، نعم! ولكنه لم يفعلها من قبل قط. لقد أخذها معه حتى يواصل خداع زوجته وابنته، هذا هو السبب. حتى لا نعرف كيف واجه العمال وتحدّاهم أمس. أوه، يمكنني أن أتخيّل ما فعل! فتلك هي الأفعال التي تُرضي غروره الدنيوي.»

صاحت الفتاة وهي تلهث من فرط القلق: «أوه، ماذا حدث يا أمي؟»

«أظن أنه لم يخبركِ بما حدث، وأظن أيضًا أنه لم يقل لكِ إن السيد هوب المسكين، وكذلك السيد مونكتون، رجواه وناشداه ألّا يذهب إلى المصنع اليوم، نعم، لقد كادا يركعان على ركبتَيهما لكيلا يفعل، ولكنه لم يُعِر رغباتهما أيّ اهتمام، رغم كونِه مرءوسهما! وإذا لم يكن ثمّة سببٌ آخر فلا بد أنه ...»

«أخبريني ماذا فعل؟ كيف تحدى العمال؟»

«لمَ لا تدعيني أكمل ما أقول؟ لمَ أنت قليلة الصبر هكذا؟»

«لأنه والدي. ألَا ترين أن هذا سبب كافٍ؟»

غمغمت السيدة سارتويل بنبرة حزينة: «بلى يا صغيرتي المسكينة، بلى، هذا سبب كافٍ. من شابه أباه فما ظلم. ربما كان في الأمر مبالغة مني أن أتوقع منكِ الصبر، بينما والدكِ لا يملك ذرةً منه.»

«ليس هذا ما أقصده، ولكن لا عليك. أخبريني أرجوكِ إن كان في خطر.»

«جميعنا معرّضون للخطر في كل لحظةٍ من حياتنا، ومنجانا منه هو تدخّل العناية الإلهية وليس جهودنا العقيمة. كم مرة، كم مرة بذلت كل ما في وسعي لأغرس هذه الحقيقة العظيمة في ذهن والدك، ولكني لم أتلقّ إلا كل استهزاء وسخرية، كما لو أن الاستهزاء والسخرية سينفعانه في اليوم العظيم؛ لماذا تتصرفين هكذا يا إدنا؟ إنكِ تذرعين الغرفة جيئةً وذهابًا بطريقةٍ يؤسفني أن أقول إنها لا تليق بفتاةٍ راقية. لا يجدر بكِ أن تقفزي من مقعدكِ بهذه الطريقة المفاجئة. أؤكد لكِ أن السخرية لن تُجدي نفعًا. ولا شك في أن لي الحق في أن أعبّر عن رأيي في منزلي! عندما قلت لوالدك صباح اليوم إنه يجب ألّا يتفاخر بقوته لأنها قوة زائلة، بل عليه أن يضع ثقته في قوة أسمى، قال إنه فعل؛ إذ كان رجال الشرطة موجودين في موقع الإضراب. أليست هذه سخرية؟ فقد كان يُدرك أني لا أقصد الشرطة.»

كانت إدنا قد غادرت الغرفة قبل أن تنهي زوجة والدها الجملة الأخيرة، وعندما تبعتها السيدة التي لا تمل من المحاولة إلى الرّدهة، بعدما نهضت وهي تتنهد بيأس، وجدت نفسها أمام محنة أسرية أخرى. فقد ارتدت إدنا قبعتها وكانت تقفل عباءتها.

فسألتها زوجة والدها المشدوهة: «إلى أين أنت ذاهبة؟»

«إلى لندن.»

«إلى لندن! هل يعلم والدكِ ذلك؟»

«سيفعل. سأستقلُ عربةً من المحطة إلى المصنع.»

«ماذا! هل ستمرين بالعربة وسط هذا الحشد المتوحش؟»

«هذا الحشد المتوحش لن يؤذيني.»

«صغيرتي، أنت مجنونة! ما معنى هذا؟»

«يعني أني ذاهبة لأعرف الخطر الذي تعرض له أبي أمس، وأني سأكون إلى جواره إذا كان لا يزال في خطرٍ اليوم.»

ضمّت المرأة المغلوبة على أمرها يدَيها معًا في هلع وعجز. وسألت نفسها، هل كانت ثمّة امرأة، منذ بدء الخليقة، حريصة على أداء واجباتها تجاه الجميع، تتعرض للمضايقات من قِبل مثل هذَين الشخصَين الخارجَين عن السيطرة؟ ولكنها، وعلى غير العادة، تفوّهت بالكلمات المناسبة للموقف تمامًا.

«لقد حان الوقت الموعود أسرع ممّا توقعت. لقد منعك والدك من الذهاب إلى مكتبه، وإذا ما وجدك تعصين أمره في موقف كهذا، فسيستشيط غضبًا. وحينئذٍ سترين بنفسك ما أعاني منه.»

توقّفت الفتاة الطائشة عن إتمام استعداداتها للخروج.

وقالت: «لم إذن تثيرين استيائي فوق قدرتي على التحمل، وترفضين إخباري بما حدث؟»

«أنا أرفض! أنا لا أرفض لكِ طلبًا. ليتني كنت أرفض طلباتكِ منذ صغرك؛ فحينئذٍ كنت ستفكرين مرتَين قبل أن تُلقي كل طاعتك لي أدراج الرياح. كل ما عليك فعله هو أن تسألي عما تريدين معرفته، وتنصتين بصبر عندما أُخبرك به.»

«لقد كررت سؤالي مرات كثيرة.»

«كم تبالغين! سأسميها مبالغة، مع أني أملك كل الحق في استخدام مصطلح أكثر قسوة. وستكون دقة التعبير أكثر ...»

«هل ستخبرينني أم أذهب؟»

«ألم أقل لك الآن إني سأخبرك بأي شيء؟ ما الذي تريدين معرفته؟ إن سلوكك السخيف أطاح كل شيء من ذهني.»

«قلت إن أبي تحدى العمال وكان في خطر أمس.»

«أوه، نعم! بعد أن رأى والدك أن السيد هوب والسيد مونكتون في حراسة الشرطة وهما يجتازان الحشد المتمرد، لم يرَ أمامه مفرًا من إظهار مدى شجاعته مقارنةً برئيسَيه. فخرج من بوابات المصنع بمفرده، وسار وسط الحشد.»

«ماذا قال؟»

«لم يقل شيئًا.»

«كيف تحدى العمال إذن؟»

«يا إلهي، يا لغبائكِ يا صغيرتي! عندما يتخطى العمال الحدود هكذا، فلا شك في أن خروجه بينهم — وهو السبب في كل ما حدث — يُعد تحديًا لهم. ولكن الجريدة التي اشتريتها من المحطة نشرت القصة كاملة؛ إنها على طاولة الردهة، وكنت سترينها لو استطعت الحفاظ على هدوئك. اقرئيها إذا أردت. لن يكون في فعل ذلك عصيان لي. تذكري أن والدكِ هو مَن كان لا يرغب في أن تري الجريدة.»

مرّ اليوم على إدنا سارتويل بطيئًا كالسلحفاة، وعندما لم يعُد والدها إلى المنزل في موعده المعتاد، تزايد قلقها أكثر وأكثر. لم تقُل زوجة

أبيها شيئًا عن تأخره عندما مرت الساعات دون أن يعود، ولكنها بدأت تتخذ هيئة الاستسلام الصبور الذي أصبح لائقًا بها. قُدِّمت وجبة العشاء في موعدها تمامًا، وفي الموعد المعتاد رُفعت من فوق الطاولة. وبّخت السيدة سارتويل إدنا مرةً أو مرتَين على قلقها، وندمَت على اضطرارها إلى توبيخها، ولكنها كانت مجبرةً على فعل ذلك؛ لأن القدوة الحسنة التي حاولَت أن تتمثّلها لم تلقَ أي تقديرٍ من إدنا. ثم قالت في نهاية المطاف:

«اذهبي للنوم يا إدنا. سأنتظر والدك حتى يعود.»

«من المؤكد أنه سيعود إلى المنزل قريبًا. أرجوك، دعيني أنتظره حتى يعود.»

ثم خيّم الصمت بضع دقائق.

ثم قالت السيدة سارتويل: «لا أريد أن أكرِّر طلبي يا إدنا. لقد سمعت ما أمرتكِ به.»

«من فضلك، لا ترسليني للنوم قبل عودة أبي. إن القلق يمزّقني! دعيني أنتظره بدلًا منك. فلن أتمكن من النوم إذا ذهبت إلى الفراش. هلّا تدعيني أنتظر عودته بدلًا منك؟»

طغَت نظرة الضحية على وجه زوجة والدها النحيلة، تلك النظرة التي تحكي قصصًا عن محنٍ كثيرةٍ تحمّلتها دون شكوى.

قالت: «لطالما سهرت أنتظر عودة والدك، ولطالما سأفعل، ما دمنا ظللنا زوجَين. للمرة الثالثة آمرك بأن تذهبي إلى النوم.»

ظلّت الفتاة جالسةً في مكانها وقد احمرّت وجنتاها احمراراً يدل على التمرد. ونمّت لمعة الغضب المكبوت في عين السيدة سارتويل عن أن الأمور قد وصلت إلى نقطة تحتِّم على واحدة منهما أن تغادر الغرفة

مهزومة. وأظهرت المرأة الأكبر سنًا طول بال حين ظلت نبرتها في الحديث ثابتة.

«هل تنوين أن تطيعيني يا إدنا؟»

«لا، لن أفعل.»

واصلت السيدة سارتويل الحياكة، وخلا سلوكها من أي أمارات انزعاج ظاهرية من سلوك الفتاة غير المبرر، إلا من قليل من الاعتدال في جلستها. وفي كل مرة بعد ردود إدنا السريعة، كان الصمت يخيِّم عليهما بضع لحظات.

قالت السيدة سارتويل هذه المرة: «في وقت سابق من اليوم يا إدنا، سوّلت لكِ نفسكِ التحدث إليّ والتعامل معي، بطريقةٍ تمنيتُ لو ندمتِ عليها عندما تسنح لكِ الفرصة للتفكير فيها. وتوقّعتُ منكِ أي تعبير ندم. هل فكرت فيما فعلت يا إدنا؟»

«نعم.»

أدخلت السيدة سارتويل الخيط في سَم خياط إبرتها ببطء مبالغ فيه.

وقالت: «وما النتيجة التي توصلت إليها؟»

«شعرت بالسرور عندما فكرت أني لم أقل شيئًا أكثر قسوةً مما قلتُ.»

تردّد صدى دقات الساعة الطويلة الموضوعة على بسطة الدرج في أرجاء المنزل. وراحت إدنا تتسمع بانتباه لصوت خطًى سريعة وواثقة على الحصى في الخارج، إلا أن أذنَيها لم تلتقطا شيئًا غير الصمت.

«يضاف إلى — سأستخدم كلمة صفاقة؛ لأنني لا أرى مصطلحًا أفضل منها لوصف الكلمات التي وجّهتِها إليّ — يضاف إلى صفاقتك الآن

العصيان. وإذا كنت أبالغ في وصف الأمر، فلن يكون مَن هو أسعد مني لتصحيح ذلك الوصف بالأسلوب اللائق.»

«لا رغبة لي في تعديل ما قلت.»

بعدما قرضت السيدة سارتويل الخيط بأسنانها، وتنهدت تنهيدةً عميقة مضطربة، قالت:

«في كل عائلة يا إدنا لا بد من وجود شخص يأمر ويطيعه الآخرون. وعندما تحين ساعتي، سيسرني كثيراً أن أضع عن كاهلي عبء هذه السلطة الرديئة التي عُهد بها إليّ، ولكن إلى أن تحين تلك الساعة سأظل سيدة منزلي. لقد منحني والدكِ بمطلق حريته واختياره هذه السلطة، وهو، وليس أنت، الشخص المنوط باستعادتها، إذا ما أراد ذلك. لهذا لن أتفوّه بأي كلمةٍ أخرى حتى عودته. وحينئذٍ سيكون عليه أن يختار بيننا. إذا اختار أن تكوني أنتِ سيدةَ هذا المنزل، فسأحني رأسي دون أن أنبس ببنت شفة، وأترك هذا المنزل داعيةً الرب أن يُبقيَ السلام والبركة بين جدرانه.»

لا شك أن شيئًا من هذا الاستسلام الذي نطقت به هذه الكلمات الموزونة، والذي يحوي إيحاء التضحية بالذات، قد مسّ قلب الفتاة المتحجر؛ إذ دفنت وجهها بين كفّيها وبدأت تبكي، في علامةٍ مؤكدةٍ على الانهزام. ولكن كانت عازمةً بوضوحٍ على ألّا تمنح خصمتها شعور الرضا الذي فازت به عن جدارةٍ بخطبة عصماء رائعة للغاية عن السلوك الصحيح في عائلةٍ منضبطة.

فانتحبَت قائلة: «إن الخطأ دائمًا خطأ أبي المسكين! مع كل ما يُغرق عقله من مشكلاتٍ وقلاقل، لا بد أن يشعر بالقلق عندما يعود إلى المنزل بسبب مناقرتنا البائسة.»

«أنا لا أدخل في مناقرات أبداً يا إدنا. ولا أستخدم هذه الكلمة المخجلة أبداً. لا أعرف بالطبع من أين جئت بها، ولكني واثقة من أنك لم تسمعيها مني. إذا أردت ألّا ينزعج والدك، يجب أن تتصرفي على النحو الذي لا يضطرنا للاحتكام إليه. فأنا لا أريد أن أضيف متاعب إلى متاعبه، بل على النقيض تماماً. هل أنت جاهزة للامتثال لأوامري الآن يا إدنا؟»

«نعم.»

نهضت الفتاة وتوجّهت في تردد نحو الباب وعيناها مغرورقتان بالدموع.

«لم تعطني قبلة ما قبل النوم يا إدنا.»

قبلت إدنا زوجة أبيها على وجنتها وذهبت إلى غرفتها، وألقت نفسها على فراشها دون أن تبدل ملابسها وهي تنتحب. ولكنها ظلت تتسمع تلك الخطوات على الحصى التي لم تأتِ. وفي النهاية، نهضت وصفّفت شعرها استعداداً للنوم، وغسلت وجهها حتى لا يعرف والدها، إذا عاد إلى المنزل ورآها، أنها كانت تبكي. ثم ارتدت ثياب النوم وجلست بجوار النافذة تتسمع بحرص ولهفة. وصل القطار الأخير إلى المحطة بعد منتصف الليل بقليل، وبعد بضع دقائق، التقطت أذناها الحساستان صوت الخطوات الذي انتظرته طويلًا في الشارع من بعيد، ولكنها لم تكن تلك الخطوات السريعة العصبية التي اعتادت عليها. بل كانت خطوات رجل متعب. فكّرت في أن تنادي عليه بصوت خافت عبر النافذة، ولكنها تراجعت. واربت إدنا باب غرفتها وسمعت صوت غمغمة زوجة والدها، ومن حين لآخر كانت تسمع نبرة صوت والدها الأقصر والأكثر خشونةً وهو يرد عليها بردوده المقتضبة. وبعد مدةٍ بدَت بلا نهاية، صعدَت زوجة أبيها وحدها، وأغلقَت باب غرفتها.

كتمت إدنا أنفاسها وهي تتسلل في هدوءٍ من غرفتها وتهبط الدرج. كانت درجات السلم رءوفةً بها فلم تُصدر صريراً. ثم فتحت باب غرفة الطعام، ووقفت في مكانها صامتةً كما لو كانت شبحًا. قفز والدها من مقعده فزعًا، وتطلّب منه الأمر كل قدرته المعتادة على السيطرة على النفس ليكتم صرخةً كادت تُفلت من بين شفتَيه.

وهمس قائلًا: «رباه، ابنتي العزيزة؛ هل تريدين أن تُفزعي والدك العجوز حتى يفقد القدر اليسير من العقل المتبقي لديه؟ لمَ لم تنامي بعد؟» أغلقت إدنا الباب برفق، وركضت نحوه، وأحاطت عنقه بذراعَيها.

وقالت: «أبي، هل أنت بخير؟ هل أُصبت بسوء؟»

«أصبت بسوء! لماذا، ما الذي سيؤذيني أيتها الصغيرة الحمقاء؟» ثم أزاح شعرها عن عينَيها. وقال: «كنت تحلمين؛ وظني أنك أصبحت تتكلمين أثناء نومك. لمَ لم تنامي؟»

«لم أتمكن من النوم حتى عودتك إلى المنزل. لمَ تأخرت هكذا يا أبي؟»

«لقد تخطّى الأمر ما يُلزم به القانون الرجل. هل يجب أن أقدم تبريرات لامرأتين كلما عدت إلى المنزل في وقت متأخر من الليل في القطار الأخير؟»

جلست الفتاة على وسادة صغيرة، وأراحت رأسها على ركبة والدها الذي داعب شعرها في حنان.

وقال: «ما الذي يؤرقكِ يا إدنا؟ لمَ أنتِ قلقة لهذه الدرجة من عودتي في ساعةٍ متأخرة؟»

«خشيت أن تكون في خطر؛ فقد قرأت ما كُتب في الجريدة عن تحديك للعمال، و... و...»

أطلق سارتويل ضحكةً هادئة.

وقال: «بنيتي الغالية، إذا كنت ستبدئين حياتك بتصديق كل ما ترينه في الصحف، فستعانين جراء ذلك دائمًا. سأخبركِ بأمرٍ مفزع أكثر من ذلك بكثيرٍ لم يُنشر في الصحف بعد.»

سألته الفتاة رافعةً بصرها نحوه: «ما هو يا أبي؟»

«هو أنك كنت فتاةً صعبة المراس طوال اليوم، وسبّبت الكثير من القلق للمسئولين عن تنشئتك.»

أراحَت إدنا رأسها مجددًا على ركبة والدها.

وقالت: «نعم، هذا صحيح تمامًا. كنت سيئةً ومتمردة للغاية بقول أشياء لم يكن يجدر بي قولها.»

«وترك أشياء كان عليك قولها ... آه، حسنًا، جميعنا يخطئ. ومن نعم الرب أن منّ علينا بالغفران، وإلا ساءت عاقبة أغلبنا.»

«عندما تكون هنا، وبشكل ما، لا يبدو أن شيئًا يهمني، وتبدو جميع مخاوفي خلال اليوم ضئيلةً وتافهة، وأتساءل لمَ أرّقتني؛ ولكن عندما تغيب ... حسنًا، يختلف الأمر كليًا.»

«أنا سعيد للغاية بسماع هذا يا إدنا، ولكن عليك ألّا تتخيلي أنك ستخدعينني بتملّقك حتى أُلغي العقاب الذي تعرفين أنك تستحقينه. لا، لن أنخدع بدبلوماسيتك. ولن يجدي ذلك نفعًا معي يا بنيتي العزيزة، لن يجدي.»

«هذه ليست دبلوماسيةً أو تملقًا؛ إنها الحقيقة. وسأتقبل عقابي بكل خنوع إذا ما أخبرتني بما حدث اليوم.»

«أرفض التفاوض مع متمردة معترفة بذنبها؛ ولكن بما أنني لا بد أن أدعك تذهبين إلى النوم قبل طلوع الصباح، فسأخبرك بما حدث. لقد جرت محاولة لتسوية الإضراب اليوم. فقد اجتمع العمال معًا الليلة، وانتظرت في النادي لمعرفة النتيجة. فقد أرسلت رجلًا تابعًا لي في الاجتماع كان من المقرر أن يُحضر لي نتائج التصويت بمجرد انتهائه. إنه شاب — أحد المضربين، ولكنه الرجل الوحيد العاقل بينهم — التقى بي عصر اليوم، وقدم لي اقتراحات معينةً وقبلتها. اقترح عزل جيبونز وحضور وفد من العمال للقائي. لربما كنا سنتمكن من تسوية المسألة في غضون عشر دقائق لو تحقّق ذلك.»

«إذن فقد فشل، بعد كل ما تكبده من عناء؟»

«من الذي فشل؟»

«ال... الشاب الذي تتحدث عنه؟»

وجدت إدنا صعوبةً في أداء دور المخادع. وكانت سعيدةً أن والدها لم يرَ التعبير المرتسم على وجهها، وندمت أشد الندم على وعدها لمارستن بألّا تفشي لأبيها أمر زيارته.

قال سارتويل: «نعم، فشل. لا شك أن الوقت لم يكن كافيًا لاستطلاع آراء العمال على النحو الصحيح، وخلال الاجتماع، تمكن جيبونز، وهو خطيب مفوه، من الفوز بعدد من الأصوات كان كافيًا لإحباط جهود الآخرين. لم يكن انتصاراً ساحقًا، ولكنه كان كافيًا لتحقيق الهدف. كان اجتماعًا عاصفًا للغاية، كما فهمت، وفاز جيبونز بفارق دزينة من الأصوات أو نحو ذلك.»

«وماذا سيحدث الآن؟»

«يبقى الحال كما هو عليه. سأنتظر بضعة أيام أخرى، وإذا لم يعد العمال إلى عملهم، فسأملأ أماكنهم بطاقم عمال جديد. لا أريد اللجوء إلى ذلك إلا ملاذًا أخيرًا، ولكني لن أتركهم يتلاعبون بي أكثر من ذلك. والآن يا فتاتي، لقد أخبرتكِ بكل شيء، فلتذهبي إلى الفراش، إلى الفراش فورًا، ولتنعمي بنومٍ هادئ. فلا يمكن السماح بهذا التسيُّب، كما تعلمين.»

قبّل الوالد ابنته وربت على كتفها في حنان. وارتقت الفتاة الدرج في تثاقل وهدوءٍ كما نزلت، يخالجها شعور بالذنب.

الفصل السابع عشر

وجد ألبرت لانجلي لنفسه شغفًا جديدًا وممتعًا في الحياة. كان هذا الشغف هو الصداقة، التي لم يتذوّق عازف الأرغن مُتعها ومباهجها من قبلُ طوال حياته التي طغى عليها الوحدة والكدح. فقد أصبح لانجلي زائرًا دائمًا لمسكن برونت وبدأ يعلِّم جيسي أساسيات وقواعد الموسيقى، ووجدها طالبةً مجتهدة وسريعة التعلم والاستيعاب، وصامتةً للغاية أيضًا. كان يرى وجهها النحيل وعينَيها الواسعتَين الحزينتَين بعين خياله أينما ذهب، بينما كانت هي تنظر له بمهابةٍ وانبهارٍ لم تكن لتُسبغهما إلا على كائنٍ من عالم آخر، وربما كان كذلك بالفعل؛ إذ كانت علاقته بهذا الكوكب المحموم الساعي إلى المال محدودةً للغاية بلا شك. كان جو برونت يسعد أيما سعادة بالجلوس في مقعده الوثير ليدخّن. فمهما كان المال المخصص لتدبير شئون المنزل قليلًا، فسيبتدع العامل طرقًا لتوفير التبغ لنفسه.

في أغلب الأحيان، لم يكن برونت يتواجد بالمنزل أثناء تلقي ابنته درس الموسيقى؛ لأن أعراف الطبقة الوسطى لم يكن لديها الكثير لقوله عن الترتيبات المعيشية لأولئك الذين يعيشون في فقر مدقع. وكان الغياب الكامل للخبرة بالأمور الدنيوية لدى الشاب، من شأنه أن يُصعّب على أي شخصٍ أن يفسر له السبب في عدم وجوب التقاء شخصَين يجمعهما حب الموسيقى كلما سنحت لهما الفرصة، حال وجود من يهتم لأمره أو أمرها بما يكفي ليحاول تقديم هذا التفسير. كانت الفتاة، التي فاق شغفها بالألحان شغف والدها، مبهورةً بمهارة عازف الأرغن في العزف على الآلة الموسيقية التي كرّس حياته لها، قبل أن تستدرج عيناها

الرصينتان روحه الموسيقية للغوص في سحرهما الغامض. ووقع الاثنان في حب أحدهما للآخر دون أن يُدرك أيٌّ منهما ذلك.

ذات مرة، استطاع لانجلي أن يقنع برونت وابنته بالذهاب معه إلى الكنيسة، وهي خاوية في غير أوقات القداس ليستمعا إلى موسيقى الأرغن الكبير. جلس العامل وابنته معًا في وحشة المقاعد الخالية، وراحا يستمعان في طرب إلى إيقاع «اللحن الجنائزي» الكئيب الذي ملأ أرجاء المبنى المهجور. عزف لانجلي المقطوعة تلو الأخرى في حب الموسيقى وفي حب جمهوره. كان عرضًا موسيقيًا شبيهًا بما كان يستمع إليه ملك بافاريا المجنون عندما يكون وحيدًا، ولكن كان من يستمع إليه الآن رجلًا لا يملك بنسًا في جيبه، ولا كسرة خبزٍ ليأكلها في مسكنه البائس. هل هدّأت أصابع العازف البافاري البارعة نفس الملك في لحظة تعذيب الشيطان له، مثلما هدّأت مهارة داود في العزف من روع طالوت، من يدري؟ إلا أن اللمسات السحرية لعازف الأرغن الوحيد على المفاتيح العاجية نقلَت مستمعيه إلى عالمٍ لا مكان فيه للجوع.

كان في السكون المخيم على مبنى الكنيسة الضخم، الذي لم تقطعه الضوضاء الآتية من خارجه، وارتداد صدى الأنغام عن سقفه المعتم الشاهق المقوس، وانطلاق أصداء غير متوقعة قابعة عند الأركان المظلمة، بالإضافة إلى عظمة الموسيقى وسموها؛ ما منح المستمعِين والعازف شعورًا بأنهم معزولون تمامًا عن الصخب بالخارج. كانت الكنيسة حينئذٍ واحة سلامٍ وسط صحراء شاسعةٍ من الاهتياج والصخب.

لم يتمكّن لانجلي من إقناع برونت مرةً أخرى بالذهاب معه إلى الكنيسة. فبعض الذكريات أثمن من أن تُمَس، ومَن يخاطر بتكرار تجربةٍ تذوّق فيها النعيم الخالص، فعليه أن يُهيِّئ نفسه للخذلان.

كان برونت يقول: «لا يا صديقي، لن نكرِّرها في الوقت الحالي. ربما أعود إلى هناك يومًا ما إذا بدأت في نسيان ما سمعت، ولكن ليس الآن. سأصبح مهووسًا بالموسيقى إذا ما اعتادت أذناي على عزفِك الرائع، ففي الواقع، أعتقد أحيانًا أني على وَشْك أن أصبح كذلك بالفعل.»

ولكن عادةً ما كانت جيسي ترافق عازف الأرغن إلى الكنيسة الهادئة، دون أن يفكر أيٌّ منهما فيما يصحُّ وما لا يصح، ومن حسن حظهما، لم يرَهما القندلفت أو زوجته، واللذان كانا سيثيران ضجةً كبيرة حول قواعد السلوك اللائق المقدسة. وفي بعض الأحيان، كانت الفتاة تجلس معه في غرفة الأرغن في العُلِّيّة لتشاهده وهو يعزف، ولكنها كانت في أغلب الأحيان تجلس على أحد المقاعد؛ إذ إن هذا الموقع أفضل لسماع أنغام الآلة الموسيقية من المنظور السماعي الصحيح. ورثت جيسي عن والدها قلة الكلام التي تميّز بها، وعزّز ميلها إلى الصمت طبيعتها الخجولة. كان من النادر أن يدورَ حوارٌ بينهما في الكنيسة؛ إذ بدا أن كلًّا منهما كان قانعًا تمامًا بحقيقة وجود الآخر معه. كانا حبيبَين شبه صامتَين؛ فلم تكن للغة المنطوقة فائدةٌ تُذكر بالنسبة إليهما.

ذات مرة، بينما كان لانجلي يهبط السلم الضيق من غرفة الأرغن العلوية، ظن أنها رحلت، وبدت الكنيسة مهجورةً بصورة غريبة للغاية. في أوقات القداس، كان يجب إشعال مصابيح الغاز حتى خلال النهار؛ فقد كانت النوافذ مصنوعةً من الزجاج الملون، وكانت الكنيسة محاطةً بمبانٍ عالية ملاصقة لها. كان من النادر أن ترى أجواءً صافية في هذا الجزء الكئيب من المدينة، وكانت الكنيسة من الداخل معتمةً دائمًا. حدّق لانجلي بنظره القصير عبر الظلام، ولكنه لم يتمكن من رؤيتها. وانتابه شعور غامض بالقلق، وبينما كان يُسرع بين صفوف المقاعد، إذا به يبصرها جالسةً في مكانها، وقد أراحت رأسها على حامل كتب الترانيم الملحق

بالمقعد وبدت نائمة. فلمس كتفها برفق، وعندما رفعت رأسها ببطء، وجد أنها كانت تبكي في صمت.

فمال بجسده فوقها وهمس قائلًا: «ما الأمر يا عزيزتي؟»

«أشعر بالخوف، خائفة من شيء ما لا أعلم ما هو. لقد أظلمت الكنيسة تمامًا فجأة، وخبا صوت الموسيقى. اعتقدت أني أغرق، أغرق حتى القاع، وما من أحد لينقذني.» كانت ترتجف وهي تتحدث، ثم نهضت واقفةً على قدميها في اضطراب، وترنّحت قليلًا عندما حاولت التحرك بين صفوف المقاعد. ثم أخذت نفسًا عميقًا مضطربًا، وأضافت: «كان الأمر أشبه بكابوس.»

أحاط لانجلي خصرها بذراعه ليسندها بينما يسيران معًا بين صفوف المقاعد.

وقال: «إنها ظلمة الكنيسة، وربما كآبة الموسيقى. سأعزف لكِ مقطوعةً أكثر بهجةً عندما تأتين في المرة القادمة. فأنا أعزف أكثر من اللازم على مفاتيح الأرغن الصغيرة.»

عندما وصلا إلى الباب، طلبت منه أن يتوقف برهة قبل الخروج. حاولت عبثًا أن تجفّف عينَيها؛ إذ بدأت في البكاء مجددًا وهي مستندة إلى الجدار الحجري، وكانت تبكي بكآبة ويأسٍ اعتصرا قلب الشاب.

قال متلعثمًا لا يدري ماذا يقول: «جيسي، جيسي.»

قالت جيسي منتحبة: «أشعر بالإعياء والضعف. سأتعافى مرةً أخرى بعد قليل.»

«تعالَي نحتسِ الشاي في مكان ما. فهذا من شأنه أن ينعشك.»

خرجا من الكنيسة معًا، واصطحبها لانجلي إلى مكان يُقدّم فيه الشاي. جلست جيسي هناك مسندةً رأسها بكآبة على يدها بينما كانت تُحضَر المشروبات، وكان جالسًا أمامها في صمت حزين. رشفت جيسي بضع رشفاتٍ من الشاي، ولكنها لم تستطع شربه، وهزّت رأسها رفضًا عندما قدّم لها لانجلي الخبز المدهون بالزبد.

ثم قالت أخيرًا: «لا بد أن أعود إلى المنزل. لا أستطيع أن آكل شيئًا. سأكون في حال أفضل هناك.»

سارا معًا على مهل حتى وصلا إلى ساحة روز جاردن، وعند المنزل رقم ثلاثة، ساعدها على صعود الدرج القذر، كان مسروراً أنهما سيصعدان طابقًا واحدًا فقط؛ إذ كانت تتشبث لاهثةً بالدرابزين المتداعي بين كل درجة أو اثنتَين. كان برونت جالسًا في مقعده ذي الذراعَين مقطبًا جبينَه في غضب. كان برونت في أسوأ حالاته المزاجية، فنظر نحوهما في استياء وتجهم عند دخولهما، ولكنه لم يقل شيئًا. كانت هذه الأمسية التالية لقرار العمال باستكمال الإضراب، بعدما لم تتمكّن مجموعته من الفوز بأغلبية الأصوات، وكان غليون برونت مُطفأً. فلم يستطع العثور ولو على القليل من التبغ، على الرغم من أنه فتّش في كل جيوبه على أمل العثور على بعض الفتات. غاصت جيسي في أحد المقاعد وراحت تتنقل بوجهها الشاحب في جزع بين والدها وصديقها؛ إذ بدا عليها الخوف من احتمال التفوه بكلمات فظة؛ فقد كانت تعلم أن والدها يكون فظًا في حديثه عندما يكون مستاءً.

قال عازف الأرغن: «جيسي ليسَت بخير.»

لم يُجِبه برونت، واكتفى بالنظر إلى ابنته ومداعبة شعرها، وقال برفقٍ لم تتوقّعه منه:

«ماذا بكِ يا صغيرتي؟ هل أنت جائعة؟»

غمغمت ابنته بلهفة: «لا، لا. لقد احتسينا الشاي قبل أن نعود. لست جائعة.»

أدرك لانجلي، الذي كان بطبيعته بطيئًا في إدراك الأشياء، أن برونت، على الأقل، لا يمتلك أي طعام ربما منذ وقت طويل. كان قد عرض عليه بعض المال من مدخراته الضئيلة عدة مرات قبل ذلك، ولكنه كان يرفض دائمًا، وفي بعض الأحيان لم تكن طريقة رفضه ودودةً على الإطلاق. فخرج عازف الأرغن في صمت تاركًا الأب وابنته بمفردهما.

قال برونت في قلق: «هل تودين أن أحضر لك أحدًا ... أعني امرأة؟ نحن لا نعرف جيراننا، ولكن قد تحضر امرأة منهم إذا علمت أنك مريضة.»

هزّت الفتاة رأسها رافضة.

وقالت: «لا أريد أحدًا، لا أريد شيئًا سوى أن أستريح قليلًا. سأتعافى قريبًا. لا أحتاج إلا إلى الراحة.»

عاد الأب إلى مقعده، وجلس كلاهما في الظلام الزاحف.

لم يمرّ وقت طويل حتى انفتح الباب ودخل لانجلي حاملًا أشياء على ذراعَيه. وضع رغيفًا من الخبز على الطاولة وإلى جواره بقية حمولته، ووضع على رف المدفأة الفارغ جريدةً تحوي القليل من الفحم.

حدق برونت إليه وانعقد لسانه برهة، ثم صاح في سخط:

«لن أنسى صدقتك هذه يا فتى، فلتتنزل عليّ اللعنات إن فعلت!»

قبل أن تسنح للانجلي فرصة الرد، هبّت جيسي واقفةً وهي ترتجف.

وناحت قائلة: «لا يا أبي، لا تفعل»، وأخذت تترنح عندما حاولت أن تسير نحوه، ثم سقطت فجأةً على الأرض.

اندفع لانجلي نحوها إلا أن برونت دفعه جانبًا في خشونة، وانحنى فوق ابنته، وحمل جسدها الضئيل بين ذراعيه متحدثًا إليها بلطف وحنان. ثم حملها إلى الفراش ووضعها فوقه بحب.

ثم صرخ في وجه لانجلي قائلًا: «أسرع! أسرع وأحضر طبيبًا. ثمّة طبيب في نهاية شارع لايت. أخشى أن ثمّة شيئًا خطيراً يحدث لها.»

ولم يتوانَ الشاب. رفض الطبيب الذهاب إلى ساحة روز جاردن، وقال إن لديه مرضى يجب أن يعتني بهم. فقد كان يدرك أن الساحة لم يكن يأتي من ورائها الكثير.

فأجابه الرسول في لهفة: «أنا عازف أرغن في كنيسة القديسين الشهداء. وسأدفع لك ما تريد.»

قال الطبيب: «أوه، ليس هذا ما أقصده. من يعالج سكان الساحة عادة؟ لا بد أن أحداً يفعل.»

أجابه لانجلي: «لا أعلم، ولا وقت لديّ لأبحث. الحالة خطيرة. تعالَ معي!»

فذهب معه الطبيب متذمراً؛ فهذا النوع من العمل كان خارج نطاق تفضيله.

عندما وصلا، وجدا برونت يفرك يدَي الفتاة في قلق.

صاح بمجرد دخولهما: «لقد تأخرتما.»

لم يُجِبه أيٌّ منهما، واتجه الطبيب بسرعةٍ نحو الفراش بلا مبالاة، واستخفاف رجلٍ اعتاد رؤية مثل هذه المشاهد على نحو دائم. وضع الطبيب أصابعه على معصم الفتاة، وقرّب أذنه من صدرها، ثم وضع يده على جبينها الأبيض الناعم.

ثم سأل بحدة: «هل هي مريضة منذ فترة طويلة؟»

رد والدها: «لطالما كانت جيسي ضعيفةً ومريضة، ولم تكن ابنتي المسكينة بخير على الإطلاق مؤخرًا.»

«مَن يتولى علاجها؟»

«لا أحد.»

«أوه، حسنًا، لن يمكنني منحك شهادة وفاة في ظل هذه الظروف. أغلب الظن أنه سيكون ثمّة تحقيق.»

صرخ برونت قائلًا: «يا إلهي! تحقيق! هل تعني أن ... لا يمكن أنك تعني ذلك! ... جيسي لم تَمُت؟»

«لا، لقد ماتَت. لا يمكنني أن أفعل شيئًا. سأبلغ الطبيب الشرعي، ويمكنه أن يفعلَ ما يحلو له. لا شكّ لديّ في أنه لا توجد شبهةٌ جنائية، ولكننا ملزمون بالتصرُّف وفقًا للقانون كما تعلم. طابت ليلتك!»

ألقى برونت نفسه على الفراش وسط عاصفة من الحزن، بينما وقف لانجلي بجوار الفتاة الميتة في ذهول. أمسك بيدها النحيلة التي فارقتها الحياة، وحدّق إلى وجهها فاقدًا الحس، تأبى دموعه النزول. نهض والدها وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا متضرِّعًا إلى القدر تارةً ولاعنًا إياه تارةً أخرى. وفجأة، التفت نحو لانجلي كالمجنون.

صاح فيه بصوت هادر: «ماذا تفعل هنا؟ إن تدخُّلك هو ما جعل كلماتها الأخيرة تخرج مضطربة. هيا ارحل، واتركنا وشأننا!»

استدار لانجلي مبتعدًا عن الفراش، وسار ببطءٍ نحو الباب دون أن يتفوّه بكلمة، وتبعه برونت مطرقًا عينَيه اللتَين أصبحتا بلون الدم إلى

الأرض. ثم توقّف الشاب متردداً عند الباب، وأسند ذراعه إليه، وأحنى رأسه في حسرةٍ وقنوط.

ثم قال في يأس: «رحماك يا ألله! لقد أحببتها أنا أيضًا.»

نظر إليه برونت برهة، غير مستوعبٍ ما قال في البداية. ثم بدأ الغضب يزول من وجهه تدريجيًا.

وأخيرًا قال بهدوء: «هل كنت تحبُّها يا فتى؟ لم أكن أعلم، لم أكن أعلم. اغفر لي نوبات غضبي الفظ. كنت أعتقد أنها ستنكسر في هذه اللحظة. أنا مجنون أيها الفتى، ولا أدري ما أقول. أنا لا أملك بنسًا واحدًا في هذا العالم، ولا أعلم إلى أين أذهب لأجد مالًا. لن تخرج فتاتي الصغيرة إلى مثواها الأخير في جنازة فقراء في هذه المدينة القاسية. لا، لن يحدث ذلك حتى لو اضطُررت إلى حملها بين ذراعَي، كما كنت أفعل دائمًا، والسير بها نحو الشمال، ونبيت لياليا تحت أسيجة الشجيرات طوال الطريق. نعم، هذا ما سأفعله. سنسير على إيقاع «اللحن الجنائزي.» سيرافقنا طوال الطريق. سنرتاح ليلًا في الحقول الخضراء تحت الأشجار، بعيدًا عن الدخان والضجيج، وحيدَين معًا. آه، يا إلهي! سأبدأ رحلتي على الفور، وسأسير طوال الليل، وعندما يحل الصباح سأكون خارج مدينة بابل هذه.»

صاح لانجلي ممسكًا بذراعه: «لا، لا! يجب ألّا تفعل ذلك. لا بد أن تسمع ما سيقوله الطبيب الشرعي.»

«وما شأن الطبيب الشرعي أو أي شخص آخر بها أو بي؟»

«إنه القانون: لا بد أن تمتثل إليه.»

«وما شأني بالقانون؟ ماذا فعل لي أو لجيسي؟ لن تخرج ابنتي بجنازة فقراء، سواء بالقانون أو بغير القانون.»

«لن تكون هناك جنازة فقراء. ثمّة قلوب عطوفة في لندن، كما في الشمال. عدني بأنك لن تفعل أي شيء حتى أرى إذا ما كنت سأتمكّن من تدبير المال.»

قال برونت وهو يغوص في مقعده: «أعدك. فلست واثقًا من أنني سأستطيع السير لتلك المسافة الطويلة الليلة، حتى وإن حاولت. ولكن اتركني بمفردي الآن يا فتى، وعُد فيما بعد. أريد أن أبقى بمفردي لأفكِّر.»

غادر لانجلي الغرفة، والتقى مارستن على بسطة السلم، ولم يكن يعرفه، ولكن رأى أنه بصدد الدخول إلى الغرفة.

فهمس له قائلًا: «لا تدخل. فهو يريد أن يبقى بمفرده.»

سأله مارستن منزعجًا من نبرة الرجل الآخر: «هل حدث خطب ما؟»

«نعم، ماتت ابنته.»

«ماتت! يا إلهي! كيف؟ في حادث؟»

«لا، كانت مريضةً طوال أسابيع، ولكن لم يعتقد أحدٌ أنها قد تموت. ماتَت جيسي منذ ساعة فجأة. هل أنت صديقه؟»

«نعم.»

«يجب أن تساعدني إذن، أخبرني بما يجدر بي فعله. لنهبط إلى الساحة حيث يمكننا أن نتحدّث.»

هبط الشابان الدرج.

قال لانجلي: «لا يملك برونت أي مال، ولن يترك ابنته للأبرشية لتتولّى دفنها. يجب أن نحصل على بعض المال. لقد وعدته بذلك، ولكني

لا أملك الكثير منه، وإن كنت على استعدادٍ لإعطائه كل ما أملك. لو كنت أملك المزيد من المال، لما طلبت المساعدة من أحد.»

قال مارستن: «أنا لا أملك إلا بضع شلنات، ولكن لا بد أن نحصل على المزيد بأي طريقة. لا يملك أيٌّ من العمال أي أموال، وإلا كانوا أعطَوها لنا. كان من الممكن أن أذهب إلى سارتويل بالأمس، ولكني تشاجرت معه اليوم، وأخشى أنه كان شجاراً عنيفًا لا مجال فيه للإصلاح. وعلى الرغم من أنه لم يقُل لي أي شيء، فأنا لا أستطيع الذهاب إليه لطلب المساعدة. ولكن هناك برنارد هوب. نعم، هو مَن سيقدِّم المساعدة. فقد ساعد برونت عندما وقع في مشكلةٍ مع الشرطة. ولكني لا أريد الذهاب إلى برنارد هوب؛ فلديّ أسبابٌ معينةٌ تجعلني راغبًا عن أن أكون مدينًا له. هل تمانع الذهاب أنت إليه؟ إنه يعيش في تشيلسي.»

«لا مانع لديّ، سأفعل أي شيء. لقد قطعت على نفسي عهدًا.»

«كنت سأذهب له الليلة لو كنت مكانك. فغدًا يوم «حفل الاستقبال» الذي يُنظِّمه، وسيكون ثمّة الكثير من الناس في منزله. وسيكون من الصعب مقابلته، ولا يمكننا الانتظار إلى بعد غدٍ. إنه يسكن في منزل كريجنبوتوتش في تشيلسي. وإذا فشلت في مهمتك، فسأذهب للقاء والده؛ لذا فمن المؤكد أن أحدنا سيحصل على المال.»

قال لانجلي: «سأذهب في الحال.»

كانت الرحلة إلى تشيلسي طويلة، وعندما وصل عازف الأرغن المتعب إلى المكان، وجد بارني قد ذهب إلى حفلٍ مسرحيٍّ يليه حفل راقص، ومن غير المرجح أن يعود إلى منزله تلك الليلة. ولم يُعرَف متى سيعود في الصباح، ولكن كان من المؤكّد أنه سيعود في تمام الثالثة؛ إذ كان أصدقاؤه المدعوون إلى «حفل الاستقبال» سيبدءون في التوافد على المنزل في تلك الساعة، هكذا قال خادم بارني. عاد الرجل المنهك أدراجه

ووصل إلى ساحة روز جاردن عند منتصف الليل تقريباً. طرق باب برونت، ولكنه لم يتلقّ إجابة، فدفع الباب بعد لحظاتٍ قليلةٍ من التردد. كان يخشى أن يكون الرجل العنيد نافد الصبر قد نفّذ قراره في النهاية، وغادر مع جثمان ابنته إلى الشمال، ولكنه وجد كل شيء على حاله. كان برونت جالساً في مقعده دافناً رأسه بين كفّيه، ولم يوجِّه له أي تحية.

قال لانجلي واثقاً من أنه لن يواجه أيّ رفض: «سأحصل على المال غداً.»

لم يُجِبه برونت، وبعد أن ألقى الشاب نظرةً على الجثمان الساكن المُسجى على الفراش، الذي أصبح وجهُه يُشبه وجه طفلةٍ صغيرة، انصرف الشاب في هدوءٍ مثلما دخل.

قابلته السيدة سكيمينس على الدرج. وأرادت أن تعرف ما يجري. قالت إن نساء الساحة، عندما سمعْنَ بوفاة الفتاة، عرضْنَ المساعدة على برونت، ولكنه تصرّف بهمجيةٍ كعادته وطردهنّ خارج المنزل مصحوباتٍ بسيلٍ مخيف من السباب. كانت واثقةً أن ثمّة خطباً ما. وكان الطبيب الشرعي حاضراً وارتأى ذلك أيضاً. وأخبرَته بأن ثمة تحقيقاً سيجري في مبنى البلدية في الصباح. وتركَت الشرطة استدعاءً للانجلي لحضور التحقيق والإدلاء بشهادته.

فصاح الشاب في فزع: «ولكني ذاهب إلى تشيلسي في الصباح. أنا لا أعرف شيئاً عدا أن جيسي كانَت مريضة.»

«يُقال إنك رأيتها تموت. وأقر برونت بذلك. لا بد أن تحضر التحقيق، وإلا فسيُرسلون وراءك شرطياً.»

لم يغمض للانجلي جفن في تلك الليلة، وكان مرهقاً ومنهكاً في الصباح. صعد أعضاء هيئة محلفي الطب الشرعي الدرج محتشدين، وبعد

أن ألقَوا نظرةً على جثمان الفتاة، وقاموا بتعليق الإجراءات وانتقلوا إلى مبنى البلدية. أدلى لانجلي بشهادته وغادر الغرفة على الفور، وظل يحوم حول الباب منتظراً خروج برونت الذي بقيَ في مبنى البلدية. وأخيراً، خرج من المبنى شاحب الوجه وعيناه تحدِّقان أمامه.

سأله لانجلي: «ماذا قالوا؟» إلا أن الرجل الآخر لم يُجِبه، وواصل المسير وسط الحشد الفضولي المتجمهر كما لو كان لا يرى شيئًا.

سأل أحد المتجمهرين أحد أعضاء هيئة المحلفين عندما خرج من المبنى: «ما حكم هيئة المحلفين؟»

فأجاب الرجل: «ماتت جوعًا.»

الفصل الثامن عشر

في اليوم التالي لفشل مارستن في استمالة أغلبية العمال إلى صفّه، خلال الجدل الذي دار بشأن الإضراب، ذهب الشاب إلى ويمبلدون أملًا في أن يجد العزاء في هزيمته في صحبة محبوبته. كان يشعر بأنه يستغلّ سارتويل دون وجه حقٍّ إلى حدٍّ ما بمواعدة ابنته سرًا هكذا، ولكنه برّر ذلك لنفسه، كما يبرِّر المحبون دائمًا لأنفسهم، بأن من الحمق أن يخسر المرء جولةً ولدَيه الأوراق التي تضمن له الفوز. كان جليًا أن سارتويل لا يعترض على زيارات برنارد هوب، وأنه راغبٌ تمامًا في تزويج ابنته لابن ربِّ عمله. لو أن مارستن قد أدرك هذا بالأمس، لم يكن ليتعامل بهذه الدرجة من إنكار الذات ويرفض لقاء إدنا سارتويل، والآن، أمَا وقد تدخّل القدر نيابةً عنه ومنحه المعلومة بأن لديه منافسًا، فلن يكون بالحمق الذي يجعله يضيع الفرصة التي سنحَت له.

دخل مارستن قطعة الأرض الفضاء المحيطة بالمنزل الشاغر، وراح يمسح ببصره السور ذا القمة الزجاجية في قلق؛ بحثًا عن الإشارة التي وعدَت إدنا، بعد إلحاح، بأن ترسلها. ولكنه لم يرَها. فتساءل عما إذا كانت الفتاة، في نهاية المطاف، أخبرَت والدها عن زيارته. كان مارستن واثقًا من أن سارتويل سرعان ما سوف يُلمّ بجميع تفاصيل الأمر من مجرّد تلميحٍ بسيطٍ إليه بشأنه.

ظلّ مارستن يذرع الجانب الآخر من السور في تعاسةٍ لا يدري ماذا يفعل. وفجأةً توقّف بالقرب من الموضع الذي قفز من فوقه في اليوم السابق. تراءى له أنه سمع صوت سعال خفيف على الجانب الآخر من السور. ربما كان هذا تحذيرًا أو دعوة؛ كان السؤال الذي يدور في ذهنه

هو: أيهما أصح؟ لا شك أنها تعلم أنه سيكون هناك في انتظار إشارتها، أو ربما — وكانت فكرةً مؤلمة له — نسيَت أمره من الأساس.

كان هناك على الجانب البعيد من الحديقة سور متنزه، أقصر من السور الحجري الحصين، ويلتقي به عند طرفه مشكلَين زاويةً قائمة. ولأنه لم يكن يحتمل الترقب، قرّر الشاب أن يُقدم على مخاطرة استطلاع الأمر. فصعد من فوق سور المنتزه ونظر من فوق السور الحجري، إلا أن الأشجار والشجيرات كانت كثيفةً للغاية؛ فلم يستطع أن يرى إذا ما كان ثمّة أحدٌ في حديقة سارتويل أم لا؛ حتى المنزل كان محجوبًا عن رؤيته. لا يتسلق ضعاف القلوب سورًا حجريًا أبدًا؛ أما مارستن فلم يتردّد سوى لحظة، ثم تمسّك بفرع شجرةٍ متدلٍّ، وسحب نفسه إلى أعلى السور متفاديًا الزجاج، وهبط على الجانب الآخر بين الشجيرات. وقف في مكانه يُصغي بتركيز، ولكنه لم يسمع صوتًا، فتحرّك بحذرٍ بين الشجيرات نحو المساحة المفتوحة تحت الأشجار، حيث جلس يتحدّث إلى إدنا في اليوم السابق. كان المكان خاليًا، ولكنه تنفّس الصُّعَداء عندما رأى وشاحًا أحمر اللون معلقًا على ظهر أحد المقاعد. لقد فكرت فيه على الأقل؛ إذ كان هذا الوشاح بلا شكٍّ هو الإشارة التي لم تستخدمها.

أصبح مارستن أكثرَ حيرةً مما كان وهو واقفٌ على الجانب الآخر من السور. فقد بدا أنها كانَت تنوي إلقاء الوشاح فوق الزجاج المكسور، وإلا فما كانت أحضرَتْه إلى مكان لقائهما، ولكن بما أنها لم تُعطِه الإشارة المتفق عليها، فهل ثمّة احتمالٌ أن يكون والدها في المنزل؟ عقد الشاب حاجبَيه وهو يفكر في المبرر الذي سيقدمه إلى سارتويل إذا ما ضبطه واقفًا تحت الأشجار.

كان مارستن على وَشْك اتخاذ القرار بأن يعود أدراجه من الطريق الذي جاء منه، عندما رأى إدنا قادمةً من ناحية المنزل. مدّت الفتاة يدها

نحوه وعلى وجهها ابتسامةٌ استقرّت في قلبه، إلا أن كلماتها لم تكن مطمئنة.

قالَت: «كنت أترقّب وصولك، ولكني كنت آمل ألّا تأتي.»

كرّر مارستن كلماتِها بنبرةٍ تشوبها الحيرة: «كنت تأملين ألّا آتي؟»

«كنت آمل ألّا تأتي إلا عن طريق البوابة الأمامية على الأقل. فهذا لا يعجبني. فالأمر يبدو سريًا ودنيئًا، كما لو أننا نقترف ذنبًا نخجل منه. قد لا نجني نفعًا كثيرًا من حديثنا عن الإضراب، ولكننا بالتأكيد لا نفعل شيئًا يخجل أيٌّ منا من أن يعرفه العالم بأسره. ولا أرى سببًا، بعدما فشلت الخطط التي وضعتها بالأمس، لعدم دخولك المنزل مثل أي زائرٍ آخر، أليس كذلك؟»

«أعتقد أنه لا يوجد سبب.»

صاحَت الفتاة متحمسة: «بالطبع لا يوجد؛ ولهذا أنوي إخبار والدي بكل شيءٍ بشأن زيارتك هذه اليوم، حتى وإن لم أستطع ذكر شيءٍ عن زيارة الأمس.»

قال مارستن راجيًا، وقد انتابه الهلع: «أوه، ولكن يجب ألّا تفعلي شيئًا من هذا القبيل. ستعدينني بأنّكِ لن تتفوّهي بكلمةٍ واحدةٍ عن وجودي هنا اليوم، أليس كذلك؟»

ضحكَت الفتاة وهزّت رأسها نفيًا.

وقالت: «لن أقطع على نفسي وعدًا أحمق مثلما فعلت بالأمس. فكما ترى، لم يعُد وعدي لك بأي نفع.»

«ماذا؟! هل أخبرتِ السيد سارتويل بأني كنت هنا؟»

«لا. لقد وعدتك بأني لن أفعل، ولم أفعل، ولكن هذا الوعد جعلني أشعر بالذنب إلى حد البؤس دون داعٍ. ما أعنيه هو أن خططك لإنهاء الإضراب لم تنجح؛ ومن ثَم فإن إخبار والدي بشأن زيارتك لن يشكّل أيّ فارق. ألَا تتفق معي في ذلك؟ لا، لن أتسرّع وأقطع على نفسي وعداً كهذا مرةً أخرى.»

قال مارستن في جدية: «آنسة سارتويل، أنت لا تدركين جميع الملابسات، ثمّة أسباب أخرى تحتّم عليكِ عدم إخبار والدكِ بمجيئي إلى هنا. على الرغم من أن المفاوضات فشلت في الوقت الحالي، فستُستأنف مرةً أخرى قريبًا. وإذا ما علم السيد سارتويل أنني كنت هنا بالأمس ...»

«أوه، أنا أنوي الوفاء بوعدي بشأن الأمس. لن أتفوّه بكلمةٍ عن هذه الزيارة، ولكني سأخبره عن زيارة اليوم.»

«ولكن ألَا تفهمين ما أقصد؟ زيارة الأمس أدّت إلى هذه الزيارة. فالزيارتان متلازمتان؛ لا يمكنكِ ذكر واحدةٍ دون أن يؤدّي بكِ ذلك إلى ذكر الأخرى. عديني من فضلكِ بألّا تُفصحي عن شيءٍ عن زيارة اليوم أيضًا.»

«لن أقطع على نفسي أيّ وعودٍ أخرى. عندما عاد أبي في وقتٍ متأخرٍ ليلة أمس، أخبرني بكل ما حدث بشأن ما حاولت فعله، وكل شيء. وشعرت بالذنب لاضطراري إلى إخفاء أي شيءٍ عنه، حتى إنني قرّرت ألّا أقطع على نفسي وعوداً أخرى لأي أحدٍ إلا إذا كان على علمٍ بها، ولا تكون ثمّة حاجة للشعور بالذنب. أنا واثقة من أنه كان سيسعد بمعرفة أننا قد تحدّثنا عن الإضراب، وأننا كنا نحاول مساعدته، ولكن بسبب هذا الوعد الغبي، لم أجرؤ على ذكر أيٍّ من ذلك له. وظني، إذا كنت تفهم ما مررت به، أنك لن تطلب مني أن أخفي أي شيء عنه.»

صاح مارستن وقد ظهر من حبه للفتاة في صوته أكثر ممّا يدرك: «عزيزتي الآنسة سارتويل، لن أسبِّب لكِ أي معاناة لأي سببٍ كان في هذا العالم!»

حدّقت إدنا إلى وجهه بعينَين متسعتَين، مندهشةً من حرارة كلماته، ثم ضحكَت بجذل.

وقالت: «يا إلهي، كم أنت جاد! سأنسى الأمر برمته سريعًا في النهاية، وعلى الرغم من أني لن أقطع على نفسي وعودًا متسرعةً مرةً أخرى، فسأفكّر في الأمر، وإذا ... ولكن ما جدوى «إذا»؟ سأخبر والدي الليلة بأنكِ حضرت للقائه، وأني تحدّثت معكَ بشأن الإضراب.»

«لن تكون هذه هي الحقيقة يا آنسة سارتويل. فلم آتِ للقائه، بل أتيت لأراكِ أنت.»

«أوه.»

«نعم، وسيكون عليكِ أن تخبريه بأني تسلّقت السور. لا يمكنكِ أن تنقلي أنصاف الحقائق كما تعلمين، كما أننا لم نتحدث كثيرًا عن الإضراب، أليس كذلك؟»

«نعم، ولكنك جئت إلى هنا من أجل هذا، أليس كذلك؟»

«نعم. أوه، نعم، بالطبع. ولا شيء غير ذلك، ولكن عليكِ أن تدركي أنه لن يكون منطقيًا أن تخبري والدكِ بأي شيء عن هذه الزيارة، ما لم تخبريه بكل شيء. سيود أن يعرف سبب دخولي من فوق السور.»

«ولمَ فعلت ذلك؟ أنا واثقةٌ من أنه كان من الأفضل الدخول عبر بوابة المنزل. كان الأمر سيصبح أسهل كثيرًا.»

«سأفعل عندما آتي المرة القادمة. ولكنكِ تعلمين أن السور موجود، وأني جئت من فوقه؛ لذا، ومن دون أي وعود، أرجوكِ ألّا تخبري السيد سارتويل بأي شيءٍ عن هذا الأمر؛ لأنه سيطلب مني شتى أنواع التفسيرات التي لا أدري كيف يمكنني أن أقدّمها له.»

«حسنًا، لن أفعل. أوه، يا إلهي! هذا يُعدُّ وعدًا، أليس كذلك؟ وقد قلت إني لن أقطع أي وعود. ظني أنك ستعتقد الآن أن هذا من شيم النساء. ولكني لن أعدك بأي شيء آخر أبدًا.»

«أوه، لا تقولي ذلك يا آنسة سارتويل. سأعدك أنا بأي شيء.»

«عظيم. عدني إذن بأن تخبر والدي بأنك كنت هنا.»

ضحكت الفتاة عندما رأت ارتباكه حين صدّقت ما قاله في الحال هكذا.

صاحت الفتاة في جذل قائلة: «أرأيت، أنت لم تكن تعني ما قلت. أعتقد أنك خائف من أبي.»

«هذا صحيح.»

«شيء غريب جدًا. أود أن أخبره بذلك. لا أتخيل أن أحدًا قد يخاف منه.»

«ربما لم ترَيه في غضبه من قبل.»

«أوه، أجل، رأيته؛ ولكني كنت أجلس هادئةً دون أن أنبس بكلمة. إنه ليس عنيفًا على الإطلاق عندما يغضب، مثل بعض الرجال، ولكنه يضيّق عينَيه، ويزم شفتَيه بشدة، ولا يرغب في توجيه أي حديثٍ له في تلك اللحظة، وهذا ما يجعلني ألتزم الصمت. لقد كان غاضبًا منك في تلك الليلة، أليس كذلك؟»

سألها مارستن حابسًا أنفاسه: «أي ليلة تقصدين يا آنسة سارتويل؟»

«تلك الليلة عندما دخلت عليكما في المكتب. المرة الأولى على الإطلاق التي تحدّثت فيها إليّ. ألَا تذكر؟»

قال مارستن بصوت خافت: «لن أنساها ما حييت.»

«أراك تتأثر بالأشياء على نحو بالغ. يجب ألّا تلتفت إلى خيبة أمل هينة، وألّا توغر صدرك تجاه والدي لأنه رفض طلبك. لقد ناصرتك حينئذ، كما أخبرتك بالأمس، وأخشى أني لم أُفِدك كثيراً بما فعلت؛ فأبي يرى أن النساء يجب ألّا يتدخلْنَ في أمور العمل.»

كانا يجلسان متقابلَين، وكانت الفتاة منحنيةً إلى الأمام في وضعية ودودة وحميمية، بينما جلس الشاب، الذي لم يستطع أن يرفع بصره عنها، يستمع إلى همس حديثها الساحر كما لو كان في حلم.

كرّر مارستن كلمتها كما لو كان يحدِّث نفسه: «هل ناصرتني؟»

«نعم، وقال أبي ...»

قطعت الفتاة حديثها في حرج؛ إذ تذكرت أن ما قيل لم يكن في صالح مارستن.

سألها مارستن متلهفًا: «ماذا قال؟»

«حسنًا، كما تعلم، إنه يرى أنك صغير السن للغاية، ولا تمتلك الخبرة لتتولى منصباً ينطوي على مسئولية، وأنت لست كبيراً بما يكفي بالفعل، أليس كذلك؟ ولكن في المستقبل عندما تكتسب المزيد من الخبرة، أنا واثقة من أنه سيستمع إليك. من الرائع أن تكتسب ثقته؛ على الأقل هذا ما يجدر بي أن أحاول فعله.»

قال مارستن في كآبة: «نعم، كم أود أن أكتسب ثقته!»

«أوه، الأمر ليس صعبًا. ليس مطلوبًا منك إلا أن تؤدي واجبك. وأعتقد أنه ليس من العيب أن يكون الشاب طَموحًا. بل يُفترض أن يكون ذلك في صالحه، خاصةً مع رجل مثل أبي؛ فلطالما كان هو نفسه طموحًا للغاية، وأعتقد أن أكبر عيب في العمال أنهم لا يهتمون بتحسين أوضاعهم من عدمه. لا يمكنك أن تفعل أي شيء لإنسان لن يساعد نفسه، وأنت طموح، أليس كذلك؟»

«جدًا. أحيانًا أرى أنني طَموح أكثر ممّا ينبغي.»

«أوه، لا يمكن أن يكون الإنسان طموحًا أكثر ممّا ينبغي، إلا إذا كان على شاكلة نابليون وكان وضيعًا وشريرًا بكل ما تحمله الكلمتان من معنًى. بالطبع سيكون هذا خطأً في هذه الحالة. والآن إذا أردت نصيحتي ... ولكن ربما تعتقد أنني لا أعرف شيئًا عن هذه الأمور؟»

«آنسة سارتويل، إني لأفضل أن أسمع النصيحة منك على سماعها من أي أحد آخر في العالم، وسأنفِّذها بحذافيرها.»

«أنت تأخذ الأمور بجدية مبالغ فيها حقًا. يا لها من مسئولية كبيرة تلك التي ستثقل بها كاهلي! لا، عليك أن تسمع النصيحة أولًا، ثم تقرِّر إذا ما كان من الأفضل اتباعها أم لا. أعتقد أنك يجب أن تواصل العمل في هدوء لعام أو اثنين، وأن تبذل أقصى ما في وسعك وألّا تتحدث كثيرًا قدر الإمكان. إن أبي يحب الرجل الذي يُنجز الأمور وليس الرجل الذي يتحدث عن الأمور. فهو لا يؤمن كثيرًا بالكلام. وعندما ترى ضمنًا أنه قد أصبح يثق بك، فربما يعرض عليك حينها منصبًا أفضل، ولكن إن لم يفعل، فأبلغني وسأتحدث إليه في هذا الشأن. أوه، سوف أعرض الموضوع بدبلوماسيةٍ شديدة. سأبدأ بسؤاله عن مدى تقدُّمك في عملك في المصنع، وإذا أطرى عليك، فسأقترح عليه أن يمنحك منصبًا أفضل من منصبك الحالي. هل تعجبك خطتي؟»

«إنها خطةٌ رائعة، ولكن ... لكن ...»

«ولكن ماذا؟ ما وجه اعتراضك عليها؟»

«ليس لديّ أيٌ اعتراضٍ عدا أنني قد أفقد الدافع بمرور الوقت.»

«أوه، هذا هراء. أنت تحب عملك، أليس كذلك؟»

«أحبه كثيرًا، ولكن إذا تمكّنت من رؤيتك من وقتٍ لآخر، فإني ... حسنًا ... لن أفقد الأمل أو أيئس. وإذا ما تمكنا من ترتيب ذلك ...»

اتكأت إدنا في مقعدها، ونظرت إليه مباشرةً بعينَيها الصافيتَين الواسعتَين اللتَين بدت فيهما الحيرة، في محاولة منها لاكتشاف ما يكمن خلف ما تراه واضحًا نصب عينَيها. أما مارستن، المثقل بعبء إدراكه أنه لم يكن يتعامل معها بصدق، ولكنه يخشى أن يفتح عينَيها قبل الأوان على حقائق الموقف، فكان مرتبكًا مثل أغلب من لديهم عزم وطيد على تحقيق غاياتهم، عندما يوضعون في موقفٍ زائفٍ لا مفرّ منه دون المخاطرة بوقوع كارثة. وللحظةٍ تصاعد مع نبضات قلبه المتسارعة إصرار عنتري على تنحية كل حذره جانبًا، والصراخ بأعلى صوت قائلًا: «أحبك يا حبيبتي، أحبك؛ أنا فقير، ومنعني والدك من رؤيتك»؛ ولكنه خشي أن تصده إدنا، الأمر الذي سيكون أكثر فتكًا بآماله من منع والدها له عن التحدث إليها. فأطرق ببصره إلى الأرض وكبح جزعه. لقد أدرك أن الصدق لم يكن السبيل الأفضل لاتباعه، عندما اعترف لوالد الفتاة بمشاعره تجاهها في الوقت غير المناسب، على الرغم من اعتقاده حينئذٍ أنه قد سلك سبيلًا شجاعًا ومستقيمًا. ولو أنه كان أقل اندفاعًا، وحاول كسب المزيد من ثقة سارتويل، لربما نجح في النهاية في وضع قدم داخل منزل رئيسه، وحينها من يدري ماذا كان سيحدث! لقد حاول من قبل السحب من مصرف الثقة، ولكن رُفض شيكه، ولم يعد يمتلك رفاهية ارتكاب خطأ آخر من هذا النوع.

قالت إدنا أخيرًا، وقد قطّبت جبينها الناعم قليلًا في ضيق: «لا تعجبني كلمة «ترتيب» التي قلتها. فزياراتك لنا لا تحتاج إلى ترتيب. يمكنك أن تأتي لزيارتنا مثلما يأتي أيٌّ من أصدقاء أبي، وستتوافر لنا فرص كثيرة لنتحدث. أنت مُصر على أن والدي يحمل لك ضغينة، في حين أنني أؤكد لك أن هذا ليس صحيحًا.»

قبل أن يتمكن مارستن من الرد، قطع الصمت بحدة صوت انغلاق البوابة القوي، وصعق الشاب عند رؤية سارتويل يدخل ويسير بخطًى واسعة على الممشى المؤدي إلى المنزل، ثم يتوقف، ويدير رأسه نحو البقعة التي يجلسان فيها، ثم يعبر المرج متجهًا نحوهما مباشرة. هبّ مارستن واقفًا، في حين نهضت الفتاة ببطء أكبر وفي عينَيها لمعة خبيثة. ها هو حل المشكلة قد أصبح في متناول يدها، وفي الوقت المناسب تمامًا. كانت التعبيرات التي ارتسمَت على الوجوه الثلاثة ستُثير اهتمام طالب يدرس علم الفِراسة. كانت ملامح كلٍّ من سارتويل وإدنا ومارستن يرتسم عليها الغضب، والسرور، والارتباك على الترتيب، ولكن كان الرجل الأكبر سنًّا هو أول من سيطر على مشاعره، وبينما كان يقترب منهما، أصبح وجهه قناعًا خاليًا من التعبيرات لا يكشف أي شيء من الانفعال الذي يعتمل في صدره. ألقى نظرةً خاطفة مقتضبة على مارستن، الذي وقف في مكانه شاحب الوجه، وتبدو عليه أمارات مَن وقع في فخ ولا يجد سبيلًا للفرار. وألقى نظرةً أطول وأكثر تدقيقًا على ابنته، التي أظهرت له على الفور أنها ليس لديها ما تخفيه. فقد كان سرورها الواضح والصريح بحضوره أوضح من أن يُفهم بطريقة مغايرة. فتنفس الصُّعَداء، ولكنه أدرك بالفطرة أن الموقف يتطلّب تعاملًا دقيقًا للغاية، إذا ما أراد أن تظلّ الفتاة على جهلها ببواطن الأمور. وكان القَدَر حليفه في هذه اللحظة؛ فكلا الرجلَين، على تناقض الدافع لدى كلٍّ منهما، كان يرغب في الشيء نفسه: كان كلاهما لا يرغب في الشجار في حضور إدنا، أو المجازفة بأن

تعرف كل ما يجري في ذلك الوقت. ولحسن الحظ، كانت عينا إدنا منصبّتين على والدها، ولم تكن تنظر نحو الشاب الذي تجلّى على وجهه وسلوكه أمارات الذنب والتردّد على نحو لا لَبس فيه. وكانت هي من بادر بالحديث.

«أوه، أبي، أنا سعيدة للغاية بحضورك، لقد كنا نتحدث عنك للتو.»

«نعم يا إدنا، ثمّة بعض الأمثال تنطبق على ما تقولين: بعضها مجامِل وبعضها على النقيض.»

ضحكت إدنا في سعادة.

وقالت: «كنا نحاول تسوية مسألة الإضراب، وكان السيد مارستن يعتقد أنك ستغضب إذا عرفت أنه كان هنا، ظن أنك قد تعتبر ذلك تدخلًا. وأخبرته بأن كل ظنونه ما هي إلا محض هراء، ولكني أرى أنه لم يقتنع؛ وها أنت ذا قد حضرت في الوقت المناسب لتحل المشكلة نهائيًا.»

«أرى أني وصلت في الوقت المناسب تمامًا. ولَكَم أنا سعيد بالحصول على مساعدة في حل هذا الوضع المعقد المحيِّر، وأرحِّب بالمساعدة أيًا كان مصدرها.»

أطلقت الفتاة صيحة نصر والتفتت نحو الشاب الواقع في حبها، الذي بدا في هذه اللحظة وقد استعاد رباطة جأشه إلى حدٍّ ما، وقالت: «أرأيت؟! أليس هذا هو ما قلته لك للتو؟»

«مارستن، أخبرني السيد هوب منذ ساعة بأنك قد زرته بالأمس، وبأنك شرفتني بزيارة منزلي في ويمبلدون بعد ذلك، فعدت إلى المنزل خوفًا من تفويت زيارتك الثانية. السيد هوب يُثني عليك كثيرًا، ولا أريد أن أكون أقل حرارةً منه في التعبير عن رأيي في إخلاصك النزيه لمصلحة رفاقك من العمال.»

بلّل مارستن شفتَيه الجافتين، ولكنه لم يُجب. إن السيد هوب الضئيل الرعديد نكث بوعده معه، وبعد أن نصحه بالصمت، أفشى كل التفاصيل بمجرد أن عاد تحت سطوة خادمه المستبد، ما أدى إلى التعجيل بحدوث هذه المواجهة المؤسفة. أخذت إدنا تتنقل ببصرها ما بين الرجلين، وارتسم على وجهها شيء من التوجس. كانت كلمات والدها هي كل ما كانت تتمنى سماعه، وكانت نبرته مقبولةً تمامًا، ولكن ... ولكن ... بدا أن ثمّة بعض الجفاء في الأجواء. فتحدثت الفتاة بنبرة أقل مرحًا، أقل من ذي قبل، وإن لم تخلُ أيضًا من الثقة في أن كل شيءٍ لا يزال يسير كما ينبغي.

وقالت: «كان ذلك أحد الأمور التي تؤرّقنا. لقد طلب السيد هوب من السيد مارستن ألّا يخبرك عن زيارته إلى سربيتون، ولكني كنت واثقةً من أنك لم تكن لتبالي.»

«لقد فعلتَ الصواب يا مارستن إذ لم تقل شيئًا عن الزيارة مثلما طلب منك السيد هوب، إلا أن إدنا أيضًا محقة في قولها إن الأمر لم يكن ليشكل فارقًا بالنسبة إليّ.»

قالت إدنا للشاب: «والآن، ها أنت ذا ترى أن جميع مخاوفك لم يكن لها أساس، وأن تفسير الأمر ببضع كلماتٍ من شأنه أن يمحوَ كل العقبات. آمل أن تأتي لزيارتنا وقتما تريد التحدث إلى والدي، وسيسعدك أن تستقبله في المنزل، أليس كذلك يا أبي؟ لقد بذل السيد مارستن قصارى جهده لإنهاء الإضراب، رغم أنه لم يُوفّق.»

«أقدر هذا تمامًا يا مارستن، ومنزلي مفتوح لك دائمًا.»

رمقت إدنا مارستن بابتسامة، بينما لم يرفع مارستن عينَيه عن سارتويل، الذي استطرد بلباقة ودماثة قائلًا:

«ولكن من الإنصاف أن أخبرك بأنه لن تكون ثمّة حاجة لمناقشة أمر الإضراب. لقد كنت كالكرة بين الأقدام طويلًا بما يكفي. والآن حان دوري لأضرب ضربتي. سيعود المصنع إلى العمل مرةً أخرى يوم الإثنين. فقد وصلتني طلبات توظيف تفوق عدد الوظائف الشاغرة لديّ بأربعة أضعاف. وبينما نتحدث الآن، يعكف الكتبة على كتابة بضع مئات من البرقيات تطلب من المرسَل إليهم بدء العمل صباح يوم الإثنين. لن يكون لي أي تعاملٍ مع النقابة بعد ذلك.»

صاحت الفتاة في جزع: «أوه!»

سأله مارستن، متحدثًا للمرة الأولى: «هلّا تمنحني فرصةً أخرى للتحدث إلى العمال؟»

«لم تكن الأصوات المعارضة لنا كثيرةً خلال الاجتماع الأخير.»

«أمامك حتى الجمعة ليلًا. إنني أمهلك أقصى قدر ممكن من الوقت، حتى آخر لحظة؛ ولهذا السبب أتكبّد ستة أضعاف التكلفة وأستخدم البرق بدلًا من البريد. ستُرسل الخطابات في جميع الأحوال يوم الجمعة. وسيستأنف المصنع عمله يوم الإثنين، بكم أو بدونكم؛ ومن ثم ليس لديك وقت لإضاعته.»

«سأعود إلى لندن على الفور وأدعو إلى اجتماع مع العمال. هل يمكنني أن آتي لمقابلتك في مكتبك غدًا؟»

«بالطبع. إن مكتبي مفتوح دائمًا: ولكن تذكر، لقد أصبح عرضي الحالي هو الاستسلام غير المشروط. لا مزيد من المفاوضات بعد الآن.»

قال مارستن باقتضاب: «إلى اللقاء»، ثم استدار على عقبَيه وأسرع نحو البوابة، بينما وقف الأب وابنته يراقبانه حتى اختفى عن الأنظار. ألقى سارتويل بجسده على أحد المقاعد وهو يغمغم:

«حمداً للرب!»

«لمَ تقول ذلك يا أبي؟»

«أقول ماذا؟ أوه! لأن توتراً قد انزاح عن صدري. لقد ودعت هوب ومونكتون معاً صباح اليوم إلى ألمانيا، وسيغيبان أسبوعَين على الأقل. وهذا سيُفسح لي المجال، وسأسحق هذا الإضراب مثلما تُسحق قشرة البيض.»

وقبض سارتويل يده اليمنى بعصبيةٍ كما لو كانت قشرة البيض بداخلها.

قالت إدنا: «إني لأُشفق على العمال يا أبي.»

«وأنا أيضاً يا عزيزتي، إذا ما قاوموا، ولكنه سيكون خطأهم وحدهم. يُقال إن التجربة تُعلِّم فئةً معينةً من الناس، وها هم يُعِدون أنفسهم لجرعةٍ مريرةٍ منها.»

«ألن تُعيده إلى العمل، حتى إذا صمدوا؟»

«أعيده؟ مَن؟ أوه! مارستن. إذا لم يعودوا جميعاً، فلن أسمح لأيٍّ من أعضاء النقابة العمالية أن تطأ قدمه المصنع مرةً أخرى. ولكن دعكِ من العمال، أريد أن أتحدّث عنكِ أنت.»

«عني؟»

«نعم. عن الوضع هنا في المنزل. إنه ليس الوضع الذي أتمناه، وأنوي أن أُجري تجربة.»

«هل تعني ما حدث بالأمس بيني وبين أمي؟»

«بل أعني الوضع برمته. إن ما حدث بالأمس لم يكن إلا دلالة على ما تئول إليه الأوضاع، لا أعلم كيف أعبّر عمّا أقصده، ولكنه غير مُرضٍ.»

«لقد أخطأت يا أبي، كما قلت ليلة أمس، كنت قلقةً وخائفة — وهذا ليس مبرراً لما فعلت بالطبع — ومن ثم تلفّظت بأشياء لم يكن يجدر بي قولها. شعرتُ بالندم على الفور، ولكني أشعر بندمٍ أكبر الآن حين أرى أنني قد ضايقتك. لن يتكرّر هذا مجدداً. وسأكون في غاية الحذر في المستقبل، وأنا واثقة إذا ما تجاهلت الأمر، فسأحسن التصرف.»

«عزيزتي إدنا، أنا لا ألومكِ على الإطلاق، ولا أعتقد أن ما حدث كان خطأك، ليس خطأك وحدك على الأقل. أنا لا أُدين أحداً؛ فهذه طبيعتنا التي خلقنا الله عليها، وثمّة فروق في الطباع تُسبّب الخلافات من وقتٍ لآخر. أنت لا تحصلين على فرصة عادلة حاليًا. أنا لا أعبأ كثيراً بأصدقاء والدتك، وليس لديّ أنا نفسي الكثير من الأصدقاء؛ ولهذا السبب ليس لديكِ الكثير من الرفاق في نفس عمركِ يمكنكِ أن تدعيهم لزيارتك، وتردّي زياراتهم، طبقًا للأصول والأعراف. لقد عوّلتِ عليّ وعلى أمك لنكون صديقَين لكِ أكثر ممّا ينبغي، ولا أعرف أيّنا هو الأنسب لكِ أن يكون صديقًا. إنكِ تمرين الآن بمرحلة شديدة الحساسية من حياتك، وأريد أن أبذل كل ما في وسعي من أجلك؛ لذا أعتقد أنه يجدر بي أن أُرسلكِ إلى مدرسةٍ تلتقين فيها بفتياتٍ لطيفات وتكوّنين صداقاتٍ تستمتعين بها. ثم إن لديكِ موهبةً في الموسيقى غير قابلةٍ للجدل، ستُنمى في المدرسة، و... ثمّة الكثير من الأسباب التي تدعم هذه الخطوة.»

سألته إدنا بصوت متهدج: «هل تعني أن عليّ أن أغادر المنزل؟»

«أعتقد أن هذا سيكون التصرّف الأمثل. وفي خلال عامٍ أو عامَين، سوف تنظرين إلى الحياة بإدراك فلسفي أعمق.»

صاحت إدنا كما لو أنها تتحدث عن أبد لن ينتهي: «عام أو عامين!»

ابتسم والدها.

وقال: «سيمر الوقت سريعًا كالريح. وفي غضون عام أو عامين، عندما تعودين إلى المنزل، ستسعدين أنت ووالدتك بلقاء إحداكما الأخرى. ففي بعض الأحيان، ترقّ مشاعرنا تجاه الغائب.»

دفنت الفتاة وجهها بين يدَيها.

فصاح والدها وهو يقرّب مقعده من مقعدها ويُحيطها بذراعَيه: «لا، لا، يا إدنا، صغيرتي العزيزة! وكأنكِ ستُرسَلين إلى أفريقيا. لقد تخيّلت أنكِ ستكونين سعيدة.»

فانتحبَت قائلة: «ليس هذا هو السبب. إن قرارك هذا يدلّ على أنك تراني سيئةً للغاية، لدرجة أنك مُضطرٌ لأن تخرجني من المنزل.»

«هذا هراء يا إدنا! إنه لا يدل على أي شيء من هذا القبيل. فلا يمكنني أن أرسل أمك إلى مدرسة داخلية، أليس كذلك؟ حسنًا، إذن! أنا لا أراك سيئةً على الإطلاق. ولا شك لديّ في ذلك، ولكنك قلت ما حرّضك عقلك على قوله. هدئي من رَوعك؛ يا له من اعتراف يائس يُقدّم لابنة متمردة مثلك! لا، لا. أنا لا ألومك على الإطلاق. وكما قلت سابقًا، لا ألوم أي أحد. نحن فقط مدفوعون بالظروف، هذا كل ما في الأمر.»

«ولن أراك أبدًا إلا عندما أعود للمنزل؟»

«ابنتي الحبيبة، هذا هو الجانب المبهج في الأمر. سترينني وسأراك، بل أكثر مما نفعل الآن. ما رأيك في ذلك؟ سأختار لك مدرسةً ممتازة تقع في مكان حيوي بالقرب من البحر. وأعتقد أنه سيكون أوفر بالنسبة إليّ أن أشتري تذكرة قطار موسميةً إلى هناك؛ إذ سأذهب إلى هناك كثيرًا. سنخرج بمفردنا في نزهاتٍ طويلةٍ على التلال، ونتحدث عن كل

شيء. سنتناول وجباتٍ صغيرةً شهية في الاستراحات التي سنكتشفها على جانب الطريق، ومن وقتٍ لآخر، سنتناول وليمة غداء كبيرةً في مطعمٍ فاخرٍ له نافذة تطلُّ على بحر المانش. إدنا، سيكون هذا بمثابة استعادة والدك المسن لشبابه. فهو نادرًا ما يتنشّق نسمات الهواء النقي في ظل الأوضاع الحالية، ولكن حينئذٍ ...»

أطلقَت إدنا صيحة سعادة وأحاطَت عنق والدها بذراعَيها.

وصاحت قائلة: «أوه، يا أبي، لا أصدق أذنيّ! متى سأذهب؟»

«هذا الأسبوع، كما آمل. ها قد أدركتِ الآن أن كل شيءٍ يعتمد على نظرتكِ للأمور.»

الفصل التاسع عشر

سار لانجلي إلى تشيلسي ولا يزال صدى عبارة «الموت جوعًا» يرن في أذنيه. وأخذ يلوم نفسه أشد اللوم على غبائه الأعمى؛ فقد كان كل ذلك يحدث أمام عينَيه على مدار أيام، ولم يساوره أي شك إزاءه. لا شك في أنها حرمت نفسها من الطعام منذ البداية حتى لا يجوع والدها، وعندما داهمتها آلام الجوع، في نهاية المطاف، كانت أضعف من أن تتحملها. حتى والدها، الذي عزله طبعه الحاد عن أي أصدقاء كان من الممكن أن يلاحظوا ما يحدث ويحذِّروه قبل فوات الأوان، كان غافلًا أيضًا عما يحدث نصب عينَيه. فقد تسبَّبت استقلاليته الفظة في تجويع ابنته ببطء حتى الموت.

«الموت جوعًا!» في أغنى مدينة في العالم، صومعة حبوب الأمم، التي يفيض من حِجرها الواسع القمح الذهبي القادم من كل دولة تشرق عليها الشمس التي تنضجه.

وصل لانجلي إلى المرسم أخيرًا، وربما كان سيعرف، لو كان ملمًّا بعادات العالم الكبير، أن ثمة مناسبةً مهمةً هناك من العربات العديدة التي تجرُّها خيول جميلة ويحيط بها سائقون وخدم متأنقون، المصطفة في انتظار أصحابها. في بداية عمله، كان لانجلي يأمل في أن يكون له بعض الطلاب ليدرِّبهم على العزف حتى يحسِّن من دخله الضئيل. فطبع بطاقات عمل كتب في منتصفها «ألبرت لانجلي»، وكتب في طرفها «مدرس موسيقى»، بخط أصغر. ولكنه لم يستخدم هذه البطاقات قط؛ فلم يكن يمتلك الشجاعة للسعي لاجتذاب الطلاب والحفاظ عليهم. ولعلمه أن بارني رجل عصري، وضع لانجلي بعضًا من هذه البطاقات في جيبه،

وعندما فتح البواب المتأنق الباب، أعطاه إحدى هذه البطاقات الكرتونية. حدّق الصبي في البطاقة ثم ألقاها في الإناء الذي يحوي الكثير من البطاقات لأشخاص آخرين، وصاح بالاسم بصوتٍ عالٍ حتى يُسمع عند قمة الدرج، مشيراً بيده إلى موضع صعوده. وصاح الرجل الذي يزيح جانبًا الستارة الثقيلة التي تغطّي المدخل بالاسم إلى داخل الغرفة، التي تصاعدَت من داخلها همهماتٌ لحواراتٍ مختلطة، تتخلّلها من وقتٍ لآخر موجةٌ من الضحكات المبهجة. وحدّق التمثال الحي المزخرف الواقف عند قمة الدرج في الفراغ فوق رأس لانجلي بينما كان يصعد درجاته.

وأخذ عازف الأرغن بطاقةً أخرى أعطاها للرجل الواقف عند الباب.

وقال: «لم آتِ لحضور «حفل الاستقبال». هلّا تعطي هذه البطاقة إلى السيد هوب، وتسأله عمّا إذا كان يستطيع مقابلتي لحظات. وأخبره بأني أتيت ليلة أمس، ولم أتمكن من الحضور في وقتٍ مبكرٍ عن ذلك اليوم.»

أخذ الرجل البطاقة واختفى خلف الستائر. وفي غمضة عين خرج له بارني، وكان استقباله لعازف الموسيقى حاراً إلى حد محير.

فقد صاح بارني واضعًا يدَيه على كتفَي لانجلي قائلًا: «صديقي العزيز، هل يمكنك العزف على البيانو؟ بالطبع يمكنك ذلك. يا له من سؤال أحمق! دائمًا ما أتسرع. لقد ساقتك العناية الإلهية إلى هنا يا صديقي. لقد أرسلنا شخصًا إلى تشيلسي الآن بحثًا عن عازف بيانو، وها أنت ذا تسقط أمامي من السماء. إنه الحظ. هل أردت مقابلتي؟ بالطبع تريد ذلك، وعلاوةً على ذلك، أنا أيضًا أريد مقابلتك! تعالَ، ادخل. إن لديّ أكبر وأجمل بيانو يمكن أن تلمسه أصابعك على الإطلاق ... إنه آلة موسيقية مذهلة؛ صمّمت صندوقه بنفسي، وأخبرت صانعيه بألّا يبخلوا عليه بأي نفقات، وقد فعلوا. يمكنك أن تثق بهم في ذلك. والآن، تفضل بالدخول، تفضل بالدخول.»

«سيد هوب، أنا لم آتِ لكي أعزف؛ فلست في مزاجٍ يسمح لي بالعزف.»

«بالطبع لم تأتِ للعزف. وهذا هو الجميل في الأمر. أنت تريد مني شيئًا، أليس كذلك؟»

«بلى، وإذا منحتني لحظاتٍ من وقتك ...»

«سأمنحك ألف لحظة يا عزيزي، ألفًا منها، ولكن ليس الآن. اسمعني. أنت تريد شيئًا أملكه، وأنا أريد شيئًا تجيده. إن الرفاهية التي تعيشها إنجلترا بأكملها تقوم على هذا النظام. وقامَت تجارتنا على أساسه. لقد أصبح بلدنا عظيمًا فقط لأنه يعلم جيدًا ما يريد، ولأنه يملك شيئًا تريده البلدان الأخرى، كما تعلم! والآن، أنا أريد رجلًا يمكنه عزف موسيقى راقصة، وأريده الآن، ليس غدًا، أو بعد غد، أو الأسبوع القادم. هل فهمت ما أعنيه؟ جيد. ادخل إذن واعزف لنا بعض مقطوعات الفالس على البيانو الجديد، وعندما تنتهي من العزف، سأمنحك ما تريد، حتى وإن كان نصف مملكتي، مثلما تقول كتب الحكايات. حينئذٍ، سيكون كلانا سعيدًا بالحصول على مراده.»

«أنا عازف أرغن في كنيسة القديسين الشهداء. ولا يمكنني أن ...»

«لا بأس. لا تعتذر. يمكنك أن تعزف على البيانو بنفس مهارة عزفك على الأرغن؛ أعرف هذا من مظهرك. تفضّل بالدخول، تفضّل بالدخول.»

بدت أمارات النصر على بارني وهو يسحب خلفه العازف المتبرم.

وصاح قائلًا: «لقد أحضرته»، وتعالت أصوات التصفيق والضحك الصاخبة.

قال بارني مبتهجًا وهو يُجلِس لانجلي أمام البيانو الضخم، الذي بدا غطاؤه الضخم وكأنه جناح تنين مسنود بدعامة: «اسمعوني، هذه جميع المقطوعات الموسيقية التي قد يريدها أي إنسانٍ متزن، ولكن، إذا كنتم

تُفضّلون أي مقطوعاتٍ أخرى، فسأُرسل في طلبها، وها هو البيانو، «فلنستمع إلى نغماته»، كما يقول الشاعر.»

كانت قطع السجاد التي عادةً ما تغطّي الأرض المصقولة بالشمع قد أزيلت، وأزيحت المقاعد إلى أركان الغرفة لتستقر إلى الحائط. كان ثمّة الكثير من الضحكات والاعتراضات بحجة أنهم لم يأتوا مستعدين للرقص، إلا أن الجميع كانوا متلهفين على نحوٍ ملحوظٍ لبدء المرح.

صاح بارني وهو يبتسم في سعادةٍ إلى ضيوفه الكُثُر قائلًا: «أنتم في بوهيميا، كما ترَون، ومتعة بوهيميا هي اللاتقليدية. لقد ظَللت أرقص بعد انتهاء العرض المسرحي حتى شروق شمس هذا الصباح، وعلى استعدادٍ تامٍّ لأن أبدأ من جديد. هل نرفض وجبة الغداء لأننا أفطرنا، ولأننا سنتناول العشاء في السابعة؟ ليس الأمر كذلك. أنا جاهز للرقص في أي وقتٍ ليلًا أو صباحًا. والآن، سيدي الموسيقي، فلتبدأ العزف. «هيا إلى الرقص، انشروا أجنحة السعادة!» كما يقول الشاعر.»

وكان لانجلي من البراعة بمكان لدرجة أنه لم يكن ليخطئ في توقيت النغمة، أو في عزف النغمة نفسها وإن حاول. لقد صدق بارني في قوله إن البيانو آلة موسيقية مذهلة، وعندما ملأت موسيقى الفالس المرحة أرجاء الغرفة الكبيرة، بدأ كل زوجٍ من الحضور يرقص برشاقةٍ وخفةٍ على الأرضية المصقولة. واصل الموسيقي العزف دون توقّفٍ بطريقةٍ آليةٍ لم تُنقص من روعة عزفه، وخلال فترات الراحة بين الرقصات، تحدّث عددٌ من الضيوف إلى مُضيِّفهم عن روعة الموسيقى.

وكان بارني يقول مُلوِّحًا بيده في خيلاء: «أوه، نعم، إنه أحد اكتشافاتي. الرجل عبقري، كما ترَون، وبراعته في الموسيقى تضاهي براعتي في الرسم.»

قال أحد الشباب: «بارني، أنت تبالغ دائماً. ستصيب عازف البيانو بالغرور بإطرائك عليه، إذا ما علم أنك تعتبره في مثل براعتك.»

قال بارني بتواضع عبقري حقيقي: «لعلك تتخيّل أنني أغبى من أن أدرك المغزى الحقيقي لهذا التعليق. أنا أعلم أسلوبك الساخر؛ ولكن دعني أخبرك بأن ما كنت أعنيه هو أنني وعازف الموسيقى لسنا مقدّرين من قِبَل عامة الشعب الذين تُعتَبر ممثلًا بارزًا عنهم.» (ثم همس بارني جانبًا للسيدة التي على يمينه: «أستحق الإشادة لردي الرادع له.»). «نعم يا فتى، سيأتي يوم تفخر فيه بقول إنك دُعيت إلى حفلات الاستقبال هذه، والتي أنوي أن أجعلها إحدى السمات الفنية للمجتمع اللندني.»

قال الشاب معترضًا: «مهلًا يا بارني، إني لأفخر بذلك الآن بالفعل. والجميع يكرهونني في جميع النوادي التي أرتادها لتفاخري المستمر بتفضلك عليّ. وأزعم أن مكانتك في عالم الفن تضاهي مكانة شركة يونيفرسال بروفايدر في عالم التجارة.»

غمغمت السيدة في محاولة منها لتهدئة الأجواء المضطربة: «فلتطلب منه أن يعزف شيئًا أثناء الاستراحة.»

جلس لانجلي أمام البيانو كتمثال كئيب، دون أن يلتفت إلى همهمة الحوارات التي تدور من حوله. فقد كانت أفكاره في مكان آخر بعيد، في تلك الغرفة البائسة حيث يرقد جثمان الفتاة الميتة. اتجه بارني نحوه مسرعًا، فاستفاق الموسيقي من شروده مجفلًا عندما تحدث إليه بارني.

قال له: «إليك عدة مقطوعات من موسيقى المازوركا المجرية؛ إنها موسيقى غريبة، ولكنها ستعجبك. هلا تعزف لنا بعضها بينما نحتسي الشاي؟ إن الجميع يُطرون على براعتك في العزف، وهم جميعًا أناس يُميِّزون العزف الجيد عند سماعه. هل تريد مشروبًا مرطبًا قبل أن تبدأ؟»

هز لانجلي رأسه نفيًا، وبدأ يعزف الموسيقى المجرية. عاد بارني ليجلس بجوار السيدة وارتسمت على شفتيه ابتسامة رضًا، كونه استطاع أن يُنصِّب نفسه راعيًا لموسيقيٍّ بارعٍ كهذا. أسندَت السيدة ذقنها على يدها وراحَت تستمع باهتمام.

ثم همست بصوتٍ خافت: «كم يعزف مقطوعات المازوركا هذه ببراعةٍ مذهلة! إنه يُبرز ذلك الطابع الشيطاني الذي تصطبغ به أغلب الموسيقى البولندية والمجرية.»

وافقها بارني قائلًا بحرارة: «نعم، إنه يعزف كشيطان، رغم أنه عازف أرغن في إحدى الكنائس. أعتقد أن كبير الشياطين يعتني بموسيقانا مثلما يعتني بأخلاقنا.»

«هل ألّف أيّ مقطوعاتٍ موسيقية؟»

«من؟ الشيطان؟»

«لا، لا. أنت تعلم جيدًا أني أتحدث عن عازف الأرغن.»

«ألّف مقطوعاتٍ موسيقية! حسنًا، في الواقع. إنه نابغةٌ غير مُقدّر، ولكني سأهتم بأمر تقديره. سأنشر بعضًا من أعماله، إذا سمح لي بذلك. إنه رجل شديد التواضع، و...»

«رجل آخر يشبهك.»

«بالضبط، بالضبط. أنا دائمًا ما أدفع الآخرين إلى الأمام وأغفل مصالحي، ولكن سيأتي يومٌ وأبهركم جميعًا. وكما ترَون، طبقتنا الاجتماعية لا تُفرز نوابغ مثل عازف الأرغن هذا. فلم تُفرز الطبقة الأرستقراطية رجلًا مثل شكسبير قط.»

«أظن أنها قد فعلت. ألم يكن لورد بيكون هو من ألّف الأعمال التي تحمل اسم شكسبير؟»

«نعم، لم يكن لورد بيكون من ألّف تلك الأعمال. لقد بحثت في هذه المسألة، ولكني لم أعثر على أي دليل يدعمها. نعم، إن العظماء الحقيقيين يأتون من عامة الشعب. ولا يعرف العالم أين يبحث عنهم، ولكن أنا أعرف، وأعثر عليهم مثلما عثرت على هذا الرجل. أنا أتخيّر مجتمعي من الأرستقراطيين، ولكني أتخيّر نوابغي من عامة الشعب.»

«ولكن إذا لم تُخرج طبقتنا عظماء، فكيف لك أن تأمل في أن تصبح أعظم الرسامين؟»

«آه، الرسم أمر مختلف كما تعلمين؛ فلطالما كان فن النبلاء والسادة. ليوناردو وكل أولئك الرسامين العظام كانوا من صفوة رجال عصرهم اجتماعيًا. كما أن روبينز — أم هل كان تيتيان؟ — أحدهما على أي حال، ذهب بوصفه سفيراً إلى بلاط ملك إسبانيا في موكب مهيب. لطالما كان الرسامون رفاقًا للملوك. ولكن ما رأيك، دعينا نرقص رقصةً أخرى.»

عادت موسيقى الفالس الحالمة مرةً أخرى لتختلط بصوت حفيف التنورات الحريرية عند احتكاكها بالأرضية المصقولة. كان لانجلي يندمج اندماجًا شبه تام مع الموسيقى التي يعزفها أيًا كانت، ولكنها الآن لم تكن سوى سبب لتبلّد حزنه، وتوارت نغمة خافتة شديدة الحزن خلف اللحن المرح الصادر بسلاسة وعذوبة من البيانو؛ نغمة لم يسمعها أحد سواه. كانت أذنه غير المهتمة تلتقط ضحكةً جذلة، ومن وقتٍ لآخر عبارةً هامسة، بينما يتمايل الراقصون بالقرب من مكان جلوسه، وكان يتمنّى لو انتهَت مهمته حتى يواجه مرةً أخرى رحلة السير الطويلة التي تنتظره. أنّب لانجلي نفسه معتبراً نفسه ناكراً للجميل، رغم ما بدا من صعوبة

وقسوة في اضطراره في هذا الوقت العصيب للذهاب من أجل الترفيه عن جمعٍ من محبي المتعة؛ فقد تذكّر أن يعقوب تحمّل سبع سنواتٍ دون شكوى ليتزوّج المرأة التي أحبها: فلمَ إذن يبخل على محبوبته بعصر يومٍ واحد، في حين كان الهدف واحدًا فعليًا، وإن كان الأمل قد ألقى بظلال البهجة على الفترة الطولى، بينما ألقى اليأس بظلال الكآبة والقنوط على الفترة الأقصر. لقد عانى كلا الرجلَين، كلٌ بطريقته، من أجل محبوبته، حيةً وميتة.

هوت يد بارني الثقيلة بقوةٍ على كتف العازف التي لا تكسوها إلا طبقة خفيفة من الملابس، وإن لم توقظه بالكامل من تأملاته المريرة.

«ممتاز يا صديقي، ممتاز! لقد قدّمت أداءً رائعًا، والجميع مسرورون ... بل مسحورون! أؤكد لك أنهم مسحورون بالفعل. سيُغادرون الآن؛ لذا اعزف لنا لحن وداعٍ حماسيًا، أي شيء تختاره؛ ربما من الأفضل أن يكون أحد ألحانك، أنت تعرف ما أعنيه، لحن توحي نغماته بالأسف ... نغمات تعكس أسفهم لأنهم سيغادرون.»

أسرع بارني عائدًا إلى ضيوفه، وأخذ يصافحهم مطالبًا إياهم بالعودة مرةً أخرى، بينما كان بدوره يتلقّى جزيل الشكر على الأمسية الرائعة. وفجأةً غطت على همهمات الوداع نغمات «اللحن الجنائزي» المهيبة، التي بدَت كدقّاتٍ منظومةٍ لجرس الموت. أضفى الرنين الصادح للآلة الموسيقية سحرًا نابضًا بالحياة على اللحن الكئيب، وهو ما كانت تفتقر إليه نغمات الأرغن المستوية الجَهْورية. كان لانجلي يعزف كالمسحور، ملقيًا رأسه إلى الخلف، ورافعًا وجهه الشاحب إلى أعلى، وبدا وكأن الحياة قد فارقته. خيّم صمتٌ لحظيٌ تقشعرّ له أبدان الحضور، كما لو أن ريحًا جليديةً قد اجتاحَت المكان وجمّدت تيار المحادثات الدائرة مسكتةً إياها.

فاقشعرّت أبدان بعضهم في مواضعهم، وقطعت فتاة، كانت تغلق زر معطفها عند الرقبة، حديثها وقالت بطريقةٍ شبه هستيرية:

«إذا كانت هذه مزحة يا سيد هوب، فهي لا تعجبني.»

وغمغم أحد الرجال وهو يسرع بالمغادرة: «تبًّا لهذا الذوق السيئ.»

صُدم بارني مثلما صُدم جميع من سمعوا هذا اللحن غير الملائم للحدث، وصاح وهو يسير بخطًى واسعة نحو العازف بمجرد أن استوعب ما يحدث: «أوه، نحن لم نرغب في لحنٍ حزين.»

وضعت السيدة التي كانت تمتدح عزف لانجلي يدها على ذراع بارني لتحجزه.

وقالت بهدوءٍ والدموع تترقرق في عينَيها: «صه! لا توقفه. اسمع! هذا الرجل مُلهَم. لم أسمع في حياتي مقطوعةً لشوبان تُعزف بمثل هذه الروعة.»

غمغم بارني بنبرةٍ اعتذارية: «أوه، هل هذه مقطوعة لشوبان؟» كما لو أنه لم يكن سيتدخّل لو كان يعلم ذلك.

تفرّق الحشد بسرعةٍ ورنين النغمات غير المحبّبة يدقّ في آذانهم، تاركين بارني وضيفتَه واقفَين وحدهما. وبعدما انتهى لانجلي من عزف اللحن، جلس في مكانه وتدلّى ذراعاه الطويلان بجواره.

فسأل بارني ضيفته: «هل تودّين التحدث إليه؟»

«لا، ليس الآن.»

وانسلّت السيدة بخفةٍ إلى خارج الغرفة، وتبعها بارني حتى وصلا إلى البسطة في أعلى الدرج.

قالَت السيدة وهي تمدُّ يدها إلى بارني: «من فضلك، راقبه جيداً. أُريدك أن تطلب منه العودة إلى هنا مجدداً، واسمح لي بدعوة الضيوف.»

قال بارني متحمساً: «سأفعل ذلك. سيسرُّني ذلك كثيراً.»

«لا، لن يكون ذلك مدعاةً للسرور يا سيد هوب، ولكننا سنستمع إلى عزفٍ موسيقي ساحر. إلى اللقاء!»

عاد بارني إلى الغرفة ووجد لانجلي يقف بجوار البيانو كرجلٍ استفاق الآن من حلم، وبدا لا يعلم أين هو.

صاح بارني بحرارة: «لا بد أن تحصل على بعض الشراب. إنك تبدو منهكًا، ولا عجب في ذلك. لم أسمع في حياتي مقطوعةً لشوبان تُعزَف بمثل هذه الروعة. أؤكِّد لك يا صديقي أنك قادرٌ على إخراج كامل قدرات البيانو. والآن، هل تشرب الويسكي أم البراندي؟»

شكره لانجلي رافضًا كلا الشرابَين. قال إنه سيسير مسافةً طويلة، وإنه يتعجّل الرحيل.

صاح بارني: «تسير! ما هذا الهراء! لمَ تسير وتُهين جميع سائقي العربات المحترمين الذين تمرُّ بهم؟ سأهتمُّ بأمر السير هذا، أتمنى أن أكون على درايةٍ بواجبي تجاه مجال صناعة العربات.»

لمس بارني جرساً كهربائيًا، وعندما ظهر خادمه، قال له:

«أرسل الخادم إلى محطة كينجز رود ليُحضر عربة. وعندما تصل العربة، أعطِ السائق عشرة شلناتٍ وأخبره أنه رهن إشارة الراكب لأربع ساعات. واطلب منه الانتظار أمام الباب حتى يخرج الراكب، وحتى يحدث ذلك، أحضر بعض الويسكي والصودا. والآن، سيدي عازف الأرغن — دائماً ما أنسى الأسماء — آه، لانجلي، إنه مكتوب على البطاقة بالطبع. هل ألّفت أي مقطوعاتٍ موسيقيةٍ بنفسك؟ أظنك قد فعلت. هل نشرت أيًا منها؟ لا

أظن. حسنًا يا صديقي، علينا أن نُصلح كل ذلك. أنت متواضعٌ أكثر ممّا ينبغي؛ يمكنني رؤية ذلك. ولكن التواضع لا يفيد في لندن. أعلم هذا لأني أنا نفسي عانيت منه. يا إلهي! فقط لو كنت أمتلك وقاحة بعض الناس، لصرت أشهر رسامٍ في أوروبا. إذا ما أحضرت لي بعضًا من مؤلّفاتك الموسيقية، يمكنني توفير ناشرٍ من أجلك. هل تعدني بذلك؟ أسمعك تقول هذا هراء! إنها بلا قيمة؟ كلام فارغ! هل تقارنها بأعمال الموسيقيين العظام؟ صديقي العزيز، لا شك لديّ في أن الموسيقيين العظام نجحوا في أعمالهم، ولكنهم كانوا فيما مضى فقراء مساكين مثلك. هل لأن رافاييل مارس الرسم، عليّ ألّا أرسم أفضل منه؟ لا تسير الأمور على هذا المنوال. سنُصبح أنا وأنت من عظماء الرسم والموسيقى بعد بضعة قرون من الآن والأيام بيننا. من الرائع أن تُدرك أنك من العظماء، بينما لا تزال شابًا وقادرًا على فعل شيءٍ ذي قيمة. وإذا لم تدرك هذه الحقيقة بنفسك، فتأكّد أنه لا أحد آخر سيفعل، على الأقل، ليس في الوقت المناسب بما قد يعود عليك بأي نفعٍ في هذا العالم. لتشرب بعض الويسكي؛ «إنه مبهج ومهدئ»، كما تقول الإعلانات. حسنًا، تفضل!»

تلعثم لانجلي وهو يقول في خجل: «لقد أتيت للقائك يا سيد هوب لأن مارستن — أحد الموظفين في شركة والدك — أخبرني بأنه يعتقد أنك ... أنك تفضلت وساعدته ذات مرة عندما ...»

«أوه. نعم، أتذكر مارستن. لقد حضر إليّ من أجل أحد رفاقه، كان قد ضرب بعضًا من رجال الشرطة. حسنًا ... هل ضرب المزيد منهم؟»

«لا، ولكنه في أزمةٍ شديدةٍ يا سيد هوب.»

«لا شك أن رجلًا مثله لن يخلو من الأزمات. كم تبلغ الغرامة؟»

«لقد ماتت ابنته الوحيدة بالأمس.»

«أوه، يؤسفني سماع هذا كثيراً، يؤسفني للغاية حقًا.»

«إنه لا يملك أي مال، ولا يختلف حال العمال عنه كثيراً. ليس من شيم برونت أن يطلب المساعدة من أحد، ولكني أعلم أنه يخشى أن تكون ثمّة ... إنه لا يريد أن تُدفن ابنته مثل الصعاليك، وفكّرت أنه ...»

«بالطبع، بالطبع. فهمت كل شيء. لم أتمكّن قط من فَهْم مشاعر الفقراء في هذا الشأن. يبدو أنهم يحبون الجنازات المهيبة، كما لو كانت شيئًا مهمًا للمتوفّى. أعترف لك بأنك إذا ما منحتني صحبةً جيدة وأنا على قيد الحياة، فيمكنك أن تفعل بي ما يحلو لك عند وفاتي. فلن يَضيرني حينها أن أرقد بجوار صعلوكٍ أو أمير، ولكني أفضِّل صحبة الأمير فوق الأرض. حسنًا، كم سيحتاج؟ بالطبع لا تعرف، وكذلك أنا. لنقل خمسة عشر جنيهًا، وإذا ما احتجتم إلى المزيد، فقط أرسل لي برقيةً وسأُرسل لك المال مع رسول على الفور. لا، لا تفكّر في إعادة إرسال أي من هذه الأموال. تبرّع بما سيتبقّى منها، إذا ما تبقّى شيء، للجمعيات الخيرية. ولكن عليك أنت أن تعود لزيارتي، وسوف نتحدث عن الموسيقى. يمكنك الحضور في أي وقت؛ فلا مجال للرسميات بيننا. واكتب عنوانك هنا على هذه البطاقة حتى أتمكن من التواصل معك. لقد وعدت إحدى السيدات بأن أجعلك تحضر إلى هنا ذات يوم لتعزف لبعض الأصدقاء. لن تخيِّب ظني، أليس كذلك؟ شكرًا جزيلًا لك، أنا ممتنٌّ لك كثيراً.»

ثم دخل الخادم الغرفة وقال: «لقد وصلت العربة يا سيدي.» «حسنًا. سأوصلك إلى عربة الأجرة يا سيد ... إممم، لانجلي. لا بأس بهذا، لا عليك. يمكنك أن تجعل السائق يوصلك إلى حيث تريد طوال أربع ساعات، إذا أردت. سيوصلك السائق إلى برايتون في خلال تلك الفترة؛

لذا أعتقد أنه سيُوصلك إلى أي مكان في لندن سريعًا دون تأخير. حسنًا، إلى اللقاء يا صديقي العزيز، وأشكرك كثيراً على موسيقاك الرائعة.»

الفصل العشرون

جلس برونت بعد انتهاء مراسم دفن ابنته في غرفته الموحشة، متأملًا بمرارةٍ في حياته الفاشلة بقدر ما أسعفته ذاكرته. لم يشكُ قط من العمل الشاق المتواصل؛ فقد كان هذا قَدَره وقَدَر آبائه من قبله. كان قادرًا على العمل، بل وراغبًا فيه؛ كان العمل موجودًا ينتظر من يُنجزه، ولكن بسبب فعلة رجالٍ لم يكن له أدنى سيطرةٍ عليهم، حُكم عليه بالبطالة والجوع حتى تتغيّر عقول الآخرين المتقلّبة، وتُعطى الإشارة لالتقاط الأدوات التي أُلقيت على الأرض بطيش بالغ.

صاح بأعلى صوته، ضاربًا سطح الطاولة الخالي بقبضته، قائلًا: «لا يمكنني التحمل أكثر من ذلك!»

ولكن بعد فورات الإصرار اللحظية هذه، عاد الاكتئاب الذي أصبح ملازمًا له ليسيطر بقوة أكبر على عقله، فدفن وجهه بين يدَيه، وأخذ يئنّ في إحباطٍ يائس عندما أدرك مدى عجزه. فمن الصعب أن يظل الجائع على شجاعته لفترة طويلة. ماذا بيده ليفعله؟ لا شيء على الإطلاق. قد يسقط صريعًا من الإرهاق قبل أن تتسنّى له فرصة الحصول على وجبة، رغم أنه جاب أرجاء المدينة الضخمة بحثًا عن عمل. كانت المهنة التي يُجيدها مكتظةً بآلاف العمال المتلهفين لشغل الوظيفة التي أُجبر على تركها. حتى ممرات المشاة احتلّها فقراء بؤساء يكسبون قوت يومهم من كَنسها. وحتى إن تمكن من شغل أحد ممرات المشاة، فهو لا يملك مالًا لشراء مكنسة. كان جيبونز، رغم حماقته، محقًا عندما قال إن العامل ما هو إلا ترس في عجلة ضخمة، قد تحظى العجلة بترسٍ جديد، أو مجموعة

جديدة من التروس، ولكن الترس المنفصل عنها يصبح عديم الفائدة كقطعةٍ من الحديد الصدئ.

انسلّ لانجلي في هدوء إلى غرفة صديقه المنكوب، وأغلق بابها من خلفه دون صوت، كما لو كان يوشك على ارتكاب جريمة وموقنًا أنه سيُقبض عليه. لم يحيِّه برونت، ولكنه حدّق إليه في عبوسٍ من تحت حاجبَيه الأشعثَين العابسَين.

قال عازف الأرغن في خوف وهو يضع كومةً من العملات المعدنية على الطاولة: «هاك بعض المال وعليك أخذه.»

أطاح برونت بكومة العملات بحركة غاضبة، حتى إن العُملات الفضية أصدرت أصوات صلصلة عندما سقطت على الأرض.

وقال بصوتٍ كالزئير: «لن آخذ أيًا من هذا المال كما أخبرتك من قبل! يمكنني أن أجني المال بنفسي، إذا ما سنحت لي الفرصة.»

انحنى لانجلي دون أن ينبس بكلمة اعتراض واحدة، وبدأ يجمع العملات المتناثرة بتأنٍّ.

ثم قال وهو ينهض: «هذا ليس مالي. لقد أُرسل إليك، من أجلك أنت ولا أحد غيرك. إنه يخصك، وليس لي أي حق فيه، وهذا مال قد جنيته بنفسك. ولا أعرف أحدًا أفضل منك يستحقه.»

وضع لانجلي العملات الفضية والذهبية على الطاولة مجددًا، وخرج من الغرفة على أطراف أصابعه بشيء من العجلة قبل أن يستوعب برونت الأمر ويرد عليه.

في تناقض غريب قَبِل الرجل المنحدر من يوركشاير المال الذي أنقذ ابنته من جنازة الفقراء دون أي تساؤلات، على الرغم من أنه، ببعض التفكير، كان سيعلم دون شكٍّ أن شخصًا ما قد تكفّل بهذه النفقات، ولكن

الصدقة التي لم تؤتَ له مباشرة، لم توقظ أي استياء في نفسه المضطربة، بينما العرض المباشر بتزويده بالمال أو الطعام أثار في نفسه عاصفة غضب في الحال.

تأمل برونت كلمات عازف الأرغن. كيف يمكن أن يكون هذا المال ملكًا له؟ كيف جنى هذه العملات؟ وتوصل عقله البطيء بالتدريج إلى حل المعضلة؛ لا بد أن المال مُرسل من هوب أو مونكتون، أو ربما من سارتويل. صب برونت اللعنات على ثلاثتهم، مجتمعين ومتفرقين، وبعثر كومة المال مرةً أخرى على الأرض في خِضم ثورته. أخذت العملات تدور عشوائيًا في أنحاء الغرفة، واستقر بها المقام بعد دورانها على ألواح الأرضية العارية. حدّق برونت في العملات المستقرة على الأرضية التي تلمع تحت الإضاءة الخافتة، وكفّ ذهنه عن التفكير في مسئولية الرؤساء أو المرءوسين عن الأوضاع التي كان يعاني منها. كان فيما مضى يعتبر هوب ومونكتون رأسماليّين متكبرَين يتباهيان بثروتيهما، حتى رأى سلوكهما الصاغر المذعور عندما كان رجال الشرطة يرافقونهما إلى خارج المصنع، ومنذ ذلك الوقت وهو يسعى لإعادة تشكيل أفكاره عنهما. إذن لمَ يرفض أخذ المال إذا أرسله أيٌّ منهما؟ كان يحدّق إلى العملات المتناثرة على الأرض ويرى بقعًا بيضاء ونقاطًا صفراء من الضوء، وعدّل كرسيه حتى تتسنى له رؤية أفضل لها. كان قد سمع أن المرء قد يُنوم مغناطيسيًا إذا ظل يحدّق بثبات إلى قطعة من الفضة يحملها في راحة يده. وبينما كان برونت ينظر بتركيز إلى العملات المعدنية، مرّر يده بسرعة على جبهته، مُضيقًا عينَيه ليرى العملات بتركيز أكبر. انحنى إلى الأمام، ثم نحو الأرض. كان واثقًا أن العملات تتحرك مقتربةً بعضها من بعض، وتذكر بذهن مرتبك أن اجتذاب الكومات الأكبر حجمًا للذرات المعدنية المختلفة، هو حال النقود في جميع أنحاء العالم، ما بدا له سببًا منطقيًا، مثلما يحدث في الأحلام، لزحف العملات وتقاربها، رغم أن ما تبقى من

صوابه أخبره بأن كل هذا مجرد وهم. دخلت الأجزاء المدركة والمشوشة من ذهنه في صراع معًا من أجل السيطرة، بينما كان برونت ينحني أكثر فأكثر نحو المال، حتى صار في تلك اللحظة جالسًا على حافة مقعده يلهث مستغرقًا بكامل وجدانه تقريبًا، في الحركة الغريبة التي تحدث على الأرضية، وبدأ يفقد الاهتمام تدريجيًا بالصراع الذهني الدائر حول واقعية ما تخبره عيناه المجهدتان الجاحظتان بأنه يحدث تحت قدميه. وفي النهاية، لاحظ أن الكومة تتسلّل ببطء وبوضوح في الوقت ذاته بعيدًا عنه. وتبدّدت جميع شكوكه حيال واقعية ما يرى. فالمال يحاول الفرار.

فهبّ واقفًا وقفز نحو الباب مغلقًا إياه بظهره.

وأخذ يصرخ قائلًا: «أوه، لا، أنت ملكي، أنت ملكي!»

جلس برونت القرفصاء من دون أن يرفع عينَيه عن العملات، واستند على يدَيه وركبتَيه وبدأ يزحف نحوها ببراعة، ثم انقض فجأةً على الكومة الأساسية، بينما أسرعت العملات المنفصلة عائدةً إلى مواضعها السابقة، متظاهرةً بأنها لم تغيّر مكانها من الأساس. فضحك ساخرًا من محاولاتها العقيمة لخداعه، وسكب كومة العملات في جيبه، والتقط كل العملات المنفصلة المتبقية عبر الانقضاض عليها. فتّش برونت الغرفة بالكامل مثل حيوان يتشمّم الأركان، وعندما يلمح عملةً فضية أو ذهبية تدحرجت لمسافةٍ بعيدة، كان يجثم أكثر على الأرض، ويتحرك بمزيدٍ من الحذر، ويضحك في سعادةٍ عندما يمسك بها ويضعها مع العملات الأخرى. وأخيرًا نهض واقفًا ضاربًا بيده على جيبه في سعادةٍ ليسمع صليل المال. وما إن انتصبَت قامته حتى اندفع الدم إلى رأسه فشعر بالدوار. أخذ يترنّح واستند إلى الجدار وقد فارقَتْه بهجته تمامًا. بدَت الغرفة وكأنها تدور من حوله، فغطى عينَيه بيدَيه.

وهمس قائلًا: «سأُجن. لا بد أن أحصل على شيء لآكله أو أشربه.»

خرج برونت مترنحًا من باب الغرفة إلى الممر ثم نزل على الدرج، ومنه إلى الهواء الطلق الذي أعاد له الشعور بالحياة وقرصة الجوع مرةً أخرى. بمجرد أن خرج إلى شارع لايت، دخل حانة «روز آند كراون» وطلب كوبًا من البيرة. تردّد الساقي في إجابة طلبه. فقد انتهى رصيد المضربين منذ فترة طويلة.

قال الساقي بفظاظة: «أرني نقودك.»

«لا أملك أي نقود. سأدفع لك الأسبوع القادم؛ فسأُنهي الإضراب اليوم.»

وضع برونت راحته المفتوحة على جيب سرواله ليؤكد على فقره، ولكنه أجفل عندما سمع صوت رنين العملات. فأدخل يده في جيبه وأخرج منه قطعةً فضية من المال، وأخذ يحدِّق فيها ذاهلًا.

ثم قال أخيرًا وهو يلهث: «يا إلهي، ظننت أني كنت أحلم!»

ضحك الساقي وأمسك بكوب فارغ وقبض على مقبض مضخة البيرة.

وقال: «هذا الحلم مفيد لحانة «كراون». من الأفضل أن تأخذ بعض الخبز والجبن مع البيرة.»

«حسنًا. أسرع يا رجل.»

أكل برونت وشرب بنَهَم دون أن يتحرك من مكانه.

قال الساقي، بعدما رأى كم كان برونت جائعًا: «يمكنني أن أحضر لك طبقًا من اللحم البارد.» أومأ برونت برأسه موافقًا، ووُضع الطبق أمامه، ومعه شوكة وسكين.

قال الساقي متكئًا بذراعيه على الطاولة: «لقد انتهى الإضراب إذن، أليس كذلك؟»

«سينتهي بمجرد أن أصل إلى هناك.»

«حسنًا، هذا التوقيت مناسب تمامًا. فقد تضرّر عملنا كثيرًا.»

«لقد تضرّرنا أكثر ممّا تضرّر عملك للأسف. فلا أحد يساعد المُعوزين إلا إذا كان بحوزته مال.»

«أوه، لن يفعل الآخرون إلا المثل. لسنا مؤسسةً خيرية، وكذلك جيراننا.»

تناول برونت طعامه وشرب كوب البيرة، ولكنه لم يرد. كان منطق الساقي صحيحًا من المنظور التجاري، ولا يمكن لأحد يمتلك ذرةً من العدالة أن يجد فيه ما يعيبه. فالمال هو المفتاح العمومي للكون الذي يفتح جميع الأبواب. لم يكن الساقي يعبأ بكيفية حصول برونت على المال طالما دفع مقابل ما طلب، أمّا برونت فبات في تلك اللحظة يشعر بالشجاعة تحل محل اليأس؛ فقط لأنه يملك مالًا في جيبه. شعر بأنه أصبح يملك طاقةً كافية للتصدي للمُضربين؛ فقط لأنه سد رمقه بينما لا يزالون هم جائعين. لن ينتظر أي اجتماعات، بل سيخطب في العمال في الشارع، أولئك المحتشدون في مجموعاتٍ عقيمةٍ لا حول لها ولا قوة حول البوابات المغلقة، ولا شك في أن أغلبهم سيكونون هناك. وإذا اعترض جيبونز، فسيحسم المسألة بضربةٍ سريعةٍ وقاضية؛ فهذا هو أسلوب النقاش الذي يسهل على جميع الحاضرين فهمه.

مسح برونت شفتيه بظهر يده بعدما أنهى وجبته، وخرج من الحانة متجهًا إلى المصنع. وكما توقع، وجد العمال اليائسين واقفين هناك وقد دسوا أيديهم في أعماق جيوبهم الفارغة في عجز ويأس. لم يكن الدخان

يتصاعد من غلاييهم شأنها شأن مداخن المصنع العالية، وكان ذلك في حد ذاته دلالةً على أن حالهم قد وصل إلى الحضيض. كانوا يستمعون بلا مبالاة وفتور إلى جدال محتدم بين جيبونز ومارستن، كما لو أن الموضوع قيد النقاش لا يمسهم من قريب أو بعيد.

كان مارستن يصيح قائلًا: «كان من الممكن أن تلعب بهذه الورقة الأسبوع الماضي، ولكن مضى أوانها الآن. لم يعد بإمكانك أن تلتقي المالكَين. لقد أخبرتك بأنهما قد غادرا البلاد، ولن يعودا قبل أسبوعَين، وفي خلال هذه الفترة، سيُملَأ المصنع بعمالٍ جدد. سيأتي العمال الجدد يوم الإثنين. وأُطالب اللجنة بالدعوة إلى اجتماعٍ على الفور والتصويت.»

صرخ جيبونز: «لا تبالوا به أيها العمال! إنه مأجورٌ من سارتويل.»

لم يبالِ العمال بما قاله مارستن، ولم يولوا انتباهًا إلى جيبونز أيضًا. فكل ما كانوا يريدونه في هذا الوقت هو بعض الطعام والشراب، وبعض التبغ للتدخين بعد ذلك. وإذا كان مارستن مأجوراً من سارتويل، كان أيٌّ منهم سيسعد بأن يتبادل معه الأماكن. شق برونت طريقه عبر الحشد بقوةٍ دافعًا الرجال جانبًا بوقاحة. ولم يعترض أحدٌ على ذلك؛ فقد تبخّرت أيٌّ رغبةٍ لديهم في المقاومة. بدا مارستن على وَشْك الانقضاض على جيبونز بعد افترائه عليه بالقول عندما شعر بيد برونت الثقيلة على كتفه.

قال الرجل الضخم: «لقد فات أوان الاجتماعات يا صديقي، والكلام أيضًا. الاجتماع هنا، وسأتعامل معه. دعك من هذا الأحمق، اذهب وقف وسط الحشد، واستعد لدعمي إذا ما احتجت إلى دعم.»

نفّذ مارستن ما طُلب منه على الفور، وفي الوقت نفسه كان برونت يسير عبر المساحة الخالية، على الرغم من تحذيرات أحد رجال الشرطة له بأن يتراجع.

لم يكن هناك الكثير من رجال الشرطة؛ إذ رأت السلطات أنه لا يوجد ما يخيفهم في مجموعة من العمال المنقادين المهزومين.

قال الضابط: «عليك أن تتراجع وإلا فسأقبض عليك.»

صاح برونت في شراسة وهو يشمِّر عن ذراعيه مواجهًا خصمه في تحدٍّ: «هل ستفعل حقًّا؟ أحذِّرك إذن، اطلب المزيد من الدعم. فعدد رجالك هنا لا يكفي للقبض عليَّ. لقد أكلت اليوم.»

وبعد برهة من التحديق بغضب في عينَي الضابط، استدار برونت وسار بخطًى واسعة نحو البوابة المغلقة دون أن يعترضه أحد.

استمع الضابط إلى النصيحة وأرسل في طلب المزيد من الرجال. فقد أدرك أن ثمَّة مشكلةً ما تلوح في الأفق.

ضرب برونت ألواح البوابة بقبضته الضخمة، وصاح بأعلى صوته بنبرة هادرة قائلًا:

«افتحوا البوابات!»

بدت لمحة طفيفة من الاهتمام المتبلد على وجوه العمال. تزاحم العمال مقتربين أكثر بعضهم من بعض، وراحوا يجرون أقدامهم ويمدون أعناقهم إلى الأمام. وراح العمال الواقفون في الخلف يتدافعون إلى الأمام، متسائلين عمَّا يوشك أن يحدث. ووقف رجال الشرطة القلائل يراقبون ما يحدث دون تدخُّل انتظارًا للتعزيزات. ضرب برونت بقبضته على الألواح الخشبية الرنانة من شدة الضربات، وكانت هذه الضربات المنتظمة هي الصوت الوحيد الذي كسر حاجز الصمت الذي انتهى بتكراره صيحته الجهورية: «افتحوا البوابات!»

هُرع البواب الذي كان يقف خلف البوابة الصغيرة يبحث عن سارتويل؛ خشية التعرض إلى هجوم، وقابل مديره يهبط الدرج.

قال البواب لاهثًا: «أخشى أنه سيحدث شغبٌ آخر يا سيدي.»

لم يُجِبه سارتويل، بل سار مسرعًا نحو البوابة الصغيرة، وفتحها، وخرج عبرها.

وقال: «ماذا تريد؟»

صاح برونت قائلًا: «نريد العودة إلى عملنا! افتحوا البوابات!»

مرّر سارتويل بصره سريعًا على العمال الذين وقفوا في أماكنهم مشدوهين، ووجوههم النحيلة وعيونهم الجائعة الشرسة متجهة نحو الحواجز المغلقة. وسرعان ما أدرك المدير أنه لم يعُد ثمّة وقتٌ لمناقشاتٍ أو اتفاقٍ على شروط. كان الموقف يتطلّب تحركًا حاسمًا وسريعًا. فالتفت نحو البواب المرتعب، وقال بنبرةٍ قاطعة:

«ارفع المزلاج!»

رغم الشكوك التي ساورَت الرجل بشأن حصافة مثل هذا الأمر في مواجهة هذا الحشد العدواني، فقد فضّل مواجهة الخطر المحتمل من الحشد على الغضب الذي سيصبّه عليه مديره قطعًا إن لم يُطِعه، وأسرع بتنفيذ الأمر. وانفتحت البوابتان الثقيلتان رويدًا رويدًا.

صاح برونت ملوحًا بذراعه الطويلة جاعلًا إياها على شكل منجل: «هلمّوا يا رجال! ذلك الرجل الذي يتلكّأ في الخلف، يا إلهي! سأكسر ظهره!» مضى أحد الرجال إلى الأمام متعثرًا كما لو أن أحدًا دفعه من الخلف، ثم بدا وكأن حبلًا خفيًا كان يشدّ الحشد إلى الخلف قد انقطع فجأة. واندفع العمال عبر البوابة المفتوحة بحركةٍ ثابتةٍ ومنتظمة. فصرخ جيبونز، ملوحًا بيدَيه كالمجنون:

«توقفوا! توقفوا! اسمعوني لحظة!»

ولكن لم يتوقف أحد، ولم يستمع له أحد. أما برونت، الذي شحب وجهه بشدة من فرط الغضب، فكان يمضي بصعوبةٍ في عكس اتجاه الحشد وهو يصيح:

«دعوني أنَلْ منه! سأخنق هذا الحقير!»

قال سارتويل بحدةٍ وقد شق صوته الجلبة الصادرة عن حركة الأحذية الطويلة: «برونت! دعه وشأنه وادخل. اجمع الرجال في الفناء. أريد أن أتحدّث إليهم.»

اختفَت النظرة الوحشية من فوق وجه برونت على الفور. واستدار ليسير مع العمال، ووصل إلى حيث يقف سارتويل ينظر متجهمًا إلى الحشد المتحرك. لم يُوجِّه أيٌّ من العمال بصره نحو المدير، ولكن حاول كلٌّ منهم بعنادٍ أن يتقدّم الصفوف مطأطئ الرأس، كما لو أنه اقترف ذنبًا يخجل منه. وقف برونت إلى جوار سارتويل وهمس في أذنه قائلًا:

«بحق السماء يا سيادة المدير، دعهم يتجهوا إلى العمل، ولا تتحدث إليهم. إنهم مهزومون، ولم يعُد هناك شيءٌ يُقال. ترفّق بهم؛ فقد سمعوا ما يكفي من الأحاديث.»

قال سارتويل بأسلوبٍ رقيق: «أتفق معك تمامًا. لا تخَف، ولكن اجمعهم. أنت من بدأت كل هذا. فقد سمعت صيحتك الأولى عند البوابات من مكتبي.»

مع مرور آخر العمال عبر البوابة، سمع سارتويل صوت برونت يصيح فيهم أن يتوقفوا. ظل بعض العمال بالخارج، وكان هؤلاء هم سكيمينس ورفاقه من أعضاء لجنة الإضراب، يستمعون متجهمين لاستنكار جيبونز الغاضب للانشقاق الجماعي للعمال. دخل مدير المصنع، وأمر البواب الحائر بأن يغلق البوابات.

وبينما كان سارتويل يسير بهمة نحو المصنع، رأى العمال ملتفين بعضهم حول بعض كالأغنام، وقد عصف بهم الخزي والغم، وعلى استعدادٍ واضح لتحمّل أي تأنيبٍ يرى مدير المصنع أنهم يستحقّون أن يُصَب على رءوسهم الصاغرة. كان برونت، الذي وقف شامخًا أمامهم، ينظر إليه في قلق، كما لو كان كلبًا ضخمًا لا يعلم كيف سيتصرّف القطيع الذي يحميه.

ارتقى سارتويل درجات السلم المؤدّي إلى باب مكتبه القديم، وبدأ يتحدّث.

قال: «أنا أعتبر هذا الإضراب انتهى يا رجال. وأريد أن أبدأ بعدل وإنصاف؛ لذا من كان منكم لا يرغب في العودة إلى عمله وفقًا لشروطي، فليتقدّم ويقُل لا.»

مرت فترة قصيرة من الصمت، لم يقطعه أيٌّ صوت. ولم يتقدّم أحد.

فواصل مدير المصنع حديثه قائلًا: «عظيم. لقد قُضي الأمر. كل رجلٍ منكم يعرف مكانه في هذه المباني؛ فليذهب إليه، ويظل فيه حتى صدور تعليماتٍ أخرى. لن يعمل أحدٌ اليوم؛ فثمة بعض الاستعدادات يجب إجراؤها قبل البدء. ستحضرون غدًا لتبدءوا عملكم في الموعد المعتاد، وبعد الانتهاء من تجهيزات العمل، سيحصل كلٌّ منكم على أجر نصف أسبوع مقدمًا من الصراف، وسأُصدر أوامر بذلك. كان ثمّة عددٌ من البرقيات كُتبت ليتم إرسالها يوم السبت، ولم يعُد من الضروري إرسالها الآن؛ لذا فسأنفق المال الذي ادّخرت لهذا الغرض على التبغ؛ سيحصل كل عاملٍ على حصةٍ من التبغ أثناء خروجه من البوابة الصغيرة. ولن تُفتح البوابات الكبيرة حتى صباح الغد.»

انطلقَت صيحة تهليلٍ خافتة عندما أنهى سارتويل حديثه، وهبط من على الدرج. ثم بدأ العمال يدخلون إلى المصنع تباعًا بخطًى بطيئة.

الفصل الحادي والعشرون

كان جيبونز يعرف أن مونكتون وهوب قد سافرا إلى أوروبا، قبل حتى أن يصرِّح مارستن بهذه المعلومة بأعلى صوته في وسط الشارع أمام العمال. كان يُدرك أن اللعبة انتهت، وكل ما كان يريده هو بعض الوقت للتراجع عن الإضراب، وأن يظهر، إن أمكن، بمظهر الرجل الذي تمكّن من تسوية الأمر. بمجرد أن علم جيبونز أن المالكَين الصوريّين للمصنع قد رحلا، حاول أن يفتح قناة اتصال مع سارتويل، وأرسل له خطاباً سريًا كتب فيه أنه بالأخذ في الاعتبار الحرمان الذي تعرض له العمال، والخسائر المادية الضخمة التي تكبّدتها الشركة، فإنه على استعداد لتنحية كل المشاعر الشخصية جانبًا، والتخلّي عن الشرط الذي كان يُصِر عليه في السابق فيما يتعلّق بعقد اجتماع بينه وبين مدير المصنع. وعبّر جيبونز عن استعدادِه للانسحاب من النزاع، وتشكيل لجنةٍ من العمال تُكلّف بمقابلة سارتويل للترتيب لإنهاء الإضراب، ولكنه طلب أن يعتبر هذا الخطاب سريًا.

أعاد سارتويل الخطاب إلى جيبونز، ربما بصورةٍ مهينةٍ لا داعيَ لها، قائلًا لحامل الرسالة باقتضابٍ أن لا رد لديه.

عادةً لا يكون من الحكمة إهانة خصمٍ مهزومٍ بلا مبرر، ولكن سارتويل لم يكن مطلعًا على فنون الكياسة السامية، وعندما كان يكره رجلًا، كان يكرهه من كل قلبه، ولم يكن يهتم بأي أعمالٍ انتقاميةٍ قد يلجأ عدوه إليها.

جزّ جيبونز على أسنانه في غضبٍ عاجزٍ عندما أُعيد إليه خطابه. فقد أدرك أن أيّ تنازلاتٍ يمكنه تقديمها لن ترضيَ سارتويل، وعليه، وبما أن

الإضراب قد فشل، قرّر أن يخرجَ بأكبر استفادةٍ ممكنةٍ من التراجع الذي بات محتومًا. اتفقت اللجنة على أن الصمود لم يعُد ممكنًا، على الرغم من رَفْضهم طلب مارستن بعقد اجتماعٍ بغرض التصويت. وتقرّر عقد اجتماعٍ على الفور وعدم الانتظار حتى المساء (على أمل أن يتمكّنوا بذلك من حرمان مارستن من أي فضلٍ قد يُستمدّ من الاستسلام)، وتنظيم مسيرةٍ من العمال من مبنى البلدية حتى المصنع، يتقدّمها أعضاء اللجنة عدا جيبونز، لحثّ مدير المصنع على فَتْح البوابات. وحينئذٍ يستطيع جيبونز أن يقول إنه من أنهى الإضراب، وليس مارستن، بل وقد يظهر في دور فاعل الخير الذي ضحّى بمشاعره الخاصّة في سبيل العمال.

ولكن لم يكن الحظ حليف جيبونز في ذلك اليوم. فعندما وصل إلى المصنع، وجد مارستن واقفًا هناك يخطب في رفاقه العمال، مناشدًا إياهم أن يستسلموا قبل أن يسبق السيف العذل، مؤكدًا لهم أن المبنيَين سيَمتلئان بالعمال يوم الإثنين، وحينئذٍ ستكون محاولات الدخول جميعها بلا جدوى. بدا جليًا أن الشاب كان غاضبًا بالفعل من التأثير المحدود لمناشداتِه على اللامبالاة الواضحة من قِبَل العمال، ولو لم يكن جيبونز يشعر بغضبٍ شديدٍ في هذه اللحظة؛ بسبب الرفض الذي تلقّاه من مدير المصنع، لربما استغلّ الموقف لصالحه. ولكنه لم يكن يملك ما يكفي من الوقت للتخطيط لأيّ مسارٍ جديدٍ للتحرك. فمنذ لحظة وصوله ومارستن يُطالبه بعقد اجتماعٍ على الفور بغرض التصويت. فطلب منه جيبونز أن يهتمّ بشئونه ولا يتدخّل، وقال إنه على موعدٍ مع مالكَي المصنع، وإن اجتماعًا سيُعقد للتفكير في ردّهما. حينها أدرك جيبونز أن خداعه غير مجدٍ وأن مارستن يعلم أن المالكَين قد فرا هاربَين.

وحينئذٍ دمّر ظهور برونت غير المتوقع، والنتائج التي ترتّبت عليه، جميع الخطط وأصبحت رمادًا تذروه الرياح.

أمّا برونت، فلو فكّر في الأمر مليًا (وهو ما لم يفعله)، لأدرك أنه قد أخذ بثأره في نهاية الإضراب على طرده المهين من قاعة الاجتماعات في بدايته.

انفرد جيبونز بأعضاء لجنة الإضراب للتشاور بشأن الوضع الجديد. ولكنه كان اجتماعاً كئيباً. فبينما كان العمال يخرجون الواحد تلو الآخر من البوابة الصغيرة، وكلٌ منهم يحمل أجر نصف أسبوع في جيبه وعلبةً من التبغ في يده، وقف سكيمينس وأحد أعضاء اللجنة الآخرين في الخارج معلنَين أنه قد تمّت الدعوة لعقد اجتماعٍ في تلك الليلة؛ للتباحث في أحداث اليوم بطريقةٍ ودية. ولكنّهم لم يتلقّوا رداً من أيٍّ من العمال؛ فقد هُرعوا جميعاً للحصول على بعض الطعام أو الشراب، ولم يذهب أيٌّ منهم في تلك الليلة إلى قاعة الخلاص. وفي صباح اليوم التالي، تقدّم سكيمينس وأعضاء اللجنة الآخرون بطلبٍ إلى سارتويل لإعادتهم إلى الخدمة، ومُنحوا وظائفهم القديمة. قدّم جيبونز استقالته من أمانة النقابة وقُبلت استقالته، الأمر الذي كان بمثابة الصاعقة بالنسبة إليه؛ فقد توقّع أن يُطلب منه البقاء في منصبه، مع احتمال التصويت على منحه شكراً رسميًا، في ظل علمهم بأن العمال قد وافقوا على الإضراب بالإجماع. ولكن سرعان ما أُلقي باللوم كله على كاهله في فشل الإضراب، ووجد نفسه فجأةً مطالباً بالبحث عن وظيفةٍ أخرى. واشتدّت المرارة التي يشعر بها نحو سارتويل؛ لتتحوّل إلى كراهيةٍ شديدة، وأهال اللعنات على رءوس العمال الذين كان منذ فترة وجيزة يوجّههم في أي اتجاهٍ متى أراد.

في صباح اليوم التالي للاستسلام، فُتحت بوابات المصنع على مصاريعها، وتصاعد الدخان الأسود كثيفاً من المداخن العالية. كانت الفتيات والنساء اللاتي يعملن في الطوابق العليا هن أول من وصل، وارتسم على وجوههن الشاحبة امتنان صامت، عندما رأين راية الدخان المتصاعد تُرفرف فوق رءوسهن مثل إشارة إنقاذ. لم يكن لهن رأيٌ في خوض الإضراب، كما لم

يكن لهن رأيٌ في إنهائه. ولم يكلّف أحدٌ نفسه خلال الإضراب أن يعرف إن كنّ ما زلن على قيد الحياة، أم مُتنَ عندما توقّف أجر الإضراب.

وقبل انقضاء اليوم، كان العمل يسير بسلاسةٍ وكأن شيئًا لم يحدث. في البداية، كان العمال يخشَون أن يفرِّق سارتويل في المعاملة بينهم، وأن يصبح بعضهم مستهدَفين بسبب ما بدر منهم يوم الشغب، ولكن سرعان ما تبيّن لهم عدم وجود أي تمييز بينهم.

وما إن هدأ رَوع العمال فيما يتعلق بتلك النقطة التي كانت تثير قلقهم، حتى استفاقوا من حالة الارتياح تلك على واقعة غير متوقعة. فقد فُصل مارستن. ففي اليوم الأول لصرف الرواتب، حصل الشاب على ما يستحق من أجر بالإضافة إلى راتب شهر كامل. وأخبره الصراف أن المصنع لم يعد بحاجة إلى خدماته. صُعق مارستن من وقع هذا الخبر المفاجئ حتى إنه لم يسأل عن السبب، بل انصرف حاملًا أمواله في يده. كان يعلم جيدًا السبب في طرده بهذه الطريقة المهينة، ولكنه شعر بأنه ليس من العدل أن يستخدم المدير سلطته ضده، في نزاعٍ شخصي بالدرجة الأولى، ومن دون أن يرتكب أي خطأ في عمله. عدّ مارستن النقود بطريقةٍ آليةٍ ثلاث أو أربع مرات، من دون أن تُوصِل عملية العد إلى عقله أي نتيجةٍ حاسمة تتعلّق بالمبلغ الذي تقاضاه. ولاحظ في النهاية أنه يبدو أن سارتويل قد أمر بمنحِه أربعة أضعاف مستحقاته القانونية مع إخطارٍ بالفصل. عاد مارستن إلى الصراف وقال:

«لقد أعطيتني أجرَ شهر؛ أنا لا أستحق إلا أجر أسبوع فقط.»

رد الصراف قائلًا: «من الأفضل أن تأخذَ ما مُنح لك. لقد أُمرت بأن أعطيَك أجر شهرٍ وأفصلك. هذه ليسَت نقودي، بل نقودك، ومن الحماقة أن تغادر دون أن تحصل على شيء.»

قال مارستن: «لن آخذ إلا أجري المستحق فقط. أعطِ المبلغَ المتبقّيَ إلى السيد سارتويل، وأخبره بأني لا أريد منه صدقة.»

قال الصراف: «لا شأن لي بذلك. أعتقد أنك تعرف المشكلة، أمّا أنا فلا أعرفها. وإذا كنت حكيمًا، فلن ترسل مثل هذه الرسالة إلى المدير، بل ستذهب للقائه بهدوء. لعل بضع كلمات توضّح السبب تسوي الأمر بينكما؛ على أي حال، لن يفيدَك الانفعال بشيءٍ في هذا الأمر. فليستَ هذه الطريقة المناسبة للعودة إلى العمل في المصنع.»

رد مارستن قائلًا: «أنا لست منفعلًا، ولن أعود إلى العمل في المصنع، لا، حتى وإن طلب مني سارتويل ذلك. أخبره بأني عندما أعود إلى هنا، سأعود مالكًا لهذه الشركة، وستكون سلطته قد انتهَت؛ أخبره بذلك.»

«أوه، حسنًا إذن. إذا كنت تظنّ أنك ستُخيف رجلًا مثل سارتويل بمثل هذا الحديث الرنان، فسيخيب ظنُّك.»

استدار مارستن، ووجد برونت واقفًا خارج البوابات.

قال برونت: «كنت أنتظرك يا فتى، واعتقدت أنك ربما خرجت مع المجموعة الأولى، ولكن أخبرَني البواب بأنك لم تفعل. تعالَ معي يا مارستن؛ فأنا أشعر بوحدةٍ شديدةٍ وبحاجةٍ إلى شخصٍ أتحدّث إليه. لا أعلم ماذا حل بي، ولكنّ ثمّة خطبًا ما. تراودني أفكار غريبة. وأسمع اللحن الجنائزي ليلًا ونهارًا، وأصبح يزداد كآبةً على كآبة حتى أصبحت أخشى سماعه. هلّا تسير معي يا فتى؟»

«نعم، يُسعدني ذلك. ألم تُحسِّن عودتك إلى العمل من الأمور؟ اعتقدت أن ذلك سيفيدك.»

«لقد ظَلِلت عاطلًا مدةً طويلة يا فتى. لم يعُد تأثير العمل كما كان من قبل. كنت معتاداً نسيان نفسي في العمل، أما الآن فأشعر وكأني في

حلم، وأظل أفكِّر وأفكر، وإذا ما تحدّث أحدٌ معي فجأة، أضطر إلى سَحْب نفسي من أفكاري البعيدة قبل أن أستطيع فَهْم ما يُقال، وطوال الوقت أسمع أصوات الماكينات وكأنها أنغام اللحن الجنائزي. وتخيّلت أكثر من مرةٍ أن لانجلي يجلس في الطرف البعيد من الغرفة يعزف، وتستجيب الماكينات جميعها لحركات أصابعه، رغم أني أعلم أنه لم يأتِ إلى المصنع من قبلُ قط. وقفت في مكاني مشدوهًا والناس ينظرون إليّ بتعجُّب. وعندما فركت عيني، اختفى لانجلي، ولكن الماكينات واصلَت العزف دون توقف.»

«عليك ألّا تفكّر كثيرًا في الماضي يا برونت. لن يمرّ وقتٌ طويل قبل أن يصبح كلُّ شيءٍ على خير ما يرام. كل ما يهمّ الآن أن تجتهد في عملك قدر ما تستطيع. لقد أصبحت رئيس عمال الصالة العلوية، أليس كذلك؟»

«بلى. كان سارتويل عطوفًا معي. آه! سارتويل رجلٌ بمعنى الكلمة. رجلٌ يلتزم بكلمته.»

«هذا صحيح.»

«ويدعم رجاله ما داموا داعمين له، كما يجدر بالرجل أن يفعل. هل قال أي شيء لك منذ انتهاء الإضراب؟»

«لا.»

«ما زلتَ شابًا، ولكن ستأتي فرصتك. ادعم سارتويل وسيدعمك. إنه يعرف كم حاولت إنهاء الإضراب، ولن ينسى لك هذا. وسأتحدّث معه عنك عندما تسنح الفرصة لذلك.»

«أرجو ألّا تفعل.»

«لماذا؟ لا ضير من ذلك.»

«ولا فائدة منه أيضًا.»

توقّف برونت عن السير ونظر إلى صديقه عن كثب. وقال: «ما خطبك يا فتى؟ تبدو محبطًا، وها أنا ذا أتحدث عن نفسي دون أن أُلاحظ حالك. ماذا بك؟»

«حسنًا، بما أنك ستعلم ما حدث إن عاجلًا أو آجلًا، ولا فائدة تُرجى من إخفاء الأمر، سارتويل فصلني من العمل.»

توقف برونت عن السير فجأةً والتفت نحو صديقه وصاح غير مصدق ما سمع: «لا!»

«نعم، لقد فعل.»

«يا إلهي، لمَ فعل ذلك؟»

«لم يُذكر السبب. لقد أعطاني الصراف راتب شهر كاملًا، وأخبرني بأني مفصول. ولكن أعدت له ثلاثة أرباع المبلغ لأني لا أستحق إلا أجر أسبوع. لن أقبل إحسانًا من سارتويل.»

«آه، يا فتى، أنت أحمق. لا ترد النقود أبدًا بعدما تُصبح بين يدَيك. إنك لم تضرّ إلا نفسك. ولكن كان من المرجح للغاية أن أتصرّف مثلما تصرفت أنت، ولكني أحمق، ولا يجدر بأحدٍ أن يتخذني قدوة. هل سألت سارتويل عن السبب؟»

«لم ألتقه، ولن أفعل.»

«أنت مخطئٌ مجددًا يا فتى. دعنا نَعُد أدراجنا الآن ونستوضح الأمر منه قبل أن يعود إلى منزله.»

«لا، لا، أنا أرفض لقاءه.»

«سأقابله أنا إذن. يجب ألّا يحدث إجراء مثل هذا. الفصل من العمل دون سبب! أبدًا! لقد أعدتُ العمال إلى العمل، ويمكنني أن أُخرجهم منه مجددًا. وسأترك العمل أنا أيضًا قبل أن أسمح بوقوع ظلمٍ كهذا عليك!»

«وما جدوى ذلك؟ العمال عاجزون، كما تعلم، كما أنهم لن يتركوا العمل، وحتى إذا فكّروا في فعل ذلك، فسأتوسّل إليهم بنفسي أن يبقَوا في أماكنهم. لا، أفضل تصرّفٍ الآن هو التزام الصمت، والاجتهاد في العمل، وملء الخزانة الفارغة، وتنظيم العمل، ليس محليًا، بل عالميًا، وتأكد عندما يأتي الإضراب القادم، لن نكون تحت قيادة أحمق على شاكلة جيبونز.»

«ولكن يا فتى، ألَا تريد أن تعرف سبب فصلك من العمل؟ إنه ظلم بيّن، ولكن لا بد أن ثمة سببًا له في عقل سارتويل. ربما قلت شيئًا أحمق نُقل له مُحرفًا، وأنا واثقٌ من أني قادر على إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح. لم أكن أظنّ أن سارتويل من نوعية الرجال الذين قد يستمعون لأي هراء يُلقى على مسامعهم، ولكن لا يمكن الجزم بذلك.»

«أنت محق تمامًا في اعتقادك بشأن سارتويل. إنه لن يلتفت لأي كلام يصل إلى مسامعه، بغض النظر عن طبيعة هذا الكلام. لا، إنه أعمق من ذلك. إنه يعرف آرائي فيما يتعلق بالتنظيم الصحيح للعمال، ولكن لن يؤثر ذلك في قراره على الإطلاق. ولا تعتقد أني لا أعرف سبب فصلي من العمل؛ لأنني أخبرتك أنهم لم يذكروا أسبابًا. أنا أعلم السبب، ولكن لا أبالي بالحديث عن هذا الموضوع، حتى معك أنت يا سيد برونت. كل ما أريد منك أن تفهمه أن تدخّلك لن يعود بأي نفع. أريد أن أنسحب في هدوءٍ دون أن أقول شيئًا. وتذكّر أنني من منطلق علمي بجميع الملابسات، لست واثقًا إلا من أمرٍ واحد؛ هو أنني لو كنت في مكانه، لفعلت مثلما فعل تمامًا. كما أني لن أتقدّم بشكوى بما حدث؛ فأنا لا أريد

أن يكون الأمر مثار حديث. الحقيقة الأهم التي عليك معرفتها هي أنني وسارتويل أصبحنا عدوّين، ولا يمكن أن يكون ثمة سلامٌ بيننا حتى يُهزَم أحدنا. وإذا تمكّنت من إقناع سارتويل بأن يطلب مني العودة، وأنت تعلم مدى صعوبة ذلك، فلن أعود. أظنّك تفهم الآن أن لقاء السيد سارتويل غير ذي نفع.»

«ولكن كيف ستعيش يا فتى؟»

ضحك مارستن.

وقال: «أوه، لن أجدَ صعوبةً في كسب قوتي. لا تخف. كما أني سأدعم النقابة، وآمل أن أتمكّن ذات يومٍ من أن أُريَ سارتويل كيف يجب أن يُدار إضراب.»

صاح برونت واضعًا يده على كتف صديقه: «أنت على المسار الصحيح إذا كانت هذه هي خطتك! لا أُومِن كثيرًا بالإضرابات، ولكني مؤمنٌ بك! سأجتمع بالعمال الليلة، وسنصوّت بالإجماع على تنصيبك أمينًا للنقابة. وسيكون هذا ردّنا على سارتويل. وحينئذٍ يا فتى يمكنك أن تجنيَ ما يكفي للعيش، وأن تُلملم شتات النقابة بالطريقة التي تناسبك.»

قال مارستن متحمسًا: «يعجبني ذلك.»

«وسيتحقّق. سيُقبل العمال على المشاركة عندما يعرفون بفصلك من العمل. فهم لا يزالون يشعرون بخيبة الأمل بسبب الهزيمة التي تلقّوها، كما لو لم يكن الخطأ برمته خطأهم؛ أما وقد تبدّد خوفهم الآن من ترصّد سارتويل لبعضهم، سيودّون لو أظهروا بعض الاستقلالية عبر انتخابك؛ ليثبتوا للمدير أنهم ليسوا خائفين منه، وهم كذلك بالفعل. وسيكون عليّ أن أُقنعهم بأن سارتويل لن يرد الصاع صاعَين أو يعتبر تنصيبك تحديًا له.»

«ولكنه قد يفعل.»

«ليس هو من يفعل ذلك. لقد ضاق بالإضراب شأنه شأن أيٍّ منا. لا. سيكتفي بهز كتفَيه دون قول شيء. أنا واثق من أن جيبونز لو كان لديه شيءٌ من الذكاء وذهب إلى مالكَي المصنع منذ البداية، لكسر شوكة سارتويل منذ ذلك الحين. وهذا ما كان سارتويل يخشاه، أنا واثق من هذا. وجاءَت ضربته القاضية بإقناع مونكتون وهوب بالسفر خارج البلاد. وزيارتك إلى هوب هي ما أدّت إلى ذلك. لقد أدرك سارتويل أنك وضعت يدك على نقطة ضعفه، وأراهن، لو عرفنا تفاصيل ما حدث، أن سارتويل قد هدّدهما بإغلاق الشركة بالكامل إذا لم يغادرا البلاد، ففعلا. آه! سارتويل رجلٌ يعرف جيداً كيف يقاتل.»

كانا قد وصلا إلى الساحة قبل قليل من وصول حديثهما إلى هذه النقطة، وجلس مارستن يتحدث إلى مضيِّفه في غرفته. كانت الغرفة خاليةً من الأثاث أكثر من المعتاد بالنسبة لمثل هذه الأماكن؛ فمن وقت لآخر، مع استمرار حصار المصنع، كانت محتوياتها تُرهن أو تُباع. والمساحة الخالية، حيث كان يوجد الأرغن المزماري القديم، جعلت الغرفة تبدو أكبر مما كانت عليه.

قال برونت متنهداً في حزن عندما لاحظ عينَي مارستن تنظران إلى البقعة الخالية: «نعم، كان آخر ما خسرناه قبل وفاة جيسي. لقد رهناه ظنّاً منا أننا سنستعيده مرةً أخرى، ولكني لن أستعيده أبداً. أنا سعيد أنه ليس موجوداً. فلا يمكنني تحمل النظر إليه. ولكن دعنا لا نتحدث عما مضى، بل عن الحاضر. أما زلت تعتقد أنك قادر على فعل شيء من أجل العمال عبر تنظيم صفوفهم؟»

«أنا واثق من ذلك.»

هزّ برونت رأسه.

وقال: «لن تستطيع يا فتى، ولكني سأبذل قصارى جهدي لأمنحك الفرصة لتجرب. انظر لِمَا حدث. لقد تركوا جيبونز يرحل دون كلمة شكر واحدة: ربما كان أحمق، ولكنه عمل بجدٍّ من أجلهم، ولم يكلّفوا أنفسهم عناء شكره على الأقل. وسيفعلون المثل معك. سيفعلون المثل مع أيِّ شخص.»

«الأمر برمته يعتمد على كيفية قيادتهم. عندما يقود العمالَ قائدٌ أحمق، سرعان ما يكتشفون حماقته ويفقدون الثقة به. فكّر فيما كان يمكن لرجل مثل نابليون تحقيقه لو كان قائد عمال بدلًا من الجنود، ووجّه مواهبه إلى تحسين أحوال رفاقه بدلًا من ذبحهم!»

«لم يكن نابليون ليتمكن من فعل شيء. بل لم يكن ليتمكن من فعل شيء مع الجنود لولا تلك السلطة التي لن تملكها أبدًا.»

«وما هي؟»

«سلطة أن تأمر رجلًا بالخروج من الصف لتُطلق عليه النار. إذا كنت أملك هذه السلطة، لقدتُ العمال بنفسي وحقّقت لهم أي شيء يريدونه. ستغض الحكومة الطرف عنك إذا ما تركت مائة رجلٍ يموتون جوعًا ولن تتدخّل أبدًا، ولكن إذا أطلقت النار ولو على أمثال جيبونز من الحمقى، فستُقيم الدنيا ولا تقعدها. ولكننا نظن أنفسنا متحضرين! أما أنا فأرى أننا همج.»

صاح مارستن وهو ينهض: «أوه، أنت مخطئ يا برونت! لقد تخطينا هذه المرحلة منذ أمد بعيد. إذا ما تمكنت من إعادة تنظيم النقابة، فسأُحاول محاربة سارتويل ذات يوم، وسأُسقطه دون إطلاق النار على أحد.»

«حسنًا يا فتى، سأبذل أقصى ما في وسعي من أجلك، وأتمنى لك التوفيق.»

وبالفعل، بذل برونت أقصى ما في وسعه، وفي الأسبوع التالي نُصِّب مارستن بالإجماع أمينًا للنقابة، بواسطة العمال الذين كانوا يرَونه خائنًا منذ بضعة أسابيع فقط.

الفصل الثاني والعشرون

لم يحاول مارستن التواصل مع سارتويل. وإذا كان مدير المصنع قد توقّع أن الشاب سيعرض عليه تسوية، فقد خاب ظنه، وعندما سمع أن مارستن قد انتُخب أمينًا للنقابة العمالية، ارتسمت على شفتيه ابتسامة واجمة، ولكنه لم يعلِّق. كان يدرك أن حربًا لا تُبقي ولا تذر ستنشب بينهما، ولطالما احترم سارتويل الخصم القوي. لم يتخذ سارتويل أي إجراء ضد النقابة، رغم أنه في ذلك الوقت كان قادرًا على إجبار خمسة وسبعين بالمائة من موظفيه على الانسحاب منها، لو أراد. وقد منحه مارستن ما يستحق من التقدير على عزوفه عن استخدام سلاح الإجبار ضد العمال؛ إذ كانت معرفته بسارتويل أقوى من أن يصدق أن الفكرة لم تراوده. ولكن لم يكن مدير المصنع يتمتع بروح السماحة المسيحية، كما كانت زوجته تخبره كثيرًا عن حق؛ فهو يظل يلاحق عدوه حتى يقضي عليه. لقد كاد جيبونز يجثو على ركبتَيه أمام سارتويل، راجيًا إياه أن يُعيِّنه في المصنع في الوظيفة التي طُرد منها مارستن. قال إنه يتضوّر جوعًا. فكان رد سارتويل أنه سعيدٌ بسماع ذلك، وأنه يأمل أن يكون جيبونز قد استشعر الآن معاناة العمال الذين ضلّلهم بكل غطرسة؛ وبهذا أهان جيبونز نفسه مرةً أخرى بلا طائل.

ولكن إنصافًا لسارتويل، لا بد من الاعتراف بأن السيطرة التي حاول فرضها على مارستن قد انسلّ زِمامها من بين أصابعه بطريقة لم يتوقعها على الإطلاق. فهو لم يكن يكره الشاب في حقيقة الأمر، بل على النقيض تمامًا، ولكن طموحاته لابنته الوحيدة كانت أكبر من رؤيتها تتزوّج أحد عمال مصنعه. كما أن واقعة عثوره على مارستن برفقة إدنا في الحديقة

أزعجته بدرجة لم يجرؤ على الاعتراف بها، حتى لنفسه. فإذا كان هذا الشاب المثابر قد تمكن من تركيز جهوده على علاقته بالفتاة التي يحب بهذا النجاح، وهو يوشك على الموت جوعًا في ظل فوضى الإضراب، فما الذي يمكن أن يحدث إذا ما استقرّت أوضاعه وأصبح يملك المال؟ كان سارتويل قادرًا على منع ابنته من رؤية مارستن، ولا شك أنها كانت ستطيعه، ولكنه لم يرغب في إثارة فضولها لمعرفة سبب هذا المنع، ولم يكن يمتلك الشجاعة لإخبارها بأن الشاب يتوق للحصول على إذنه للتقرب منها: فقد يثير ذلك بداخلها مشاعر نحوه، الأمر الذي سيأتي بنتائج كارثية على آمال والدها. لم يكن سارتويل يتوقع كثيرًا أن يستعطفه مارستن للتراجع عن قرار فصله من العمل، ولكنه كان يعلم أنه قبل أن يحصل الشاب على وظيفة أخرى، عليه أن يحيل أصحاب عمله الجدد إلى مديره القديم، وعندما يحدث هذا، أو إذا ما تحرك مارستن من تلقاء نفسه، كان سارتويل متأهبًا لإملاء شروطه عليه. وإذا ما وعده مارستن بألّا يلتقي ابنته لعامَين، فسوف يعيده المدير إلى العمل، أو يساعده في الحصول على وظيفةٍ أخرى.

انهارت كل هذه الخطط تمامًا عندما انتخب العمال مارستن أمينًا لنقابتهم على غير المتوقّع. فلم يفكّر المدير في هذا الاحتمال، ولكنه واجه الوضع الجديد دون أن يندب حظه.

رأى مارستن أن فصله كان متعسفًا وظالمًا، ولكنه شعر بأنه حرّره من أي اعتبارات تجاه سارتويل. وأصبح الآن عازمًا على أن يلتقي الفتاة كلما وأينما استطاع؛ لذا توجه إلى ويمبلدون حاملًا في صدره هذا العزم القوي، وقدّم نفسه بجرأة عند مدخل المنزل الأمامي، وطلب لقاء الآنسة سارتويل. كان يعلم أن والدها لم يجرؤ على إخبارها بحقيقة الوضع، وحتى إذا وصلت الأمور إلى ذلك، فقد حصل بالفعل على إذن بزيارة المنزل في حضور إدنا، الإذن الذي ربما لم يتراجع والدها عنه عندما

تركهما مارستن في الحديقة معًا وانصرف؛ إذ كان التراجع سيتطلب تفسيرات وتبريرات لم يكن سارتويل يرى أن من الحكمة تقديمها. لذا قرّر الشاب أن يلتقي الفتاة ويخبرها صراحةً بسبب حضوره ويناقش قضيته معها. حتى وإن رفضت الاستماع له، فسيكون على الأقل قد دفعها إلى التفكير فيه، وهذا في حد ذاته كان أمرًا يستحق المجازفة.

عندما فتحت الخادمة الباب، تعرّفت مارستن بأنه الشاب الذي حضر في وقت سابق ولم يكن يدري ماذا يريد، فقالت له على الفور: «السيد سارتويل ليس موجودًا.»

«أريد مقابلة الآنسة سارتويل.»

«الآنسة سارتويل ليست موجودةً أيضًا.»

«هل ستعود قريبًا؟»

«لا أعلم. لقد سافرت الآنسة إدنا.»

ردّد مارستن كلمتها قائلًا: «سافرت؟» وبدا عليه القلق بسبب هذه العقبة غير المتوقعة التي اعترضت طريقه.

رأت الخادمة نفسها أمام حالة أخرى من الارتباك والتردد؛ فجاءت استجابتها للموقف سريعةً بأن استدعت السيدة سارتويل التي كانت في غرفة الطعام، وبعد أن أوصلت الشاب المُحرَج إلى سيدتها، أغلقت الباب وعادت لمزاولة عملها الأهم الذي قاطعته طرقات مارستن على الباب.

بدأت السيدة سارتويل حديثها قائلةً ببرود شديد: «هل أردت مقابلة الآنسة سارتويل؟ لماذا؟»

لم تكن الإجابة عن هذا السؤال هينة، خاصةً عندما يُطرح من قِبل شخص لا تعرفه تمامًا.

تلعثم الشاب الذي كان في حالة من الانزعاج الشديد: «حسنًا، لا يمكنني أن أخبركِ يا سيدة سارتويل. إنه أمرٌ شخصيٌّ تمامًا. أردت التحدث إلى الآنسة سارتويل قليلًا؛ هذا كل ما في الأمر.»

جلست السيدة في استقامة وقد ارتسمت ملامح الجدية الشديدة على محياها. كان في الأمر لغز قرّرت أن تحله قبل أن تسمح لهذا الشاب التعيس الحظ بالمغادرة. وسرعان ما استنتج مارستن أن المرأة الجالسة أمامه عدو لدود، ربما يجدر به أن يخشاها أكثر من سارتويل نفسه. وكان كل سؤالٍ يُطرح عليه يزيد الأوضاع تعقيدًا بالنسبة إليه أكثر وأكثر.

«أظن أنك عشيقها، أليس كذلك؟»

«نعم. هذا ... لا يمكنني تفسير الأمر حقًا يا سيدة سارتويل.»

«حسنًا إذن؛ سأسأل زوجي عند عودته الليلة. إنه لا يعرف شيئًا عن هذا الأمر، أليس كذلك؟»

«بلى، لا يعرف.»

«هل يعرف أنك هنا؟»

«إنه لا يعرف أني هنا اليوم. ولكنّه يعرف أني أحب ابنته.»

«أعتقد أنك قلت إنك لست عشيقها. أيها الشاب، أيًا كان ما تفعله، فقل الحقيقة. إن كل مشاكلنا الحياتية تنبع من نبذ الحق والإفراط في الغرور. فتجنب الغرور، وتجنب الإفك. ماذا كنت تعني عندما قلت لي الآن إنك لست عشيق الآنسة سارتويل؟ أرجو منك أن تقول الحقيقة.»

«أحاول أن أفعل، ولكن، كما ترين، من الصعب التحدث عن هذا الأمر مع طرف ثالث، و...»

«أنا لست طرفًا ثالثًا. أنا زوجة أبيها، ومسئولة أمام قوة عليا عما أفعله بخصوص إدنا. يجب أن أعرف كل شيء، وحينئذٍ ثق في الضوء الإلهي المرشد الذي ستغدق به السماء علينا. نحن معرّضون دائمًا للخطأ عندما نعتمد على جهودنا الهزيلة. هل تعرف إدنا سارتويل أنك تحبها؟»

«لا.»

«وهل يعرف والدها؟»

«نعم. لقد أخبرته.»

«إني لأتساءل إذن عما إذا كان منعك من رؤيتها.»

«لقد فعل.»

«هل أنت أحد عماله؟»

«نعم. كنت واحدًا منهم على الأقل.»

«ولم تعد كذلك الآن؟»

«نعم.»

«هل فصلك من عملك؟»

«لقد فُصلت من عملي.»

تلاشت النظرة الصارمة من وجه السيدة سارتويل. وأخذت نفسًا عميقًا — انطلقت معه آهة طويلة تخلّلها ما يمكن اعتباره رعشة ارتياح عميق — وللمرة الأولى منذ بداية اللقاء، اتكأت في مقعدها في راحة.

وأخيرًا قالت وهي ترمق مارستن بنظرة شفقة: «أيها المسكين! هل تقصد إذن أن تقول إنك على استعداد للمخاطرة بمستقبلك بأكمله، من أجل فتاة لم تتحدث إليها قط؟»

«أوه، لقد تحدثت إليها يا سيدة سارتويل. قلت إني لم أتحدث قط عن ... إنها لا تعرف أني أُكنُّ لها أي مشاعر.»

«ولكنك لا تعرف أي شيء قط عن طباعها ... عن مزاجها.»

«سأقبل بهذه المخاطرة.»

هزّت السيدة سارتويل رأسها في أسف.

وقالت: «أنت خير تجسيد لروح هذا العصر الذي يستهين بكل ما هو مهم! الناس يخاطرون بكل شيء. لا شيء أهم للرجل من اختيار زوجة رصينة وتقية؛ فتعاسة الإنسان في الحياة أو سعادته تقوم على هذا الاختيار. إن واجب المرأة الأسمى هو أن تُضفي الضياء والراحة والسعادة على بيت زوجها، أو هكذا يبدو الأمر في رأيي المتواضع عن الزواج. هل تعتقد أن إدنا سارتويل مناسبة، من حيث الطباع أو التعليم، لأداء هذه المهمة النبيلة؟»

«سوف أشعر معها بالسعادة، إذا كان هذا ما تعنين.»

«ما أقل معرفتك بها! ولكنك تعرف والدها، وهي تشبهه كثيراً. ولا شك في أنه لن يسمح لك بالزواج منها، إذا تمكن من منع هذه الزيجة. أنت عامل، وهو لا يحمل ذرةً من الاعتبار أو التعاطف تجاه تلك الطبقة التي جاء منها. إن لديه طموحاتٍ أكبر من أجل ابنته، لطالما رأيت ذلك. وهو لا يهتم إلا بالتفاخر، ثم التفاخر، ثم التفاخر! أوه، سيلقى هذا التفاخر ضربةً قاضية ذات يوم، وربما كنت أنت أيها الفتى المسكين، يا من تتحدث عن المخاطرة، الأداة المتواضعة التي اختارتها العناية الإلهية لقهر هذا التفاخر، الذي لا يمكن لأحدٍ منا أن يدخل مملكة السماء من دونه! أصبحت أفهم كل شيء الآن. فهمت سبب إرساله إدنا إلى مدرسة في إيستبورن، رغم أنه قال إن السبب يرجع إلى أني لست على وفاق معها.

حقًا لا كثير نفعٍ من المراوغة! وكما تدين تُدان! خلال لقائنا هذا الذي يبدو مصادفة، أرى أنك تقول الحقيقة. ولكن»، ثم استطردت السيدة سارتويل في تأمل، وبدت كما لو أنها تتحدث إلى نفسها أكثر ممّا تتحدث إلى مستمعها: «لا شك أنه إذا ما تمكّنت من إيقاع إدنا في حبك، فإنها ستتزوّجك رغم أنف والدها أو أي أحد آخر. لطالما حذّرتُ والدها من أن مثل هذه اللحظة ستحين، ولكن للأسف! لا أحد يستمع إليّ في هذا المنزل، وها قد جاءت اللحظة أسرع مما توقعت. ظَللت لبضعة أسابيع أتساءل عما يدور في ذهن إدنا. ظننت أنها ربما تفكر في برنارد هوب، ولكني أدركت الآن أني كنت مخطئة. لا، من المرجح جدًا أنها كانت تفكر بك أنت، وعندما اكتشف والدها ذلك، أرسلها إلى مدرسة هاي كليف في إيستبورن، ربما على أمل أنك لن تتمكن من زيارتها هناك. إنها فتاة متمردة، وعنيدة، ومتهورة، ومن الصعب السيطرة عليها. وتعتقد أن والدها مثال للكمال؛ ومن ثم يمكنك أن ترى جليًا مدى سوء تقديرها للأمور. نعم، لا ينبغي أن أتفاجأ تمامًا إذا ما عرضَت عليك أن تهرب معك عندما تصرّح لها بحبك. لن يفاجئني أبدًا أيٌ شيءٍ تقوله إدنا سارتويل أو تفعله.»

في هذه اللحظة، وعلى حين غرةٍ نهض مارستن، الذي كان مستاءً للغاية من اضطراره لسماع هذا العرض لشخصية الفتاة، وقال إنه لا بد أن ينصرف؛ قائلًا إنه قد أخذ الكثير من وقت السيدة سارتويل.

ردّت عليه المرأة الطيبة، وهي تنهض أيضًا، قائلة: «لقد وُهبنا وقتنا لنستغلّه على الوجه الأمثل، وإذا تذكرنا أننا سنُحاسب على كل لحظةٍ أُعطيَت لنا، فلن نعتبر أن الوقت الذي نقضيه فيما فيه الخير والسعادة للآخرين، وقتٌ مهدر. أنا على يقينٍ تامٍّ من أن ما قلته لك سيستقرٌ عميقًا في ذهنك، وأنه سيفيدك كثيرًا.»

«لن أتوانى عن الاستفادة منه.»

«أرجو أن تتفهّم سبب عزوفي عن إعطائك أيّ معلوماتٍ عن الآنسة سارتويل، أو ترتيب لقاءٍ بينكما. فهذا لن يكون صوابًا. حتى إذا كانت موجودةً في المنزل، لم يكن بوسعي أن أسمح لك برؤيتها؛ لأني أعلم أنك حضرت من دون إذنٍ من والدها. آمل أنك لا تراني امرأةً متعنتةً بقولي هذا.»

«أوه، إطلاقًا.»

«وأيًا كان ما سيترتب على حبك لها، فهل ستُنصفني وتتذكر أن كلماتي الأخيرة لك كانت لحثّك على إفراغ ذهنك من التفكير فيها؟»

قال مارستن: «سأتذكّر ذلك.»

«وإذا ما حاولت مقابلتها، فاعلم أنك تفعل ذلك ضاربًا برغبتي وأمري عرض الحائط.»

«ثقي بأنكِ لن تُلامي على أي شيء يحدث يا سيدة سارتويل.»

قالت المرأة الصبور وهي تهز رأسها في أسف: «آه، كم أتمنى لو وثقت في ذلك! ولكن إلقاء اللوم أمر سهل، ويزيح المسئولية من فوق كواهل أناسٍ أكثر قدرةً على تحملها بلا شك، وربما أكثر استحقاقًا. بالأمس حضر السيد برنارد هوب إلى هنا، وفُوجئ برحيل إدنا. أخبرني بأنه أتى لزيارتي، ولكنه لم يتمكّن من منع نفسه من ملاحظة كم السكون والهدوء اللذين يعمّان المنزل. وعندما سألني عن إدنا، أجبته بمثل ما أجبتك. إن والدها هو الشخص المناسب للإجابة عن هذا السؤال. ولكن السيد هوب هو ابن أعز صديقاتي، وهي امرأةٌ نبيلةٌ تغدق بصدقاتها على القاصي والداني. حسنًا، إلى اللقاء، وأعتذر لعدم قدرتي على مساعدتك،

ولكني سأتذكرك في صلواتي، وثِقْ بأن الرب سيرشدك إلى الطريق القويم.»

«شكراً لكِ يا سيدة سارتويل، وإلى اللقاء.»

وبينما كان الشاب مارستن ينصرف، ظل يردد في نفسه: «مدرسة هاي كليف في إيستبورن»، وعندما ابتعد مسافةً كافية عن المنزل، كتب اسم المدرسة على قطعة من الورق.

الفصل الثالث والعشرون

عندما وصل مارستن إلى محطة القطار، كان أول ما ندم عليه أنه لم يأخذ كل المال الذي عُرض عليه يوم فصله من العمل. فلم يكن يدري أن مغامرته ستقوده إلى الذهاب إلى منتجع أنيق ومُكلِّف يُطل على البحر. كانت الحكمة تقتضي أن يؤجل زيارته إلى إيستبورن حتى يتوافر معه المزيد من المال، ولكنه قال لنفسه إنه إذا لم يذهب على الفور، فسوف يعرف سارتويل حتمًا بأمر زيارته إلى ويمبلدون من زوجته، وقد تزداد العقبات أمامه لمقابلة إدنا في إيستبورن. وبالفعل لم يكن يعلم كيف سيجري اللقاء الذي يتمناه؛ فلا شك أن سارتويل عند إرسال ابنته إلى المدرسة الداخلية، قد منح المرأة التي أُوكِلَت لها رعاية إدنا لمحةً عن غرضه الحقيقي من إرسالها إلى هناك. ترجّل مارستن من العربة المتجهة إلى الجنوب الغربي عند محطة كلابيم جانكشن، ووجد أنه سيُضطر إلى انتظار نصف ساعةٍ حتى يصل قطار إيستبورن. وابتسم عندما تذكر الرعاية والاهتمام اللذَين كان يوليهما إلى النقابة، بعدما أكّد مرارًا وتكرارًا أنه على استعدادٍ لأن يكرِّس حياته للعمل. وكان من الرائع أن كل ما تحتاج إليه النقابة في الوقت الحالي هو أن تُترك وشأنها.

عندما وصل إلى إيستبورن، بدأ يبحث على الفور عن مدرسة هاي كليف، معتقدًا أنه من الأفضل استكشاف موقع المدرسة، على أمل أن توحي له رؤيتها بخطةٍ عمليةٍ يمكنه تنفيذها. كان ثمة أمرٌ واحدٌ يصب في صالحه؛ هو أن سارتويل لم يكن ليجرؤ على تحذير ابنته من مقابلته؛ خوفًا من إثارة فضولها أو شكوكها. وإذا ما تمكّن من لقاء إدنا ولو لحظات بمفردها، فهو واثقٌ من أنه سيستطيع تدبير لقاء آخر معها. وجد

أن مدرسة هاي كليف عبارة عن منزلٍ كبيرٍ يقع وسط أرضٍ شاسعةٍ ويُطل على البحر، ولكنه كان محاطًا بسورٍ يبدو رادعًا أكثر من السور المغطّى أعلاه بالزجاج المكسور في ويمبلدون.

أدرك مارستن أن لقاءه بحبيبته سيكون أصعب ممّا تخيل في البداية. وفكّر للحظةٍ أن يتقدّم بجرأةٍ عبر مدخل المدرسة الأمامي، ويطلب إذنًا بلقاء الطالبة الصغيرة، ولكنه سرعان ما تخلّى عن هذه الخطة كونها غير عملية. فقد كان على يقينٍ من أن رجلًا في دهاء سارتويل أكثر فطنةً من أن يترك الحبل على الغارب، للسماح لأول شخصٍ يطلب مقابلة ابنته بأن يفعل، حتى إن كانَت القواعد العادية للمدرسة تسمح بذلك، وهو أمرٌ مستبعدٌ تمامًا. وأدرك أن المكان لا يمكن اختراقه عبر الهجوم المباشر، بل عبر الحصار البطيء المتأني، فذهب للتجوّل على الشاطئ وجلس على الحصى موليًا جل تفكيره، وسط صوت الأمواج المريح، لإيجاد حلٍّ لهذه المشكلة.

إذا كان ثمة رجلٌ يطمح إلى تحرير العمال، وتغيير شكل العلاقة بين الرأسماليين والعمال بالكامل، ولا يتمكّن من التوصّل إلى فكرةٍ تمكّنه من قضاء نصف ساعةٍ مع فتاةٍ صغيرةٍ ليسَت محبوسةً في سجن أو دَيْر، بل مجرد طالبة في إحدى المدارس الإنجليزية العادية؛ فإن احتمالية حلّه للمعضلة الأكثر تعقيدًا ستكون بعيدةً ومحل شك. وهكذا ربط المعضلتَين معًا، وقال في نفسه إن نجاحه في إحداهما سيدل على قدرته على النجاح في الأخرى. كان أول شيءٍ عليه فعله هو تأمين مسكنٍ رخيص، إن كان لمسكنٍ بهذه المواصفات أن يتوافرَ في هذا المنتجع الأنيق، وبذلك يتمكّن من توفير المال والترقّب حتى تحين الفرصة المناسبة؛ إذ كان مقتنعًا بأن الطريقة الوحيدة للإسراع بتحقيق غايته هي التأني. كان في موقفٍ من شأن التسرّع غير الضروري فيه أن يؤدّيَ إلى استحالة تحقيق نصرٍ مبين. كان يعلم أن الطالبات سوف يخرجْنَ في وقتٍ

ما خلال النهار للتنزّه، ولكنهن سيكن بلا شكٍّ في حراسة معلماتٍ يقظات. وربما يمكن أن يمرّ بهذا الموكب المثير، وفي الأثناء يدس رسالةً في يد إدنا، ولكن عندما فكّر مارستن في هذه الخطة، تخلّى عنها لكونها غير عملية؛ إذ ستكون دهشة إدنا من هذا التصرف غير المفهوم من قِبَله أشدّ من أن تمتلك معه الحضور الذهني اللازم لإخفاء الرسالة بالسرعة الكافية؛ لكيلا يكتشف أمرها. وغادر مارستن الشاطئ دون أن يتوقّف عن التفكير في المشكلة، وأثمر بحثه في الجزء من المدينة البعيد عن البحر عن مسكنٍ يناسب متطلباته وميزانيته. وبعدما أتم هذه الخطوة، ذهب للتنزه على الممشى المواجه للبحر، وهو لا يزال يولي تلك المشكلة العويصة جل تركيزه.

وفجأة، تلقّى ضربةً قوية على ظهره كادت تُسقطه على وجهه. وبعدما تمالك نفسه، تلفّت حوله لاهثًا في انزعاج وغضب؛ ليرى أمامه بارني هوب بجسده الضخم ووجهه الباسم مادًا يده التي ضربته على ظهره في ود.

صاح بارني مطلقًا ضحكةً مجلجلة ساخرًا من نظرة مارستن الغاضبة الممتعضة: «مرحبًا يا صديقي العزيز! ماذا تفعل هنا؟ هل أنهكك الإضراب لدرجة دفعتك للمجيء لاستنشاق نسيم البحر لتتعافى؟»

«لم يُنهكني الإضراب مثلما فعلَت الضربة التي تلقيتها منك للتو.»

ألقى بارني رأسه إلى الخلف وضحك بصوت عالٍ، ثم شبّك ذراعه في ذراع مارستن بودٍّ جم، وقال:

«أعلم أن يدي ليست خفيفة، كما يقول كل أصدقائي، وقد أوقعتني في مشكلة من قبل. اضطُررت ذات مرة إلى ضرب أحدهم في باريس، لمجرد أني لم أتمكن من إقناعه بأن الربتة الخفيفة التي تلقاها مني كانت بغرض المزاح. وأقرّ بعد ذلك بأن ثمة اختلافًا، وأنه يفضّل أن

يتلقّى راحتي المفتوحة على ظهره بدلًا من قبضتي المضمومة في وجهه، ولكن ماذا يمكن أن تتوقع؟ فالفرنسيون لا يملكون حسًا دعابيًا، كما أنهم لا يجيدون اللكم. عليهم، بوصفهم أمة، إما أن يتعلموا كيف يتقبلون المزاح، أو أن يتعلموا كيفية استخدام قبضاتهم إذا كانوا سيأخذون الأمور على محمل الجد. ولكن صفعتي على الظهر لا تُقارن بمصافحتي عندما أشعر بالود تجاه شخص ما. دعنا نرَ، هل صافحتك بهذه الطريقة؟»

قال مارستن بلهفة جعلت بارني يضحك مرةً أخرى: «نعم، شكرًا لك.»

«أنا سعيد بلقائك غير المتوقع هذا. اسمك لانجتون، على ما أتذكر، أليس كذلك؟»

«اسمي مارستن.»

«أوه، نعم، بالطبع. أنا أغبى رعايا المملكة في تذكر الأسماء، وأعلم أنه ذنب لا يُغتفر. فالناس يشعرون بالإهانة، على ما يبدو، إذا لم تستطع أن تتذكر أسماءهم. ولا أعلم سبب ذلك. فأنا لا يهمني على الإطلاق الاسم الذي تدعوني به ما دمت لم تقُل إني لست رساماً. فحينئذٍ سأكون على استعدادٍ للقتال. فالرجل الذي لا يقاتل من أجل فنّه لا يستحق أن يكون فنانًا. وبمناسبة الحديث عن الفن، أتذكّر الآن أن لانجتون هو الرجل الذي أرسلته إليّ، والذي يعزف على البيانو ببراعةٍ تضاهي روبينوف، ذلك العازف الروسي. حسنًا، أنا سعيد للغاية بمقابلتك، كنت أتمنى للتو أن ألتقي أي شخص أعرفه. كنت متلهفًا للتحدث إلى شخص ما. إن إيستبورن مدينة مملة للغاية، كما تعلم.»

«لم آتِ إلى هنا من قبلُ قط. وهي تبدو لي مكانًا جميلًا للغاية.»

«نعم، تبدو كذلك للوهلة الأولى، ولكن انتظر حتى يمر عليك هنا يومٌ أو اثنان. إنها مكان وقور بصورةٍ مبالغ فيها! وهذا ما أكرهه فيها. فالوقار سيئ بطبيعته بما يكفي، ولكن يبدو أن نسيم البحر يُفاقم تأثيره. لا يمكنني أن أعرف السبب، ولكن هكذا هو الحال؛ ومن ثم يتحوّل الوقار الذي يُمكنك تحمّله في لندن إلى وقارٍ لا يُحتمل بالقرب من البحر. ألم تُلاحظ ذلك؟ كما أن هذا الوقار قائم على أساس هش؛ فأجرة قطار الدرجة الثالثة إلى برايتون تكلّف أربعة شلنات وبنسين ونصفًا، بينما الأجرة إلى إيستبورن تكلّف أربعة شلنات وأحد عشر بنسًا، ما يعني أن كل هذه العجرفة قائمةٌ على أساسٍ هزيلٍ لا يتجاوز ثمانية بنسات ونصفًا. هل فهمت ما أعنيه؟ لن أقايض أسبوعًا في برايتون مقابل يومٍ في إيستبورن، على الرغم من كراهيتي لأن أجبر على الذهاب إلى أيٍّ منهما. لندن هي المدينة الوحيدة التي تناسب ذوقي، كما تعلم.»

«لماذا جئت إلى إيستبورن إذن؟»

«آه، ها أنت ذا قد وصلت إلى مربط الفرس، لقد وصلت إلى لب الموضوع. لماذا جئت بالفعل؟ ألَا يمكنك أن تخمّن؟ يمكنني أن أخمن سبب وجودك هنا في الحال دون تفكير.»

سأله مارستن: «لماذا؟» وكان منزعجًا بعض الشيء.

«أوه، الأمر بكل بساطةٍ أن طبيبًا أحمق لا يفقه شيئًا في الطب أرسلك إلى هنا. أنت هنا من أجل الهواء العليل يا فتى: إنك لم تأتِ من أجل الاجتماعيات، فلا بد أنك أتيت من أجل الهواء؛ فذاك هو الشيء الوحيد خلاف الاجتماعيات الذي تمتلكه إيستبورن. لقد أخبرَك الطبيب بأنّك ستتعافى في غضون أسبوع، وستفعل، إذا ما تمكنت من الاحتفاظ برشدك طوال هذه المدة. كنت سأجنّ، رغم أني عاقل كما ترى، لو أُجبرت على العيش في هذا المكان أسبوعَين، كنت سأجنّ، وأقسم على ذلك بشرفي! لا،

إنك لم تلتقني في إيستبورن من أجل الهواء العليل أو التفاعل الاجتماعي، ولكني أتيت من أجل الاجتماعيات أيضًا، بصورةٍ ما، إلا أن الأمر لم ينجح؛ وها أنا ذا عالقٌ هنا مع سائق عربة وسائس خيل، بخلاف خادم خاص، وحصانَين، وواحدة من أفضل العربات التي غادرت لندن على الإطلاق. هذا ركبي هناك. دائمًا ما أقود عربةً بحصانَين بالطبع؛ فهي الطريقة الوحيدة الصحيحة لقيادة العربات. لا أقصد بذلك أنني لا أهتم بأسلوب القيادة — آمل أني تخطّيت كل هذه الأمور — وليسَت مسئوليتي أن كثيرين آخرين يفعلون المثل؛ فأنا أحبُّ العربات ذات الحصانَين لذاتها. هل قدت عربةً ذات حصانَين من قبل؟»

قال مارستن: «لا، على الإطلاق»، قالها وهو ينظر إلى عربة بارني الجميلة التي كان يقودها ببطءٍ جيئةً وذهابًا على طول الطريق رجلٌ يرتدي حلةً أنيقة. كان قد رأى العربة من قبل، ولكنه في تلك اللحظة كان يرمقها باهتمامٍ جديدٍ بعدما أعلن بارني بتواضعٍ أنه مالكها.

«إن قيادتها ليست سهلةً مثلما تبدو. فلا يمكن لأي أحمق أن يقود عربةً ذات حصانَين، على الرغم ممّا يُقال عن كوني أحد أوائل سائقي العربات ذات الحصانَين في لندن. أنا لا أدّعي ذلك بالطبع، ولكن ثمّة مَن يدّعون ذلك، وقد نصّبوا أنفسهم قضاةً أيضًا. ولكن لا متعة في القيادة بمفردك؛ فلكي تستمتع بقيادة عربةٍ ذات حصانَين، تحتاج إلى فتاةٍ جميلةٍ تجلس بجوارك.»

«ألَا يوجد فتيات جميلات في إيستبورن؟»

«يوجد يا صديقي، وهذا تحديدًا ما أريد التحدُّث إليك بشأنه. دعنا نجلس هنا تحت هذه الظُّلة لأني أريدك أن تولِيني كامل انتباهك. لقد أسديتك معروفًا ذات يوم، على الرغم من أنه كان لشخص آخر، أليس كذلك؟»

«بلى. لقد أسديتني معروفَين على الأقل.»

«حسنًا، لا بأس. وربما سأسديك في المستقبل معروفًا ثالثًا أو رابعًا، مَن يدري؟ وأذكر هذا المعروف لأنني سأطلب منك معروفًا كبيرًا الآن. وهذا ما جعلني سعيدًا للغاية برؤيتك بالطبع إلى جانب سعادتي بالحديث معك مرةً أخرى في هذه المدينة الكئيبة. كنت أفكّر في الأمر الآن وأتساءل عمن يمكنه مساعدتي، وعندما رفعت بصري لأعلى، وجدتك أمامي. دائمًا ما تساعدني العناية الإلهية عندما أقع في مأزق، دائمًا. ولطالما علمت أنها لن تخذلني، رغم أني لست بالرجل الذي يمكن أن تصفه بالتقي. أعتقد أنك لم تأتِ إلى هنا لشيءٍ بعينه، أليس كذلك؟»

«لا شيء سوى المتعة.»

«قُضيَ الأمر إذن. وبما أنه لا توجد أيٌّ متعةٍ هنا، فلربما يمكنك أن تحوّل مسارك وتساعدني، ستكون مزحةً رائعة. أنا بحاجةٍ إلى رجلٍ ذكي ولا أعتقد أني قد أعثر عليه في إيستبورن؛ فلو كان ذكيًّا لما بقي فيها. كما أنه يجب ألّا يكون رجلًا معروفًا في البلدة، هل تفهم ما أقول؟ كذلك يجب أن يكون ملمًّا بالطبقات العاملة وطرائقهم وعاداتهم، وكما ترى يا صديقي، لقد أرسلَت لي العناية الإلهية الرجل الذي أحتاج إليه تمامًا. عدني أنك ستساعدني.»

«سأفعل إن استطعت.»

«ستفعل! أنت الشخص الذي يستطيع مساعدتي، ولا يمكن لأي شخص آخر أن يفعل لي ما أريده بنصف كفاءتك. قبل كل شيء، هل رأيت ابنة سارتويل من قبل؟ إن لديه ابنةً واحدةً فقط.»

«رأيتُها من قبل؟»

«نعم. كانَت من بين الحضور في حفل الاستقبال في مرسمي يوم أتيت إلى هناك. لا أظن أنك قد لاحظتها وسط هذا الحشد من الحاضرين، ولكنها كانت أجملَ فتاةٍ في الغرفة بكل المقاييس.»

«نعم، رأيت الآنسة سارتويل من قبل. كانت معتادةً زيارةَ والدها في مكتبه على نحوٍ دائم.»

«هذا أيضًا جيد! هذا هو المؤهل الرابع المطلوب في الشخص الذي سيُساعدني؛ ومن ثم أصبحت تدرك أنك الرجل المناسب تمامًا لأداء المهمة. تصادف أن هذه الفتاة الساحرة في إحدى المدارس في إيستبورن، وهذا هو باختصارٍ سبب حضوري إلى هنا. أريد أن أبعث رسالةً إلى الآنسة سارتويل في المدرسة، وأريد منك أن تتولّى تسليمها إليها.»

«أوه، لا أعتقد أنه يجدر بي أداء مهمةٍ من هذا القبيل يا سيد هوب. فإذا علم السيد سارتويل أنني ...»

قاطعه بارني واضعًا يده على كتف مارستن بطريقة ودود، قائلًا: «صديقي العزيز، لا بأس، ثِق بي. نحن لا نفعل أي شيءٍ في الخفاء. يا إلهي، أنا واثقٌ من أنك لا تظنُّني من هذا النوع من الرجال يا لانجتون! أوه، لا! إن لديّ إذنًا من والدها.»

«لماذا لا تذهب إلى المدرسة إذن وتقابلها؟»

«لأن الأمر، يا صديقي العزيز، معقدٌ بعض الشيء. يمكنني أن أحصل على إذنٍ من الآباء متى أردت؛ فالمال كفيلٌ بذلك. والفتيات في العموم يعجبْنَ بي، ولن أقول إن السبب الوحيد في ذلك هو المال، لا، عليّ أن أمدح نفسي؛ فأنا حسن المظهر، وعلى درجةٍ معقولةٍ من الذكاء، ولديّ سمعة فنية لا شك في تحقُّقها، ولكن كبار السن لا يهتمُّون إلا بالمال. وأنا وسارتويل يفهم أحدنا الآخر. ولكي أكون صريحًا ومباشرًا، فهو

يقول لي بطريقة عملية: «بارني أنت أحمق، ولكنك ثري، ولا أظن أنك أكثر حماقةً من شابٍّ عادي من شباب هذه الأيام؛ ولذا أفتح لك الطريق، فاذهب يا بني، وفُز بقلبها.» وأنا أقول لسارتويل: «أنت عجوز فظ حاد الطباع سريع الغضب يمتلك حسًا فنيًا لا يختلف عن حس برج صناعة الطلقات، ولكن ابنتك كالملاك، وأنا أملك من المال ما يكفي كلَينا.» وكما ترى، لم أهتمّ قط بالمال إلا لكي أحقّق غاياتي. وهذا هو الموقف بيننا الآن. كان سارتويل سيأتي إلى هنا معي، ولكن بعدما انطلقت، أرسل برقيةً إلى مرسمي يقول فيها إنه مشغولٌ للغاية في المصنع بعد عودة جميع العمال مجددًا، ويريد مني تأجيل زيارتي أسبوعًا. لذا اضطُررت لأن أُحضر الخيل والعربة إلى هنا، فانطلقت بالعربة، وغادرت لندن قبل يومٍ من الموعد الذي كان من المفترض أن أُغادر فيه. ثم واجهَتني العقبة الحالية. ذهبت إلى المدرسة وطلبت لقاء الآنسة سارتويل قائلًا إني صديقٌ لوالدها، إلا أن السيدة المسئولة رمقَتني بنظرة شك، نعم، لقد فعلَت دون شك، يا صديقي، وأعلم أنه من الصعب تصديق ذلك. قالت السيدة إنها لا يمكن أن تسمح للآنسة سارتويل بلقاء أي شخص، إلا إذا كان بصحبة والدها. كما أنها لن تتسلّم أي رسائل للفتاة، ولم أدرِ ماذا أفعل. لقد كتبت خطابًا إلى الآنسة سارتويل من الفندق الذي أقيم به هنا، ولكن فتحته أنثى التنين تلك ثم أعادَته إليّ طالبةً مني ألّا أحاول التواصل مع أيٍّ من الفتيات اللاتي تتولّى مسئوليتهن. وها هي العربة الأنيقة ذات الحصانَين، وها هي الفتاة الجميلة، وها أنا أهيم على وجهي متشوقًا لاصطحابها في جولة بالعربة. هذا هو الموقف باختصار، وأريدك أن تساعدني عبر حمل رسالة إلى الآنسة إدنا.»

«لا أعلم كيف يمكنني فعل ذلك. فأنت، رغم حصولك على إذن والدها، لم تتمكن من رؤيتها ولو لحظات، فكيف سأتمكن أنا من ذلك؟»

«أوه، لقد رتّبت كل شيء. فكرت في البداية أن أرسل شاباً إلى هناك يدّعي أنه نجار أو سباك، ولكن مواسير المدرسة ونجارتها في حالة جيدة على حد علمي. ثم حضرني إلهام؛ فأنا رهن الإلهام. الرجل الذي يعتني بحديقة المدرسة يعيش في البلدة، وهو على أتم استعدادٍ لمساعدتي، في الواقع لقد أغدقت عليه العطاء. المشكلة أن جميع مساعديه ريفيّون حمقى لن يتورّعوا عن إفساد مهمةٍ حساسةٍ كتلك، ولكني كنت سأُغامر وأمضي في خطتي قدمًا غدًا مع أحدهم عندما وقعَت عليك عيناي، فقلت في نفسي: «هذا هو الرجل المناسب!» فأنا دائمًا ما أميِّز الرجل المناسب عندما ترسله إليّ العناية الإلهية. هذا هو السر الأهم للحياة الناجحة؛ أن تكون قادرًا على ملاحظة العطايا التي تُرسلها لك العناية الإلهية لحظة إرسالها لك. أغلب الناس يضلون طريقهم لأنهم لا يقدِّرون تدخّل العناية الإلهية إلا لاحقًا. سترتدي ثياب بستاني، وتُمسك مكنسةً قبيحة وثقيلة في يدك، وتذهب إلى مدرسة هاي كليف لتكنس الممرات وما إلى ذلك. وعندما تخرج الفتيات للتنزّه، تتحيّن الوقت المناسب وتخبر الآنسة إدنا بأني أنتظرها هنا مع العربة ذات الحصانَين. يُسمح للفتيات بالخروج في مجموعاتٍ من ثلاث فتياتٍ في المرة الواحدة. يمكن لفتاتَين منهن أن تجلسا ظهرًا لظهر في العربة، على أن تجلس إدنا بجواري. أخبرها بأن تتخيّر اثنتَين من صديقاتها ممّن يمكنها الوثوق بهن، وسنذهب جميعًا في جولةٍ ممتعةٍ بالعربة. وإذا تردّدَت، فأخبرها بأني أتيت إلى هنا بإذنٍ من والدها، ولكن لا تقُل هذا إلا باعتباره خيارًا أخيرًا. فأنا أفضِّل كثيرًا أن تأتي من تلقاء نفسها.»

«ما لا أفهمه في خطتك هو سبب وجودها من الأساس، إذا كنت حصلت على إذن السيد سارتويل ... لا، لا، أنا لا أشكّك في كلماتك ... كان عليّ أن أقول بما أنك حصلت على إذن والدها ... فلمَ لا ترسل له برقيةً تخبره فيها بأنك هنا، وتجعله يرسل برقيةً إلى المعلمة في

المدرسة يطلب فيها السماح للآنسة سارتويل بالخروج معك في نزهةٍ بالعربة، مع مرافقٍ مناسب بالطبع؟»

«عزيزي لانجتون ...»

«مارستن، من فضلك.»

«أوه، نعم، بالطبع. عزيزي مارستن، إن ما تقترحه يسيرٌ للغاية، وهو بالضبط ما سيفكر به أيٌ عقل منظم. فهذا هو التصرف العقلاني وسيكون ملائمًا تمامًا. ولكن يا صغيري مارستن، أنا أعرف عن النساء أموراً ربما لم تُتح لك الخبرة الكافية بعدُ لمعرفتها. أنا لست بحاجةٍ للحصول على موافقةٍ تامةٍ من والدها على هذه العلاقة؛ لأن الفتيات الصغيرات يستمتعْنَ بالخروج في مغامراتٍ صغيرةٍ بريئةٍ بمفردهن دون إذن من آبائهن، هل تفهم ما أعنيه؟ وبالطبع، إذا لم يدرِ رأس المشكلة في هذه القصة ما عليه أن يفعل، فسيلجأ في نهاية المطاف إلى السلطة المناسبة، ولكنك تعلم أني قد التقيت هذه الفتاة كثيراً تحت عينَي والدها، إن لم يكن في ذلك تجاوز، وعلى الرغم من أنها جذابةٌ وجميلةٌ للغاية ولا ينقصها شيء، فلا يبدو أنني أحرز معها التقدّم الكافي كيفما أريد. وإضافة لمحة من ... تفهم ما أعنيه ... هذا الشيء ... أعني الرومانسية ومثل هذه الأشياء، تساوي كل عبارات المباركة التقليدية الجاهزة التي يردِّدها الآباء. ستعرف كل شيء عن ذلك عندما يتقدّم بك العمر يا فتى.»

«سيد هوب ...»

«اسمع يا فتى، ادعُني بارني. قلّة فقط من أصدقائي هم من يدعونني «سيد هوب»، وعندما ينطق أحدٌ هذا الاسم، دائمًا ما أظن أنه يقصد أبي الذي يمتّع نفسه حاليًا إلى أقصى مدًى في دريسدن، أو في مكانٍ ما قريبٍ منها. كنتَ على وَشْك أن تقول ...»

«كنت على وَشْك أن أقول إنني كنت أودُّ بشدةٍ أن أُلبِّي لك مطلبك، ولكن لديَّ مخاوف بشأن ما تطلبه مني.»

«مارستن، معذرةً لِمَا سأقول، ولكني أخشى أنك مثل بقية البشر في العالم. دائمًا ما يرغب الناس في تنفيذ ما تطلبه منهم، ولكنهم يرفضون تنفيذ المطلب الذي تريده منهم، إذا كان المغزى من كلماتي واضحًا. إذا ما رغبت في اقتراض خمسة جنيهات، فسيفعلون كل ما يمكنهم فعله من أجلك ما عدا إقراضَك إياها. وهذا ما يحدث الآن، بغضِّ النظر عن رغبتك في اقتراض خمسة الجنيهات، سأعطيك هذا المبلغ، بل سأعطيك ورقةً بعشرة جنيهات، إذا ما وافقت على أداء هذه المهمة.»

«أوه، إذا وافقت على أداء المهمة، فلن آخذ أي مال مقابل ذلك.»

«ولكني لا أريد أن يؤدِّي لي أيُّ شخصٍ خدمةً من منطلق المحبة. فأنا لا أُومِن بذلك. إذا بعت لوحة، أريد الحصول على السعر المحدد لها، نعم، أقسم لك بأنني سأفعل!»

«وإذا ما أديت هذه المهمة، فستكون في سبيل المحبة الخالصة، دون أي اعتباراتٍ أخرى. ولكني لا أعتقد أني سأكون أمينًا أو نزيهًا إذا ما أديتها. لا يمكنني أن أخبرَك بسبب اعتقادي هذا؛ فكل ما أريده هو أن أنفِّذ ما تطلبه مني، ولكني على يقين من أنني يجب أن أقول لا، لو كنت شخصًا نزيهًا تمامًا كما أودُّ أن أكون.»

«أنا أقدِّر مخاوفك يا صديقي العزيز، ولكني أؤكِّد لك أن لا محل لها من الصحة في موقفنا هذا. أؤكد لك ذلك. كما أنك قطعت على نفسِك وعدًا وسأُلزمك به. لن أهرب معها وأتزوّجها دون رغبتها ورغبة ذويها جميعًا. لو أردت مقابلة الفتاة دون رغبة والدها، فقد يكون لك كل الحق في الاعتراض على ما أعتزم فعله، ولكني لا أريد ذلك، ألَا ترى أن الحقيقة تصنع كل الفارق في هذا العالم؟ إنك تدرك ذلك دون شك.

على الرجل أن يبذل قُصارى جهده من أجل الفتاة التي يحبُّها، وسيكون جباناً لو لم يفعل. لهذا السبب أتحمّل كل هذه المشقة ولا أبرح تلك البلدة البائسة الموحشة. إذا لم ترَ الفتاة أنك تُجابه بعض المشقة لكي تراها، فلن تفكّر بك كثيراً أو دائماً، ثِق بي في ذلك.»

«أعتقد أنك محق. سأذهب.»

صاح بارني متحمساً وهو يضرب على كتف رفيقه بقوة: «إنك لشخصٌ طيب القلب يا مارستن! نعم يا فتى، شخص طيب ومعدنك أصيل!»

«أخشى أن معدني من أرخص أنواع المعادن يا سيد هوب. أعتقد أنك تؤمن بمقولة: «كل شيءٍ في الحب مباح»؟»

«أُومِن بها بالطبع يا صديقي العزيز، إنه المبدأ الذي أرتّب حياتي اليومية وفقاً له.»

«حسناً إذن. ولكني لن أحمل رسالةً شفهية؛ فقد لا تسنح لي الفرصة لتوصيلها، كما أني قد أنسى جزءاً منها، أو أحرِّف صياغتها بطريقةٍ تجعلها مضللة. إذا كتبت ما تريد أن تعرفه الآنسة سارتويل بالضبط وأعطيتني الخطاب، فسأوصله لها حتى وإن سنحت لي أقل فرصة.»

«أنت محق يا صديقي! والآن، تعالَ معي وسأعرِّفك بالبستاني ونرى إذا كان يمتلك ثوباً يناسبك.»

الفصل الرابع والعشرون

في الصباح، اصطحب بارني مارستن إلى منزل البستاني الطيب، الذي أمنت تأثيرات الثراء المفسدة حسن نواياه وضمنت تعاونه، وهناك ارتدى الشاب الثياب التي من المفترض أن تضفي عليه سيماء البستاني اللازمة لأداء الدور الذي عليه أن يلعبه. كان مارستن يأخذ الأمر بجديةٍ بالغة، بينما بدا بارني مستمتعاً بهذا الحفل التنكري إلى أقصى حد، حتى إنه أراد أن يلتقط صورةً للبستاني الجديد كتذكارٍ لهذه المناسبة.

وأخيراً انصرف مارستن حاملًا مكنسةً على كتفه، ومثل أمام مدخل حديقة مدرسة هاي كليف، وسُمح له بالدخول دون نقاش. لم يحاول مارستن أن يخفيَ عن نفسه حقيقة انزعاجه من الاحتيال الذي يوشك على ارتكابه، ولكن عندما أنّبه ضميره، سأله عمّا إذا كان لديه خطةٌ أفضل ليقترحها، ولكنه لم يجد لديه إجابةً عن هذا السؤال.

كانت الحديقة المحيطة بالمدرسة خاليةً عندما وصل إليها، وقادَته فطنته الفطرية إلى الاتجاه أولًا نحو الممرات الظاهرة للعامة، وبهذا، عندما تخرج الفتيات، يكون في الجزء الأكثر عزلةً من الحديقة؛ إذ كان واثقًا من أن قواعد المدرسة تنص على أن يخرجْنَ لاستنشاق الهواء النقي فيها. وصدق حدسه، وكان شعوره بالإحراج أقوى ممّا توقع، عندما وجد نفسه فجأةً وسط مجموعةٍ من الفتيات يثرثرْنَ جميعًا في صخبٍ ومرح، ولكن لحسن الحظ لم تُعِره أيٌّ منهن ذرة اهتمام. لم يضع مارستن في حسبانه وجود أيٍّ من المعلمات، ولكن ثلاثًا منهن كن حاضرات، إلا أنهن جلسْنَ على أحد مقاعد الحديقة ولم يبدُ عليهن أنهن يعبأْنَ بما تفعله الفتيات المكلّفات برعايتهن.

كانت إدنا سارتويل تحمل في يدها كتابًا واضعةً إحدى أصابعها بين أوراقه، ولكنها كانت تذرع المكان جيئةً وذهابًا مع فتاةٍ أخرى وتتحدثان بصوتٍ هامس. كان مارستن يأمل أن يكون موضوع الكتاب شيقًا، وتمنّى لو انزوَت الفتاة في مكانٍ منعزلٍ لتقرأه؛ فقد بدأ يشعر بأن مهمته لن تُنجز بسهولةٍ كما كان يتوقع، على الرغم من نجاحه في الدخول إلى حديقة المدرسة، التي بدَت في البداية الخطوة الأصعب في محاولته برمتها. وفي نهاية المطاف، منحه الكتابُ الفرصةَ التي كان ينشدها؛ إذ وقفت إدنا ورفيقتها برهةً معًا بعد انتهاء نزهتهما، ثم افترقَتا.

كان في أحد أركان الحديقة منزلٌ صيفيٌّ منعزل، تحجبه أشجارٌ وشجيراتٌ كثيفة عن الرؤية من المدرسة، وبالكاد تصله أصوات الثرثرة المرحة التي أشاعَت البهجة في الأجواء في مكانٍ آخر، واتجهَت إدنا نحو هذه البقعة الهادئة وهي تقرأ الكتاب أثناء سيرها؛ إذ كان واضحًا أنها على درايةٍ بالمسارات التي تؤدّي إليها. تتبّعها مارستن ببطءٍ في البداية، ثم زاد من سرعته عندما قلّت احتمالاتُ ملاحظته من قِبَل أحد، وكانت دقات قلبه أسرع ممّا كان يتوقع بسبب الجهد الذي كان يبذله. كانت الفتاة تجلس في «الشاليه» الصغير، عندما حجب جسد مارستن ضوء الشمس المتسلّل من مدخله.

كان كل ما جرؤ على قوله هو: «آنسة سارتويل.»

هبّت إدنا واقفةً وسقط الكتاب على الأرض، ونظرت نحوه بعينَين فزعتَين لم يبدُ فيهما أنها تعرّفت عليه.

«أرى أنكِ لا تعرفينني، ولا عجب في ذلك؛ فلم أكن أرتدي ملابس بستانيٍّ عندما كنت واقفًا في حديقة منزلكِ آخر مرة.»

تورّد وجه الفتاة وأشرق بالسعادة، وأطلّت الضحكة من عينَيها أولًا قبل أن تُطلّ من شفتَيها.

«لقد أفزعتني!» قالتها الفتاة وقد تلاشى لديها الفزع، ولم تكن قادرةً على كبح جماح سرورها، بينما كانت تتفحّص ملابسه الغريبة من قمة رأسه حتى أخمَص قدمَيه. «هل أصبحتَ تعمل بستانيًا هنا، أم قفزتَ من فوق السور؟»

«الأسوار هنا عالية للغاية، وإلا حاولت تسلقها. أنا بستانيٌّ لليوم فقط، حتى أتمكن من التحدث إليكِ.»

«تتحدث إليّ أنا؟ كنت أعتقد أن الإضراب قد انتهى نهايةً سعيدة. ألم تعُد إلى عملك؟ كيف سُمح لك بترك عملك؟»

«أوه، لا مشكلة في ذلك! يمكنني أن آخذ عطلةً متى أردت. نعم، لقد عُدت إلى عملي، وصرت غارقًا في العمل منذ ذلك الحين. وجئت إلى هنا بالأمس على أمل أن أقابلك. فقد كان هذا أمرًا مهمًا للغاية، بالنسبة إليّ على الأقل.»

«هل حصلت إذَن على الترقية المنشودة بهذه السرعة، أم إنك ترى أنه يجدر بي أن أتحدّث إلى أبي عن منصبك عندما أراه في المرّة القادمة؟ كان من المفترض أن يحضر في وقتٍ سابق، ولكنه أرسل إليّ رسالةً تقول إنه مشغول للغاية بعدما عاد العمال إلى عملهم، وإنه لن يتمكن من الحضور ربما لأسبوعٍ آخر أو أكثر.»

«لم آتِ إلى هنا ألتمس صنيعًا من والدك، بل جئت من أجلكِ أنت. أنا أحبكِ يا إدنا، ولطالما أحببتكِ منذ وقعَت عيناي عليكِ لأول مرة! لا تتخيلي أن ... أن الغرور قد اجتاحني لدرجة أن يحدوني أملٌ ولو بسيطًا في أن تهتمي لأمري؛ فأنت بالطبع لا تولينني أي اهتمامٍ ولا يمكنكِ ذلك، ولكني أردت أن تعرفي شعوري تجاهك. أردت أن أخبرك؛ ولهذا السبب أتيت. أنا فقير، لا يمكنني إنكار ذلك، ولكن والدكِ كان فقيرًا أيضًا يومًا ما، وتحسّنت أحواله بعد ذلك. ستتحسّن أحوالي أنا أيضًا؛ سأواصل العمل

ليلًا ونهارًا. وأيًّا كان مَن أعمل تحت إمرته، فسأخدمه بكل إخلاص، يا إلهي! سأخدمه حتى تنبري ساقاي إذا كان ذلك هو ما يتطلّبه الأمر؛ ليقتنع بمدى جديتي في الفوز بثقته وأن أكون ضمن ثقاته، وستظل صورتك مطبوعةً طوال هذا الوقت في ذهني تمنحني السعادة والأمل، كما كانَت دائمًا منذ أمدٍ طويل، منذ بدأ حبكِ يغزو قلبي. أنت تعلمين أني لا أملك فرصةً في الفوز بقلبك كما قد يمتلكها غيري. لقد أرسلك والدك إلى هذه المدرسة بغرض منعي من لقائك، الذي كان سيتسنى لي لو كنت ثريًا. أنا لا أملك فرصةً عادلة على الإطلاق، عدا تلك التي أختلسها لنفسي، كما فعلت اليوم. وهذه الفرصة تعني الكثير والكثير بالنسبة إليّ، بل تعني كل شيء؛ حتى إنني لم أجرؤ على الإقدام على المخاطرة. أعرف أني أفصحت عن مشاعري في وقت مبكر للغاية، وبصورة مفاجئة للغاية، ولكني لم أجرؤ على مواجهة المستقبل الذي رسمته لنفسي من دون أن تعرفيها. قد يفوز أحدهم بقلبك بينما أعمل أنا من أجل الوصول إليك، وسيسعى كثيرون من أجل ذلك. لا أريدك أن تقولي شيئًا، لا أريد كلمات تمنحني الأمل أو تورثني الإحباط، لا أريد وعودًا، لا أريد أي شيء! لقد أصبحت تعرفين ما أشعر به، وهذا يكفيني الآن. ولكني أريدك أن تتذكري، أحيانًا، أن ما من رجل يكافح من أجل الوصول إليك مثلما أفعل. تذكري ذلك عندما يتحدث إليك رجال آخرون. حبيبتي ... حبيبتي ... لم يشعر رجل بمثل ما أشعر منذ بدء الخليقة!»

ذاب أيٌّ خجل كان يشعر به مارستن في حضرة إدنا حتى هذه اللحظة، في حرارة عاطفته المتقدة عندما بدأ يتحدث. كانت الكلمات تتدافع من فمه، كل كلمةٍ في عقب سابقتها في تتابعٍ مختلط لاهث، وكان وجهه كالجمر، فيما اختلجت شفته السفلى عندما توقّف عن الكلام. بدا في البداية وكأنّه في سباقٍ مع الزمن؛ إذ كان من المحتمل أن يقاطعهما أحدٌ

في أي لحظة، ولكنه سرعان ما نسي منافسه، ولم يكن في العالم، في نظره، سواه والفتاة المرتعدة المرتبكة الواقفة أمامه.

أما هي، فبعد ما بدت عليه في البداية من عدم تصديقٍ ودهشة، تراجعَت إلى الخلف مستندةً بيدها على الجدار، ثم غاصَت تدريجيًا في مقعدها وقد اكتسى وجهُها الشاحب بتعبيرٍ يشوبه الخوف. وبينما كان مارستن ماضيًا باندفاعٍ في حديثه، سقط رأسها على يدَيها، وبقيَت على هذه الحال طوال حديثه.

أعقب حديث مارستن صمت عميق للغاية؛ حتى إنه خشي أن يتقدّم أو يتراجع إذ كان مسندًا يده على إطار الباب، وسمع أصوات ضحكات الفتيات تأتي من بعيدٍ خاليةً من أي أفكار، عدا تلك الخاصة بحجرة الدراسة. كان يدرك أن عليه أن يتذكر أدقّ تفاصيل هذا المكان طوال حياته؛ المكنسة الراقدة عند قدمَيه، والكتاب الواقع على الأرض مفتوحًا، حتى عنوان الكتاب الذي يتلألأ بلون ذهبي على جانبه، والذي لم يستوعب عقله من معناه شيئًا سوى كلمةٍ واحدةٍ استرعت انتباهه؛ «غزل» (كانت العبارة الكاملة «قصائد غزل مايلز ستانديش»)، وتساءل تساؤلًا مبهمًا عمّا إذا كان الغزل قد أفلح. كانت عيناه تجوبان المكان سريعًا لتحفظا تفاصيل المشهد ورتوشه، ثم تعودان دائمًا إلى ذلك الجسد المنحني الصامت أمامه، واستنبط غريزيًا من مظهر كتفَيها المتدليتَين أن ثمّة تغييرًا قد حدث؛ لم يكن واضحًا، ولكنّه موجود. كان عقلُه منشغلًا للغاية بوقائع الحياة القاسية لدرجةٍ لم يتمكّن معها من الانغماس في أي تحليلاتٍ تأمليةٍ من أي نوع، بل كان ممسوسًا بعصا الحب السحرية، وحُبي ببصيرةٍ نافذةٍ لم يختبرها من قبل. فرأى أن الفتاة التي أقبلت عليه عندما كانت طفلةً سوف ترفضه بعدما أصبحت امرأة.

وأخيرًا، هزّت الفتاة رأسها ببطء.

وغمغمت قائلة: «لا يمكن، لا يمكن!»

فصاح مارستن بحماس قائلًا: «ليس الآن. أعلم ذلك ... ولا أطلب منك شيئًا! ولكن ... هل يمكن أن يحدث في وقت ما ... في وقت ما؟»

لم ترفع الفتاة بصرها.

وقالت: «هذا مستحيل ... مستحيل!»

«كل ما أريده أن تمنحيني فرصة ... فرصةً عادلة. لا تقولي ... أوه، أرجوك لا تقولي «لا» أو «نعم» الآن! أعلم أن والدك كان متحاملًا ضدي، ليس ضد شخصي على ما أعتقد، بل ضد فقري: وهذا مجرد تعبير آخر عن حبه الكبير لك. إنه يعلم معنى الفقر، ويريد أن يحميك منه. إنه محق في ذلك، وإذا ما ظَلِلت فقيراً بعد عامين، أو أربعة أعوام، من الآن، فلن أطلب ...»

«هل يعلم والدي؟»

«نعم. أخبرته في تلك الليلة ... تلك الليلة التي تحدثتِ إليّ فيها لأول مرةٍ، وهذا سبب غضبه مني.»

«هذا إذن هو سبب أنك ... هذا هو السبب ... حين أتيت لمقابلتي في الحديقة ...»

«نعم، لهذا السبب كنت أخشى أن يجدني هناك.»

وخيّم عليهما صمت طويل مجدداً. عادت الفتاة بأفكارها إلى ما مضى من حياتها، منذ اليوم الذي حرّم والدها عليها فيه الذهاب إلى مكتبه حتى اللحظة الحالية، ملقيةً ما يشبه الضوء الكاشف على الأحداث التي لم تكن مفهومةً حتى هذه اللحظة، ما جعلها تتضح بأبعادها الحقيقية. كان عليها أن تُعيد التفكير في كل ما فعله والدها وقاله. استنبطت معانيَ من عبارات

قيلت سابقًا كانت خافيةً عنها؛ فقد صارت الآن تمتلك المفتاح الذي يفتح الغرفة التي تنيرها المعرفة، وعلى الرغم من أن قلبها كان يتوق إلى والدها، وتميل إلى التعاطف معه عندما يواجه مشكلةً مفاجئة، والصفح التام عنه على الانعدام الواضح لثقته فيها بتركها تجهل موقفًا يرتبط بها ارتباطًا وثيقًا، وتشعر بأن عليها أن تؤازره، وتصد ذلك الغريب الذي جاء بهذه الجرأة ليفرّق بينهما بطلب مستحيل بأن تبادله الحب، لم تستطع استدعاء شعور الاستياء البحت تجاه مارستن من أي جزءٍ من كِيانها كي يُغيثَها من تيهها، وهو الأمر الذي كانت تعلم أنها قادرة عليه كما كانت تفترض.

وأخيرًا، تحدّثت إدنا ببطء قائلة: «أنا آسفة للغاية، آسفة للغاية. أنا معجبة بك بالطبع؛ فأنا أعتقد أنك رجل نبيل وجاد، وأنك ستبلي بلاءً حسنًا في حياتك وتتغلّب على الكثير من الصعوبات، ولكن لا يمكنني أن أُكن لك المشاعر التي تتمناها، ولن يكون من الصواب أن أخدعك. كم أود أن أراك تنجح في حياتك، وأنا واثقة أنك ستفعل. ويومًا ما ستراسلني وتحكي لي عن انتصاراتك، وسأكون في غاية السعادة. وسيسعدني حينئذٍ أن أعرف أنك قد نسيت ... هذا الموقف. والآن، يجب أن تنصرف. إلى اللقاء!»

ثم مدّت يدها له لتصافحه، ورأى الدموع تترقرق في عينَيها.

فقال لها: «إلى اللقاء!» واستدار لينصرف.

جلست إدنا ولكنها لم تلتقط كتابها. ظلّت تحدق في السماء الزرقاء تفكر، وقد وضعَت يدَيها في حجرها مرتخيتَين. وبعد قليلٍ فُوجِئت بمارستن يعود.

فقالت وقد ظهرت ابتسامةٌ حائرةٌ مرتجفةٌ على شفتَيها: «لقد نسيت مكنستك.»

فقال: «بل نسيت شيئًا أهم، لقد نسيت المهمة التي جئت من أجلها.»

«مهمتك؟»

«نعم، إن خداعي يتجاوز مجرد تسلق الأسوار. أنا رسول خائن حقًا؛ فالوسيلة التي مكّنتني من الدخول إلى هنا رُتبت بواسطة رجل آخر أراد مني أن أوصل لك خطابًا. إنه هنا في إيستبورن، وكتب لك خطابًا، إلا أن خطابه رُد إليه. فكتب خطابًا آخر، ها هو ذا.»

«عمن تتحدث؟»

«السيد برنارد هوب.»

«أوه!»

أخذت الخطاب. ورفع مارستن مكنسته من على الأرض وانصرف. كان يريد مغادرة المكان والعودة إلى لندن، إلا أن البستاني حذّره من أن يعود قبل أن يفرغ من الكنس، بينما أكّد عليه بارني ضرورة عدم السماح بإثارة أي شكوك؛ إذ قد تطرأ حاجة إلى إرسال رسول آخر في مهمة مماثلة. فظل يكنس مكوِّمًا المخلفات في كومات صغيرة على جانب الطريق. دخلت الطالبات إلى المنزل في مجموعات زوجية وثلاثية حتى وجد نفسه بمفرده مرةً أخرى، ولكنه لم يرَ إدنا تأتي من جهة المنزل الصيفي. فواصل العمل مقتربًا أكثر فأكثر من المكان حيث التقيا، على أمل أن يلقيَ عليها نظرة وداعٍ خاطفةً أثناء سيرها باتجاه المنزل. وأخيرًا خرجَت إدنا من المنزل الصيفي، ولكن بدلًا من أن تسلك الطريق المؤدِّي إلى المنزل مباشرة، اتجهَت نحوه حاملةً في يدها الكتاب النحيل الذي كانت تقرؤه. كانت حمرة وجنتَيها أشد قليلًا من المعتاد، ولكن، فيما عدا ذلك، نجحت في إخفاء أي أثرٍ لمشاعرها. نظرت إلى مارستن بطريقةٍ بدَت في البداية وكأنها استعادَت صراحتها السابقة، ولكن عندما الْتقت

نظراتهما، رأى أنها ليست النظرة نفسها تمامًا، كانَت ثمة لمحةٌ غامضةٌ من الاختلاف تغشى عينَيها الصادقتَين اللتَين تشبهان عينَي والدها إلى حدٍّ كبير، ولكنهما أكثر عطفًا وحنوًا بكثير.

قالَت إدنا وهي تمدُّ يدها نحوه بالكتاب: «أحضرت لك هذا الكتاب، وأريدك أن تحتفظ به. إنها قصة رسولٍ كان أهلًا لثقة مَن أرسله، ولكنه فشل في مهمته.»

ردّ عليها وهو يأخذ منها الكتاب: «ولكنك لم تقرئي الكتاب بعد، أليس كذلك؟»

«أوه، بل قرأته. كنت أقرؤه للمرة الثانية اليوم.»

أخفى مارستن الكتاب في عجالة تحت ثوبه وقد بدا عليه القلق من أن يراهما أحد؛ فلم يكن مستعدًا لتعريضها لأي خطرٍ كان. نادرًا ما يرقى دهاء الرجل إلى دهاء المرأة مهما كانت حداثة سنها. فقد ابتسمت إدنا عندما لاحظت قلقه.

وقالت: «لا أحد يرانا، وحتى إن رآنا أحد، فلا يهم. سيعتقدون ببساطة أني أهدي كتابًا تثقيفيًا ونصيحة مفيدة لمساعد البستاني، وهذا، في الواقع، ما أفعله بالضبط عندما أنصحه بأن يكد في عمله، و... أنسى الأمر!»

وبينما كانت إدنا تقول هذا، فتحت يدها فوق كومة القمامة القابعة تحت عند قدمَيه، ليتساقط منها خطاب مُزق قطعًا صغيرة أخذت تتساقط في الهواء إلى أسفل، كما لو كانت نموذجًا مصغرًا لتساقط جليدي، وانصرفت قبل أن يتمكن مارستن من وداعها للمرة الثانية.

وقف مارستن في مكانه ينظر إلى بقايا الورقة الممزقة المتناثرة فوق كومة القمامة، والتي كانت بلا شكٍّ بقايا الخطاب الذي سلّمه لها، وعلى

الرغم من أنه لم يتلقّ منها ولو كلمةً واحدة تبعث على الأمل، وقد كان يتوق لسماعها، رغم ادعائه عكس ذلك، كانت كل قصاصةٍ من الورقة البيضاء الممزّقة تعكس في عينَيه شعاعًا من الأمل.

الفصل الخامس والعشرون

وجد سارتويل نفسه مشغولًا للغاية بعدما عاد العمال إلى أعمالهم، مثلما كتب في رسالته لابنته وفي برقيته إلى بارني هوب. فعلى الرغم من أنه لم يطرد أيًا ممن شاركوا في الإضراب، فقد أعاد تنظيم أشغال المصنع بأكملها بلا هوادة. فقلة فقط من العمال هم من استعادوا وظائفهم القديمة أو أجورهم القديمة. ورقّى بعضًا من العمال وخُفضت رتبة بعض الآخرين، وإن لم يُطرد أحد من العمل. في البداية، بدا للعمال أن ما يفعله مجرد استعراض همجي للقوة تقوده أهواء جائرة، ولكن بمرور الوقت، بدءوا يرون لمحةً من نمط ممنهج في هيكلة الأمور. فكان أولئك الذين خُفضت رتبهم إلى أدنى الوظائف وأقلها أجرًا هم العمال الذين كانوا الأكثر تحمسًا لبدء الإضراب، والأكثر صمودًا في معارضة إنهائه. أما العمال الأكثر تعقلًا، الذين أُجبروا على التراجع إلى الصفوف الخلفية أثناء فترة الاضطرابات، فكانوا يُمنحون ترقيات وأجورًا أعلى كلما سنحت الفرصة، وأُجريت هذه التغييرات الواحد تلو الآخر — فلم يكن سارتويل الرجل الذي يُفسد نظام تشغيل المصنع عبر إجراء تغييرات جذرية شاملة — وكان الاستنتاج العام من ورائها أن مدير المصنع أراد فقط أن يُظهر للعمال أن أولئك الذين استخفوا بهم هم من كافأهم. ولكن لم يتمكّن أحد، حتى أولئك الذين خسروا في لعبة إعادة التنظيم، من إنكار أن الرجال الأكثر اعتدالًا وتعقلًا، الذين تمّت ترقيتهم، كانوا من بين أفضل الأيدي العاملة في المصنع. كما أنهم كانوا من العمال الأكثر تضررًا من أي إضرابٍ قد يقع، وكانوا، بطبيعة الحال، الأكثر ترددًا في الدخول في نزاعٍ لا يمكن لأحدٍ أن يتنبأ بعواقبه. وبمرور الوقت بدأ الشك يتسلل إلى نفوس العمال في أن مدير المصنع بحوزته سجل كامل

ودقيق بكل فعل وقول خلال الإضراب؛ ومن ثم جاءت التغييرات، التي أجراها بقسوة مغلفة بالصمت والهدوء، متوافقةً تمامًا مع أفعال كل عاملٍ خلال الأزمة التي ظن العمال أنها قد صارت شيئًا من الماضي، وتمنّوا لو أصبحَت في طي النسيان. وفي بعض الحالات، بدا وكأن سارتويل يتعمّد إبراز التغييرات التي أحدثها، عبر وضع العمال الذين رفعهم والعمال الذين حطّ منهم جنبًا إلى جنبٍ متعمدًا؛ وذلك حتى يكون إصراره على إظهار أنه يمتلك مستقبل كلِّ عاملٍ بين يدَيه مفهومًا حتى لأغبى العمال. كان درسًا قاسيًا بدا أن الغرض منه هو إظهار إصرار سارتويل على دعم العمال الذين تعاطفوا معه، ولو عن بعد، خلال النزاع الماضي؛ إذ لم يعترض أحد بكلمة، وإذا ما اعترض أحد العمال على استحياء على خفض رتبته، لم يكن مدير المصنع يرد عليه، وكان العامل يدرك حينئذٍ أن لا سبيل أمامه سوى الاستسلام، أو التوجّه إلى المكتب لتقاضي بقية مستحقاته.

لم يتجلّ غضب سارتويل الصامت واضحًا، مثلما تجلّى في حالتَي برونت وسكيمينس. كان الرجلان متساويَين في المنصب عندما بدأ الإضراب، إلا أن سكيمينس كان يتقاضى أجرًا أعلى من أجر برونت. أما الآن، فقد رُقي برونت مشرفًا للصالة العلوية، حيث أغلب الموظفين من النساء والصبية، بينما كُلف سكيمينس بعملٍ كان يقوم به أحد الصبية الذين لم يعودوا إلى العمل، بعد انتهاء الإضراب. وما ضاعَفَ من المذلّة التي تعرّض لها سكيمينس أنّه قد أصبح رهينةً للأوامر القاسية لذلك الرجل الفظ الضخم اليوركشايري، الذي أهانه خلال الإضراب، بالإضافة إلى اضطراره إلى قَبول ما يزيد قليلًا على أجر صبي. كان كثيرًا ما يسبّ سارتويل بصوتٍ عالٍ، إلا أن مدير المصنع لم يكن يهتم كثيرًا بمسبات الآخرين، ولم يكن سكيمينس في وضعٍ يسمح له برفض الأجر الزهيد الذي يتقاضاه.

انتهى سارتويل أخيراً من تنظيم الأمور الاقتصادية الداخلية للمصنع كما يريد، وكان يُمنّي نفسه بقضاء بضعة أيام بعيداً عن الضغوط في إيستبورن، حين وقعت كارثة لم تكن في الحسبان أفسدت جميع خططه. قبل قليلٍ من ساعة الغداء، كان يهبط الدرج من الطابق العلوي عندما سمع صراخاً، بدا وكأنه أصوات مَن تركهم منذ لحظاتٍ مجتمعة، جعله يتسمّر في مكانه. كان أول ما خطر بباله أن برونت قد جُن جنونه فجأةً وربما قتل أحد العمال؛ فقد لاحظ مدير المصنع أن برونت، منذ ترقيته، كان يتحدث بوحشية في بعض الأحيان، ومن وقت لآخر يظهر في عينَيه بريق جنوني خطر ينذر بجنون كامن لم يظهر بعد. وقبل أن يلتفت ليتبيّن ما حدث، مرّت بجواره امرأتان تصرخان بشعر أشعث.

فصاح بهما بعد أن مرتا قائلًا: «ماذا حدث؟»

فردّتا صارختَين وهما تهمان بالهروب: «حريق!»

صعد سارتويل الدرج ولكنه لم يقابل أحداً يهبط منه. وسمع في الفناء في الخارج صوتًا جَهْورياً أجش لرجل يصيح: «حريق! حريق!» انقبض قلب مدير المصنع وهو يفكر في عدد العمال في الطابق العلوي، والدرج الضيق، والمخرج الوحيد. كانت الطوابق الأخرى آمنةً على نحو مقبول؛ إذ كانت سلالمها وأبوابها واسعة، أما الطابق العلوي، الذي لم يكن يشغله في السابق إلا عدد قليل من العمال، فلطالما كان مصدر قلق له؛ فقد كان يخشى وقوع كارثةٍ كتلك التي بدَت على وَشْك الحدوث. وكان ثمّة اتفاقٌ دائمٌ على تصحيح هذه الأوضاع بينه والمالكَين، وكان من بين الوعود التي تأجّلت عدة مراتٍ إلى موسم أكثر ملاءمة، والآن ها هي الصيحات تتعالَى بكلمة «حريق!» وترن في أذنَيه، ولم يكن ثمة سبيلٌ للنجاة سوى السلم الضيق!

وجد سارتويل الباب المفتوح مسدوداً بكتلة من البشر يصرخون، كلٌّ منهم يسارع للنجاة بنفسه، وكلٌّ منهم يجعل النجاة مستحيلة. كانوا محشورين وعالقين في أماكنهم دون حراك، وكان الكثير منهم محاصرين لا يستطيعون المقاومة، بينما كان ثمة آخرون بعيدون عن الباب يضربون بأذرعهم بجنونٍ في جميع الاتجاهات، محاولين شقّ طريقهم عنوةً نحو الأمان. امتلأ الهواء برائحة احتراق الخشب النفّاذة الخطرة، واندفع الدخان لأعلى عَبْر مهواة المصعد، وتجمّع بكثافةٍ متزايدةٍ مغطّيًا السقف. لم تكن ثمة ألسنةُ لهبٍ بعد، ولكن إذا لم ينفض هذا التزاحم، فلن تكون ثمة حاجة للنار لتخرج الحياة من أجساد أولئك المتنافسين في هذا السباق اليائس نحو النجاة.

صاح سارتويل: «تراجعوا إلى الخلف! لن يكون هناك خطر إذا ما حافظتم على هدوئكم. فلتعودوا جميعًا إلى أماكنكم. سأدخل وسطكم وسأكون آخر من يخرج، فلا داعي للخوف.»

لمع لسان من اللهب للحظة وسط الدخان الأسود، واختفى فور ظهوره، ولكن بعد أن أرسل شرارةً لحظية، مثل البرق المنبسط، عبر الصالة الآخذة في الإظلام. وكان هذا ردًا مقتضبًا ينذر بسوء على كلمات سارتويل، وأدرك أنه كان عليه أن يُقنع الكارثة أيضًا بأن تهدأ. حاول أن يحرِّر واحدةً من الفتيات ظهر من عينَيها الجاحظتَين وشفتَيها الشاحبتَين أنها قد انسحقت حتى الموت، ولكنها كانت محشورةً بقوةٍ وسط الحشد كما لو أنها ثُبتت في موضعها بالأسمنت. أطلق سارتويل أنّة يأس حين رأى نفسه عاجزًا في مواجهة هذا الذعر الذي لا يُقاوم. كان يحاول فض الحشد المحشور من مركزه؛ ومن ثم كان وضعه سيئًا للغاية.

نبّهته صيحة غاضبة أعلى من صيحته السابقة إلى حقيقة أن برونت كان يحاول فض الحشد المحشور من الخلف. كان الرجل الضخم

يستخدم قوته المفرطة دون هوادة في شق طريقه عبر الحشد، ممسكًا بالنساء من أكتافهن بكلتا يدَيه وملقيًا بهن بقوة خلفه، دون اكتراث لعواقب هذا الفعل، وكان يشق طريقه بصعوبة البوصة تلو الأخرى في اتجاه الباب.

قال برونت صائحًا في وجه سكيمينس الذي أصابه الخوف بالجنون: «تراجع أيها الوغد!»، وراح يدعس كلّ مَن هم أمامه في خضم محاولاته المحمومة للفرار.

فصاح سكيمينس: «فلينجُ كل امرئ بنفسه! من حقي أن أنجوَ بحياتي مثلك.»

«توقّف أيها الهمجي وإلا خنقتك بيدَي هاتَين عندما تصلان إليك! قف حيث أنت يا سيد سارتويل والتقط من أُلقيَ به إليك. النساء أولًا. ألقِ بهن بعد دوران السلم وسيكنّ في أمان. ابقَ مكانك، سأصل إلى الباب خلال دقيقة. وسنُخرجهن جميعًا في لمح البصر.»

وبينما كان يصيح بصوته الهادر، كان برونت يشق طريقه عبر الحشد بكل قوته، ووصل أخيرًا إلى نقطة التكدّس حيث أصبح التقدّم أكثر مستحيلًا. فتوقف مكانه وبقوة ذراعيه وحدها، راح يرفع الفتاة تلو الأخرى فوق رأسه ويطوّحهن من فوق رءوس من يقفون أمامه، ليهبطْنَ بين ذراعَي سارتويل الذي كان يدفعهن عبر السلم.

صاح سارتويل الذي رأى من مكانه سكيمينس المذعور يدفع الحشد في اتجاه برونت، ويعيقه عن تأدية مهمته: «بحق الرب يا سكيمينس، تحلّ بالرجولة، وتوقف عما تفعل! توقف عن دفع من حولك! ثمة وقت كافٍ لنخرج جميعًا.»

فصاح برونت بصوته الجَهْوري من فوق كتفه: «سأحطم رأسك على فعلتك هذه! تذكر أن عليك أن تمر أمامي حتى تصل إلى السلم، ولكنك لن تقوى على قتالي.»

انفض التكدس أخيراً كما لو كان انسداداً في مجرى نهر تراجع فجأةً، عندما أزيل جذع الشجرة الأساسي المسبب للانسداد. كان برونت في تلك اللحظة يقف مسنداً ظهره إلى إطار الباب، بينما اتخذ سارتويل موضعه عند دوران السلم، ليدفع أولئك المنهكين المتعبين إلى حيث الأمان. كان العديد ممن كانوا في مركز التكدس يرقدون عند قدميه، إما فاقدِي الوعي أو موتى؛ فلم يكن ثمة وقت لاكتشاف ذلك. ومن حين لآخر كانت الفتاة التي يدفعها عبر السلم تتعثّر وتسقط وترقد حيث سقطت دون حراك.

صاح مدير المصنع الذي كان يطلب ممن ينقذهم، الواحد تلو الآخر، أن يرسل في طلب المساعدة، قائلًا: «لمَ لا يأتي أحد لحمل هؤلاء النساء إلى الخارج؟»

وظهر اثنان من رجاله أخيراً.

قال أحدهما: «إنه حريق ضخم يا سيد سارتويل.»

«نعم، نعم، أعلم هذا. فليحمل كلٌّ منكما امرأتَين إلى أسفل، إن استطعتما، وأرسلا المزيد من الرجال إلى هنا. وأخبرا الموظفين أن يتأكدا من أن الأبواب الحديدية بين المباني مغلقة. هل وصل رجال الإطفاء؟»

«وصلت خمس سيارات إطفاء يا سيدي.»

«جيد! اتجها إلى الأسفل بأقصى سرعة وأرسلا المزيد من الدعم.»

صاح برونت وهو يمسك بتلابيب سكيمينس الذي تمكّن من شق طريقه إلى الخارج أخيرًا: «أيها الشيطان! هل تعتقد أنك ستتسلل دون أن أراك؟»

«لا تُضع الوقت على هذا الرجل يا برونت. يا إلهي، ألَا ترى ألسنة اللهب! سيسقط السقف على رءوسنا بين لحظة وأخرى! ألقِ به هنا!»

صاح برونت في غضب وهو يجز على أسنانه: «سيظل خلفي حتى خروج آخر شخص.»

صمت سارتويل. فلم يكن ثمة وقت للجدل أو الاعتراض، بينما استمر برونت، الذي كان يثبت سكيمينس إلى الجدار من خلفه، في إخراج الفتيات بسرعة تضاهي سرعة مدير المصنع في تمريرهن. كان التكدس يتكوّن باستمرار عند الباب، وكان ينفض باستمرار بفضل ذراعَي برونت القويتَين اللتَين لا تعرفان الكلل.

أنّ سكيمينس قائلًا: «أنت تخنقني.»

قال برونت: «أتمنى ذلك.»

أصبح الموقف الآن فوق قدرة أي أحد على التحمل. فقد التقى الدخان الصاعد عبر السلم بالدخان المتدفق عبر الباب، ولكن رغم كل هذا الدخان، كانت الغرفة تشع بالضوء؛ إذ كان ثمة عمود ثابت من النار يتصاعد عبر مهواة المصعد، ما جعلها أشبه بأفران صهر الحديد.

قال سارتويل: «هل خرج الجميع؟» وكان يلهث ويسعل بسبب الدخان الذي يخنقه.

«أعتقد ذلك يا سيدي، ولكن سأعود لألقي نظرة. ربما كان ثمة أحد لا يزال في الطابق»، وبينما كان برونت يتحدث، دفع سكيمينس إلى داخل الغرفة أمامه، وأغلق الباب من خلفه حتى لا يسمعه سارتويل إذا صرخ.

وبدا أن مدير المصنع، الذي كان يختنق بسبب الدخان، قد نسي وجود سكيمينس من الأساس.

قال برونت: «اجثُ على يدَيك وركبتَيك أيها الكلب، وانظر إن كانت أيٌ من الفتيات اللاتي أسقطتهن لا تزال هنا!»

كان سكيمينس جاثيًا على ركبتيه بالفعل.

وقال: «لا أحد هنا.» ثم صاح قائلًا: «افتح الباب! افتح الباب!»

فوارب برونت الباب بوصةً أو بوصتَين.

وصاح: «لقد خرج الجميع يا سيدي!»

فقال سارتويل: «حمدًا لله! فلتنزل في الحال. ليس لدينا لحظة أخرى لنضيعها.»

«سأهبط بمجرد أن تهبط يا سيدي. اجرِ!»

تعثر مدير المصنع وهو يهبط السلم المتداعي واثقًا من أن برونت يتبعه.

قال برونت لسكيمينس: «والآن أيها الثعبان، سأحبسك هنا حتى تحترق. لقد رأيت بعيني حجم شرِّك أيها الجبان!» لم يفهم الرجل المذعور ما تعنيه كلمات برونت، ففقد كل أملٍ له في البقاء على قيد الحياة.

فقال باكيًا: «أقسم لك أني لم أكن أقصد ذلك! لقد سقط عود الثقاب من يدي دون أن أُدرك. هذا ما حدث بحق الرب يا برونت!»

«ماذا! أنت أحرقت المصنع! أنت! إن النساء اللاتي كنت تحاول تجويعهن كن لا يزلن هنا! أنت من أسقط عود الثقاب! أيها الشيطان

الخبيث القاتل!»

جثم برونت مثل حيوان ضارٍ على وشك الانقضاض على فريسته، وارتعشت أصابعه المعقوفة مثل المخالب في عصبية. كانت أنفاسه سريعةً ومتلاحقة، فقد ملأ الدخان حلقه، وكانت عيناه الشرستان تلمعان أمام وهج النيران بلمعةٍ جنونيةٍ مخيفة، ثم قفز على ضحيته المرتعبة وحمل جسده المرتجف بذراعَيه فوق رأسه. واتجه نحو النار المستعرة وهو يصرخ:

«فلتذهب إلى الجحيم الذي صنعته يداك أيها الشيطان الجبان!»

اختفَت صرخةُ الرجل الهالكِ الطويلةُ المرتعشة، وكُتمت في النيران المستعرة.

وقف برونت في منتصف الغرفة على الأرضية الهابطة المتداعية، ولم تزل يداه الخاليتان مرفوعتَين فوق رأسه، وانقلب وجهه إلى أعلى، وهو يترنّح في وهنٍ وسط الدخان الخانق. حطّمت بلطة أحد رجال الإطفاء إحدى النوافذ، واندفعَت المياه عبر الفتحة بقوة، وأصدرَت صوتًا كالفحيح عندما ارتطمت بالسقف.

قال برونت: «جيسي! جيسي! اسمعي! إنه «اللحن الجنائزي»! يا ابنتي! اللحن الجنائزي الحقيقي!»

وبصوتٍ يصمّ الآذان، سقطَت أرضية الغرفة وسط النار المتأججة.

الفصل السادس والعشرون

قاد بارني هوب عربته ذات الحصانَين جيئةً وذهابًا في موكبه، الأمر الذي كان مدعاةً للفخر لبلدة إيستبورن، ولكنه لم يكن مُرضيًا لنفسه. فلم يكن بارني يهتم بإعجاب أولئك الغرباء الذين لا يعرفهم. وعلى الرغم من وضعه المترف، وامتلاكه جميع المظاهر المتفردة للترف والثراء، فإن هذا الوضع لم يكن يُعجب رجلًا اجتماعيًا مثل بارني. كان يبدو أن خطته البارعة، التي عيّن لها بستانيًا مبتدئًا، قد فشلت؛ فلم تصله أي أخبار من الفتاة في المدرسة، وأيًا كانت الجاذبية التي شكّلتها العربة ذات الحصانَين لسكان إيستبورن الآخرين، بدا مؤكدًا أن إدنا سارتويل لم تشاركهم إياها، على الأقل بما يكفي لترتيب جولةٍ مع الشاب وأيٍّ من رفيقاتها اللاتي قد يتجرأْنَ على كَسْر قواعد المدرسة؛ من أجل جولةٍ ممتعةٍ في مركبته المهيبة. كان بارني يلعن حظه وكذلك رسوله. فقد كان واثقًا من أن فشل الخطة يقع بالكامل على كاهل مارستن؛ فلا شك أن حماقةً ما من جانبه قد أفسدت الخطة برمتها. وبعدما فكّر بارني في سلوك مارستن بعد عودته، أدرك أمرًا كان يجدر به أن يُدركه حينها بسبب فظاظة واقتضاب إجابات مارستن، وهو أنه قد أفسد الخطة بطريقة ما وخجل من الاعتراف بفشله. كان مارستن يرضي ضميره بقوله إنه قد سلّم الخطاب إلى إدنا دون أن يراه أحد، وإن الفتاة لم تُعطه أي رسالة ليوصلها إلى بارني. ولم يتمكن بارني من استخلاص أي تفاصيل مرضية من مارستن بشأن ما حدث خلال لقائه بإدنا. هل تحدث إليها؟ لا شكّ أنه فعل. كان من الضروريّ أن يشرح كيفية وصوله إليها. ماذا قالت؟ لم تتحدث كثيرًا. هل بدَت غاضبة؟ لم يبدُ عليها أنها تكاد تطير من السعادة. وعلى هذا المنوال، واصل بارني، بكدٍّ ومثابرة، محاولة استخلاص الحقيقة

من رجلٍ متردِّد بدا متلهفًا على الانصراف والاختلاء بنفسه، وبدا جليًا أنه لا يراعي حقيقة أن من واجبات الرسول أن يذكر كل تفاصيل المهمة التي بُعث إليها لمن أرسله.

بعدما عاد مارستن على عجل إلى لندن، ربما عزوفًا عن الاعتراف بفشله الدبلوماسي، وكذلك خوفًا من إرساله في مهمة مماثلة، اقتنع بارني بأن ثمة خطأً قد حدث خلال المهمة، وهو ما أثار حنقه بشدة كونه لم يكتشف هذا الخطأ؛ ومن ثم بدأ في إصلاح الأمر مستخدمًا تلك البراعة التي لا تُخفق، والتي كان يعلم أنه مهووس بها. وللمرة الأولى في حياته، اضطُر بارني لأن يعترف بأنه لا يعلم ما عليه فعله. فلم يكن يريد العودة إلى لندن والاعتراف بهزيمته حتى لنفسه. فقد كان من مفاخره الأثيرة إليه أنه لم يعرف الهزيمة من قبلُ قط؛ إذ كلما عجز عن إنجاز ما يريد بمفرده، على حد تعبيره، كان يبدو أن العناية الإلهية تتدخّل دائمًا لتمنحه المساعدة اللازمة. وبدأ يخشى أن دقّته المعتادةَ في اكتشاف تدخُّل العناية الإلهية قد خانَته لأول مرة؛ إذ تذكر أنه كان ينظر لظهور مارستن غير المتوقع على أنه دليل دامغ على أن الحظ لا يزال يحالفه، ولكن عندما توالت الأيام دون أن يصله رد على الخطاب الذي أرسله، بدأ بارني يتشكّك في حقيقة تدخُّل العناية الإلهية في هذا الموقف. وفي نهاية المطاف، وفي كآبةٍ شديدة، خلص إلى أن الحياة في ظل الظروف الراهنة لا تستحقُّ العيش، إذا كان سيُضطر للإقامة في إيستبورن حيث لا يعرف أحدًا، وقرّر على مضض أن يعود إلى لندن. فأمر بإخراج عربته ذات الحصانَين في عرض أخير، مُتذكِّرًا أنه على الرغم من أنه لم يكن يجد فيه أيّ متعة، فمن القسوة أن يحرم المتسكعين الذين يقفون دائمًا على جانب الطريق أثناء مرور الموكب، من متعتهم المعتادة بمشاهدة أناقة الموكب ومهارته في التحكُّم في حصانَين مربوطَين واحدًا وراء الآخر. فالمتردِّدون الدائمون الأبرياء على إيستبورن لا ذنب لهم فيما

حدث، فلمَ يعاقبهم دون داعٍ؟ هكذا حدّث بارني المنصف نفسه. لا بد من السماح لهم بأن يمتّعوا أعينهم للمرة الأخيرة بالعربة ذات الحصانَين وصاحبها، وليساعدهم الرب عندما يغادر في النهاية! تسلّق بارني عربته متنهداً؛ فإلى جانب علمه بأن هذا هو عرضه الأخير، ودائماً ما تحمل العروض الأخيرة قدراً من الأسى، كان من المحبط أن يُثبت له أنه لا يحظى بحَصانة خاصة، وأن تساوره شكوك إزاء المواقف السابقة التي لم تحتمل أي تشكيك في السابق.

قاد بارني حصانَيه النشطَين ربما بسرعةٍ أقلّ من المعتاد، وقد بدأ شعوره بامتهان كرامته يحلّ محل الثقة المفرطة التي كانت تميّزه بوجه عام. ولم ينجح الهواء العليل، أو الحركة السريعة، أو الشعور بالسيطرة على مقادير الأمور الذي يشعر به الرجل عند قيادة عربةٍ ذات حصانَين؛ في تحسين معنوياته حسبما كان متوقعاً؛ فقد فاقمت حقيقة أنه يقود العربة بمفرده شعوره بالإحباط، وجعلت هذا العالم يبدو في نظره ذلك العبث الأجوف الذي يتراءى لأكثرنا إقبالًا على الحياة في بعض الأحيان. ولكن، لكم قيل، بأساليب مختلفة، إن أحلك الساعات هي تلك التي تسبق الفجر مباشرة! — ولكم نسيَ الناس هذه الحقيقة البسيطة عن الليل! — ما يُعد عيباً ملحوظاً للغاية في ذاكرة رجل مثل بارني، كثيراً ما سنحت له الفرصة لتأكيد هذه الظاهرة، أثناء عودته في وقتٍ متأخر من الليل من سهراته التي تمتدّ إلى ما بعد منتصف الليل. ففي اللحظة التي بلغ فيها الإحباط منه مبلغه أثناء ما كان يقود عربته للمرة الرابعة على الطريق، أصابه الذهول والسرور عندما رأى إدنا سارتويل تخرج من أحد الشوارع الجانبية بمفردها تماماً. كانت تحمل جريدةً في يدها، وكانت تنظر عبر الشارع في قلقٍ ولهفةٍ وخلسة، وهو ما لم يعجز بارني عن ملاحظته، وكانت تبدو في انتظار لقاء شخص ما، ولكنها تخشى أن يُكتشف مبتغاها. واستوعب بارني الموقف بأكمله في لمح البصر؛ لقد

خشيت أن ترسل له خطاباً أو مُنعت من ذلك، فتسلّلت بمفردها من المدرسة على أمل أن تلتقيه. حسناً، كلهن كن يفعلن ذلك، من وجهة نظر بارني، وفي خضم نشوة السعادة التي غمرته بفضل ظهور هذا الدليل على نجاحه، واطمئنانه أن حظه، أو أياً كان مسماه، لم يتخلّ عنه في نهاية المطاف، انتابته مسحة خفيفة مزعجة من الندم أنها لم تعد محصنةً ضد سحره وجاذبيته شأنها شأن الآخرين جميعاً. إن الإنسان في أفضل أحواله ليس إلا مجرد كائن متشكك لا يعرف ما يريد. فمنذ لحظة، بدا له أنه لا شيء على وجه الأرض يمكنه أن يمنحه سعادةً أكثر من رؤيتها، ولكن الآن، بعد أن رآها تبحث عنه، شعر بالأسف حقاً أنها لم تكن تسير على الرصيف دون اكتراث مثل أولئك الغرباء الذين لا يعرفهم.

ولكن لا بد أن يُحسب لبارني أن هذا الشعور بأنه قد يكون الشخص الذي يسعى الجميع وراءه سعياً؛ كان شعوراً عابراً لم يدُم سوى لحظات، وأنه لم يؤثر ولو للحظة على تصرفه. فقد أوقف حصانَيه فجأةً ما جعل الحصان الأمامي يستدير ويصبح مواجهاً لسائقه، وألقى بالزمام إلى سائس الخيل، وقفز من العربة بخفة وسرعة بطريقة لا تقل سحراً عن قيادته للعربة. فك سائس الخيل تشابك الحصانَين بينما اقترب بارني نحو إدنا بدماثته، التي ربما كانت سمته المميزة. بدَت الفتاة متفاجئةً من رؤيته، وانتابها شعورٌ شديد وواضح بالخجل.

صاح بارني: «كم أنا سعيد لمقابلتك! إن مجرد رؤيتك يجعل هذا المكان العتيق الكئيب المسمى إيستبورن يبتسم كزهرة. لم ألتقِ أحداً لأتحدث إليه منذ وقتٍ طويل، لدرجة أني بدأت أخشى نسيان اللغة. صدقيني، هذه هي الحقيقة! إنني حقاً أعتقد — أقصد هكذا كنت قبل أن أراك — أن إيستبورن هي المكان الأكثر كآبةً على وجه الأرض.»

سألته الفتاة: «لماذا جئت إلى هنا إذن؟»

«أوه، آنسة سارتويل، هذا شيء غاية في القسوة! أؤكد لكِ أنه في غاية القسوة. تعلمين أنني قد ذكرت في خطابي لكِ أني لم آتِ إلى هنا إلا من أجل متعة رؤيتك.»

«نعم، لقد فعلتَ. لقد نسيت.»

«نعم، ولم تعبئي حتى بالرد على رسالتي يا آنسة سارتويل. وأرى أنها قسوة شديدة منك.»

«تعلم يا سيد هوب أنه غير مسموح لنا بإرسال خطابات من المدرسة؛ فتلك إحدى قواعد المدرسة الأكثر صرامة.»

«وهل تخشَين كسر قواعد المدرسة إلى هذه الدرجة؟ عندما كنت طالبًا، كنت أجد متعتي عند وجودي هناك في كسر جميع القواعد، ومعظم الأمور الأخرى أيضًا. واعتقدت أنكِ قد لا تمانعين كسر إحدى القواعد ولو لمرة واحدة، حتى وإن كان هذا بدافع الشفقة على صديق عالق في هذا الساحل القاسي.»

احمرّ وجه إدنا عندما تحدث بارني عن كسر القواعد، ثم رفعت عينَيها الصادقتَين إلى عينَيه وقالت: «أخشى أني لم أعُد أهتم كثيرًا بالقواعد بعد كل هذه الفترة من التظاهر بالتقيد بها. فأنا أكسر إحدى القواعد بوجودي هنا الآن، لكنني كنت متلهفةً للغاية للحصول على جريدة لدرجة أنني خرجت خلسةً من المدرسة لأشتري واحدة. وهذا هو سبب وجودي هنا، ولا يجدر بي أن أقف وأتحدث إليك هكذا، بل يجب أن أعود إلى المدرسة على الفور.»

فقال بارني معترضًا على حديثها: «ولكن يا آنسة سارتويل، إذا كنت كسرت إحدى قواعد المدرسة لمجرد شراء جريدة، فلا بأس من أن

تكسري قاعدةً أخرى، أو أن تداومي على كسر القاعدة نفسها، إذا عرفتِ مقدار السعادة التي سأشعر بها باصطحابكِ في جولةٍ قصيرةٍ بالعربة.»

«أوه، لا أستطيع التفكير في أمر كهذا يا سيد هوب، لا أستطيع حقًا، ويجب ألّا تطلب مني ذلك! لقد أردت الحصول على الجريدة لأرى إن كانت ثمة تطورات متعلقة بالحريق. لم أكن لأعرف شيئًا عن الحريق لولا أن أرسل إليّ أبي برقيةً قصيرة لا تحوي أي تفاصيل. أظن أنه لم يكن لديه وقت للكتابة.»

«أي حريق؟»

«الحريق الذي اندلع في المصنع.»

«يا إلهي! هل وقع حريق؟»

«ألم تكن تعرف؟ لقد شب حريق مريع دمر الجناح الشرقي بالكامل، وفقد رجلان حياتهما، اثنان من العمال. وكانت ستحدث خسائر فادحة في الأرواح لولا تدخّل أحد الرجلَين المُتوفّيَين. وتُرجِّح الصحف أنه فقد حياته أثناء محاولته إنقاذ الرجل الآخر.»

«يا إلهي! كم هذا مريع! أتساءل لماذا لم يرسل إليّ السيد سارتويل برقيةً ليخبرني في ظل غياب أبي ومونكتون. أنا لا أقرأ الصحف إطلاقًا، وليس لديّ أدنى اهتمام بها. لو تمكن المرء من معرفة متى ستحوي أخبارًا ذات قيمة، لَمَا كان أمر قراءتها بهذا السوء، ولكن لا يمكن للمرء أن يداوم على شرائها كل يوم، على أمل أن يجد فيها شيئًا ذا قيمة في وقتٍ ما. كما أن الناس عمومًا يخبرونني بجميع الأخبار، فلا حاجة لي للقراءة. بل إنني أسمع من الأخبار أكثر مما أريد أن أسمع، دون أن أتصفح الصحف، ولكني لا أعرف أحدًا هنا؛ ولذا لم تصلني أخبار اليوم.»

استمعت إدنا إلى تعليقاته بانزعاج لم تتمكن من إخفائه، وكرّرت قولها: «لا بد أن أنصرف الآن.»

صاح بارني بلهفة شديدة: «أوه، ولكن هذا هو ما يجب ألّا تفعليه! ليكن لديك بعض الشفقة، إن لم يكن لوحدتي في هذا المكان، فعلى الأقل لجهلي الميئوس منه بأمر كان يجب، من بين جميع الآخرين، أن أهتم به، بل أهتم به كثيراً. قد لا يكون ثمة تأمين، وربما أُصبح شحاذًا، وربما أُضطر لبيع عربتي، والتضحية بجميع لوحاتي، وكل هذه الأمور. يجب أن أعلم تفاصيل الحريق، وكل شيء عنه. إن هذا الأمر أهم حتى من أوضاع العمال، وبالنسبة إليّ على الأقل، على نفس القدر من الأهمية، والأمر برمته جزء لا يتجزأ من ... آه ... من كِياني، إذا جاز التعبير، أقصد موضوع العمال، كما تعلمين.»

اعترضت المستمعة القلقة قائلة: «ولكني لا أعرف شيئًا عن التأمين، لا أعلم أي شيء. عليك أن تعود إلى لندن على الفور على متن أول قطار. فقد أُجري تحقيق، وأتوقع أن تجد تقريراً عنه في هذه الجريدة. يمكنك أن تشتري جريدةً من محطة القطار، وحينئذٍ ستعرف كل شيء يمكن معرفته حتى تصل إلى لندن.»

قال بارني بنبرة رجل جريح: «آنسة سارتويل، لا يمكنك أن تتوقعي مني أن أفهم المكتوب في الجريدة! لم أستطع قط أن أفهم ما يُكتب بها من قبل. يبدو لي أنهم لا ينشرون سوى الهراء. يمكنك الآن أن تشرحي لي الأمر برمته خلال وقتٍ قصير؛ فأنتِ دائمًا ما تجعلين كل شيءٍ واضحًا. إذا ما قبلت ركوب عربتي هذه، فسأقودها إلى خارج البلدة وبالقرب من المدرسة من الخلف، وبذلك لن يرانا أحد، ويمكنك أن تصلي إلى المدرسة أسرع بكثير مما لو عدتِ إلى هناك سيراً.»

قطّبت الفتاة جبينها، ودُهش بارني عندما رأى أنها تملك بعضاً من نفاد صبر والدها. وشعر بأنه لا يحرز تقدماً إيجابياً كما كان يتمنى، إلا أن بضع كلمات من شأنها أن تصحح الأمور، إذا ما تمكن من حملها على الذهاب معه في جولة بالعربة.

قالت إدنا في حدة: «سيد هوب، أرجو أن تعذرني إذا قلت لك إنه في ظل الظروف الراهنة، يجدر بك أن تكون منشغلاً في لندن بدلاً من التسكع في إيستبورن. لقد حدثت فاجعة غير متوقعة، وتعطّل عمل الشركة، وأصبح العمال عاطلين عن العمل وهم في أمس الحاجة إليه، ولكنك لا تزال تقف هنا متسكعاً تتحدث عن العربات ذات الحصانَين والقيادة!»

اتسعت عينا بارني في ذهول. فكان ما سمعه الآن توبيخاً واضحاً وصريحاً. لم يتعرض بارني للتوبيخ من امرأة من قبلُ في حياته، ربما فيما عدا والدته، وهو لا يضعها في حسبانه؛ إذ كانت أول شخص سيستاء من أي لوم يوجّه إليه من قِبل أي شخص على حد علمه.

تلعثم الشاب التعس الحظ وقال مشدداً بقوة على ضمير المتكلم: «ولكن ... ولكن ماذا بوسعي أنا أن أفعل؟»

«لا أعرف بالطبع، ولكن هذا بالضبط ما كنت سأحاول معرفته لو كنت مكانك.»

«لا أحد يستمع لما أقول؛ لم يفعل أحد ذلك من قبل، ومن غير المرجح أن يبدءوا في الاستماع إليّ الآن. إن والدَكِ لم يكلف نفسه حتى عناء إرسال برقيةٍ لي رغم علمه بوجودي هنا.»

«هل يعرف أنك هنا؟»

«بالطبع. كان من المفترض أن يأتي معي، وكنا سنزورك معاً، ولكن لسوء حظي، لم يتمكن من المجيء، وها أنا ذا عالق في هذا المكان، وعندما

تتحدثين معي بهذه الطريقة، أشعر بقسوة القدر عليّ.»

لان تعبير وجه إدنا وهي تنظر إليه؛ فقد شعرَت بأنها مجحفةٌ له، وكانَت تملك حسًا قويًا بالعدالة.

فقالت: «لم أكن أنوي أن أوجّه لك أي كلماتٍ قاسية. لقد أخبرتك فحسب باعتقادي حيال ما يجدر بأيِّ شخصٍ في مكانك أن يفعله. ألَا تتفق معي؟»

«أنا أتفق معك دائمًا يا آنسة سارتويل. أنا غبي، في أفضل الأحوال، ولكني عادةً ما أدرك الاتجاه الصحيح عندما يوضحه لي أحد. وهذا عيب خطير في شخصيتي: لا تتضح لي الأمور إلا بعدما تتضح للجميع، ثم تبدو لي واضحةً تمامًا؛ حتى إنني أتساءل كيف أني لم أُلاحظها قبل ذلك. ولا يصبر الناس على من هم مثلي لدرجة أني أشعر بالأسف على نفسي في بعض الأحيان؛ أؤكد لك أن هذا ما يحدث! لو أنهم يكلفون أنفسهم بعض العناء ... ولكن بالطبع لا أحد يهتم بما إذا كان المرء سيسلك طريقًا صائبًا أم خاطئًا.»

صاحت الفتاة على الفور: «أوه، على العكس، إنهم يهتمون! أنا واثقة من أنني أهتم كثيرًا.»

رد عليها بارني في إحباط: «أنت تظنين أنك تهتمين، ولكنك لن تخاطري حتى بتلقي ولو قليلًا من التوبيخ في المدرسة، لتسديني النصيحة التي أنا في أمس الحاجة إليها في الوقت الحالي.» واستطرد الشاب الذي يملؤه الشعور بالظلم بتنهيدة قوية: «ولكن هكذا يسير العالم. كل ما أريده منك هو الخروج برفقتي في جولة قصيرة بالعربة، وإخباري بكل ما تعرفينه عن الكارثة التي وقعت، وإبداء رأيك فيما يجب عليّ فعله في ظل هذه الظروف. لقد أحضرت هذا الموكب من لندن خصّيصى لكي أصحبكِ في نزهة. ليس المقصود أن أعرض عليكِ أي

شيء تخجلين منه؛ فقد أتيت إلى هنا بموافقة والدك. وأرسلت رسالةً إلى مديرة المدرسة أخبرها بذلك، ولكنها ردت بتأنيب شديد. ثم أرسلت لك مباشرة، ولكن خطابي أُعيد لي مع تلميحٍ بأنني أحاول أن أفعل شيئًا في الخفاء. وهكذا، وكما ترين، لقد بذلت قصارى جهدي لكي أكون نزيهًا وصادقًا، ولكن الصادقين لا يبلغون ما يصبون إليه. وهذا تحديدًا ما يدفع الناس لارتكاب الجرائم. ثم لجأت إلى طرق أكثر ريبة، واستعنت بذلك الشاب — نسيت اسمه — ليحمل رسالةً لك. وقد أغضبك ذلك ...»

«أوه، لا!»

واصل بارني حديثه في أسف قائلًا: «لطف منك أن تقولي ذلك، ولكني معتاد خيبة الأمل، والمزيد منها لن يضر. لقد أدركت الآن أني أخطأت عندما أرسلت لك الخطاب بهذه الطريقة؛ فلطالما أُدرك مثل هذه الأمور بعد وقوعها، ولكني كنت مجبرًا على ذلك. أتوقع أن ينتهي بي المطاف سجينًا ذات يوم، دون أن أدرك ما ارتكبت من جرم إلا بعد أن يُصدر القاضي حكمه. أعتقد أنه يجدر بي أن أترفّع عن الحاجة لسماع كلمة تحفيز من وقت لآخر، ولكن يبدو أنني لا أفعل.»

سألته الفتاة وقد غشيت وجهها مسحة من الحيرة: «ماذا تريدني أن أفعل؟»

«كل ما أريده منك هو نصيحة مباشرة من عقل راجح. إن الفن يوجهني في اتجاه واحد، وينصحني بألّا أتدخل في شئون الشركة. وقد قلتِ الآن إني لا بد أن أكون في المصنع الآن، وإنه لا يجدر بي أن أتسكع هنا بينما ثمة الكثير لفعله هناك. ويبدو جليًا أن السيد سارتويل يأمل في أن أظل بعيدًا عن الصورة، وإلا أخبرني بأمر الحريق. يبدو أني شخص بلا قيمة ولا حاجة لأحد لي؛ حتى الشرطة. ماذا أريد منك إذن؟ أريد منك

أن تسمحي لي باصطحابك في جولة قصيرة بالعربة في الريف، وتخبريني بما يمكنني فعله لأساعد والدك في تخطي هذه الأزمة.»

قالت إدنا وهي ترمق العربة ذات الحصانَين بتشكك: «سألفت الأنظار كثيراً في هذه العربة. لا؛ دعنا نَسِر حتى نهاية الموكب. وهناك يمكننا أن نجلس وسأخبرك بكل ما أعرفه عن الحريق، وإذا كان لنصيحتي أي قيمة، فلتأخذ بها. بعد ذلك، عليك أن تدعني أسير إلى المدرسة بمفردي.» كان بارني مجبراً على تقبُّل ذلك، وأمر سائس الخيل على مضضٍ بأن يأخذ الحصانَين إلى الإسطبل.

وسار الاثنان بمحاذاة الموكب نحو المقعد الأكثر انعزالًا حيث جلسا معًا. كان عقل الشاب يدور في دُوامة؛ فقد جعله استقبال إدنا البارد له يضطرب، ويخشى فقدان ما كان يعتقد، حتى هذه اللحظة، أنه طلب مُجاب.

لقد تقدم للفتاة ورفضته.

الفصل السابع والعشرون

ثمة اعتقاد سائد بأن الفتيات في بلادنا يرحّبن بالأحاديث التي يلقيها شباب الطبقة الراقية على أسماعهن، وأن سعادة الفتاة تزداد كلما زاد عدد عروض الزواج التي تتلقاها. غير أن هذا ليس سوى مجرد افتراض، وللأسف لا توجد أي إحصاءات يمكن لمؤرخ حريص على دقة العرض أن يعتمد عليها في تأكيد هذا الرأي أو دحضه. والمؤسف أن الإحصاء السكاني، الذي يجمع الكثير من الحقائق المثيرة المتعلقة بالجنس البشري في صورة جداول، لم يولِ اهتماماً لهذا القسم الفرعي من البيانات الخاصة بالبشر، ما يجعله بعيداً كل البعد عن تكوين أي تقدير حاسم للشعور الذي يراود الفتاة، عندما تتلقى مجاملةً لا شك فيها في صورة عرض زواج؛ ما يضعنا في جهالة بشأن عدد عروض الزواج التي تتلقاها المرأة في المتوسط ما بين سن السابعة عشرة والسابعة والثلاثين. الغريب في الأمر أن الحكومة الفضولية التي لا تجد غضاضةً في مطالبة النساء بتدوين أعمارهن بقلمٍ أسود على ورقةٍ بيضاء كل عشر سنوات؛ تبدو عازفةً عن التحقيق في مسألة مهمة يتوقف عليها رخاء الأمة في المستقبل إلى حدٍّ كبير كتلك؛ وبذلك لا يمكن لأحدٍ أن يقرِّر بصورة أكيدة أن عروض الزواج تلقى تقديراً عالياً ممن يتلقّيْنَها، ويحسم الجدل بأن يوجه المشككين إلى الكتاب الأزرق محدداً لهم العدد والصفحة.

ومع استحالة تعميم هذا الوضع، يُضطر الكاتب الدقيق إلى العودة إلى الحالات الفردية، ولا بد من تسجيل أن إدنا سارتويل قد هُرعت عائدةً إلى مدرستها يملؤها الفزع واليأس، وبعيدة كل البعد عن أي شعور بالسعادة أو الفرح؛ لأن شابّين طلبا منها في أسبوعٍ واحدٍ أن تشاركهما مستقبلهما،

على اختلافهما. فبينما هي على مشارف الأنوثة، إذا بها فجأةً وبدون سابق إنذارٍ تُواجَه بأوضاعٍ جعلتها تتمنّى لو أنها عادت إلى الحياة الهادئة التي لم يكن يعكّر صفوها شيء، التي كانت تعيشها من قبل. وأصبح هذان الحدثان المزعجان، اللذان وقعا الواحد تلو الآخر مباشرة، يتملّكان تفكيرها بما لا يتناسب مع ضآلة أهميتهما، وهدّدا بإلقاء ظلالهما الداكنة على مستقبلها. فقد بدا أمرًا مفزعًا أن يصبح مصيرا رجلَين مرهونَين بها، وأن يُلقى على عاتقها مسئولية جسيمة كاتخاذ قرار، دون مساعدةٍ من أحد، بشأن مسألةٍ شديدة الخطورة سيترتّب عليها عواقب بعيدة المدى. وإذا كان هذا هو تصرف أول شابّين تتعرّفهما، فماذا عليها أن تتوقع من الشبان الكثر الذين من المرجّح أن تلتقيهم في المستقبل؟ فلم يكن يستهوي المسافرة الصغيرة أن تخطوَ بقدمها على طريق معبّد بالقلوب المفطورة، ولم تكن الحياة التي تُقضى في جوٍّ من الزفرات الحارة تُحتمل. كانت الفتاة تخشى المستقبل الذي حمل لها الكثير من الحيرة؛ لأنها لا تستوعب إلا جزءًا منه فحسب. «غالبًا ما يكون مهمًا أن تصنفي مشكلتك لتتمكني من حلها»، هكذا أخبرها والدها ذات مرة؛ إلا أن الحل والتصنيف بدوَا على القدر نفسه من الصعوبة بالنسبة إليها.

تقبّل بارني رفضها له على نحو سيئ. فلم يحاول أن يخفي حقيقة أن حياته كانت فاسدة، وأنه سيعاود دخول العالم رجلًا مختلفًا، ولكنه أصر بشجاعة على تحقيق أكبر استفادة ممكنة من التجربة السيئة التي مر بها. سيقطع الطريق القاسي الوعر الماثل أمامه، الذي لم يتسلّل إليه ضوء الحب أو التعاطف الإنساني، بإصرارٍ جاد، وإن كان كئيبًا، مُزيحًا جانبًا توافه الوجود، ومواليًا وجهَه شطر رحلة الحياة الكئيبة بإصرارٍ حزينٍ لا يخلو من العناد، دون انتظار أي مثوبةٍ سوى أن يجدَ العزاء في معرفة أنه ترك العالم أفضل، ولو قليلًا، بفضل عيشه فيه.

ولأن خبرة إدنا في الحياة محدودة، لم تتمكّن من منع نفسها من المقارنة بين تصرفات هوب وتصرفات مارستن، والتي لم تكن في صالح الأخير تمامًا. لم يكن لديها أدنى شكٍّ في أن مارستن في الواقع أمامه طريق صعب وشاق، ولكنه لم يتفوّه بأي عباراتٍ رنانةٍ أو ادعاءات بطولية مبالغًا فيها حيال ذلك، ولم يطلب منها شيئًا سوى أن تتذكره. شعرت بالأسف لأنها لم تُعطِ مارستن أي كلمة تشجيع، أما بارني فجعلها تشعر بطريقةٍ ما بأن اللوم في حالته يقع عليها، وأنه رجل تعرض للظلم. ومن ثم كان من الصعب إدراك الطبيعة الخطرة أو المشقة التي تكتنف مسيرة بارني المهنية المستقبلية، في ظل علم الجميع أنه يملك مالًا وفيرًا قد يُفسد حياته. ويبدو أن هذه الفكرة قد تبادرت إلى ذهن بارني عندما كان يتحدث إليها؛ إذ تحدث عن ثروته بمرارة وازدراء، وكم أنها تعيقه وتقيِّده، وعن نيته التخلي عنها بالكامل عندما تصبح الثروة بالكامل بين يدَيه، وسيبدأ حياته من جديد محققًا أمجاده الخاصة وما يكفي من المال، مهما كان قليلًا، لسد احتياجاته البسيطة، بمهارة يده اليمنى التي من المفترض أن تساعدها فرشاة الرسم، وبهذا القرار النبيل، لن يكون من العدل لومه على امتلاك ثروة لم يكن له يد في جمعها.

أسرعت إدنا الخطى في اتجاه المدرسة، لا يشغلها التوبيخ الذي ينتظرها، بقدر ما يشغلها أحوال هذا العالم المتناقضة. كانت بحاجة إلى النصح شأنها شأن بارني، ولكن لم يكن ثمة من يمكنها الوثوق به وائتمانه على أسرارها. فكّرت في إرسال خطاب إلى والدها متذكرةً وعدها له بأن تُخبره بكل ما يؤرقها، ولكنها تراجعت عن الفكرة بمجرد أن تكوّنت في ذهنها. علاوةً على ذلك، فقد تمّت تسوية كلتا المسألتَين أخيرًا وإلى الأبد، فما الحاجة إذن إلى إزعاجه دون داعٍ بصفحة من حياتها طُويت وانتهت؟ وتأجج في قلبها اشتياق عميق جارف إلى أمها التي لم تلتقها في حياتها، والتي أصبحت تفتقدها في هذه اللحظة أكثر من أي وقت مضى.

وعندما تذكرت صورة المرأة الجميلة ذات الوجه الحسن المعلقة في مكتب والدها، التي كانت عيناها الحانيتان تشعان حبًّا وعطفًا لها، اغرورقت عيناها فجأةً بالدموع التي كانت تحاول منعها، وأخذت تنتحب قائلة:

«أنا وحيدة ... وحيدة!»

عندما وصلت إدنا إلى المدرسة، توجهت إلى غرفتها مباشرةً حيث وجدت خطابًا ينتظرها من زوجة أبيها، ما ساعدها في طرد الأفكار الحزينة التي ملأت ذهنها أكثر من أي شيء آخر. وجاء نص الخطاب كالآتي:

عزيزتي إدنا المسكينة:

لا شك أنك قد علمت بخبر الفاجعة المؤلمة التي ألمّت بشركة مونكتون آند هوب، الفاجعة التي أخشى ألّا تتعافى الشركة من توابعها، على الرغم من أن والدك، كعادته، يسخر من توقعاتي ويقول إن التأمين سيغطّي خسائر الشركة بالكامل، كما لو أن بإمكان بوليصة تأمين أن تغطّيَ الآثار البعيدة المدى لكارثةٍ كهذه! يبدو أن ثمّة بعض الشكوك في أن الحريق قد وقع بيد بعض العمال الساخطين، الذين ربما فاض بهم الكيل من المعاملة التي يتلقّونها، على الرغم من أن هذا لا يُعتد به باعتباره مبررًا للجريمة. ولكننا جميعًا مخلوقات ضالة محدودة البصيرة في هذه الدنيا، كلٌّ منا ملوثةٌ نفسه بالخطيئة الأولى، لا نستطيع الإقدام على أبسط فعل يكون مقبولًا، من دون توجيه من قوة عليا، ودائمًا ما نكون عرضةً للزلل والعثرات إذا ما تجاهلنا هذه التحذيرات التي يُمطَر بها الصالحون والطالحون على حدٍّ سواء، من أجل نفعنا؛ ولكن إذا

غضضنا الطرف عن هذه التحذيرات — أو سخرنا منها، وهو الأسوأ — فكيف لنا أن نأمل في الاستفادة منها وتصحيح مساراتنا، مثلما هو مقصدها الذي وضعته العناية الإلهية الدائمة التسامح، المتلهفة للغفران فقط إذا أظهرنا رغبةً فيه؟ وعندما سألت والدك بكل رفق واحترام (آمل أني قد أصبحت الآن أعرف واجباتي بوصفي زوجة!) عما إذا كان الحريق قد علّمه أي دروس مهمة، ردّ بصفاقة مؤسفة لم أرَها في حياتي من قبل — تلك الصفاقة التي كنت أحاول أحيانًا تقويمها في سلوككِ يا طفلتي المسكينة — أن الدرس الذي تعلمه هو الحاجة إلى تحسين التغطية التأمينية، ووضع سلالم هروب في الطوابق العليا من المصنع، كما لو أن ذلك الأسلوب البذيء مناسب تمامًا لاستخدامه في الحديث عن حدثٍ جلل، ذهبت على أثره روحان خالدتان إلى خالقهما من دون أي تحذير، حين احترقتا، على حد علمنا، بفعل نيران بائدة لتتحولا إلى ألسنة لهب نيران لا تخمد أبدًا! لم تترك جدوى هذه الفكرة أي انطباع لدى والدك، الذي لا يزال على عناده المعتاد، وأخشى ما أخشاه ألّا يتحرى مزيدًا من العدل تجاه عماله بعد كل ما حدث. لقد طرد والدك شابًا مسكينًا يُدعى مارستن من العمل دون رحمة، وربما أصبح هذا الشاب حاليًا يهيم على وجهه في الشوارع باحثًا عن عمل ويتضور جوعًا، دون أن يعرف أحد أو يكترث لما ألم به. اسألي والدك عن سبب طرده من العمل إذا أردت أن تعرفيه، ولا تسأليني أنا. إنه لا يهتم إلا بالتفاخر، ثم التفاخر، ثم التفاخر! طفلتي العزيزة، خذي حذرك قبل أن يفوت الأوان؛ فالقادم لا يبشر بخير. ولا تسمحي للقسوة بأن تغزو قلبك.

سأواصل التضرع من أجلكما؛ فرحمة الرب واسعة لا تنضب.

أمك المحبة الحزينة

سارة سارتويل

لم تفشل النوايا الخيرة لهذا الخطاب في تحقيق هدفها، ولا شك في أن السيدة سارتويل كانت ستسعد لو عرفت أن قراءته قد عادت بالكثير من الخير على من تلقّته. فقد كان لهذا الخطاب مفعولٌ مقوٍّ ومنح إدنا شيئًا لتفكّر به، وأزاح من ذهنها أيّ أفكارٍ كئيبةٍ تتعلّق بالدمار الذي ألحقته بحياة بارني.

مثّل طرد مارستن من العمل صدمةً كبيرة للفتاة، ورأت للمرة الأولى في حياتها أن والدها لم يتصرف بإنصاف. وعندما فكرت إدنا في هذه المعلومة للوهلة الأولى، اعتقدت أن والدها عرف، بصورة أو بأخرى، بأمر زيارة مارستن إلى إيستبورن، ولكن بعدما فكرت في الموضوع بتأنٍّ، استنتجت أن طرده جاء نتيجة لقائهما في الحديقة وعثور والدها على مارستن هناك. إذن، كان السبب في أن الشاب كان لديه الوقت الكافي للحضور إلى إيستبورن هو أن وقته قد أصبح ملكه الآن. ولكنه لم يذكر لها شيئًا مما حدث حتى عندما سألته عن كيفية خروجه من ورديته. كما أنه تحدث عن والدها باحترام رغم شعوره بأنه قد تعرض للظلم، دون أدنى شك. لم تمعن التفكير في أي من كلماته الطيبة عندما قالها، ولكنها بدأت تتذكرها الآن. وقرّرت أن تكتب خطابًا إلى والدها وتخبره بشأن زيارة مارستن ونتائجها، ولكن عندما جلست والورقة أمامها، وجدت نفسها لا تعرف كيف تبدأ رسالتها. كانت تريد أن تطلب من والدها أن يصحّح الخطأ غير الضروري الذي ارتكبه في حق مارستن؛ فلم يكن ثمة أي احتمال أن تتزوج من هذا الشاب، ولكنها عندما همّت بكتابة كل هذا على الورق، بدت المهمة شديدة الصعوبة. وزادت المهمة صعوبةً بعلمها أنه لا بد وأن بال والدها منشغل بقدر يفوق قدرة أي أحد على التحمل، وتخيلت هذا الرجل الصموت جالسًا في المنزل منهكًا من يوم متخم

بالعمل والقلق، بينما صوت زوجته الرتيب يلقي على مسامعه الدروس الأخلاقية، المستفادة من كل عقبة جديدة عليه تخطيها. لا، لن تضيف إلى الأعباء الملقاة على كاهل والدها عبئًا جديدًا.

جلست إدنا مسندةً مرفقيها على المكتب وذقنها بين يدَيها، تحدّق في الفراغ أمامها بعينَين قلقتَين، كما لو أن المشكلات التي تزعجها متجسّدة في الهواء أمامها، وربما تُنوم مغناطيسيًا لتتوصل إلى حلها. كان من السمات المحيرة للأمر أنها كانت مضطرةً مؤخرًا أن تعدّل من أفكارها باستمرار، وتربطها بصورة صحيحة مع حقيقة جديدة نمت إلى علمها. وحملت حواراتها جميعها مع والدها، وكذلك الكثير من أفعاله، معنًى جديدًا تمامًا، بعدما علمت أن والدها كان يعلم بحب مارستن لها. ومرةً أخرى، ألقت حقيقة طرد مارستن من عمله في نفسها لوعة حزن شديدةً حين تذكرت إعلانه الحماسي بأنه سيجتهد، من أجلها، لإرضاء أي رئيس سيعمل تحت إمرته، كما لم يفعل رجل من قبل. لم تتفق إدنا مع زوجة أبيها في مخاوفها من أن مارستن لا يجد ما يسد به رمقه، إلا أن خيالها اتقد عندما فكّرت في كلماته الحماسية الموجهة إلى ابنة الرجل الذي زج به إلى الشارع، قبل يوم أو يومَين، وإصراره الشديد على تحقيق النجاح. وكلما أطالت التفكير في تصرف والدها، زاد جَوره وضوحًا في عينَيها. حاولت أن تبدأ كتابة الخطاب مرات عدة، ولكنها في كل مرة كانت تعود إلى تأملاتها. وتلاشى بارني وأحزانه الوهمية تمامًا من ذاكرتها. وخلصت تدريجيًا إلى أنها إن لم تتدخل لصالح مارستن، فستُحمّل نفسها مسئولية استمرار الظلم الذي يتعرّض له، وعلى الرغم من رغبتها في إعفاء والدها من كل ما يُساوره من قلق إزاء مشاعرها تجاه مارستن، كانت لا تزال تشعر بالخجل من التطرق إلى هذا الجانب من الموضوع. ربما يمكنها في وقت ما، عندما تجلس على ساق والدها، أن تُخبره بالأمر، متحاشيةً النظر في عينَيه، ولكنها لم تستطع أن تُخبره بما تريد مكتوبًا في خطاب.

تمكنت أخيراً من كتابة خطاب أرسلته عبر البريد سريعًا؛ خشية أن تؤدي إطالة التفكير في المسألة أكثر من ذلك إلى عدم إرساله على الإطلاق.

أبي العزيز:

أنا واثقة من أنك مشغول للغاية، وربما قلق للغاية أيضًا في الوقت الحالي. أنت تعلم أني لا أريد أن أزيد من أعبائك، بل أريد أن أخفّفها عنك إذا استطعت، ولكني في هذا الأمر عاجزة بقدر ما أنت قويَ. لقد عقدنا اتفاقًا منذ فترة، وهذا ما دفعني لكتابة هذا الخطاب. لقد حدث أمر ما أشعر بأني مسئولة عنه جزئيًا. وصلني خطاب اليوم من زوجة أبي تخبرني فيه بأنك طردت السيد مارستن من العمل، وتعتقد أنه ربما يبحث الآن عن عمل دون جدوى. وأخشى أنك غضبت حين وجدته يتحدث إليّ في حديقة منزلنا، ولكن هذا خطئي أنا وليس خطأه. إذا كان هذا هو سبب طرده من العمل، أفلَا يمكنك أن تعيد التفكير في هذا القرار وتعيده إلى عمله؟

ابنتك المحبة
إدنا

جاء الرد على خطابها خلال وقت أقصر من الوقت اللازم لوصوله إلى لندن، طبقًا لتقديرها.

ابنتي العزيزة:

كان يجب أن أُرسل لك منذ أيام، ولكن للأسف، لا يمكنني أن أُملي خطاباً عاطفياً على موظف الآلة الكتابة لديّ، وكلما تقدم بي العمر، زاد عزوفي عن الكتابة بيدي. تقولين إنني قلق؟ أوه، لا! ما الذي يجعلني قلقاً؟ أخشى أن والدك المقاتل المسن لا يزال يهوى القتال، سواء ضد الظروف أو ضد البشر. قبل أن تُطفأ النار، أُرسلت طلبيات عبر البرق إلى ثلاث شركات لبيع الماكينات في الشمال. وبينما كانت سيارات الإطفاء لا تزال تهيل المياه على الأنقاض، كنت قد أجّرت المنازل الأربعة المجاورة للورش، وأخليتها من مستأجريها رغم شغلهم لها. وفي تلك الليلة، بدأ الرجال يهدمون الأبواب التي تفصل بين الأقسام ويقوون الأرضيات. لحسن الحظ، لم تُمس المحركات والغلايات بسوء؛ إذ كانت في مبنًى منفصل، وتمكّنا بالفعل من نقل أكبر عدد ممكن من الماكينات إلى هذا المكان، ومددنا حبلًا حديدياً طويلًا متدلياً دائم الاهتزاز لإمدادها بالكهرباء عبر الفناء. طلب أمين النقابة الجديد أن يعقد اجتماعاً معي لمناقشة ما تنوي الشركة تقديمه إلى العمال الذين أصبحوا عاطلين بسبب الحريق. ورفضت مناقشة أي شيء مع أمين النقابة الجديد، كونه ليس أحد موظفي شركتي. إنه أذكى من جيبونز؛ فشكّل على الفور وفداً من عمالي وأرسلهم إليّ. واستقبلتهم بالطبع، وسألوني عما إذا كنت على استعداد لأن أدفع لهم خمس عشرة بالمائة من أجورهم أثناء فترة بطالتهم. قلت لهم: «لا، يمكنني أن أتفوق على النقابة العمالية دائماً. سأدفع لكم أجوركم كاملة، وليس خمس عشرة بالمائة منها؛ فأنا أتوقع أن تعودوا جميعاً إلى وظائفكم بحلول يوم الإثنين.» ظني أنني استطعت إدهاش العمال إلى حدٍّ ما. سيعود العمل إلى مساره الطبيعي في غضون أسبوع، ولن نتأخر في تسليم طلبية واحدة. وسيُبنى المصنع الجديد، الذي بدأ بناؤه بالفعل، وفقاً لأحدث

الأفكار، وأتوقع أن يستطيع توسيع نشاط شركتنا، بحيث نحتفظ بالمنازل الأربعة المستأجرة عندما يصبح المبنى الجديد جاهزًا. اغفري لي رضاي عن نفسي، ولكن على المرء أن يفتخرَ بنفسه من وقتٍ لآخر أمام شخصٍ ما، وأنت يا عزيزتي إدنا الوحيدة التي يمكنني التباهي أمامها.

نعم، لا يزال اتفاقنا ساريًا، وأنا سعيد أنك ذكرت خطاب زوجة أبيك، وإن كنت أتمنى ألّا تأخذي أيًا من تعليقاتها شبه الهستيرية عن طغياني على محمل الجد؛ فعلى المرء أن يتصرف، ومن يتصرف فلا بد أن يرتكب أخطاءً. ربما كان طرد مارستن من العمل خطأً. لا أرى أنه خطأ من وجهة نظري، ولكن زوجة أبيك تراه كذلك بالطبع، ولأن الحقائق تُربكها دائمًا، فهي ترى أنه أصبح يتضور جوعًا، وأمورًا من هذا القبيل تحدث الآن. كل شيء يعتمد على نظرتك للأمور يا إدنا. عود ثقاب يسقط سهوًا أو عن عمد على مواد قابلة للاشتعال، ثم تحدث تغييرات كيميائية معينة، وينتج غاز حمض الكربونيك، فيتهاوى المصنع إلى أنقاض متحولًا إلى وقود للنار. يبدو كل هذا طبيعيًا تمامًا بالنسبة إليّ، ويتفق تمامًا مع الأبحاث العلمية. ولكن وجهة نظر زوجة أبيك مختلفة. إنها ترى تدخُّل القدر، ولأني لا أرى المثل، تراني أستهزئ بالذات الإلهية. إنني أومن بالقَدَر وأثق به مثل أي شخص، ولكن في اعتقادي أن القدر يعمل بتعقل. فهو لا يدمر مصنعًا ويقتل رجلَين لمجرد أن يريني أنني مخطئ؛ فهو قادر على أن يحقق هذه الغاية بتكلفة وعناء أقل. لا أعتقد أن القدر أقل تعقلًا من ابنتي الصغيرة التي تتبع النهج الصحيح دائمًا. إنها تقول برقة وحنو: «أبي، أعتقد أنك مخطئ، وأريدك أن تعيد التفكير في الأمر.» لا تحاول أن تُثبت أني طاغية عديم الرحمة. سأعيد التفكير على الفور، وأعيد مارستن إلى عمله،

ولكن هذا لم يعد ضرورياً. فهو الآن الأمين الجديد للنقابة العمالية، ويتقاضى أجراً أكبر من أجره في مصنعي، وصار وقته ملكه فعلياً، ويمتلك فرصةً كبيرة للإيذاء إذا ما اختار أن يمارس سلطته. وينتابني شعور قوي بأني سأكون مضطراً إلى مواجهته في غضون سنة أو اثنتين أو ثلاث. ستكون مواجهةً مثيرة، ولكني سأنتصر. وبهذا التباهي الأخير، أختتم خطابي الطويل. آمل أن أتمكن من القدوم لرؤيتك يوم السبت، وحتى ذلك الحين، أغدقي كل ما لديكِ من تعاطفٍ على ذلك الطاغية ذي القبضة الحديدية.

والدك

الفصل الثامن والعشرون

ترك بارني عربته ذات الحصانَين في رعاية خادمه وغادر إلى لندن بالقطار. جلس متجهمًا في أحد أركان مقصورة تدخين بالدرجة الأولى يصب اللعنات على العالم. وتمكن من تدخين كمٍّ كبيرٍ من السجائر خلال الفترة التي أمضاها القطار من البحر، وصولًا إلى محطة تشارينج كروس، وبينما كان يدخّن، اتخذ قراراتٍ صارمةً وبطوليةً تتعلّق بمسيرته المهنية. سيأخذ الأمور الآن على محمل الجد. سيُدير أعمالَه بنفسه. وأدرك في الضوء الساطع لخيبة الأمل الكبيرة التي مُني بها أنه، حتى هذه اللحظة، أولى الكثير من الاهتمام إلى إنتاج الأعمال الفنية، دون أدنى اهتمامٍ بالترويج لها. ولم يكن ثمّة أملٌ من انتظار التقدير لأعماله من جمهورٍ أحمق لا يملك حس النقد الفني، ولم يظهر بعدُ الناقد العظيم الذي كان يبحث عنه وبداخله يقين أنه سيجده. إذن بما أن الناقد لم يظهر بعد، فعليه أن يجعله يظهر. سوف يشتري أكثرَ ناقدٍ فنيٍّ باهظ الثمن في السوق، وحينئذٍ سيعلم العامة المتخلفون أن ثمة عبقريًا كان يعيش بينهم دون أن يلحظه أحد.

عندما أصبح لخططه الشاملة شكلٌ نهائي، كان القطار قد وصل إلى النفق ذي السقف الزجاجي في محطة تشارينج كروس. قفز بارني في عربةٍ واتجه إلى المصنع مباشرة. حدّث بارني نفسه بينما كان يحدّق حوله إلى الأنقاض التي خلّفها الحريق قائلًا: «يا لبشاعة المكان!» فقد كانت الأرض مغطاةً بأكوامٍ متناثرةٍ من حديدٍ محترقٍ وملتوٍ، فيما تناثرَت أكوام أخرى من مواد بناءٍ جديدة في كل مكان. آذَت الفوضى والقبح اللذان عمّا المكان برمته حسه الفني المرهف، وشكر حظه الحسن

على أنه ليس مضطراً لقضاء أيامه في هذا المكان. توجّه إلى سارتويل الذي كان يناقش مسألةً ما مع المهندس المعماري وصافح مدير المصنع بحرارةٍ ومودة.

وصاح قائلًا: «سيد سارتويل، لقد أتيت بمجرد أن علمت بأمر الحريق.»

فرد عليه مدير المصنع بجفاء: «آه. هل كنت في أمريكا؟»

ضحك بارني قائلًا: «لا، لم أكن في مكانٍ بعيد إلى هذه الدرجة، ولكني لا أقرأ الصحف على الإطلاق، كما تعلم، وسمعت بأمر الحريق بمحض الصدفة. وها أنا ذا رهن إشارتك بالكامل، وعلى استعدادٍ لفعل أي شيءٍ وكل شيءٍ تريده مني. أفضّل ألّا أحمل الطوب، إذا كانت ثمة مهمة أخرى يمكنني القيام بها، فأنا على استعدادٍ للمساعدة بأي شكلٍ كان. ولا مانع لديّ أن أخبرك يا سيد سارتويل، أني بوضع نفسي رهن إشارة الشركة، إنما أضحّي بالكثير؛ فالفن يحتاج إلى وقت طويل والوقت يمر سريعًا كالريح، ولديّ عمل لأؤديه في مرسمي، عمل ربما لا ترى أنه يستحق الاهتمام، ولكني آمل ألّا تتفق معك الأجيال القادمة. ولكن هذا لا يمنع أني قد أتيت. فمرني.»

قال سارتويل راسمًا ابتسامةً واجمةً على شفتَيه: «في الواقع إنك تُسيء فَهْمي. إني لأرى أن قيمتَك في المرسم أكبر بكثيرٍ من قيمتك هنا. لا شك لديّ في أنني والأجيال القادمة سنتفق في تقديرنا لأعمالك. فالفنانون قلة والعمال كُثُر. وستكون كارثةً حقيقية أن تتداخل أزمتنا الحالية مع عملك الفني. لذا، على الرغم من سعادتي بعرضك الكريم بالمساعدة، لا يمكنني التفكير في قَبوله. لا، المرسم هو مكانك الحقيقي يا سيد هوب.»

«إنه لَلطفٌ غير معتادٍ يا سيد سارتويل أن تُبديَ كل هذا الإطراء اللطيف على جهودي، وأؤكد لك أني أُقدِّره للغاية؛ فأنا لا أتلقّى الكثير من التشجيع، حقًا لا أتلقّى أي تشجيع. فنحن نعيش في عالمٍ مادي متوحش، كما تعلم. هل عاد أبي إلى الوطن؟»

«نعم؛ عاد ليلة أمس.»

«آه، لم أعلم بعودته. لا بد أنه منزعج للغاية، أليس كذلك؟»

«قلق بعض الشيء.»

«أمر طبيعي. حسنًا، إذن لا يوجد ما يمكنني تقديمه لك، أليس كذلك؟»

«لا شيء، إلّا إذا تولّيت مهمة تصميم ديكورات المصنع الجديد، وبذلك ستكون قد أرسلته إلى الأجيال القادمة، وسيصبح مخلداً كجداريات الفاتيكان. ولكن لن نحتاج إلى ذلك قبل شهر أو اثنين من الآن.»

«قُضي الأمر إذن. سأفكر في الأمر. حسنًا، إذا احتجتني، فأنت تعرف عنواني. أرسل لي برقيةً وسآتي على الفور.»

«إنه لكرم منك أن تكون على استعداد هكذا لتهب إلى المساعدة في أي وقت، ولكن خذ بنصيحتي والزم مرسمك. ولكن على أي حال، سأتذكر عرضك بالمساعدة، وسأخبرك إذا ما واجهت أزمةً أعجز عن التعامل معها بمفردي.»

صاح بارني وهو يصافح سارتويل مرةً أخرى بودٍّ غير مصطنع: «أرجو أن تفعل. إلى اللقاء إذن!»

اتجه نحو البوابات وركب العربة التي كانت واقفة في انتظاره، وملأ قلبه شعور مستحق بأنه قد لبّى نداء الواجب المُلح، بينما كانت العربة

تغادر المصنع.

كانت الرحلة طويلةً إلى مرسم هالديمان، وأخبر بارني سائقَ العربة أنه قد يُضطر لانتظاره لساعةٍ أو اثنتَين، وانطلق مسرعًا عبر سلم المدخل ودقّ الجرس. بعدما سُمح له بالدخول، سأل عما إذا كان هالديمان موجودًا، ثم صعد الدرج وقرع باب المرسم برأس عصاه قرعةً واحدةً مفزعة، ودخل.

كان هالديمان واقفًا عند حامل لوحاته واضعًا غليونًا أسود في فمه، ومرتديًا معطفًا قديمًا، وبدا من مظهره العام أنه لم يمشّط شعره منذ أسبوع. كانت ثمة رسمةٌ غير مكتملةٍ بالأبيض والأسود تزيِّن لوحًا كبيرًا من الورق المقوى، موضوعة على الحامل.

صاح هالديمان قائلًا: «مرحبًا يا بارني! أظن أن هذه طريقتك الرقيقة في الإعلان عن وصولك. تبدو أنيقًا ومهندمًا كمشرفٍ في متجر. هل تخلّيت عن الرسم واتجهت إلى هذا المجال؟»

فصاح بارني وهو يصفق الباب من خلفه ويدخل الغرفة كما لو كان إعصارًا: «لا يا صديقي، لم أفعل! كما أني لست مهندمًا؛ فقد جئت للتو من رحلةٍ بالقطار، وذهبت من محطة تشارينج كروس إلى المصنع، ومنه إلى هنا. ولم يتيسر لي ما يكفي من وقتٍ لأذهب إلى النادي لأهندم نفسي؛ فقد كنت متعجلًا للغاية لأراك. فلا تسخر مني يا هالديمان.»

«كل شيء نسبي يا بارني، وأنت تبدو في نظري كائنًا متألقًا من عالم آخر أفضل من عالمنا، حيث يملك المرء حسابًا غير محدودٍ مع الخياط الخاص به. ألن تجلس؟»

«هذا ما جئت من أجله. هيا يا هالديمان، أين مشروباتك المنعشة والصودا؟ أنا منهك تمامًا. فكن مضيافًا. ثمة الكثير يشغل فكري هذه

الأيام. لقد دمرت النار جزءاً من المصنع، وبصدد إعادة بنائه وأمور من هذا القبيل التي من شأنها أن تُنهك المرء، بما في ذلك رعاية العمال والتأكد من عدم وقوع أخطاء.»

قال هالديمان وهو يضع طاولةً صغيرةً بجوار صديقه، ويضع فوقها زجاجة شراب، وزجاجة صودا، وكوبًا: «أوه، لقد قرأت الخبر في الصحف، وتساءلت عمّا إذا كانت هذه شركتك. اعتبر نفسك في بيتك يا صديقي. هل تمانع لو عدت لمواصلة عملي؟»

صاح بارني: «نعم، أمانع! اجلس يا هالديمان. أريد أن أتحدّث إليك في موضوع مهم.»

«أنا متأخر عن موعد تسليم هذه اللوحة يا بارني. يمكنني أن أسمعك أثناء العمل. هيا، هاتِ ما عندك.»

«اسمع يا هالديمان، كم تتقاضى مقابل لوحة مبهمة المعالم كهذه؟»

تراجع هالديمان إلى الخلف قليلًا ونظر إلى اللوحة بعين ناقدة، ثم قال متشدقًا:

«حسنًا، آمل أن أتمكّن من نهب أربعة جنيهات إسترلينية من القرصان الذي يحرر المجلة التي طلبَتها مني. ستُنشر في صفحة كاملة.»

«يا إلهي! تخيّل رجلًا يرسم لوحةً مقابل مبلغ كهذا! لم أكن لأرسم خطًا واحدًا لو قلّ المقابل عن مائة جنيه.»

رد هالديمان مفكرًا: «لطالما فكرت في رفع مقابل خدماتي إلى هذا الرقم الخيالي، ولكني تراجعت خشية أن تعلن المجلات إفلاسها. فعلى المرء أن يراعي الصحافة الرخيصة بعض الشيء.» دس بارني يده عميقًا في جيب سرواله وأخرج حفنةً معتبرة من العملات المعدنية، وتخيّر منها أربعة جنيهات ذهبية وأربعة شلنات، ووضعها على الطاولة وهو يقول: «ها

هي الجنيهات التي تأمل الحصول عليها يا هالديمان. سأشتري هذه اللوحة. والآن، اجلس وتحدث إليّ. أريد منك أن تولييني انتباهك كاملًا.»

وقف هالديمان في مكانه لحظات وهو ينقل بصره ما بين المال والرجل الذي وضعه. ثم تحدث أخيرًا ببطء وهدوء قائلًا:

«بارني، إن كرّرت هذا الفعل ذات يوم، فستتعرض للضرب بسببه. للأسف لا يمكنني أن أُلقي بك من النافذة بنفسي، ولكن ثمة سائق عربة يتسكع أمام المبنى، وسأستدعيه ليساعدني إذا لم تضع هذا المال في جيبك على الفور. لا تجبرني على كسر قواعد الضيافة المقدسة.»

«لقد كسرتها بالفعل يا هال عندما غضبت. أراك غاضبًا، فلا تحاول الإنكار. كما أن سائق العربة لن يأتي؛ فأنا من استأجرته، وإذا أتى، يمكنني التغلب عليكما.»

«أنت تعلم أنه لا يمكنك استئجاري مثلما فعلت مع سائق العربة يا بارني.»

«بالطبع لا، بالطبع لا. ولا أحاول أن أفعل يا صديقي. اجلس وتعقّل. لقد أتيت إليك باعتبارك صديقًا؛ فمسيرتي المهنية تمر بأزمة. أنا بحاجة إلى المساعدة، فارفق بي. لقد صرت أتعامل مع الحياة من منظور جاد الآن، و...»

«منذ متى؟»

«منذ صباح اليوم إذا أردت. لا يهم «منذ متى». لقد خلصت إلى أنني أضيع حياتي هباءً. ستسخر مني بالطبع، ولكني أعلم أني عبقري، لست مجرد موهوب، لا، بل عبقري. ولا طائل من محاولة إثبات ذلك، أو التظاهر بتواضع زائف، إذا كان المرء عبقريًا، فهو يعلم ذلك. إذن، لمَ لا يقولها صراحة؟»

«لا أرى ما يمنع ذلك.»

«بالضبط. أخبرني يا هالديمان، كم تجني من المال سنويًا؟»

«تعني، كم من مال قليل تجني؟»

«فلتَصغ السؤال كما يحلو لك. اذكر رقمًا.»

«ما شأن هذا بعبقريتك؟»

«لا تشغل نفسك بذلك. كم المبلغ الذي تجنيه؟»

«بارني، إذا كنت تُعِد لإهانة جديدة لي بالمال، فأنا أحذِّرك من أنني لن أتحملها.»

تجرّع بارني شرابه دفعةً واحدة، وبدأ يذرع أرجاء الغرفة مفسحًا طريقًا لنفسه عبر ركل كل ما يعترضه جانبًا. وجلس هالديمان في مقعد وثير ممددًا ساقيه أمامه، وواضعًا يدَيه في جيبَيه، وراح يراقب صديقه وهو يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا بنشاط.

ثم صاح بارني قائلًا: «لطالما كانت مهنة الرسام مثار ازدراء العالم منذ بدايات الرسم. اقرأ أي رواية وستجد أن بطلتها، حال معاناتها من زيجة فاشلة، تقع دائمًا في حب رسام، دائمًا.»

«حسنًا، إنهن يتزوجن منا عمومًا.»

«نعم، ثم يعشن في تعاسة دائمة.»

«أوه، نحن كرماء ونشاركهن تعاستنا.»

«أنت تدرك ما أعنيه. دائمًا ما يتعرض الرسام للازدراء، وستجد جميع الشخصيات المحترمة في الرواية مشمئزين من اختيار الفتاة للرسام. ولكن لماذا؟»

«الإجابة سهلة. لأن من المعروف عن الخيال أنه لا يمت للحياة الواقعية بصلة. إن زوجات رسامي الأكاديمية الملكية للفنون يعشن في عظمة ورفاهية لا تحلم بهما سيدة أرستقراطية عادية.»

«هذا ليس صحيحًا تمامًا. إن السبب هو أن الرسامين لا يُديرون أعمالهم بأنفسهم. ولا يملكون أي حس تجاري. لهذا السبب هم فقراء. إذا ما اخترع أحد صابونة، ماذا سيفعل؟»

«يغتسل بها.»

«يروِّج لها. ويصبح ثريًا. وإذا ألّف رجل كتابًا عظيمًا، ألَا يجدر به أن يُعلن عن نفسه وعن كتابه بشتى الطرق المتاحة أمامه؟»

«أعتقد أنه يجدر به أن يفعل يا بارني. أين كنت تعيش طوال هذه الفترة لتكون جاهلًا لهذه الدرجة بأساليب الفنون والأدب المعاصرة المعترَف بها؟»

«ألَا تُعد لوحة عظيمة أعلى قيمةً بالنسبة إلى العالم من صابونة تحظى بترويج جيد؟»

«حسنًا، إذا أردت رأيي، فسأقول لا. فأنا أدعم الصابون كأداة أكثر قيمةً للتمدن والحضارة ضد متحف اللوفر.»

توقف بارني عن السير، ورفع ذراعيه فوق رأسه، ثم تركهما تسقطان بقوة على جانبيه.

ثم صاح بنبرة بائسة: «لا صديق لي في هذا العالم! لا أحد، لا أحد!»

«بارني، إن هذه المحادثة تحيِّرني. ما الذي ترمي إليه على أي حال؟ ما خطب الرسم، والصابون، والأدب، والدعاية، والصداقة، والزواج؟ من هي المرأة التي تقصدها؟»

«لا تحدثني عن النساء! فأنا أكرههن!»

«كنت أعتقد أنك الأكثر نجاحًا في هذا المجال. أعتقد أنك أنت من صرّح بذلك.»

«النجاح! إن المرء يحقق النجاح حتى مرحلة معينة، ثم تحدث خيبة أمل تريه كم كان هذا النجاح زائفًا. لن أتحدث إلى امرأة مرةً أخرى أبدًا.»

«لقد مررت بمثل ما تمر به عدة مرات. ولكننا نعود دائمًا إليهن، إن لم يكن إلى الحب الأول، فإلى الحب الرابع أو الخامس. أما بالنسبة إلى الأصدقاء، فلا أعرف رجلًا لديه أصدقاء أكثر منك.»

«ليسوا أصدقاء حقيقيين يا هالديمان. ليس لديّ صديق واحد حقيقي، أؤكد لك ذلك. كنت أظنك صديقًا حقًا، ومع ذلك لا تفعل شيئًا سوى السخرية مني. تعتقد أني لا أدرك ذلك، ولكني أدركه على أي حال. أنا رجل شديد الحساسية، رغم أنه لا أحد يُقدِّر ذلك على ما يبدو.»

«أنا لا أسخر منك يا بارني. ما الذي غرس هذه الفكرة في رأسك؟ أعتقد أنك لا تقدر حساسية الآخرين في بعض الأحيان. إنك تميل قليلًا إلى التباهي بأموالك في وجوه أولئك الذين لم يبتسم لهم الحظ حين تكون برفقتهم. ومن ثم تتمرد الروح الحساسة.»

«هذا طبعي المؤسف يا هالديمان. لا أقصد فعل ذلك حقًا. إذا كان لي ساق عرجاء أو قدم حَنْفاء، وجئتك هنا وأنا أعرج بها، لم تكن لتسخر من عجزي، أليس كذلك؟ بالطبع لن تفعل. حسنًا إذن، لمَ تمتعض من عيب في الشخصية رغم علمك بحسن نواياي؟»

«أنا لا أمتعض من أي شيء فيك يا بارني، من وقت لآخر فقط على الأقل.»

«أنت تعرف أني على استعداد للذهاب إلى نهاية العالم في سبيل خدمة صديق؛ صدقني! ولكني تعس الحظ. ثمة موسيقي فقير بارع أحاول مصادقته. ولكني أرى بوضوح أنه يمقتني بشدة. حتى إنني استعنت بناشر لينشر بعضاً من موسيقاه — وتحملت كل التكاليف — ولكني ذقت الأمرّين لأُقنع عازف الأرغن هذا بالسماح لي بمساعدته، وهو عبقري دون أدنى شك. وجمعت جمهوراً مختاراً يقدر الفن الراقي ليستمع إلى عزفه. ولكنه لم يحضر، رغم وعده لي بالحضور، وظن الناس أني كنت أحاول السخرية منهم. لا بد أن كل هذا بسبب طبعي اللعين. أما أنت، فتعرف دائماً الشيء المناسب الذي يجب قوله؛ أما أنا، فلا. عبقريتي لا تعمل في هذا الاتجاه. أنا فنان.»

أرجع هالديمان رأسه إلى الخلف وضحك. فحدّق إليه بارني وقطب جبينه في استياء.

«ما الذي يُضحكك الآن بحق الجحيم؟»

«معذرةً يا بارني؛ أنا أضحك على عرج قدمك الحنفاء، وإن كنت لم تظن أني قادر على السخرية من شيء كهذا.»

«ما المضحك فيما قلت؟»

«لا شيء، لا شيء. أنا أحبك يا بارني! أنت برنارد هوب الوحيد الأوحد، والآخرون ما هم إلا نسخ مصطنعة منك. والآن، استمع إليّ. لا أملك أدنى فكرة عما تريده مني. لقد تطرّقنا خلال هذه المحادثة إلى الكثير من الموضوعات، ولكني سأفعل من أجلك ما سوف تفعله من أجلي، فيما عدا جرائم الاختطاف أو الاغتيال. فأنا أفضّل ألّا أزج بنفسي إلى السجن، إذا لم يكن لديك مانع، ولكني على استعداد للمجازفة بذلك من أجلك. ماذا تريد مني؟ هاتِ ما عندك!»

«ولكن بمجرد أن أبدأ حديثي، ستقول إنك تشعر بالإهانة. أنت ترهبني يا هالديمان؛ أقسم لك أنك ترهبني!»

«هيا استمر. الإهانات ممنوعة لعشر دقائق. هل ستستمر أم لا؟»

«عظيم. لقد سألتك كم تجني من مال سنويًا، وسخرت مني.»

«أنا لا أحتفظ بسجلات حسابات، ولا أدفع دينًا إلا بعد تدخّل وسطاء؛ لذا ليس لديّ أدنى فكرةٍ عن ذلك حقًا. ولن يكون تخمينك للمبلغ أفضل من تخميني. فخمن واستمر.»

«حسنًا. أريد أن أدفع لك ضعف دخلك السنوي مقابل مساعدتك لي في هذه المسألة.»

«هذه ليست صداقة، هذه صفقة تجارية مرةً أخرى. معذرة، لقد نسيت. لا تنظر لي شَزْرًا هكذا يا بارني؛ قبلت عرضك. هل يمكنني تقاضي المال مقدمًا؟»

قال بارني وهو يصيح في جذل: «بالطبع يمكنك ذلك»، واضعًا يده في جيبه، ولكن حين دخل هالديمان في نوبة من الضحك، تحوّل تعبير السعادة على وجه بارني إلى سخط شديد، واتجه نحو الباب مطلقًا سبة. فهب هالديمان واقفًا وأمسك بكتفَي بارني الممتعض.

وصاح: «كف عن ذلك! عد إلى هنا أيها الوغد! لا يمكنك أن تعرض عليّ ثروةً ثم تتسلل خارجًا هكذا. اجلس يا بارني، اجلس وواصل حديثك العذب!»

فقال بارني بنبرة حزن عميق: «أوه، لا طائل من الحديث! قلت لك لم يكن لي يومًا صديق في هذا العالم، ولم أكذب.»

«هراء! أنت تنزعج من الدعابات أكثر من الأطفال. إذا لم يُسمح للمرء بالضحك في بيته، فأين له أن يضحك إذن؟ أنا مهتم للغاية، وأريد أن أعرف الجريمة التي تنتظر مني ارتكابها. لا عليك بالمال، ولكن أفصِح عمّا لديك.»

«المال جزءٌ من المسألة. سأدفع وإلا فلن أُخبرك بشيء.»

«بالطبع. أفهم ذلك. أنا أقبل. هاتِ ما عندك!»

«أنت تعرف جميع محرري المجلات والدوريات الأسبوعية المُصوّرة.»

«هذا صحيح للأسف!»

«سأدخل في صلب الموضوع إذن وليكن سرًا بيننا؛ أريد أن أشتري ناقدًا كبيرًا، ومحرر مجلة مُصوّرة كبرى.»

«هل تعني أنك تريد أن تشتري مجلةً رائجة؟»

«لا أعني أي شيء من هذا القبيل. لا أعني إلا ما أقول.»

«أنا لا أفهمك تمامًا إذن. فسّر ما تعنيه.»

«ما أريده كالآتي: أريد ناقدًا فنيًا كبيرًا ليكتب مقالًا في دورية كبرى يقول فيه إن برنارد هوب أعظم رسام رآه العالم.»

«أوه، أهذا كل ما تريد؟»

«لا، ليس كل ما أريد. أريد أن يكون المقال مصورًا بشكل بديع — بالألوان الطبيعية إن أمكن — بنسخ من أفضل لوحاتي.»

«آه! لم أكن لأفعل ذلك يا بارني لو كنت في مكانك. فستفضح اللوحات كذب مديح الناقد الكبير.»

«نعم، كنت أعلم أنك ستقول ذلك. إن وضوح مثل هذه الملحوظة سيجعل إبداءك لها منطقيًا. ولكني صريح معك تمامًا كما ترى. والآن هل يمكنك أن تؤدي هذه المهمة من أجلي؟ تذكر أنني لا يهمني كم سأنفق من مال.»

أخرج هالديمان الغليون الأسود من فمه، ونفضه ليخرج منه الرماد، ثم أعاد ملأه بالتبغ وهو يفكر.

ثم قال أخيرًا: «حسنًا، أرى هذا العرض وقاحةً سافرة يا بارني ...»

«نعم، أعلم ذلك، أعلم ذلك، أعلم ذلك. ولكن هذه الأمور تحدث كل يوم؛ أو فلنقل كل يومَين تجنبًا للمبالغة. سيحقّق لي ما فعله راسكين من أجل ترنر. لقد ظل ترنر يرسم طوال حياته، ولم يجد تقديرًا من أحد، ومات في تشيلسي. وأنا أعيش الآن في تشيلسي وأريد أن أحظى بالتقدير في حياتي. بالطبع سيظهر ناقد على غرار راسكين ويعرفني بعد موتي، ولكني لن أكون على قيد الحياة لأستمتع بذلك كمن حُكم عليه بالإعدام. نادرًا ما تحدث الأمور في الأوقات المناسبة في هذا العالم، وعرضي السافر هذا يهدف إلى أخذ الأحداث غلابًا وتعجيلها قليلًا. هل تفهم ما أعنيه؟ كما أني أعظم كثيرًا من ترنر.»

ظل هالديمان بضع لحظات يدخّن غليونه ويفكر، ثم قال:

«لست واثقًا من ذلك، ولكن الخدعة يمكن تنفيذها، وإن كنت لا أعلم إذا ما كانت الرشوة الصريحة السافرة ستؤدي الغرض. هل تناسبك مجلة مثل مجلة «أوار ناشونال أرت»؟»

«لا أرى أفضل منها.»

«وهل ترتضي بناقد فني فرنسي مثل فيلييم؟»

«أرتضيه تمامًا. إن كلماته إنجيل في جميع أنحاء العالم.»

«حسنًا، علمت بالصدفة أن محرر مجلة «أوار ناشونال أرت» كان يحاول طوال عام كامل أن يقنع فيلييم بالكتابة عن الفن الإنجليزي، إلا أن الناقد الفرنسي لن يأتي إلى لندن، ولو ليوم واحد مهما كان الثمن. إن فيلييم كاتب عظيم دون شك، ولكنه مبذر أعظم. سأذهب إلى باريس لجس نبضه. لن يمكنك أن ترشو محرر مجلة «أوار ناشونال أرت»، ولكنه سينشر أي شيء يكتبه له فيلييم. كما أعلم أن الرجل الفرنسي لا يهتم بما يكتبه لإنجلترا، رغم أنه يدقّق كثيراً فيما يُنشر في باريس ويُنسب إليه. فهو يعتقد أنه لا وجود للفن في إنجلترا.»

«إنه محق في ذلك أيضًا بناءً على ما يعرفه عنه، ولكنه لم يرَ أيًا من أعمالي.»

«حسنًا. إذا وافق فيلييم إذن، فستتكرم بإرسال بعضٍ من أعمالك الخالدة إلى باريس ليفحصها.»

«سأرسلها جميعًا يا صديقي، سأرسلها جميعًا.»

«اتفقنا إذن. سأبذل أقصى ما في وسعي.»

صاح بارني بعاطفة جياشة: «حفظك الرب يا صديقي العزيز! حفظك الرب!» واعتصر يد هالديمان المجفل حتى كاد أن يحطمها، معلنًا إياه صديقه الأوحد على الأرض. وهبط درجات السلم مُحدثًا جلبةً كما لو كان جنديًا مغواراً، وقفز في العربة التي تنتظره، وانصرف.

الفصل التاسع والعشرون

توجه مارستن إلى عمله مفعماً بحيوية وإصرار ربما لم يشعر بهما مسئول نقابي من قبل. فقد وضعه الحظ، أو القدر، في المنصب الذي لطالما كان يتمنى الحصول عليه. في البداية، لم يكن ثمة الكثير لفعله سوى الانتظار حتى تتعافى النقابة ممّا ألمّ بها من جراح، خلال النزاع الماضي الفاشل، ولكنه كان عاكفًا على التخطيط أثناء انتظاره، وشيئًا فشيئًا وضع النظام الذي كان يأمل أن يُحدث ثورةً في نظم العمالة على مستوى العالم. كان يراها في المستقبل جمهوريةً عمالية مترامية الأطراف، لا تقيِّدها جنسيات، بل تمتد جذورها في جميع أنحاء الأرض، وركيزتها الأساسية هي أن يكدح الفرد بيديه لإغناء الآخرين. ولكنه لم ينزلق إلى أوهام النجاح الفوري لمشروعه، ولم يُمنِّ نفسه بأن تنتشر أفكاره بسرعة انتشار وباء الكوليرا، على سبيل المثال، ولكن كان أول آماله أن يجعل للنقابة قدمًا راسخة في إنجلترا، ثم يُقدم على إضراب ناجح بامتياز — يُدار كما يدير قائد عسكري عبقري معركة — لإظهار ما يمكن لمجموعة شديدة التنظيم تحقيقه في مواجهة شركة ثرية وذات نفوذ مثل شركة مونكتون آند هوب. كان يتطلّع إلى الوقت الذي يصبح فيه جميع العمال في إنجلترا أعضاءً في النقابة العمالية، وكان يأمل في أن يتمكن بعد ذلك من ضم جميع العمال في جميع الدول الناطقة باللغة الإنجليزية، وأخيرًا ضم الأجانب الجهلاء المضللين. وعندما يتحد الجميع مثل شبكة الكهرباء في مدينة، سيتلقى الرأسماليون التعساء صعقةً مجمّعة من النظام بأكمله، إذا ما حاولوا الضغط بأصابعهم على أي نقطة منه، وسيموتون دون أن يدركوا ما أصابهم. وسيكون عتاد العمال كاملًا إلى حد ستتضاءل معه الإضرابات أكثر فأكثر حتى تتوقف تمامًا في نهاية

المطاف، مثلما تتوقف الحروب عندما تصل الأسلحة الهجومية إلى حالة من الكمال، تردع الدول عن الدخول في صراعات فيما بينها.

ستُقسّم هذه الجمهورية العمالية العظيمة إلى ولايات متعددة، وستُقسم هذه الولايات بدورها إلى أقسام أصغر بالعدد الذي ستُظهر التجربة أنه الأكثر عملية. سينتخب كل قسم أمينه، وسينتخب الأمناء حاكمًا للولاية، وسينتخب الحكام رئيسًا للمؤسسة بأكملها. ويجب أن يتقاضى كل مسئول راتبًا، حتى في المناصب الأدنى، يكفي لإعالته وإعالة عائلته دون الحاجة إلى العمل بيدَيه، حتى يُكرس كل مسئول وقته بالكامل لصالح النقابة.

أَولى مارستن الكثير من التفكير لمشكلة التوفيق بين الترقيات المستحقة والانتخابات العامة، وربما لو كان يعلم المزيد عن نتائج الاقتراع العام في مدينة مثل نيويورك، لربما أعاد بناء خطته برمتها من جديد، ولكنه كان يؤمن إيمانًا تامًا بالمَثَل القائل صوت الشعب مؤيّد بإرادة الرب، وربما لهذا السبب لم يقدِّر الصعوبات العملية التي تحدق بالنظام الذي بدا رائعًا من الناحية النظرية.

أقنعته تجربته السابقة بأنه يجب ألّا يعلِّق أي آمال على أي مساعدة فعلية من العمال؛ فمحا على الفور هذا العامل من حساباته. فكّر في أن يبدأ المعركة بحملة توعية، بحيث يتمكّن بهذه الطريقة من استغلال الوقت الذي سيمر حتمًا قبل أن تمتلئ خزانة النقابة بالأموال مرةً أخرى، ولكنه اكتشف أنه لن يتمكن مطلقًا من جمع أكثر من نصف دزينة من العمال معًا في وقت واحد، كما أن من كانوا يحضرون الاجتماعات التي يدعو إليها لا يُبدون أي اهتمام بما يريد قوله. ولكن لم يحبطه ذلك؛ فقد كان مستعدًا، إلى حدٍّ ما، لِلامبالاة التي رآها من قبل، وتذكر أن مثله الأعلى، نابليون، لم يكن يثق في أحد. كما أن نابليون كان يضرب دون

سابق إنذار، وكانت ضربته تأتي سريعةً وقوية، وقرر مارستن أن يفعل المثل بمجرد أن يتولى زمام السلطة. وبعدما أخفق في ترغيب العمال جماعةً في فكرة وجود نقابة عامة ومغلقة على العمال، حاول مارستن أن يكتسب ثقة كلٍّ منهم على حدة، ولكن سرعان ما اكتشف أنه يسلك طريقًا خطرًا بمحاولته تلك. ودُهش عندما اكتشف أن ثمة معارضةً خفية ناقمة ضده، وأن الكثير من العمال ندموا، على ما يبدو، على اندفاعهم السخي الذي وضعه في هذا المنصب. لم يكن العمال يرون أن ما يؤديه من عمل يستحق المال الذي كان يحصل عليه، ورأى البعض أنهم يعطونه أكثر ممّا يستحق؛ إذ لم يكن يؤدي أي عمل، ونصحه أكثر من عامل بأن يلتزم الصمت ويترك العمال وشأنهم، وأن يعلم أنه قد أصبح في رغد من العيش، وألّا يلفت انتباه أعضاء النقابة إلى حقيقة أنهم يدعمونه، ليعيش حياةً من البطالة والترف.

قرّر مارستن ألّا يسمح لأي شيءٍ بأن يقف في طريق نجاحه. وكان يعتقد بأنه يستحق أي راتب يتقاضاه منهم، ولا أحد في لندن يملك دافعًا أقوى منه لجمع وتكديس الأموال، ولكن كان أكثر ما يبتغيه هو أن يكون رأي العمال فيه جيدًا، وأن يُقنعهم بأنه يعمل لمصلحتهم وليس لمصلحته الشخصية. وأدرك أنه سيكون عاجزًا بمفرده، ولكن دعمهم الموحد سيمنحه حصانةً لا تُقهر.

دعا مارستن إلى عقد اجتماع لإعادة النظر في راتب أمين النقابة، وشهد هذا الاجتماع حضورًا كثيفًا؛ لأن الموضوع قيد النقاش كان يحظى باهتمام العمال أكثر من حملته التوعوية المنبوذة، التي كان الغرض منها هو تعليمهم مبادئ الاتحاد. واعتقد أغلب العمال أنه أحمق لأنه لم يكن يدرك مدى حسن حظه.

قال مارستن مخاطبًا العمال إن هدفه من شغل منصب أمين النقابة هو توحيد صفوف العمال، لضمان نجاح الإضرابات المستقبلية. لم يحُز البشر أيًا من حقوقهم دون معارك، ولكن كل المعارك يجب أن تكون ناجحة، ولن يتحقّق النجاح إلا بعد القضاء على الفُرقة بين الصفوف. وقال صراحةً إنه عرف أن ثمة بعضًا من عدم الرضا بين العمال؛ لأنه يتقاضى أموالًا أكثر من الكثير من عمال النقابة، وإنه قد أعد تقديرًا لأقل مبلغ يساعده على العيش، والذي تبيّن أنه أقل من أجر أقل موظف في المصنع. وكان على استعداد لتقاضي هذا الأجر، وتكريس وقته وطاقته كاملَين لقضية العمال بكل إخلاصٍ كما لو كان يتقاضى عشرة أضعاف هذا المبلغ.

عندما قال مارستن ذلك، هب جيبونز، الذي عثر أخيرًا على وظيفة في الجوار، واقفًا. قال إنه يعتقد أنه لا يزال من الممكن شغل منصب أمين النقابة بتكلفة أقل. فقد كان واثقًا من أن بينهم رجالًا يشغلون وظائف الآن، ويمكنهم أن يتولوا منصب أمين النقابة دون تقاضي أجرٍ من النقابة، وسيؤدون جميع الواجبات المكلفين بها بصورة مرضية لأغلبية العمال.

سأله رجل من بين الحضور: «لمَ لمْ تقترح ذلك عندما كنت أنت أمين النقابة يا جيبونز؟» وضحك البعض.

رد جيبونز وقد تصاعد حماسه تجاه فكرته: «لم أفعل لأني لم أكن أشغل وظيفةً حينئذ. لا أريد أن أُخطئ بكلمة في حق أمين النقابة الحالي، ولكني أود أن أطرح عليه بضعة أسئلة. لقد كان يومًا ما يرى أن سارتويل رجل ذكي للغاية نافذ البصيرة. أريد أن أعرف يا سيد مارستن، أما زلت على رأيك؟»

فأجابه مارستن: «أجل.»

«هل يمكنك أن تفسِّر للحضور إذن سبب عدم إقدام سارتويل على أي إجراءات أخرى من شأنها تعجيز النقابة، التي نعلم جميعاً أنه يرغب في القضاء عليها، بل وهدّد بذلك فعلياً؟ لماذا لم يشترط عندما أعاد العمال إلى المصنع أن يتركوا النقابة؟»

«أنى لي أن أعرف؟ ولكن يمكنني القول إنني أعتقد أن سارتويل رجل عادل في الأساس، رغم أنه قد يخطئ في بعض الأمور، ولا أظن أنه سيتدخل في الحرية الشخصية لموظفيه.»

«إنه لمن كرم أمين نقابتنا أن يتغزل في أمانة رجل نهب خزانتنا، ولن ننسى أن لسارتويل صديقاً واحداً على الأقل بيننا. ومن المدهش بعض الشيء أن هذا الصديق الوحيد هو الموظف الوحيد، من بين جميع موظفي سارتويل، الذي طُرد من العمل فجأةً وبدون سبب، على حد علمنا. لديّ سؤال آخر يا سيد مارستن. هل تعلم لماذا طردك سارتويل من العمل؟»

صمت مارستن واحمرّ وجهه.

فاستطرد جيبونز في هدوء: «لست مجبراً على الإجابة بالطبع. أنا أسأل فقط عما يدور في أذهان الكثير منا. وإما أنك تعلم السبب، وإما أنك لا تعلمه. لقد دعوت إلى هذا الاجتماع، وأعتقد أنك يجب أن يكون لديك الدماثة والكياسة للإجابة عن أي أسئلة — أي أسئلة معقولة — تُطرح عليك. تقول إنك ترغب في دعم العمال الذين تخدمهم. وهذه رغبة مقبولة، ولكن لكي نوليك هذه الثقة، علينا أن نعرف كل شيء عنك. سأطرح عليك السؤال للمرة الثانية، هل تعلم لماذا طردك سارتويل من العمل؟»

«نعم.»

«لماذا؟»

«بسبب خلاف شخصي بيننا لا شأن لهذا الاجتماع به.»

«أوه، حقًا! لديك إذن تعاملات شخصية مع الرجل الذي كنا نحاربه، وتفضّل ألّا نعلم شيئًا عنها. لن أضغط عليك للحصول على إجابة أكثر تحديدًا. فلا أحد مجبر على إدانة نفسه. لقد منحتُ السيد مارستن فرصةً لكي يفسّر بعض النقاط الغامضة التي حيّرت بعضنا، وأعتقد أن الإجابات التي انتُزعت منه بشق الأنفس، بعد تردد شديد الوضوح، لم تحسّن موقفه، ولم تزد من استعداد أي رجلٍ رشيدٍ بيننا لأن يمنح أمين نقابتنا تلك الثقة التي يبدو أنه يرغب فيها بشدة. أودُّ أن ألفت انتباهكم الآن إلى بعض النقاط. لقد كانت اللجنة التي كنت أعمل معها تراودها شكوك جدية، سواء عن حق أو دون وجه حق، بشأن ولاء السيد مارستن خلال النزاع الأخير. فقبل بدء الإضراب، أقر بنفسه أنه اجتمع مع سارتويل في الغرف المغلقة، كما نعلم أنه الرجل الوحيد الذي التقى العدو خلال النزاع، والرجل الوحيد الذي تمكن من إخبارنا بخطط العدو؛ للأسف، بعد أن فات الأوان للاستفادة من هذه المعلومات. وكلما مررنا بأزمة، وجدنا السيد مارستن يُلقي خطبة تدعو إلى الاستسلام، من منطلق إشفاقه على العمال بالطبع. أنا لا أُلقي باتهامات، بل أعرض حقائق يُقر بها السيد مارستن بنفسه، وإذا كان ثمة خطأ في أيٍّ مما أقول، فهو لا يزال هنا ليصحّحه لي. وكان لهذه الحقائق تأثير كبير على اللجنة، ما أثار الريبة في أذهان أعضائها؛ فقد شعروا بأن رغبة السيد مارستن في إرضاء سارتويل أقوى من رغبته في رؤية رفاقه ينتصرون، لسبب لا يعلمه إلا الله. وماذا يحدث الآن؟ انتهى الإضراب، وفوجئنا بأن العامل الوحيد الذي طُرد من عمله هو السيد مارستن. ثم كانت الخطوة التالية هي تنصيب هذا الشاب أمينًا للنقابة من خلال تصويت بالإجماع. وظني أن الاقتراع كان في صالح العمال، ولو كنت حاضرًا، كنت سأصوت للسيد مارستن. ولكن دعونا ننظر في الأمر بمزيد من التدقيق. مَن الذي روّج لانتخاب أمين

نقابتنا الجديد؟ لقد وصلت الآن إلى نقطة شائكة، وأريد أن أكون واضحاً تماماً، وأن أتحدث بإنصاف تام. من النبل «ألّا نتحدث بالسوء عن موتانا»، ولا يمكنني أن أذكر البطل برونت إلا بالخير. ولا ثناء قد يوفي هذا الرجل حقه؛ فقد ضحى بحياته في سبيل إنقاذ الآخرين.»

قوبل ما قاله جيبونز بهتاف صاخب، ومر بعض الوقت قبل أن يتمكن من مواصلة حديثه. وظل مارستن جالساً في صمت في مقعده ينتابه شعور بالعجز، كما لو كان مجرماً قيد المحاكمة. كان يشعر بأن الظروف والملابسات تُضيِّق عليه الخناق.

«مات برونت بطلاً مثلما عاش بطلاً. فقد كان واضحاً وصادقاً في معارضته لنا منذ البداية، وكان يواجهنا بنزاهة كنت أتمنى لو حاكاها سارتويل. فهو لم يحصل على أجر الإضراب على الإطلاق، واستخدم في وصفنا ألفاظاً آمل أنها نُسيت، وأعلم يقيناً أنها قد غُفرت. لم يكن في معارضته لنا أي خداع، وقصم ظهر الإضراب بضربة قاضية عندما بلغ منا الإرهاق مبلغه وأصابنا اليأس. ولكن بينما نذكر جميع محاسن شخصية برونت الرائعة، علينا ألّا ننسى أنه كان أقوى خصومنا على الإطلاق، وأنه من انتخب السيد مارستن أميناً لهذه النقابة.

أيها السادة، أنا رجل بسيط لا أرى نفسي أفضل من أي شخص عادي. ولا أبحث عن ملائكة مجنّحة بين رفاقي من العمال، بل أبحث عن دوافع دارجة وعادية في محاولة تتبُّع الأسباب والنتائج. ليس من الطبيعي أن يتوسل رجل من أجل تخفيض راتبه إلا إذا كان هذا الرجل ملاكاً، أو كان هناك سبب خفي وراء قيامه بذلك. نحن نُضرب عن العمل من أجل رفع رواتبنا، ولم أسمع من قبلُ عن مُفوّض من العمال يطلب من صاحب عمل أن يُخفِّض راتبه. لقد فعل السيد مارستن شيئاً نعلم أنه أبعد ما يكون عن المعتاد والمألوف، ونرى أنه غير طبيعي. ما دافعه لهذا الفعل؟ من

سيعوِّض هذا العجز في راتبه؟ هذه أسئلة أتركها لكم لتُجيبوا عليها. أنا لم أحاول عرض أي شيء سوى الحقائق، ولم أقل شيئًا متناقضًا. والنتيجة سلسلة من الأدلة الظرفية من شأنها أن تقنع أي شخص في أي محكمة في البلاد. كم من رجال أُعدِموا بناءً على أدلة أقل اكتمالًا من تلك.»

جلس جيبونز وسط عاصفة من التصفيق. ونهض مارستن ببطء. كان يعلم أن الاجتماع قد انقلب ضده، وأن عليه أن يقلب الطاولة لصالحه، وإلا خسر السباق قبل أن يبدأ. وحينئذٍ، لمعت في ذهنه عبارة: «ليس الرأسمالي هو من سيهزمك، بل من تُناضل من أجلهم.» وتذكّر انعدام إيمان برونت التام باتحادهم الزائف. ثم تحدث قائلًا:

«لقد أنصتُّ باهتمام إلى ما قيل، واستمعت دون مقاطعةٍ لأني جلست منبهرًا ببراعة الخطاب، ومعجبًا بقوته ومنطقيته، وآسفًا بشدّةٍ لافتقاري إلى طلاقة ومواهب الخطيب الذي جلس الآن. ثمة أمران الآن يشغلان ذهني ويسيطران عليه. أولهما أنه لو كان ثمة غريب في مكاني وكنت أنا جالسًا بينكم، كنت سأصدِّق أنه مذنب. ثانيهما ثمة شعورٌ بالتعاطف يطغى عليّ تجاه أي شخصٍ يُدان بناءً على أدلّة ظرفية. وصرت أعلم يقينًا الآن أن ثمة الكثير من تعساء الحظ عوقبوا بالموت دون ذنب. جيبونز، لقد أشرت إليّ على مدار خطابك بالسيد مارستن. أنا أرفض لقب «سيد» كما تفعل أنت بلا شك؛ لذا سأدعوك جيبونز فقط. جيبونز، لقد هزمتني. لقد انقلب الاجتماع الذي دعوت إليه ضدي وصار في صالحك.»

تصاعدت صيحات احتجاج على هذه الكلمات.

«أوه، نعم، هذا صحيح. وسأثبت ذلك فوراً بالدعوة إلى تصويت عليه، إذا أردت.»

فصاح جيبونز: «مهلًا! هذا ليس عدلًا. أنا أعترض على إجراء تصويت بعد إعلان مثل هذا.»

«لن أمنح نفسي أي أفضلية غير عادلة، وما تحدّثت عن تصويت إلا لوجود تشكيك في مصداقيتي. لقد طرحت عليّ يا جيبونز عدة أسئلة، وأطالب بحقي في طرح بعض الأسئلة عليك، وأُلزمك بأن تجيب عليها بصدق كما لو كنت تحت القَسَم. هل تعتقد حقًا أنني أعمل لصالح سارتويل؟»

«لم أقل ذلك.»

«هل تعتقد أني أفعل؟»

«نعم، أعتقد ذلك.»

«ما هدف سارتويل من شراء ذمتي؟»

«أوه، الهدف بديهي للغاية. إذا ما تحكم بك، فسيتحكم بقرارات النقابة.»

«أرجو أن توضح لي كيف سيفعل ذلك. ما من قرار يُتخذ دون أغلبية الأصوات.»

«بالضبط. وهذا ما يجعلك تلتمس ثقتنا ودعمنا، حتى عندما يحين الوقت، يمكنك أن تسلِّم سارتويل ما دفع مقابله.»

«فهمت. وهل سبق أن عرض سارتويل شراء ذمتك؟»

«لم يفعل ذلك البتة. فهو يعلم أني سأرفض قطعًا.»

«هل أقدمت أنت على بيع ذمتك لسارتويل؟»

«ما هذا؟ ماذا تعني؟»

«سأصوغ السؤال بطريقة أخرى. هل أرسلت إلى سارتويل خطابًا خاصًا قبل بضعة أيام من انتهاء الإضراب؟»

هب جيبونز واقفًا في ارتباك واضح لدرجة أثارت ضحكات عدد من الحضور، وكان الجميع في حالة من الحماس المشوب بالتوتر. فقد كان ما يدور أمامهم من نوعية الأمور التي كانت تستهويهم. فكان مارستن يقلب الطاولة على رأس جيبونز.

صاح جيبونز: «بمَ تتهمني؟»

«أنا مثلك تمامًا، لا أُلقي اتهامات. هل أرسلت له خطابًا أم لا؟»

«يمكنني بصفتي قائدًا للإضراب أن ...»

«لا، لا. أجب بنعم أو لا.»

«دعني أشرح ما حدث. أقول إن ...»

«أجب على السؤال أولًا يا جيبونز.»

«أرفض إكراهي على الإجابة بهذه الطريقة. أنا على استعداد للإجابة على أي أسئلة، ولكن يجب السماح لي بالإجابة عليها بطريقتي.»

«لا أحد مجبر على إدانة نفسه يا جيبونز، كما أشرت منذ برهة. وبما أننا لا يمكننا أن نحصل على إجابة منك على هذا السؤال، فسأطرح عليك سؤالًا آخر. هل تمنحني الإذن بقراءة خطابك إلى سارتويل أمام الحضور؟»

بُهت جيبونز، ونسي تمامًا في خضم ثورته أن الخطاب قد أُعيد إليه، ولم يتذكر إلا أن محتواه لا يصلح للعرض العلني. وبدا موقفه موقف من يشعر بالذنب.

فهتف الحضور: «اقرأ، اقرأ!» وبدا أن الهتافات قد نبهت جيبونز إلى ما يحدث من حوله.

فتلعثم قائلًا: «أعترض على قراءة خطاب شخصي على الملأ.»

فقال مارستن: «معك كل الحق في هذا أيضًا. لقد اعترضتُ على مناقشة خلاف شخصي على الملأ، واعتُبر اعتراضي ذريعةً ضدي. لا رغبة لديّ في وضع خصمي في موضع حرج، وسأقول على الفور إن محتوى الخطاب المذكور قد يكون بريئًا مثل كلمات أغنية الأطفال «ماري هاد ليتيل لامب» (ماري لديها حَمَل صغير). فأنا لم أقرأه ولم أرَه من قبل. لقد سمعت عنه بمحض الصدفة، ولكني لا أعرف شيئًا عن محتواه. أعتقد أنك قد أدركت الآن مدى سهولة أن تطرح على رجل سؤالًا قد يتردد في إجابته، ومدى ضعف الأدلة الظرفية. والآن يا جيبونز، أصبحنا متعادلَين، وأنا على استعداد لأن أطوي صفحة الماضي إذا ما كنت مستعدًا أنت أيضًا لذلك. وأقسم لكم — وهذا كل ما يمكنني تقديمه لكم، لأنني أفقركم — بأنني لا أعمل لصالح أحد على وجه الأرض سواكم. أقسم لكم أني لا أهدف إلا لشيء واحد وهو تحسين أوضاعكم. وكل ما أطلبه منكم هو النزاهة في التعامل. ربما لا يمكنني أن أحقّق ما أعتقد أني قادر على تحقيقه، ولكني أريد المحاولة. وإذا فشلت، فلندع الرجل التالي يتقدّم ويحصل على فرصته، ولن يكون له داعم مخلص أكثر مني. إذا ما دبّت الفرقة بين صفوفنا، فلن نحقق شيئًا؛ لذا أنا بحاجة لدعم كل رجل في النقابة، لا سيما الرجل الذي يعتقد أنني كنت خائنًا، والذي أُعلن له ولكم أني لست خائنًا. والآن يا جيبونز، كان هذا اجتماعًا مفتوحًا للأسئلة والإجابات. ودار نقاشٌ حرٌ بين الجميع هنا الليلة. ولديّ سؤال واحد أخير أريد أن أطرحه عليك: هل ستكون صديقي أم عدوي؟»

تصاعد هتاف الحضور قائلين: «فلتلتزم بالقواعد يا جيبونز!»

«لقد حان الوقت!»

«أسمعنا صوتك يا صديقي!»

«أفصح عما لديك يا جيبونز!»

فنهض جيبونز، الذي استعاد رباطة جأشه، وقال: «أقترح أيها السادة تثبيت السيد مارستن في منصب أمين النقابة، وآمل أن يكون التصويت على ذلك بالإجماع. سنمنحه ما يريد، الفرصة العادلة، وما دام يعاملنا بإنصاف، سنعامله بإنصاف. وبما أن صداقتي أو عداوتي مهمة، يمكنني القول إنني صديق أي شخص يدين بالولاء لقضيتنا، وعدو لأي شخص يعارضها. وأعتقد أن هذا كل ما يمكن مطالبتي أو مطالبة أيٍّ من الحضور به.»

وافق الجميع بالإجماع على هذا الاقتراح وتم اعتماده، وتلاشى السبب الذي عُقد الاجتماع من أجلِه من أذهان الجميع.

استمرّ مارستن في عمله التنظيمي، ولاقى الكثير من التشجيع من الجمعيات التي راسلها. وإذا كانت ثمة معارضة له في نقابته، لم تكن على الأقل تُفصح عن نفسها بوضوح، ولكن لم يرتكب مارستن خطأ الاعتقاد أن جيبونز قد أصبح صديقًا له.

الفصل الثلاثون

أثبت العباقرة أن الورقة النقدية فئة خمسة الجنيهات، عند توجيهها بالشكل الصحيح، يمكنها سداد قدرٍ لا نهائي من الديون. لنفترض، كما يقول علماء الرياضيات، أن أ مدين إلى ب، وب مدين إلى ج، وج مدين إلى د، ود مدين إلى أ، بمائة شلن في كل حالة. يعطي أ ورقةً بخمسة جنيهات إلى ب، الذي يعطيها بدوره إلى ج، الذي يعطيها بدوره إلى د، الذي يعطيها إلى أ. لقد تسببت رحلة الورقة النقدية نفسها في محو دَينٍ قدرُه عشرون جنيهًا، وحصل أ في نهاية المطاف على نفس الورقة النقدية التي بدأ بها.

بالمثل، يمكن للشخص الذكي أن يسدي شخصًا آخر معروفًا كبيرًا، وفي الوقت نفسه يؤدي خدماتٍ لآخرين كثر، جاعلًا الجميع مدينين له، بينما لا يحقِّق الأحمق شيئًا سوى خَلْق العداوات بدلًا من إسعاد الجميع.

ذكر هالديمان الداهية عَرَضًا لمحرِّر مجلة «أوار ناشونال أرت»، بينما كان يسلِّمه بعضًا من الأعمال التي وعده بها، أن برنارد هوب قد دُعي لإرسال بعض من لوحاته إلى باريس.

«ماذا؟! هل تعني ذلك العملاق الذي يسكن في تشيلسي؟ يا إلهي، هذا الأحمق لا يفهم أساسيات الرسم، وبالنسبة إلى الألوان ... فليرحمنا الرب! لا يوجد رسام يرسم بالطباشير على الأرصفة لا يتفوّق عليه.»

بدت الحيرة على وجه هالديمان، ثم قال ببعض التردد:

«أعترف بأنني كنت أعتقد ذلك، ولكننا درسنا معًا في باريس بالطبع، ونحن، معشر الطلبة، دائمًا ما يحطُّ بعضنا من قدر بعض. ثمة شيءٌ في لوحات بارني أُقر بأني لا أفهمه.»

«تفهمه! هذا هراء! لا شيء في هذه اللوحات سوى أحقر وأجهل لطخات وُضعت على قماش للرسم على الإطلاق.»

«كيف تفسّر إذن حقيقة أن بعضًا من أبرز النقاد قد بدءوا يعتبرون بارني، جديًا، عنصرًا جديدًا في عالم الفن؟»

«لم أسمع بذلك الأمر من قبل. من منهم على سبيل المثال؟»

«سمعت أن فيلييم يثني كثيرًا على أعماله؛ يقول إنه أسلوب جديد ومميز، وإن بارني هو العبقري الحقيقي الوحيد الذي أنجبته إنجلترا على الإطلاق.»

«هذا مذهل! ولا يمكن أن يكون حقيقيًا! أيًا كان ما يقال عن أخلاقيات فيلييم، لا يمكن لأحدٍ أن ينكر أنه يعرف اللوحة الحقيقية بمجرّد رؤيتها.»

«بالطبع؛ أنا فقط أقول ما سمعت. أنا نفسي لا تعجبني أعمال بارني كما أخبرتك. ولكني على وَشْك السفر إلى باريس، وسأستكشف لك رأي فيلييم في سرية تامة. إذا كان بارني العبقري القادم، فسوف ترغب في معرفة ذلك، وتقديم اللمحة المبدئية على الأقل عن الصيحة القادمة، إذا كان سيتحول إلى صيحة، أليس كذلك؟»

«بالطبع. ولكن لا يمكنني تصديق ذلك!»

«لا أعرف إذا ما كان يجدر بي قول ذلك، ولكني أعرف أن بعضًا من لوحات بارني في طريقها إلى فرنسا، وأظن أنها ذاهبة خصّيصى إلى فيلييم لفحصها وتفقّدها.»

«هالديمان، هلّا تحاول أن تكتشف كل ما يمكنك اكتشافه لأجلي؟ يبدو الأمر لا يصدّق! ولكن الفن مليء بالمفاجآت، وأود أن أكون على

علم بها. وإذا كان الأمر حقيقيًا، فحاول أن تحثّ فيلييم على كتابة مقالٍ عن الحقبة الفنية الحديثة لأجلي.»

«هل ستنشر مقالًا عن بارني إذا ما جعلت فيلييم يكتبه؟ ظننت أنك لا تهتم بأعمال بارني.»

«لست مهتمًا، ولكن سيسرُّني نَشْر أي شيءٍ موقعًا باسم فيلييم. وبالطبع، من بين المدارس المختلفة، أسعى جاهداً للحفاظ على الحيادية التامة. فأنا أُومِن بأن من حق الأطراف جميعها أن يكون لها صوتٌ مسموع.»

«حسنًا، سأبذل قصارى جهدي.»

«شكرًا لك يا هالديمان. سأكون ممتنًا لك كثيراً، وأي نفقات ...»

«أوه، لا عليك. أنا ذاهب إلى باريس على أي حال؛ لذا لن تكون ثمة أي نفقات إضافية.»

•••

نُشر المقال في الوقت المناسب وكان مدعمًا بصور اللوحات على نحو رائع. وجاءت النتيجة موافقةً تمامًا لتوقعات بارني وما أنفقه، وانتشرت صيحة برنارد هوب في جميع أنحاء البلاد. أُجريت معه لقاءات صحفية، والتُقطت له الصور، وكُتبت عنه المقالات. ولفترة من الزمن، كان من غير الممكن أن تشتري جريدةً أسبوعية مصورة رخيصة، دون أن ترى فيها أحدث صور بارني الفوتوغرافية؛ فقد صار لدى الشاب براعةٌ عبقريةٌ في التموضع أمام الكاميرا كانَت ستصبح مصدر فخرٍ لأعظم الممثلين. وربما كانت الصورة التي يظهر فيها واقفًا وعاقدًا ذراعيه أمام صدره، وعلى وجهه تعبير من الجدية والسيطرة، من أكثر الصور التي أثارت إعجاب الفتيات، وإن كانت الصورة الأخرى التي بدا فيها شبيهًا بالرسام رامبرانت

قد لاقت رواجًا كبيرًا أيضًا. وتوسل إليه أصحاب المعارض للحصول على لوحاته، وأقبل على شرائها الأثرياء، ولم يكن أحد يفهمها الأمر الذي كتب الاستمرارية للصيحة. كان الرسامون الحقيقيون ينظر بعضهم إلى بعض في دهشة ويتساءلون: «إلامَ سيئول هذا العالم؟» السؤال الذي كان يُطرح عادةً دون إجابة شافية.

لم تغير الشهرة العظيمة التي اكتسبها بارني من شخصيته على الإطلاق؛ فقد ظل ذلك الرجل الودود، كعهده دائمًا، وأصبحت دعواته إلى «حفلات الاستقبال» التي يقيمها شرفًا عظيمًا لمتلقيها. وكانت أمريكا، على وجه الخصوص، هي الأكثر شراءً لأعماله، وعُرضت عليه مبالغ خيالية للذهاب إلى هناك وإلقاء محاضرات. كان من شأن التملّق الذي يتلقاه أن يصيب أي رجل بالغرور، ولكن لم يكن له تأثير يُذكر عليه؛ فهو لم يكن لديه أدنى شكٍّ على الإطلاق في أن سمعته العظيمة تلك مستحقة، وكان يعتبر نفسه أهم رجال عصره قبل أن يدرك العالم هذه الحقيقة بوقت طويل. كانت تصله خطابات من جميع أنحاء البلاد يقول فيها كُتابها، بعبارات عاطفية مؤثرة، إنهم شرفوا برؤية أعماله في هذا المعرض أو ذاك، ويأملون في عيش حياة أفضل وأعظم نتيجةً لذلك. أثّرت بعض هذه الرسائل في بارني لدرجة البكاء، وكان يقرؤها على أصدقائه، حامدًا الرب في تواضعٍ أن أسبغ عليه موهبة نشر مثل هذه البهجة، وامتلاك مثل هذا التأثير الطيب على أقرانه من البشر.

ظهر مقلدون له بالطبع، ولكنهم لم يساهموا بالكثير في تشويه سمعته؛ لأنه، كما قال هالديمان، لا يوجد إلا بارني واحد، ولا يمكن أن يظهر في جيل واحد رجلان يرسمان بنفس السوء الذي يرسم به بارني. جلد النقاد الفنيون هؤلاء المقلدين بلا رحمة، وكانوا دائمًا ما يقولون إنه لو لم يأتِ برنارد هوب إلى الحياة، لما كانت هذه اللوحة أو تلك قد رُسمت، وهو التصريح الذي ربما كان صحيحًا تمامًا.

كان ذوو بارني فخورين به للغاية بطبيعة الحال. فلطالما كان والده يوليه ذلك الإعجاب الشديد الذي يُكنه رجل ضئيل الحجم لقريب له ضخم الجثة، وكانت والدته تشير إليه بـ «ابني، برنارد هوب، الرسام الشهير.»

كان بارني ظاهريًا مثار حسد بالغ، ولكن لا يعلم العامة، مع الأسف، إلا القليل عن الحياة الشخصية لأحد حتى رسامهم المفضل! قد يبدو كل شيء على خير ما يرام من الخارج، بينما في الداخل يقبع هم كئيب. كان بارني يعاني من مشكلة سرية لم يفصح عنها لأحد، سببت له اضطرابًا ذهنيًا خطيرًا. كان قد أخبر إدنا سارتويل بأنها دمّرت حياته، وكان مقتنعًا تمامًا بهذا التصريح الموجع حين قاله. كان يرى نفسه بعين الخيال الكئيبة في المستقبل رجلًا محبطًا، ربما كان ناجحًا، ولكنه يضيق ذرعًا بالحياة، يعيش حياة النساك، ويرعى قلبه المفطور. كان يشفق على نفسه كونه ضحية عشق لا أمل منه، ولكنه وجد متعةً ممزوجةً بالحزن في تأمل حطام مسيرة مهنية ربما كانت ستحقّق له السعادة. وشعر بالصدمة حين وجد استحالةً في العيش وفقًا لرؤيته المثالية تلك. فلم يكن التظاهر بالضحك، أو رسم ابتسامة مشمئزة على وجهه، أو ذلك الدثار الداكن الكئيب من التحفظ الشديد الذي كان يأمل في إحاطة نفسه به، أمورًا طبيعية في شخصيته؛ ومن ثم كان يرتد باستمرار إلى شخصيته الصاخبة المرحة، والاستمتاع بوقته، بينما كان يجدر به أن يتحسر وحيدًا على هذا الفراغ الموجع. وفوق كل ذلك، كان يتوقع من نفسه أن ينبذ عالم النساء، وألّا ينجر مرةً أخرى أبدًا إلى الأحاديث الخفيفة، والبذيئة، والمجاملة المعروف ببراعته فيها، ولكن ما أحزنه هو اكتشافه أنه لا يزال يجد متعةً كبيرة في صحبتهن، بينما كنّ، المسكينات، يهمن حبًا ببارني دون حياء مثلما كن دائمًا. كان دخوله إلى أي مكان يضفي بهجةً على الحدث، وكان أكثر شباب طبقته شعبيةً بلا

منازع. كان بارني في البداية يشعر بالقلق من عدم قدرته على أداء الدور الحزين الذي حدّده لنفسه، ما جعله يشك في أنه ليس بالعمق الذي كان يتخيله، ولكن انحسرت هذه الفكرة المزعجة، عندما أدرك أخيراً أن العزلة الصامتة في الأدب والدراما لم تكن سوى مجرد هراءٍ كئيبٍ لا وجودَ له في الحياة الواقعية. وساهَمَ هذا الاكتشاف المريح كثيراً في مصالحة بارني مع نفسه من جديد، ومع الوقت تخلى عن محاولته لارتداء ثوب الضحية المسكينة لجحود امرأة، وعاد مجدداً المُضَيف اللطيف الودود والضيف الذي يُستقبل بالترحاب.

وبمرور الوقت، واستمرار انتشار شهرته، بدأ يقع تدريجيًا في شباك الليدي ماري فانشو، التي كانت فتاةً متواضعة، وراقية، وفاتنةً في مُجملها. كان إعجابها بقوة ورجولة بارني لا حدود له، وحظيت أعماله الخيرية العديدة وكرمه الواسع، الذي لم يتحمل هو نفسه عناء إخفائه، ببالغ التقدير من جانبها. لم تتظاهر بأنها تفهم لوحاته، ولكنها كانت على استعداد تام لأن تصدق ما بدا تقديراً عالميًا لها باعتبارها أعمال العبقري الأعظم.

في معية الليدي ماري، كان إصرار بارني البطولي على عيش حياة النساك يفتر أكثر فأكثر. وعندما رأى بارني المسار الذي ينجرف إليه، وقف وقفةً جادة مع نفسه. كان قد مضى ستة أشهر على ما حدث في إيستبورن، وكانت هذه الفترة مصيريةً للغاية في حياته برمتها. وعلى الرغم من استمرار شعوره بخيبة الأمل من الحقيقة التي أصبح معترفًا بها لنفسه الآن بأن حياته لم تتحطّم، فقد شعر بأنه ملتزم أمام كرامته بألّا يتقدم إلى الليدي ماري بعرض زواج، حتى مرور عامٍ على الأقل بين محاولتَي الزواج. فإقدامه على طلب يدها للزواج قبل انقضاء هذه المدة سيكون إقراراً منه بأنه لا يعرف ما يريد، وهو من كان يفخر خصوصًا بقدراته الذهنية. فالتصرف الذي يُرى تعجلًا غير لائق حين يؤتى به في

ستة أشهر قد يُرى مثالًا على التروي والهدوء، حين يتم في اثنَي عشر شهرًا. وثمّة حالات غيّر فيها أناسٌ آراءهم السياسية التي كانوا يتمسكون بها بشدة في غضون عامٍ واحد، وعبّرت الدولة في امتنانٍ عن تقديرها لصدق هذا التحول عبر الإنعام عليهم بألقاب النبالة أو الفروسية. ماذا إذن قد يمنع رسامًا عظيمًا من الوقوع في حب فتاتَين فاتنتَين، إذا مرّت فترةٌ كافية بين إفصاحه لكلٍّ منهما عن حبه؟ كان بارني يقول لنفسه إنه من الخطأ، بلا شك، أن يقع في حب امرأتَين أو أكثر في الوقت نفسه، واضطُر لأن يُقر بأنه كان على شفا الوقوع في هذا الوضع المعقّد في وقتٍ سابق، ولكنه كان حديث السن في ذلك الوقت، وحداثة السن ستار يمكن إخفاء الكثير من الأخطاء خلفه. قال بارني بحزم: «في مثل هذا اليوم بعد ستة أشهر، سأطلب يد الليدي ماري للزواج.» وبعدما هداه تفكيره إلى ذلك القرار النهائي الحاسم، انتابه ذلك الشعور بالرضا الذي يشعر به المرء دائمًا عند حَسْم مشكلةٍ محيرة نهائيًا بشكل أو بآخر. فلا شيء أكثر إحباطًا من الحيرة. حتى هذه اللحظة، كان يخشى لقاء الليدي ماري، على الرغم من سعادته الكبيرة بصحبتها، ولكنه الآن لم يعُد يرى أي سببٍ لتجنبها. لذا، بعدما دوّن التاريخ الذي سيقدِّم فيه هذا العرض المصيري، ارتفعت معنوياته للغاية وشعر بسعادةٍ بالغة، وقرّر أن يحتفل بهذا القرار بأن يقود عربته إلى قرية سَري الجميلة التي يعيش والد الليدي ماري بالقرب منها. وكان قد تخلّص من عربته ذات الحصانَين وأصبحت شيئًا من الماضي.

وجد بارني أن رؤية هذه العربة تُثير فيه أشجان إيستبورن المؤلمة، فباعها، واقتنى بدلًا منها مركبةً رائعة ذات أربع عجلات أسماها «جراولر»، يجرّها حصانان أسودان نشيطان. كان يتحدّث عن عربته جراولر بنبرة أسف أمام أصدقائه، وكان يقول إنها لا تُضفي كفاءةً خاصة على قدرة المرء في القيادة، ولكنها ستؤدي الغرض حتى الانتهاء من

صنع العربة التي طلبها من أشهر صانعٍ للعربات في لندن. كان يرى أن العربة التي تجرّها أربعُ خيول هي العربة الوحيدة التي يمكن للمرء أن يقودها، وتضفي عليه رونقًا وفخرًا وتسر أعين جميع الناظرين. وهكذا رجّت عربته جسر تشيلسي وهو ممسكٌ بلجام حصانَيها الأسودَين اللذَين يتراقصان أمامه بيدٍ من حديد، متجهًا إلى داخل قرية سَري.

الفصل الحادي والثلاثون

من الرائع قيادة عربة عبر طرقات قرية سَري في يوم صحو، ويجري أمامك حصانان جميلان، وفي المقعد الخلفي يجلس خادم بحُلة أنيقةٍ عاقداً ذراعَيه أمام صدره. اختار بارني، الذي كان على دراية جيدة بالريف، الطرق الجانبية بدلًا من الطرق الرئيسية؛ فقد كان محبًا للطبيعة ويُكن إعجابًا كبيراً بمناظرها؛ إذ أصبح رجلًا ينسخ على قماش الرسم الكثير من المناظر الطبيعية.

عندما اقترب من وجهته، انعطف إلى الطريق الذي كان يعرف أنه الطريق المفضل للتمشية والتنزه لليدي ماري، وظل يستطلع الطريق أمامه بانتباه بالغ على أمل أن يلمح الفتاة من بعيد. وكان ينظر في ساعته أيضًا، وأبطأ من سرعة حصانَيه عندما أدرك أنه وصل إلى نهاية الطريق قبل الوقت الذي حدّده لنفسه بقليل. كان بارني بالأساس رجلًا عمليًا، وكان يدرك، بعيداً عن الدراما، أن من النادر أن تحدث الصدف من دون دفعة بسيطة؛ لذا، وقبل أن يغادر تشيلسي، أرسل برقيةً إلى الليدي ماري، من باب الحيطة، يخبرها بأنه سيكون موجوداً عند نهاية الطريق في وقت محدد، وأنه إذا التقى أي شخص يعيش في الجوار وقدّم له دعوةً ودودة لزيارة أحد البيوت الريفية، فسيقبل الدعوة بامتنان شديد، كما لو كان رجلًا مشرداً يجوب الريف بحصانَين وعربة. كان من النادر أن يكتب بارني خطاباً، وكان يعتمد اعتماداً شبه تامٍّ على البرقيات وسيلةً للتواصل مع أقرانه. فكان يجد متعةً في إرسال برقية من عشر صفحات إلى أحد أصدقائه يحدّثه فيها عن موضوع شديد التفاهة، وبعدما أصبح ثمة الكثير من الناس من جميع أنحاء البلاد يراسلونه طلباً لتوقيعه، أصبح يرسل لهم

دائمًا برقيات طويلةً يشرح لهم فيها أنه لا يكتب خطابات أبدًا؛ ومن ثم فإن أي توقيعٍ باسمه يُذيل أي خطابٍ لا بد وأنه مزور، ولن يكون أيٌّ من توقيعاته أصليًا إلا إذا كان مُرسلًا عبر البرق. وأصبحَت توقيعات بارني الكهربية تلك تُباع بأسعارٍ مرتفعةٍ في المزادات.

وبينما كان يدخل الطريق، أخذ يتفقّد الطريق أمامه بحثًا عن تحقق الصدفة التي رتّب لها، وسرعان ما كُللت جهوده بالنجاح حين رأى الفتاة بقوامها الممشوق، قادمةً نحوه ممسكةً في يدها عصًا من خشب الأبنوس، ويتبعها ثلاثة كلاب ضخمة. ألقى بارني اللجام إلى خادمه، وأخبره بأن يستمر في قيادة العربة، وقفز منها.

كانت وجنتا الفتاة ورديتَين كلون الفجر في بدايته، إما من التنزُّه في الهواء النقي أو من السعادة بلقائه.

صاح بارني بعدما حياها:

«هل وصلتكِ برقيتي إذن؟»

«نعم. هل تبقّى لك أي مال بعد إرسالها؟»

«أوه، لديّ الكثير من المال اليوم. فقد بعت لوحةً بالأمس إلى رجلٍ من شيكاغو مقابل ألف جنيه. أبناء الغرب الأمريكي بارعون في الشراء! لقد اشترى لوحةً لمَشاهد الليل ذات اللون البني المائل للحمرة، وجعلني أوقّعها باسمي باللون القرمزي بأحرف بطول ثلاث بوصات، ثم قال ضاحكًا بعدما وقّعتها إنه كان على استعداد لدفع مائتَي جنيهٍ أخرى مقابل التوقيع إذا ما رفضت توقيعها. هكذا يتطفل الآخرون علينا نحن الرسامين المساكين! ولكن غطّت الحروف القرمزية على درجات اللون المتوسطة في اللوحة بالكامل، ودمرتها في رأيي، ولكنّه قال إن التوقيع هو مبتغاه، وافترقنا راضيَين. كان الرجل همجيًا صريحًا؛ فقد قال إنه كان يستطيع

شراء لوحات أفضل في شيكاغو مقابل خمسة دولارات للواحدة، بل وقد يحصل على خصمٍ إذا ما اشترى كمية، ولكن الناس هناك لن يحاولوا الحصول على أعمال الرسامين المحليين أيًا كان سعرها. وزعم بفخرٍ أنه لا يعرف شيئًا عن الرسم؛ فهو يعمل في مجال السلع المعلبة. فقلت له إنني أرى أن لا بأس في ذلك ما دامت السلع تجلب ربحًا، ورد عليّ بأن هذا ما يسعى إليه.»

«حسنًا، تستحقُّ الآن أن أهنئك.»

«تهنئينني أنا؟ لقد جرحَتني كلماتك يا ليدي ماري. كنت أعتقد أنكِ صديقةٌ لي؛ كنت أعتقد ذلك حقًا.»

«وأنا بالفعل صديقتك. ألَا يمكنني تهنئتك على بيع إحدى لوحاتك؟»

«لا، يا سموك، لا يا سيدتي! ولكن يمكنكِ تهنئة الرجل من شيكاغو. فأنا أشعر بأنه سلبني المائتَي جنيه. أوه، لقد حصل على صفقةٍ جيدة، وهو يدرك ذلك جيدًا! سأخبركِ بها، إن أسعار لوحاتي ترتفع بصورةٍ مطردة، حتى إنني بدأت أدرك أن تعليق الكثير منها على جدران مرسمي ضربٌ من البذخ الأرعن. يبدو الأمر بالنسبة إليّ تفاخرًا، وأنا أكره التفاخر. لهذا السبب قبلت مبلغ الألف جنيه، فقط لأتخلّص من اللوحة.»

«هل استغرقت وقتًا طويلًا في رَسْم هذه اللوحة؟»

«نعم، مدةً لا بأس بها. لا يمكنني بالطبع أن أخبركِ بالمدة التي استغرقتها بالضبط، فلا يمكن رسم تحفةٍ فنيةٍ كتلك دون توقُّف، كما تعلمين. أظن أني قضيت في رسمها نحو ست ساعات متقطعة. فكما تعلمين، لا بد من الانتظار حتى تجف الأرضية قبل مواصلة رسم بقية اللوحة. في البداية، غطّيت اللوحة بالكامل باللون البني المائل للحمرة

باستخدام فرشاةٍ كبيرة، ثم تركتها تجف. هذا هو الليل كما يبدو إذا لم تكن ثمة أضواء في أي مكان. ثم تضعين الأضواء الساطعة في صورة ضربات قليلة بالفرشاة من اللون الأبيض. قد يبدو ذلك سهلًا، ولكني أؤكد لكِ أنه يحتاج إلى عبقرية. ثم إذا كان ثمة ماء، حتى ولو لم يكن مرئيًا للعيان، نضع خطوطًا صغيرة من اللون الرمادي تحت نقاط الضوء الساطع، وستحصلين على ما تريدين. قد يبدو كل ذلك بسيطًا للغاية عند وصفه بالكلمات، ويحاول الكثيرون تجربته، بعدما أريتهم الطريقة، ولكنهم لم يتمكنوا من محاكاته بطريقة ما. ولكن دعينا من الحديث عن العمل بينما نسير في إحدى طرقات سَري؛ فأنا أكره الحديث عن العمل على أي حال! هل سأحصل على دعوتي أم لا؟»

«ستحصل عليها بالطبع. فوالدي متشوق للقائك للغاية.»

«هذا لطف كبير منه. ولكني أقول يا ليدي ماري ...»

صمت الشاب فجأة، ورفعت الفتاة بصرها نحوه. قرأت في عينَيه إعجابًا صادقًا وواضحًا بها، حتى إنها خفضت عينَيها وازدادت وجنتاها توردًا.

فسألته: «ما الأمر؟ هل نسيت شيئًا؟»

فقال في لهفةٍ وهو يمسك أصابع يدَيها الاثنتَين المستسلمة بين يدَيه دون أن يتحرّكا من مكانَيهما: «لا. لا، لقد تذكّرت الآن. يجب أن يكون ثمّة شيء لأحادث والدك عنه، كما تعلمين. لا يمكننا التحدث عن الرسم، و... حسنًا يا ماري، لا بد من موضوع ذي أهميةٍ حيوية لكلَينا لنناقشه، أليس كذلك؟»

ضحكت الفتاة قليلًا، ولكنها لم ترد. وقفت الكلاب الثلاثة على مقربةٍ ينظرون بارتيابٍ إلى الزوجين، وصدرت زمجرةٌ خافتةٌ من أحدها دلّت على أنه لم يعتد هذا الموقف، ويجب ألّا يستمر أكثر من ذلك.

صاح بارني وقد تخلّلت صوته الأجش رعشة ناعمة: «ماري، ماذا سأقول له؟ هل لي أن أُخبره بأني أهتم بابنته أكثر من أي شخص آخر في العالم؟ هل لي أن أقول له ذلك؟»

لم تحاول الفتاة أن تسحب يدَيها من يدَيه، ولم تفعل أي شيء آخر سوى أن رمقته بنظرة سريعة مقتضبة.

وغمغمت قائلة: «إذا كان هذا حقيقيًا، لا أرى ما يمنعك من أن تخبره بذلك.»

صاح بارني في حرارة: «حقيقيًا! لا شيء على سطح الأرض حقيقي يا حبيبتي ماري كحبي لك! وماذا عنك ... هل تهتمين لأمر رجل ضخم أحمق مثلي ولو قليلًا؟»

قالت ليدي ماري: «دائمًا، دائمًا! منذ وقعت عيناي عليك لأول مرة. وقبل أن يدرك العالم بأسره عبقريتك بأمد طويل يا بارني، أدركتها أنا.»

وفجأة، ترك الشاب الجذل يدَيها اللتَين ظلّتا في يدَيه حتى الآن، وضم الفتاة إليه وقبّلها. إنه لأمر عجيب أن يشتهر المرء عادةً بفعل شيء يفعله المئات أفضل منه، بينما يظل العالم جاهلًا بإمكاناته التي يستحق أن يشتهر بفضلها. عندما أحاط بارني خصر ليدي ماري بإحدى ذراعيه، لمح الكلب الضخم بطرف عينه يقفز نحوه قاصدًا عنقه. ولكن ظل بارني يقبّل الفتاة برقة ولطف بالغَين كما لو أن شيئًا لا يحدث على جانبه الآخر، وأراحت ليدي ماري، التي كانت مغمضة العينين في هذه اللحظة، رأسها على صدره وزفرت بعمق تعبيرًا عن رضاها. وأفاقت من حلمها القصير على صوت زمجرات وحشية فتذكرت كلابها وقفزت إلى الخلف في فزع. كان بارني مادًا ذراعه المفتولة عن آخرها وفي نهايتها كانت يده القوية تقبض على طوق وحش أصغر قليلًا من مُهر، يمزق كُم معطفه بأنيابه

الغاضبة. بينما وقف الكلبان الآخران يراقبان ما يحدث وهما يزمجران، ولكن بدا أنهما ينتظران أن تأمرهما سيدتهما بالهجوم. وصرخت الفتاة من هول المنظر.

فصاحت قائلةً: «تراجع يا نيرو، تراجع! كيف تجرؤ على ذلك أيها السيد!»

فقال بارني في لا مبالاة: «أوه، لا بأس. لا توبخيه. لقد تصرف وفقًا لطبيعته. كما أنه سيكتشف أمرَين قريبًا؛ الأول، والأهم، أني سأصبح أحد أفراد العائلة؛ والثاني، أنه قد التقى من يُضاهيه قوة. أرى يا ماري أن هذا المشهد سيكون مناسبًا تمامًا لتجسيده في الأكواريوم: سامبسون في مواجهة البرق، أم كان آياس هو من فعل؟ لا يمكنني تذكر تلك الأساطير مطلقًا.»

أمرت الفتاة كلبها قائلة: «تراجع أيها السيد! تعال هنا واعتذر!»

أرخى بارني قبضته من على طوق الكلب الضخم الذي اتجه صاغرًا نحو ليدي ماري في خزيٍ وكآبةٍ شديدَين. كان جليًا على الرغم من انصياعه لسلطة سيدته، أنه لم يغير رأيه في أن ما رآه الآن أمرٌ غير معتاد على الإطلاق، وعلى الرغم من لعقه يد الفتاة في خضوع، فقد رمق بارني بطرف عينه بنظرات لا تمت للود بصلة، ولم يخفف من وحشية تلك النظرة الشرسة، إلا الاحترام لتلك القوة المُثبتة التي يشعر بها الحيوان عندما يجابه كائنًا أقوى منه. جثَت الفتاة على ركبتها وربتت على فرائه الأشعث، وبدأت تشرح له الموقف قَدْر ما استطاعت، ما بين تأنيبٍ تارةً ومداعبةٍ تارة، والتمسَت من نيرو أن يعامل بارني أخًا له.

وعندما وقفَت مرةً أخرى — فليبارك الرب صنّاع السلام! — قال بارني:

«هل نرى إن كان قد فهم أم لا؟»

فصاحت الفتاة: «بارني، تأدّب! لا يمكنك أن تعرف مَن قد يأتي في اتجاهنا في أي لحظة.»

«سنخاطر بأن يرانا أحد القادمين مصادفةً، فقط لصالح الكلب يا ماري.»

لم يتحرك الكلب الضخم قيد أنملة هذه المرة، ولكن لمعت عيناه الغاضبتان ببريق وحشي خطر، وارتجفت زوايا شفتَيه الثقيلتَين كاشفةً عن أسنانه.

فقال بارني: «أوه، إنه يغار عليكِ بشدة. يمكنني رؤية ذلك. من المستحيل أن أكون أنا ونيرو صديقَين.» ثم سارا جنبًا إلى جنبٍ ببطءٍ على الطريق والكلاب تتقدمهما. بدا نيرو مكتئبًا إلى أقصى مدًى، وسار بخطواتٍ واسعة مطأطئ الرأس غير عابئٍ بالكلبَين الآخرَين اللذَين كانا يطاردان الأرانب الخيالية، بجوار صفوف الشجيرات عبثًا، ويتشقلب أحدهما فوق الآخر في أثناء مسيرهما الذي امتلأ لهوًا وصخبًا، ويقابلان استياءه المتجهم لما يفعلان، والذي كان يُعبر عنه من وقتٍ لآخر بزمجرات لومٍ خافتة، بمرح وفكاهة.

قال بارني: «ماري، أعتقد أنه يجدر بنا أن نشبك أيدينا ونؤرجح ذراعينا بينما نسير. أريد أن أصرخ في صخب مثل الهنود الحمر، ولكن التفكير الهادئ يخبرني بأن هذا لا يليق. أشعر أن بداخلي روح العامة الدهماء وأتوق إلى التعبير عن سعادتي بطريقة عشوائية. ولولا أنني أخشى الكلب — أعني أني أخشاه معنويًا؛ إذ يمكنني أن أتغلب عليه بدنيًا — لنزعت هذا الدبوس من قبعتك الجميلة تلك، ووضعتها على رأسي، وأعطيتك قبعتي. في واقع الأمر، أود أن أرقص.»

ضحكت الفتاة.

وقالت: «أنا نفسي لا أمانع الرقص.»

«أوه، رائع إذن! كنت قد بدأت أخشى أن أكون منحدراً من نسل بائع خضراوات متواضع، ولكن بما أنك لست مصدومةً من أفعالي، فربما كنت، طبقًا لمعلوماتي، أنحدر من نسل ويليام الفاتح.»

«حسنًا، إذا أردت الصراخ، فلتصرخ الآن؛ فأنا أريدك أن تكون في غاية التأني واللياقة عندما نصل إلى الشارع الرئيسي.»

لم يصرخ بارني، ولكنه أحاطها بذراعه، وكان مبتهجًا للغاية أن وجد من يتولى زمام أموره، ويُخبره كيف يتصرف.

الفصل الثاني والثلاثون

كان من عادة بارني أن يتعامل دون قيود مع سائقي العربات، خاصةً الآن بعدما أصبح المال يُغدَق عليه من كل حدب وصوب. فكان يعطي سائقًا جنيهَين ذهبيّين أو ثلاثة، أو حتى ورقةً بخمسة جنيهات إذا ما تصادف وعثر على واحدةٍ شاردةٍ في جيب معطفه، ويقول له:

«قد أحتاجك عشرين دقيقةً فقط، وقد أحتاجك طوال فترة ما بعد الظهر، ولكني أريد أن تكون سعيدًا بينما تُقلني هنا وهناك؛ لذا، هاك كل ما سأدفعه لك، وأتمنى ألّا تجادلني في الأجرة في نهاية الرحلة.» ولم يكن يحدث أي جدل على الإطلاق، وكان بارني محبوبًا للغاية بين معشر السائقين.

عندما تحدّد موعد الزفاف، استقل بارني، حال عودته إلى لندن، عربة أجرة ودفع للسائق عشرة جنيهات احتفالًا بالحدث القادم. وقال لنفسه إنه لم يكن ليحافظ على احترامه لنفسه إذا ما دفع مبلغًا أقل؛ إذ كان ينوي استخدام عربة الأجرة في استكمال الترتيبات الضرورية للحفل. اتجه بالعربة أولًا إلى مسكن القَس المسئول عن كنيسة القديسين الشهداء؛ إذ قرّر أن حفل الزواج يجب أن يُقام في هذه الكنيسة؛ لأنها أقرب بيت مقدس من مصنع والده، كما أن السكان المحيطين بها أغلبهم يعملون في الشركة، سواء بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر. علاوةً على ذلك، كان بارني يجد متعةً خاصّةً في فكرة أن جميع الصحف ستُضطر إلى إرسال ممثلين عنها إلى هذا المكان المحلي العتيق الطراز؛ فحفل الزفاف سيكون مميزًا للغاية، كما أنه أصبح الآن مشهورًا للغاية لدرجة أنه إذا تزوج أو مات في

أبعد بقعة فوق الجزر البريطانية، فسيُضفي الحدث على هذا المكان طابعًا مميزًا إلى الأبد.

كان القَس العجوز الودود منبهرًا، دون شك، من حقيقة أن رجلًا بهذا الصيت قد اختار كنيسة القديسين الشهداء؛ ليقيم بها مثل هذا الاحتفال المهم.

قال بارني ببهجة ومرح: «بالطبع، وسأُحضر أسقفًا أو اثنين لمساعدتك، وربما بعضًا من رجال الدين الأقل درجة. وإذا ما أعطيتني أسماء أشخاص تفضّلهم، فسأتواصل معهم.»

قال القَس معترضًا بلطف: «أنت تعني أني من سيساعد الأسقف. فسموه، كما تعلم بالتأكيد، هو من له الأسبقية.»

«أوه، حسنًا، فلترتبوا تلك الأمور فيما بينكم. فأنا لا أفهم مثل هذه الأمور كما تعلم؛ فأنا لم أتزوج من قبل، وأترك جميع التفاصيل لأهل الخبرة. كل ما أريده هو أن يسير كل شيء على خير ما يرام، بغض النظر عن التكاليف. وإذا ما سمحت لي، أود أن أرسل إليك شيكًا بألف جنيه لتوزيعها على الفقراء، وأمور من هذا القبيل، احتفالًا بالمناسبة. أعتقد أن بإمكانك تولي هذه المهمة.»

«سنكون ممتنين كثيرًا لذلك دون شك. لم تكن وفرة المال من العقبات التي كنا نحاول التغلب عليها في هذه الأبرشية على الإطلاق.»

«اتفقنا إذن. هل رأيت عازف الأرغن الذي يعمل بكنيستك مؤخرًا؟ ما اسمه؟ لا أتذكر اسمه حاليًا.»

«لانجلي. يؤسفني أن أخبرك بأنه لم يكن بخير تمامًا مؤخرًا. لا أعني بالضبط أنه مريض؛ فهو قادر على أداء عمله، ولكنه ليس بخير تمامًا.

أعتقد أنه يحتاج إلى مَن يرعاه. إنه رجل شارد، حالم، وأخشى أنه يهمل نفسه.»

قال بارني: «لقد حاولت مساعدته، ولكنه يأبى أي مساعدة من أي نوع كما لو كانت مرضًا معديًا. إنه لن يزورني أبدًا، وكان وقتي مزدحمًا بالكثير من الأمور مؤخرًا ولم أتمكن من زيارته، رغم أني كنت أنوي ذلك. هلّا تعطيني عنوان منزله؟ كان معي قبل ذلك ولكن ضاع مني.»

«إنه يعيش في حي فقير وبائس، البناية رقم ٣ في ساحة روز جاردن المتفرعة من شارع لايت. لا أعتقد أنه سيرحِّب بزيارتك له. سيكون من الأفضل أن تراسله. فمن الصعب للغاية أن تفعل أي شيء من أجله، كما تقول، إلا بطريق غير مباشر. عندما زرته بعدما سمعت أنه ليس بخير، رأيت أن وجودي قد أزعجه.»

«كنت أريد التحدث إليك عن مساعدته بطريق غير مباشر. فجميعكم تقدِّرون مواهبه بالطبع.»

«أوه، نعم.»

«ولكنكم لستم أبرشيةً ثرية، كما تقول. هاك شيكًا بمائة جنيه. يمكنني أن أزيد المبلغ، ولكن من المرجح أن يثير ذلك شكوكه. هلّا تأخذ هذا الشيك وتزيد راتبه بنفس المبلغ المكتوب فيه سنويًا؟ سأرسل لك شيكًا مماثلًا مرةً كل عام، وأخبره بأن سبب زيادة الراتب هو الإعجاب العام الذي يشعر به الجميع تجاه ... حسنًا، هل تفهم ما أعنيه؟ وبذلك سيشعر بالتحفيز.»

«إنه لكرم كبير منك يا سيد هوب، وسأتأكد من تنفيذ رغباتك.»

بعدما انتهت المقابلة مع القَس الودود، قفز بارني في عربته واتجه إلى شارع لايت. كان من المستحيل الدخول بالعربة إلى ساحة روز جاردن؛

فاستعان بارني بأحد أطفال الشوارع ذوي الهيئة الرثة العديدين المتناثرين في أرجاء المكان دليلًا، وشق طريقه صعوداً على السلم المتداعي وطرق باب منزل لانجلي. سمع بارني صوتًا خافتًا يصدر من الداخل يخبره بأن يدخل، وعندما فعل، رأى عازف الأرغن جالسًا على الفراش. كان واضحًا أن لانجلي كان مستلقيًا، ولكنه جلس بصعوبة واضحة، ليستقبل ضيفه غير المتوقع. كان نحيلًا عندما رآه بارني آخر مرة، ولكنه أصبح أكثر نحولًا وطغى على وجهه شحوب مروع.

وقف بارني مكانه فجأةً وصاح: «ماذا بك يا صديقي؟! لا تبدو بخير. هل كنت مريضًا؟»

أجابه لانجلي وقد غزا وجنتَيه ظلٌّ كان سيصبح احمراراً على وجه رجلٍ بصحة جيدة: «لم أكن بخير، ولكني أفضل الآن، شكراً لك.»

بدا جليًّا أن لانجلي لم يُعجب بهذا التطفل، وأدرك بارني ذلك حين تذكر كلمات القَس.

فقال: «لانجلي، أرجو أنك لا تمانع زيارتي لك هكذا دون سابق موعد؛ فقد أتيت لأطلب منك معروفًا كبيراً. أنا أكثر رجل يعتمد على أصدقائه في جميع ربوع لندن، أنا كذلك بالفعل. يبدو لي أني أقضي كامل وقتي في تكليف الناس بالقيام بأشياء من أجلي، والحق أنهم يؤدونها عن طيب خاطر تماماً. نحن نعيش في عالم مليء باللطف والتسامح، كما تعلم. والآن، استلقِ كما كنت ... أرى أني أزعجتك؛ فأنا دائماً ما أزعج شخصاً ما ... ودعني أحادثك كما لو كنت عمك المفضل. سوف أتزوّج يا لانجلي! ما رأيك في ذلك؟ وأراهنك على ستة بنسات أنك لن تخمّن أين سأقيم حفل الزفاف.»

ارتسمت على وجه لانجلي ابتسامة شاحبة وهز رأسه، بينما ظل جالسًا على حافة فراشه متجاهلًا مطلب بارني بالاستلقاء.

«كنت أعرف أنك لن تتمكن من التخمين. حسنًا، سيقام الحفل بـ «فخامة» تخطف الأنظار، كما تقول الصحف، في كنيسة القديسين شهداء الشرق. أزعم أن كنيسة القديسين العتيقة ستشهد للمرة الأولى في تاريخها حفل زفاف عصريًا. لقد حضرت الآن من عند القس، ورتّبنا جميع التفاصيل. يا له من رجل لطيف! كان يجب أن تسمعه وهو يمتدحك ويثني على موسيقاك يا لانجلي! من الرائع أن يجد المرء من يقدِّره؛ أنا نفسي يُعجبني ذلك.»

تورّد وجه لانجلي خجلًا، على الرغم من شحوبه، عندما سمع هذا، ولكنه لم يقُل شيئًا.

«وعلى ذكر الموسيقى، دعنا نتحدث عن موسيقى حفل الزفاف؛ فهذا هو سبب حضوري. أنت من سيعزف على الأرغن بالطبع.»

غمغم لانجلي قائلًا: «سأبذل قصارى جهدي.»

«ولا أتمنى أكثر من ذلك. ولكن إليك ما أريد، وأعرف أني أطلب منك معروفًا كبيرًا. أريد منك أن تؤلف لحن زفاف خصّيصى لنا. وسأنشره لك فيما بعد، وأعلم يقينًا أنك عندما ترى العروس، لن تحتاج إلى أي رجاء مني لتهديه لها.»

قال عازف الأرغن: «أخشى أني ...»

قاطعه بارني قائلًا: «أوه، لا، لا تفعل. أنت شخص متواضع يا لانجلي، وأعلم أنك ستخرج بالكثير من الأعذار، ولكني لن أعفيك. لقد هيأت نفسي للحصول على لحن زفاف استثنائي. يمكن لأي زوج من الحمقى أن يتزوجا على أحد ألحان مندلسون كما تعلم، ولكننا نريد لحنًا خاصًا بنا وحدنا. فالمرء لا يتزوج كل يوم.»

«كنت سأقول إني لا أشعر بأني في مثل براعتي السابقة ... لا أظن أني سأوفيكما حقكما ... ولكني ألّفت لحنًا منذ عام أو نحو ذلك، ولم يعزفه أو أُسمعه أي شخص سواي. وإذا أعجبك ...»

«بالطبع سيعجبني. سيكون اللحن المنشود.»

«يمكنني أن أؤلف لك لحنًا، ولكني واثق من أني لن أتمكن من تأليف لحن أفضل من هذا، وأريد أن أعطيك أفضل ما لديّ.»

«أنا واثق من ذلك. قُضي الأمر إذن. والآن يا لانجلي، فلتستمع إلى حديث العم. لقد أخبرتك بأني سأتحدث إليك كما لو كنت أحد أعمامك. يجب أن تخرج من هذا الجُب، ويجب أن تخرج الآن. إن البقاء في هذا المكان كفيل بالقضاء على أقوى الرجال. ثمة عربة تنتظرني في الشارع؛ تعالَ معي لنبحث عن مسكن محترم به امرأة عجوز رءوم تعتني بك كأمك.»

بدا الإحراج جليًا على وجه لانجلي. وأخيرًا، قال في تلعثم:

«لا يمكنني تحمُّل تكلفة مكان أفضل من هذا. أعلم أنه قد لا يبدو مريحًا بالنسبة إليك، ولكنه كل ما أحتاج.»

«تتحمل تكلفة مكان أفضل! بالطبع يمكنك تحمل تكلفة مكان أفضل! أوه، لقد نسيت. لم يخبرك أحد، أليس كذلك؟»

«يخبرني بماذا؟»

«لا أعلم إن كان يجدر بي أن أذكر لك هذا الأمر أم لا. في الواقع (لقد عرفت كل شيء بمحض الصدفة عندما كنت أتحدّث إلى القَس؛ لقد أخبرتك أنه كان يمتدحك!)، أعتقد أنهم يُعدون لك مفاجأةً بسيطة، فلا تخبر أحدًا أني أخبرتك بذلك، ولكني لا أحب المفاجآت. لطالما أُخبر أصدقائي بأنهم إذا كانوا يُعدون مفاجأةً لي، فليخبروني بها مقدمًا

حتى أجهِّز التعبير المناسب الذي سأرسمه على وجهي. ما لا يعجبني بشأن المفاجآت أنها تقفز في وجهي دون سابق إنذار. حسنًا إذن، كما قلت لك، لم يكن يجدر بي أن أخبرك بذلك، ولكن وكلاء الكنيسة والقَس وعددًا من رعايا الأبرشية قرّروا أن يرفعوا راتبك بمقدار مائة جنيه سنويًا. وقد سعدت للغاية بسماع هذا الخبر، وقلت لهم ذلك. وقال القَس بالحرف الواحد: «فلنظهر له تقديرنا لموسيقاه.» إنه لرجل رائع ذلك القَس! يعجبني كثيرًا.»

كان بارني يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا أثناء حديثه، ولم ينظر ولو مرةً واحدة إلى مستمعه. اغرورقَت عينا لانجلي بالدموع، حاول أن يتحدث، ولكن اختنقَت الكلمات في حلقه. ثم استلقى على الفراش ودفن وجهه في الوسادة. وواصل ضيفه حديثه، وهو يتحرّك دون توقف، دون أن يلاحظ المشاعر التي انتابَت لانجلي، حتى استعاد لانجلي تماسكه وقال في امتنانٍ واضح:

«إنه لكرمٌ كبير جدًا منهم. لطالما أظهروا عطفًا شديدًا نحوي.»

«أوه، إنها مسألة عمل لا أكثر. فهم لا يريدون أن تغريك كنيسة أخرى لكي تغادرهم وتحصل على خدماتك. ثق بما يقوله وكيل الكنيسة! فهو يعرف كل شيء دائمًا. والآن، عليك أن تأتي معي يا لانجلي. وإذا رفضت، فسأحملك بين ذراعيّ وأهبط بك السلم إلى عربتي كما لو كنت طفلًا رضيعًا. تشجّع يا صديقي، وهيا بنا!»

اعترض لانجلي بوهن، ولكنه لم يقاوم بسبب ضعفه، وسار مترنحًا نحو شارع لايت مستندًا على ذراع بارني. وخلال نحو نصف ساعة، عُثر على سكن مريح بالقرب من الكنيسة، وأُرسل حمّال إلى ساحة روز جاردن ليُحضر أغراض الموسيقي ومتعلقاته.

• • •

حضر مراسمَ الزفاف جميع الأصدقاء المقربين الذين تمنى الزوجان السعيدان حضورهم. لم تشهد كنيسة القديسين في تاريخها مثل هذا الجمع المذهل. وكان «لحن الزفاف» الرائع مذهلًا، وملأ الكنيسة الواسعة بنغماته المبهجة الساحرة، وعُزف كما لم يُعزف لحن من قبل.

استرق بارني بضع لحظات، بينما كان أصدقاء العروسَين ملتفين حول العروس، وانفرد ببيستون، أهم رجال الصحافة بين الحضور، في أحد الأركان.

وقال له: «بيستون، لقد سمعت هذه الموسيقى.»

فأجابه الصحفي: «إنها عظيمة!»

«إنها كذلك بالطبع، وتذكر أنها أُلفت خصيصى لهذه المناسبة. يمكنك أن تسيء إليّ في الصحف إذا أردت يا بيستون، إذا ما رأيت أي شيء خاطئًا — رغم أني لا أعتقد أن ثمة أي خطأ — ألقِ باللوم عليّ أنا، ولكني ألتمس منك شيئًا واحدًا فقط، وأخبر الآخرين بأن يحذوا حذوك أرجوك، هل ستفعل؟ اكتب ولو سطرًا أو اثنين من المدح المستحق لعازف الأرغن وموسيقاه. افعل ذلك إذا كنت تحبني يا بيستون! هذا الرجل عبقري! ولست الوحيد الذي يقول ذلك، وإن كنت أول من لاحظ هذه الحقيقة. ستكتب مقالًا في مدحه، أليس كذلك؟ وستُخبر الصحافيين الآخرين بأن يفعلوا المثل.»

«سأذهب للقائه أولًا، ثم يمكنني بعد ذلك أن أكتب مقالًا خاصًا عنه.»

«آمل أن تفعل، ولكن تذكر أنه خجول للغاية، وإذا خمّن الغرض من لقائك به، فلن تحصل منه على أي شيء. إنه زاهد ومنغلق للغاية. تحدّث معه عن آلات الأرغن والموسيقى، ودعه يعتقد أنك مجرد معجب بفنه.»

«لا تقلق. سأتعامل معه.»

طوال أسبوع كامل، ظل لانجلي يخشى أنه لن يكون على قدر التجربة المقبل عليها. كان متلهفًا، لأجل بارني، لأن يبلي بلاءً حسنًا، ولكنه بالكاد كان قادرًا على الذهاب إلى الكنيسة والعودة منها إلى مسكنه، رغم أنه عندما كان يجلس أمام لوحة المفاتيح، كان يبدو وكأن الحياة قد دبّت في أوصاله من جديد وحرّكت جسده الهزيل، ولكن عندما كانت حماسة العزف تخبو، كان الاكتئاب يتملكه أكثر من ذي قبل. كانت الموسيقى بالنسبة إليه كالمنشط، وكلما زادت فترة نشوة الصوت، كانت الانتكاسة التالية أكبر.

سرت رعشة في جسد لانجلي برمته، عندما رأى الجمهور الكبير الذي سيستمع إلى عزفه يوم الزفاف، ودعا الرب أن يمنحه القوة ليعزف مقطوعته دون أخطاء. وعندما حانت اللحظة الموعودة، نظر لاهثًا بخوفٍ إلى يدَيه المرتجفتَين وهما تحومان فوق المفاتيح، ولكن عندما لمستَ أصابعه المفاتيح، سمع الأنغام الخفيضة السلسة ذات الصفاء والعذوبة تخرج محكمةً وثابتة، كما لو كانت أنغام ناي رخيم، وغمرته البهجة عندما لاحظ الصمت اللحظي الذي خيّم على الحضور الكبير، كما لو أن الجميع قد توقفوا عن التنفس في آنٍ واحد؛ خشية أن تفوتهم نغمة واحدة من اللحن الساحر، أو يفوتهم ذلك الاختلاط الساحر لها في ذلك التناغم السماوي الخفيض، كما لو أن جَوقة من العنادل تغرِّد من بعيدٍ من خارج مجال السمع تقريبًا، ولكن ليس خارجه تمامًا. وعندما تصاعدت وتيرة الموسيقى من بدايتها الناعمة وارتفعت حتى وصلت إلى ذروتها، أدرك لانجلي أنه برع في العزف على الآلة كما لم يفعل من قبل. وغادره خوفه تمامًا، وحلت محله نشوة جامحة. لم يعُد يعنيه إن كان من يستمع إليه شخصًا واحدًا أو ألف شخص. وعندما نظر إلى أعلى، بوجهٍ جذل منتشٍ، بدَت له النغمات وكأنها تتخذ هيئة حشود لا حصر لها من الملائكة، تطير حول الأنابيب التي تعلوه كأنها جرف بارز، وأن روحه تطفو معها هناك.

وظل لانجلي، في غمرة افتتانه بهذه الرؤية الخيالية الجميلة، يعزف بنفس مهارته الإعجازية حتى النهاية، وعندما خبت آخر النغمات رأى الملائكة تضم أجنحتها الواحد تلو الآخر وتختفي دون أثر. ثم ضغط على زر الإيقاف الذي يوقف عمل محرك المنفاخ، وظلت أصابعه الواهنة للحظاتٍ تلمس المفاتيح الصامتة التي غادرتها أنفاس الحياة. وخيّمت على عينَيه غيمةٌ رقيقة، ومال رأسه ببطء نحو الأمام حتى توسد المفاتيح الصامتة برفق، وقد غادرته الحياة.

الفصل الثالث والثلاثون

كان المبنى الذي شُيد في موقع الجناح الذي دمّره الحريق أكبر من المبنى الذي حل بديلًا عنه، وكان تخطيطه جيدًا لدرجة أن مستوى العملية والسهولة فيه تفوق المصنع المجاور له، وزاد من إنتاج الشركة بنسبة أكبر بكثير مما يتيحه حجمه الكبير.

قال سارتويل مخاطبًا السيد هوب الضئيل الحجم: «كل ما نحتاج إليه الآن هو أن يحترق الجناح الآخر، وسنمتلك مؤسسةً نموذجية.»

رفع السيد هوب عينَيه نحو سارتويل منزعجًا، كما لو أنه توقع أن يرى مدير مصنعه يستعين بمُشعل لإحراق المبنى القديم. فلم يتمكّن قط من فَهْم أسلوب سارتويل المقيت نوعًا ما في المزاح.

احتفظت الشركة بالمباني الأربعة التي استؤجرت لتكون ملحقًا مؤقتًا للورش أثناء تشييد الجناح الجديد، ولم يسبق للشركة على مدى تاريخها الطويل أن عقدت هذا الكم من الصفقات المربحة، ولم تعلن عن تحقيق أرباح بهذا الحجم، مثلما حدث خلال الأشهر التي أعقبت استكمال إنشاء المبنى الجديد. كان لدى الشركة سببٌ وجيه يجعلها تشعر بالامتنان إلى مديرها. فقد كان مونكتون وهوب يدركان أن الفضل في رفاهيتهما الآخذة في الازدياد المستمر يرجع إلى هذا الرجل المعتمد على نفسه الوطيد العزم، وكافآه كما يكافئ الرأسماليون عادةً من يخدمونهم جيدًا. فلم يُرفع راتبه الكبير بالفعل، دون طلب منه، فحسب، بل عندما تحوّلت الشركة إلى شركة خاصة، منحاه عددًا من الأسهم بقيمة اسمية تبلغ ألف جنيه، والتي يكفي ريعها، إذا ما استمرت الشركة في تقدمها على المنوال

نفسه، لأن يغنى سارتويل ماديًا مدى حياته، وفي الاجتماع الأول لمجلس الإدارة الجديد، عُين سارتويل في منصب العضو المنتدب للشركة.

عُقد هذا الاجتماع بعد عامٍ ونيِّف من افتتاح الجناح الجديد، وفيه قال سارتويل مخاطبًا أعضاء مجلس الإدارة الآخرين:

«لست بارعًا في الرد على عبارات الشكر، بالكلمات على الأقل، ولكني، كما تعلمون جميعًا، سأحاول أن أجعل حصة الأسهم التي منحتموني إياها استثمارًا مربحًا للشركة الجديدة. قد يُفتَرض بي، في ظل الظروف الراهنة، أن أكون سعيدًا للغاية، ولكن من الصعب إرضاء النفس البشرية، وأنا الآن بصدد طلب المزيد من السلطات. أريد التوصل إلى اتفاق معكم يمنحني حرية التصرف الكاملة حال مواجهة إضراب آخر عن العمل. كما أريد أن يكون لي سلطة رفع أجور العمال — بما لا يتجاوز، مثلًا، نسبة عشرة بالمائة — في أي وقت، دون الحاجة إلى الرجوع إلى مجلس الإدارة.»

سأله مونكتون: «لماذا؟ من الممكن لمجلس الإدارة أن ينعقد في أي وقت.»

«في واقع الأمر، هذا ليس ممكنًا. طبقًا للنظام الأساسي لشركتكم، يجب إخطار مجلس الإدارة قبل سبعة أيام كاملة، ويجب ذكر الغرض من الاجتماع عند الدعوة لعقد الاجتماع. وقد تطرأ حاجة ماسة لاتخاذ إجراء فوري، وأريد أن تكون لي السلطة التي تخوِّل لي ذلك.»

قال السيد هوب قلقًا: «لا شك في أننا لسنا عرضةً لإضراب آخر. لقد لُقن العمال درسًا قاسيًا ...»

«يظل العمال يتذكرون ما تعلموا من دروس ما دامت بطونهم خاوية، ونادرًا ما يستمر تأثيرها عليهم بعد أول وجبة مشبعة يأكلونها. إن

النقابة العمالية تعمل حاليًا على إعداد مطلب لرفع الأجور. فالشركة في حال جيدة، وهم يدركون ذلك. سنرفع أجور العمال لا محالة، وأريد أن تأتي هذه الزيادة طوعًا من الشركة دون أي إجبار. ثقوا بأني لن أقدم على أي تصرف أهوج، ولكني أريد أن أمتلك السلطة التي تمكّنني من إعلان مثل هذه الزيادة في أي لحظة.»

مُنح سارتويل سلطة التصرف الفوري، وتلقّى تأكيدات بأنه في حال حدوث إضرابٍ آخر، ستكون الشركة بكامل قوتها خلفه، ولكن رجاه السيد هوب أن يتجنّب أي مشكلاتٍ إذا كان بالإمكان تجنبها.

بعد الاجتماع، توجّه سارتويل إلى إيستبورن، واصطحب ابنته في نزهةٍ طويلةٍ سيرًا على الأقدام وسط التلال ذات النسيم المنعش.

قال لها بعد أن أخبرها بالمكافأة السخية التي منحَتها له الشركة: «حسنًا يا فتاتي، لقد أصبحتِ وريثةً الآن، وإن لم يكن لثروة كبيرة. لقد نقلت ملكية تلك الأسهم التي تساوي ألف جنيه إليك، وبما أني أرى أنها تساوي في الواقع عشرة آلاف جنيه، فأنا أعتقد أنه مبلغ كبير من المال لتملكه فتاة صغيرة لم تشبّ عن الطوق مثلك.»

صاحت إدنا: «ولكني لن أقبله يا أبي. سأنقل ملكيتها بالكامل إليك مرةً أخرى.»

«إذن سنظل نداول الأسهم فيما بيننا ككرة الريشة. إن لي طريقتي في التعامل مع الأمور يا إدنا؛ لذا من الأفضل أن تستسلمي للمحتوم في هدوء. كما أن هذه الأموال جاءتني بلا سابق إنذار، ولم أكن أضعها في حسباني؛ لذا فأنت لم تتسببي في إفقاري ولو ببنس واحد عما كنت عليه قبل شهر مضى. لقد ادخرت بعض المال في شبابي، وتخلصت أخيرًا من شبح الخوف الذي ظل يلازمني طوال حياتي؛ شبح الخوف من أن أهرم فقيرًا. لهذا السبب أملأ صدري بهذه الأنفاس العميقة المريحة من نسيم

البحر الرائع هذا. لقد اشتعل الرأس شيباً قبل أن يلوح الهدف يا إدنا، ولكن ها هو ذا يلوح الآن يا بنيتي.»

قالت إدنا وهي تمسك برأس والدها وتقبّله: «كم يسعدني ذلك يا أبي!»

«هل ستقبلين هذه الثروة المفاجئة إذن يا إدنا؟»

«سأقبلها بشرط واحد يا أبي.»

«وما هذا الشرط؟»

«إذا فعلتُ أي شيء لا توافق عليه، فاسمح لي بأن أعيدها إليك.»

كانت الفتاة تحدق بعيداً إلى حيث تلتقي السماء الزرقاء بمياه البحر الأكثر رزقة. بينما ظل والدها يحدق إليها بحدة للحظات.

«فسري ما تقولين، ماذا يعني ذلك يا إدنا؟»

«لا يمكنك أن تتوقع أبداً ما قد تقدم عليه امرأة.»

«بالتأكيد يا عزيزتي. ولكنك لست امرأة؛ أنت ابنتي الصغيرة.»

تنهدت الفتاة الصغيرة.

وقالت: «أشعر بأني كبرت كثيراً، بل أشعر بأنني عجوزٌ في بعض الأحيان.»

«أوه، هذه حالنا جميعاً في سن الثامنة عشرة. انتظري حتى سن الأربعين وستعرفين معنى الشباب الحقيقي. لو كنتِ فتًى في هذه السن، ولست فتاة، كانت ستراودكِ شكوكٌ خطيرة في وجود الرب، وأفكار سوداوية للغاية عن الجنس البشري بوجهٍ عام. لمَ قد أرفض أي شيء تفعلينه؟»

«أوه، لا أعلم. لطالما توقعَت أمي أن إرادتَينا العنيدتَين ستتعارضان ذات يوم، و...»

«بالطبع، بالطبع. وسيظهر مدعو النبوة. لا تدعي ذلك يؤرقك يا إدنا. إذا ما تعارضت إرادتانا على نحو خطير، فسنحضر إلى هذه التلال ونناقش الأمر. وأنا واثقٌ من أننا سنتوصّل إلى حل وسط.»

«ولكن ماذا لو لم يكن الحل الوسط ممكنًا؟»

«يا إلهي، ماذا يدور بخَلَدك يا إدنا؟ إنكِ تتحدثين بوجهٍ عام ولكنكِ تفكّرين في أمرٍ معين. ما الأمر يا ابنتي؟»

هزّت إدنا رأسها.

وأخيرًا قالت: «لا أعلم لمَ أقول ذلك، ولكني أخشى المستقبل. فهو يبدو غامضًا للغاية، ولا أود أن يفرق بيننا شيء على الإطلاق.»

«هذا هراء يا إدنا. ما الذي قد يفرق بيننا؟ إن كل ما تفكرين به لا يتعدى كونه لمحةً بسيطة من تشاؤم الشباب، فاقمته الحقيقة الكئيبة بأنكِ أصبحتِ الآن امرأةً تملك سُبل الاستقلال بنفسها. ولنفترضْ أن إرادتَينا العنيدتَين قد تعارضتا، كما تخشين، هل تعلمين ماذا سيحدث؟»

«ماذا؟»

«حسنًا، من المؤسف أن يقول أب ذلك لابنته، ولكني سأستسلم. فكّري في الأمر! إنها لإهانةٌ لي أن أعترف بذلك! أنا رجل رفض التراجع قيد أنملة في مواجهة المطالب الموحدة لبضع مئات من العمال، المدعومة بمناشداتٍ مؤثرةٍ للإذعان لهم من أرباب عملي. وإذا لم يُعد ذلك نصرًا مُظفّرًا لفتاة صغيرة مثلك، فماذا يُعد إذن؟»

صاحت إدنا وقد ملأت الدموع عينَيها سريعًا: «أوه، لا! أنا من سيستسلم ... أنا من سيستسلم ... حتى وإن حطّم ذلك قلبي!» فتوقّف والدها عن السير وأمسكها من كتفَيها. فأحنت الفتاة رأسها ووضعت إحدى يدَيها على عينَيها.

فقال لها والدها: «آه، إدنا، إدنا، هناك شيء وراء كل ذلك؛ لن أسألك عنه يا صغيرتي، ولكن ربما ستخبرينني به ذات يوم.» ثم ضمها إلى صدره وأزاح قبعتها جانبًا، وداعب شعرها الأشقر في حنان. وقال: «لو كانت أمك على قيد الحياة يا حبيبتي، كنا ... حسنًا، لا طائل من الأحزان أو الأماني. علينا أن نخرج بأقصى استفادة ممكنة من الأشياء كما هي. ولكن لا تهتمي بأمر إرادتَينا العنيدتَين يا إدنا؛ فلنترك الأمر حتى يحين وقته. إن كلَينا يتنافس على مَن سيستسلم للآخر أولًا كما ترين، ولا أرى أيّ عناد في ذلك. معذرةً يا ابنتي، لقد عبثت بهذه القبعة الجميلة، وقد يعتقد أي غريب يمر بنا أنكِ كنت تبكين. وهذا لن يليق أبدًا. دعينا نتحدث بعقلانية؛ فظني أنه لن يمر وقت طويل قبل أن أخوض كل ما أحتاج إليه من قتالٍ ومعارك لأظل في كامل لياقتي، دون الدخول في خلافٍ مع ابنتي الوحيدة.»

«ماذا تعني يا أبي؟»

«أوه، إنها الثورة المعتادة التي تعتمل في نفوس العمال. إنهم يرغون ويزبدون ويُجعجعون، وينتابني شعور مؤكد بأن ثمة إضرابًا آخر عن العمل يلوح في الأفق.»

«تحت قيادة السيد مارستن؟»

«تحت قيادته بالطبع. ولكني سأهزمه! سأُذيقه هزيمةً نكراء حتى يعض أنامل الندم أنه قد بدأ النزاع من الأساس. يُؤسفني أن أراه يضيّع طاقته وذكاءه هباءً في نزاعٍ لا أمل فيه. إنه شابٌّ ذكيٌّ لا يكل، ولكنه

حالمٌ وحماسي، وعندما يتوقف عن أحلامه بتحقيق المستحيلات، سيصبح رجلًا مهمًا للغاية.»

سألته الفتاة بصوتٍ شبه هامس محدقة إلى الأرض: «ما هي تلك المستحيلات يا أبي؟»

«استحالة أن يتفق العمال على أي موضوعٍ لمدةٍ تزيد على أسبوع واحد. استحالة درء الخيانة بين صفوفهم. استحالة كبح الغيرة الراسخة في قلوبهم تجاه أي رجلٍ يفوقهم تعليمًا ومهارة. ومارستن يمتلك أخلاق وغرائز رجل نبيل بالرغم من خلفيته المتدنية. ولن يتحمل العمال ذلك، وسيخذلونه عندما تتأزم الأمور.»

«إذا كانت نظرتك له جيدةً هكذا، فلمَ لا تعرض عليه وظيفةً جيدةً في المصنع، وتدعه يوجّه قدراته نحو مساعدتك؟»

«ابنتي العزيزة، لقد خمنتِ إحدى الأوراق التي أحتفظ بها في جعبتي حتى يحين وقتها. فأنا أنوي تعيين مارستن في منصب مساعد المدير، ولكن ليس الآن. سيكون ذا قيمة عندما يفيق، ولكن ليس وهو لا يزال غارقًا في أحلامه. لا بد أن يتعلم الدرس أولًا، والضربات القاسية وحدها هي التي ستعلمه. يعتقد هذا الصبي أنه سيصبح قائدًا للعمال، بينما هو في واقع الأمر يُمضي فترة تدريبه ليصبح مساعداً لمدير شركة «مونكتون آند هوب» المحدودة.»

«ولكن ماذا لو نجح؟ ماذا لو لم يفشل الإضراب القادم؟ لقد تآزر العمال لمدة زادت على الأسبوع في المرة السابقة.»

«هذا لأنهم كانوا تحت قيادة شخص فوضوي على شاكلتهم. ثمة قطاع كبير بينهم يكرهون مارستن، وعلى رأسهم جيبونز. لقد واجهت جيبونز، وهزمته، وأهنته، ودسته بقدمي، أما اليوم، فصار جيبونز يكره

مارستن ويحترمني أنا؛ فرجل مثل هذا دائماً ما يحترم من يُذيقه طعم الهزيمة. وستندهشين الآن عندما أقول لك إنني قد عيّنت جيبونز في الشركة، وأعطيه أجراً لم يحصل عليه من قبلُ في حياته. علاوةً على ذلك، عندما يزكي أحد العمال، أرقّي هذا العامل، وأصبح الجميع يدركون أن لجيبونز نفوذًا قويًا لدى المدير. وهذا يقوّي من قبضته على جماعته.»

«وما النتيجة المرجوة من ذلك؟»

«لا يمكننا تحديد النتيجة، ولكن من الجيد دائماً أن تدب الفرقة بين صفوف العدو. أنا ألعب لعبة، وأحرك القطع هنا وهناك بما يصب في مصلحتي. ثمة خط حاد الآن يفصل بين الجماعتَين، وستزداد الفجوة اتساعاً بمجرد أن تبدأ المتاعب. من المرجح أن يخرج جيبونز وجماعته حال الدعوة إلى إضراب، ولكنهم سيكونون مصدر ضعفٍ بين صفوف مارستن لا مصدر قوة، وبمجرّد أن يُقدم على خطوةٍ خاطئة — وهو ما سيفعله بالتأكيد؛ فهو ليس معصوماً من الخطأ — سيحدث انشقاق.»

«هل ثمّة اتفاق سري بينك وجيبونز إذن؟»

«أوه، باركك الرب، لا! إن المرء لا يناقش القِطع عندما يحركها. فكل قطعةٍ تؤدي إلى نتيجةٍ معينةٍ فقط بفضل تحريكها إلى مكانٍ معين، وليس بفضل أي إرادة حرة من قبلها. لقد أصبح مارستن على درايةٍ تامةٍ بنفوذ جيبونز المزعوم لديّ، ومن المرجح أنه سيقع في خطأ الاعتقاد بأن ثمّة اتفاقًا بيني وبين أمين النقابة السابق. وخلال إحدى المناقشات المحتدمة، قد يفصح عن اعتقاده هذا، وحينئذٍ سيكون قد أخطأ؛ فلا أحد يحقّ له أن يستاء من مثل هذا الاتهام أكثر من رجلٍ فاضلٍ على استعدادٍ لبيع ذمته إذا استطاع. سيكون نزاعاً مثيراً يا إدنا.»

تنهّدت الفتاة وقالت: «مسكين يا مارستن!»

«نعم، أنا مشفق على مارستن أيضاً، ولكن سيُفيده الدرس الذي سيتعلّمه كثيراً. إنه شاب إيثاري للغاية، وجيبونز رجل أناني للغاية. والرجل الإيثاري دائماً ما يخسر كل شيء في هذا العالم الانتهازي. دعينا نعُد الآن يا بنيتي. أعتقد أن والدك العجوز قد هيأ الكون برمته وفقاً لهواه؛ لذا لا يوجد المزيد ليُقال.»

الفصل الرابع والثلاثون

كان العمل الذي أنجزه مارستن خلال العام مشجعاً له بدرجة كبيرة. فقد توصل إلى اتفاق ودي مع الكثير من النقابات، ليس في الوطن فحسب، بل أيضًا في أمريكا والمستعمرات، كما كوّن تحالفًا نشطًا مع العديد من المجتمعات العمالية في المملكة المتحدة. كانت الأحوال جيدة، والعمل مزدهرًا، وكان عدد العمال العاطلين عن العمل قليلًا نسبيًا. وأدى كل ذلك إلى نشر شعور بالثقة في نجاح أي إضراب؛ إذ تزداد أرجحية النظر بعين الاهتمام إلى مطالب العمال في أوقات ازدهار السوق عن أوقات هبوطه. كما أصبح من الصعب كثيرًا حاليًا ملء المصانع بالأيدي العاملة الماهرة؛ إذ أصبح توظيف العمال غالبًا في عموم البلاد عما كان عليه الحال في الأعوام السابقة.

مرت ثمانية عشر شهرًا على مارستن منذ توليه منصب أمين النقابة، قبل أن يقرِّر بَدْء المعركة. قرّر أن يطالب بزيادة عشرة بالمائة في أجور جميع العمال، وحال رفض الطلب، سيستدعي العمال على الفور. عقدت اللجنة جلسةً سرية ووُضعت صياغة للطلب. وصدر أمر بعقد اجتماع للعمال يوم السبت ليلًا دون الإعلان عن موضوع النقاش. وأكّد مارستن على أعضاء لجنته ضرورة التزام السرية، إلا أن جيبونز، الذي كان ضمن الأعضاء، قال إنه لا يفهم الهدف من ذلك؛ فقد كانت رغبتهم هي الحصول على الزيادة في الأجور، ولن تتحقّق تلك الرغبة إلا عبر طرحها علانية. ولكنه أضاف قائلًا إن مارستن هو من يقود الحملة، ومن الصواب أن يُسمح له بقيادتها كما يتراءى له؛ ولهذا السبب أبدى جيبونز اعتراضه دون أن يصر عليه.

شُكل وفد بغرض عقد لقاء مع مجلس إدارة الشركة وعرض الطلب عصر يوم السبت. وبعد انتهاء الاجتماع، كانوا سيعدون تقريراً لعرضه في اجتماع العمال.

في يوم الجمعة، جمع سارتويل موظفيه وأعلن لهم أنه في ضوء حالة الشركة الراهنة، قرّرت الشركة طوعًا أن ترفع الأجور بنسبة عشرة بالمائة حدًا أقصى، وأضاف أنه يأمل أن تستمر العلاقات الودية بين الرؤساء والمرءوسين في المصنع إلى أمد طويل. قوبل الإعلان بالتهليل والهتافات، وتفرّق العمال، الذين لم يكن لديهم أي علم باجتماع اللجنة حينئذ، مستبشرين بالمستقبل.

كان أوان التراجع عن الاجتماع المزمع عقده ليل السبت قد فات، وعندما عُقد الاجتماع، كانت قد انتشرت بعض التلميحات عما حدث، وكان الرأي العام السائد بين العمال أن مارستن اغتر بذكائه، والآن يواجه عقبةً غير متوقعة.

غير أن مارستن وقف أمام الجمع بروح معنوية طيبة، وهنّأ العمال على زيادة الأجور التي حصلوا عليها. وكان العمال في مزاج مرح، وكانوا يهلّلون لكل ما يُقال بلا استثناء. وأخبرهم مارستن صراحةً بالغرض من الاجتماع، وأنه سعيد بحقيقة أن المسار غير المتوقع الذي نحته الأحداث مؤخرًا قد جعل أي نقاش غير ضروري.

واستطرد قائلًا: «سمعت بعض التلميحات عن أن السيد سارتويل قد تغلب عليّ، ولكن من الممكن أن نتغلب على الكثير من العقبات والانتكاسات في طريق الكفاح من أجل قضيتنا. يبدو جليًا أن السيد سارتويل أصبح يخشى النقابة «الآن». فإذا كانت مجرد شائعة بسيطة عن أننا بصدد المطالبة بشيءٍ ما قد دفعت رجلًا عنيدًا، مثل سارتويل، على الاستسلام قبل

أن نُقدم على أي تحرك، فهذا دليلٌ قويٌ على التأثير الكبير الذي يمكننا تحقيقه عبر التآزر معًا بقوة.»

يُقال إن وضع فاصلة في المكان الخاطئ في أحد القوانين التي أقرها البرلمان ذات مرة؛ كلّف الدولة مائة ألف جنيه. وكلمة «الآن»، التي قالها مارستن دون تفكير، جعلَت جيبونز يُصر على أسنانه في غضبٍ وقلة حيلة. فقد رأى مارستن أمام عينَيه منتصرًا يهين إدارته. وقرّر أن يجعل مارستن يدفع ثمن تلفُّظه بتلك الكلمة الصغيرة المكوّنة من خمسة أحرفٍ غاليًا، إذا ما سنحت له فرصة الانقلاب على هذا الشاب المفعم بالثقة في نفسه. ولكن لم ينبس جيبونز ببنت شفة، وانفض الاجتماع وسط الهتافات.

لم يقع سارتويل في وهم الاعتقاد بأن الزيادة التي قدّمها للعمال ليست نهاية المطاف. فقد كان يعلم أنه لم يفعل شيئًا سوى تأجيل المعركة، ولكنه أراد أن يُظهر لمجلس إدارة الشركة أنه بذل أقصى ما في وسعه لتجنُّب حدوث أي صراع. وبعد مرور ستة أشهر، دعا سارتويل مجلس الإدارة للانعقاد.

وقال لهم: «أود أن أعرض عليكم معلوماتٍ مهمةً حصلت عليها. ثمة سبب يدعوني إلى الاعتقاد بأن ثمة مطلبًا بزيادةٍ أخرى في الأجور بنسبة عشرة بالمائة سيُقدّم. إذا كنتم بصدد الموافقة على تلبيته، أود أن أعرف، وإذا كنتم بصدد اتخاذ موقفٍ ضد مثل هذه المطالب، أود أن أعرف. وحينها سوف أضع خططي على هذا الأساس.»

قال السيد هوب: «إذا لبينا هذا المطلب، فماذا ستكون النتيجة في اعتقادك؟ هل سيُجنّبنا المتاعب، أم سيكون بدايةً لعمليات ابتزاز جديدة في المستقبل؟ لا يمكننا أن نستمر في تقديم تنازلات هكذا بلا نهاية.»

«إن منح العمال هذه الزيادة سوف يؤجل المتاعب ستة أشهر أخرى على الأرجح. فأنا واثق من أن مارستن يريد أن يفرض علينا معركة؛ فقد

ظل يُعِد لها لما يزيد على العامَين. ما أريد تنبيهكم إليه أن هذا النزاع، عندما يبدأ، سيكون نزاعًا عنيفًا، وإذا ما أقدمتم على خوضه، فعليكم أن تفعلوا ذلك بأعينٍ مفتوحة، عازمين على مواصلة القتال حتى نهايته. يمكنكم أن تواصلوا تقديم التنازلات حتى تتضاعف أجور العمال، ولن يفعل كل تنازلٍ جديد تقدمونه شيئًا سوى تأكيد حتمية المواجهة الأخيرة.»

«هل تعتقد إذن أنه من الأفضل أن نتخذ موقفًا ضد هذه المطالب الآن؟»

«نعم؛ هذا إذا كنتم سترفضون الاستسلام تحت أي ظرف بعد أن تتخذوا هذا الموقف.»

«ولكن إذا اكتشفنا، بعد مرور بضعة أسابيع من استمرار الإضراب، أننا لا نستطيع الصمود، فسيكون من الحماقة أن نستمر.»

«بالضبط. أنتم تعلمون حدود مواردكم، وأنا أعلم حدود موارد العمال. لذا، فأنتم في موقفٍ جيد يُتيح لكم اتخاذ قراركم سواء الآن، أو بعد أسبوعَين، أو بعد شهر، أو بعد سنة. إذا ما دخلنا هذا النزاع، فعلينا أن ننتصر، وإلا فسأُضطر إلى الاستقالة.»

تنهّد السيد هوب وقال: «إنه لموقفٌ محير للغاية.»

«أوه، الموقف بسيط للغاية. إما أن تستسلموا وإما لا. أي الخيارَين تختارون؟»

«ما احتمالات ملء المصنع بعمال جدد، إذا تأكدنا من استحالة التوصل إلى اتفاق مع الموظفين الحاليين؟»

«لم تعد الاحتمالات جيدةً كما كانت في السابق. يمكننا القيام بذلك تدريجيًا، ولكن سيمر بعض الوقت قبل أن نعود إلى العمل بكامل طاقتنا مجددًا.»

«وهذا سيعني رفض الطلبيات الجديدة، وربما إلغاء الكثير من الطلبيات التي لدينا الآن.»

«بالتأكيد. هذه ضريبة الحرب. وعلينا أن ندفعها إذا ما قرّرنا القتال. وربما يتعطل عملنا تمامًا لستة أشهر قادمة.»

«هذا أمر في غاية الخطورة. ألَا يمكن التوصل إلى تسوية؟ ألَا يمكنك الاجتماع بمارستن ومعرفة ما يريد؟»

«أنا أعرف ماذا يريد.»

«وهل تعتقد أن من المستحيل التوصل إلى تسوية؟»

«صراحة، أعتقد ذلك.»

«هل تعارض لقاء مارستن مثلما كنت تعارض لقاء جيبونز؟»

«من حيث المبدأ، أنا أُعارض مناقشة أمور عملنا مع أي شخص غريب. ولكن لم يُثِر مارستن هذه النقطة قط. وعندما تقتضي الضرورة الاجتماع معي، كان دائمًا ما يرسل وفدًا من عمالنا. إنه خصم أخطر بكثير من جيبونز.»

«هل أنت على استعداد إذن، إرساءً للسلام، أن ترتب لاجتماع مع مارستن، وتناقشا المسألة، وتتوصلا إلى اتفاق، إن أمكن؟»

«نعم. سأُرسل إليه على الفور، ولكن لا أظن أن ذلك سيكون له أدنى جدوى، وقد يُشكل سابقةً سيئة.»

اتفق الجميع على أن هذه الخطوة من جانب سارتويل ستُحكم قبضته على زمام الأمور، وأنهم سيخوضون النزاع، إذا لم يتمكنوا من تفاديه، بروح معنوية أعلى كونهم جميعًا يعلمون أنهم قد فعلوا كل ما يمكن فعله لتجنب العداوات.

دعا سارتويل مارستن للقائه في مكتبه في تمام السابعة مساءً. وعندما دخل مارستن إلى المكتب، كانت أولى كلماته:

«لقد أخبرتني أني لن أضع قدمًا في هذا المكتب إلا إذا أُمرت بذلك؛ لذا عليّ أن أعتذر لك على حضوري بناءً على مجرد دعوة منك.»

فقال سارتويل ضاحكًا: «آه، لم تنسَ بعد! ولكن يبدو أنك نسيت أنك حضرت إلى هنا من قبلُ بناءً على دعوة أثناء الإضراب كما تعلم.»

«نعم، حدث.»

«في البداية يا مارستن، هل تحمل في قلبك أي ضغينة ضدي بسبب فصلك دون سابق إنذار من العمل؟»

«إطلاقًا. ربما كنت سأفعل مثلما فعلت في ظل الظروف نفسها.»

«إنه لكرم منك أن تقول ذلك، ولكني أشك في أنك كنت ستفعل مثلي. ولكن عليّ أن أقول إن الأمور لم تجرِ كما كنت أتوقع، ولا أحاول بذلك أن أجد لنفسي عذرًا على الإطلاق. كنت آمل أن تأتيني، وأن ... أن نتوصل إلى اتفاق هدنة، إذا جاز التعبير.»

«ظننت أنك تعرفني أكثر من ذلك.»

«لم أعرفك جيدًا، كما ترى. ولكن لندع الماضي جانبًا. دعنا نلتفت إلى الحاضر والمستقبل، وسوف أبدأ بسؤالك: هل لديك أدنى شك في أنك أحمق؟»

«بداية دبلوماسية وملطفة للأجواء يا سيد سارتويل. ولكني أعتقد أننا جميعًا نملك لمحةً من الغباء، زادت أو قلّت؛ فدعنا نترك الاختلاف على المسميات، ولكن يبدو أننا نرى عيوب الآخرين بصورةٍ أوضح ممّا نرى عيوبنا.»

«هذا صحيح دون أدنى شك. إنني أراك تضيِّع عمرك هباءً، وكنت أود أن أُقنعك بذلك قبل فوات الأوان.»

«وماذا بعد؟»

«حسنًا. أنا بحاجة إلى مساعد للمدير. ولا بد أن يكون هذا المساعد رجلًا ذا قدرات ويمكنني أن أثق به. إن العمر يتقدم بي، وسوف أتقاعد عما قريب. وسيحل مساعدي محلي إذا ما امتلك المؤهلات والقدرات المناسبة، وسيصبح المستقبل له. أنا أعرض عليك هذا المنصب.»

«وأنا لا يمكنني قَبوله.»

«لماذا؟»

«لأني كرّست حياتي للعمال.»

«ولكن ستتاح لك فرصة لخدمة العمال في ذلك المنصب أفضل من التي ستتاح لك في منصبك الحالي، الذي يدفعون لك فيه على مضضٍ ما يكفي لسد رمقك بالكاد.»

«أنا لا أقصد عمال هذه الشركة، بل جميع العمال في كل مكان.»

«إنه حلم بعيد المنال يا مارستن.»

«أعلم ذلك، ولكني أشعر بأني أهل لتحقيقه.»

«أظنك لا تتخيّل أني أعرض عليك هذا المنصب خوفًا منك، كونك أمينًا للنقابة العمالية.»

«أوه، لا. أعلم جيدًا أنك ترغب في تجنُّب نشوب معركة، كما أعلم أنك لا تخشى شيئًا سوى عدم مساندة مجلس إدارتك لك حتى النهاية.»

«هل تعتقد أن مَن يدعمونك لديهم هذا القدر من الإصرار؟»

«لا. إن نقطة ضعفي هي جيبونز وجماعته. أما نقطة ضعفك فمجلس الإدارة. وكلتاهما تلغي الأخرى؛ لذا ستكون معركةً مثيرة.»

«ثق تمام الثقة يا بني في أن الرأسمالي يستمر في دعم رجله أكثر ممّا يستمر العامل في دعم رجله بعشر مرات.»

«لا أشاركك هذا الإعجاب الشديد بالرأسماليين. لقد وعدني السيد هوب، والدموع تكاد تنهمر من عينَيه، أنه سيؤمّن لي مستقبلي عندما وجدني أعمل على تسوية الإضراب السابق الذي كان يرعبه. ونجحت وأصدقائي في إنهاء الإضراب، ولكنك طردتني من العمل بعد ذلك بأسبوعٍ واحد، ولا أعتقد أن السيد هوب قد فكّر مجرد تفكيرٍ في الوفاء بوعده لي، منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا. إن الرأسمالي الذي يُعجبك يشتهر بالجبن والأنانية المفرطة. بالطبع لا يخلو العامل من العيوب، وهو نفسه أكثر مَن يعاني منها، ولكن فيما يتعلّق بالسخاء، فإنه يتجاوز أي رأسماليٍّ جاء إلى هذه الحياة بكثير.»

«أنت مُصر على المضي قدمًا في النزاع يا مارستن، أليس كذلك؟»

«أوه، بلى! ليس إذا استسلمت أنت.»

«كم مرةً علينا أن نستسلم؟»

«حتى يأتي الوقت الذي تُصبح فيه أجور العمال مساويةً على أقل تقديرٍ لِمَا يتحصّل عليه أصحاب الشركة المزعومون.»

«آه، إنه تفكير مثالي، وما هو في نظري إلا مرادف للهراء. لمَ لا تكون صريحًا تمامًا معي الآن وتخبرني بأنك عازمٌ على محاربتنا؟»

«سيد سارتويل، إن موقفي كالآتي: أنا لا أريد القتال لمجرد القتال، كما أني لا أُكنُّ أي رغبةٍ ثأريةٍ لإذلالك، أو هزيمة الشركة لمجرد تحقيق النصر، ولكني مقتنعٌ بأن العمال لن يحصلوا على نصيبهم العادل

من حصيلة عملهم إلا بخوض معركةٍ وتحقيق نصرٍ حاسمٍ فيها. قبل بضع سنوات، كانت فكرة اتحاد العمال مثاليةً وسخيفةً في نظر الرأسماليين، ولكن هذا الحق بات اليوم واقعًا لا يقبل الجدل. ولن يُقدِّم الرأسماليون أي تنازلات حتى يجبروا على ذلك. لهذا السبب، لا بد من كفاح، وأنا ملزم باختيار الوقت وأرض المعركة المناسبَين لي. نحن جاهزون للقتال الآن، وسنقاتل، وأومن بأننا سننتصر.»

«بالضبط. هذا ما أردت معرفته. وبالنسبة إلى النصر، فالأيام بيننا. أنا أتفق معك تمامًا أنه لا شيء على المدى الطويل يمكن أن يكون مرضيًا، سوى قتالٍ عادلٍ ومباشرٍ وجهًا لوجه، ولينتصر الأفضل. ولا يتبقّى بعد ذلك سوى الاحترام المتبادل بين الخصمين. تكمن المشكلة في أن النزاع نادرًا ما يخلو من أمور جانبية تؤثر على النتيجة النهائية. في حالتنا هذه، أنت لست واثقًا من داعميك، وأنا كذلك. لو كنت أنا مالك هذه المؤسسة، لأعلنت الحرب على الفور، وخضتها بلا هوادة مثل قرصان بربري، وانتصرت فيها بالطبع، ثم وظّفت أكثر العمال قناعةً في إنجلترا. ولكن في الواقع لن تُحسم المشكلة بالمهارة القيادية لأيٍّ منا، بل بمدى استمرارية داعمينا في دعمنا. إذا ما انقلب عليك العمال قبل أن يتصاعد خوف مجلس إدارتي عما هو عليه الآن، فسوف تُهزم. أما إذا أصاب الذعر مجلس الإدارة أولًا، فستكون الهزيمة لي. وفي كلتا الحالتَين سيكون نصرًا أجوف، ولن يُحسم بناءً على حيثيات الموقف ووقائعه. إن المعركة برمتها رهن بالحظ، وإذا ما كنا رجلَين عقلانيَّين، لسوينا الأمر الآن بقذف بنس في الهواء، علاوةً على ذلك، إذا انتصرت، فسيكون نصرًا بلا طائل؛ إذ ستخسر كل شيء تجنيه بمجرد أن تواجه الصناعة أي عثرة. إن السبب الوحيد الذي يجعلك ترى النصر يلوح في الأفق أن أوضاع الشركة في ازدهار، وأن مجلس إدارتها يريد الخروج بجني أقصى قدرٍ ممكنٍ من المكاسب، بينما لا تزال الأوضاع مزدهرة. إنهم لا يريدون أن يتعطّل

عملهم وتُثار حولهم جلبة، بينما يجني منافسوهم ثمار موقفهم الحرج. وبمجرد أن تعود الصناعة إلى ركودها المعتاد، ستنخفض الأجور، ولا توجد قوةٌ على الأرض يمكنها مَنْع ذلك. فالأمر برمته يعتمد على العرض والطلب. ومن ناحية أخرى، أحذّرك أني لو انتصرت، فلن تطأ قدم أمين نقابة آخر أرض هذا المصنع مرةً أخرى أبدًا. لذا، إذا كانت مصلحة العمال تُهمك بالفعل يا مارستن، فعليك أن تفكّر قليلًا قبل أن تمضي في المعركة.»

«هل تشكّك في اهتمامي بمصلحة العمال؟»

«لا، لا أشكّك في ذلك. أنا أرى أنك شابٌّ إيثاريٌّ إلى أبعد الحدود، ولكني أعتقد أيضًا أنك تُضحّي بنفسك دون داعٍ. أنت ترى أننا من الصعب أن نتوصّل إلى اتفاق؛ لأن كلًّا منا يرى العالم من منظورٍ مختلفٍ تمامًا. أنت لا تزال عند سفح التل، وضباب وادي الشباب يحيط بك، ويشوّه رؤيتك، ولا يجعلك ترى المسار الصحيح. أما أنا، فقد بلغت قمة الجبل، حيث الرؤية أوضح. أنت ترى الناس أبطالًا ونبلاء، فيما أراهم أنا وضعاء وأشرارًا. أنت تؤمن بالعمال، وأنا لا أُومن بهم. من المحتمل أن كلَينا لا يرى الأمور بدقةٍ تامة، وأن الحقيقة قابعة في نقطة ما بين هذَين النقيضَين. ولكني أرى أن زمن الشهامة والإيثار قد ولّى، وأن كل إنسان لا بد أن يهتم لأمره فقط في عصرنا الحالي.»

«لا أفهم سبب حديثك بهذه الطريقة يا سيد سارتويل. لقد رأيتُ أعمالًا بطوليةً تحدث خلال حياتي القصيرة. رأيت رجلًا يخرج من هذا المصنع وحده ودون حمايةٍ رغم علمه بأن الحشد المجتمع في الخارج يطلب دمه، ولكن لم يبدُ عليه أيٌّ من أمارات الخوف أو التظاهر بالشجاعة. وكاد هذا الرجل نفسه يخسر حياته خلال إنقاذ الآخرين عندما احترق

المصنع، وكذلك برونت، العامل الأمي، ذهب إلى حتفه بنفسه بإيثارٍ وشهامةٍ للسبب نفسه.»

«آه، برونت رجلٌ قلّما يجود الزمان بمثله! حسنًا، ربما لا يزال ثمة شيء في الطبيعة البشرية يستحقّ الاحتفاظ به رغم كل شيء، ولعل الأمر كلّه أن العمر يتقدم بي وأزداد تشاؤمًا. على أي حال، النقطة الأهم في الوقت الحالي هي أنه لا بد أن يكون هناك اختبارٌ للقوة؛ لذا أعتقد أنه لا مفر أمامنا سوى التصافح مثل اثنَين يتنافسان على جائزةٍ قبل بَدْء المباراة. وأنت تعلم أني أراك أحمق؛ لأنك لم تقبل منصب مساعد المدير.»

تصافح الرجلان، وغادر مارستن المكتب تحت ستار الليل. بينما جلس سارتويل في مكتبه بضع دقائق يفكّر في الموقف بأكمله.

الفصل الخامس والثلاثون

كان الإضراب الثاني واضحًا ومباشرًا تمامًا مثل الأول؛ أي لم يكن ثمة متخلّفون عنه يواصلون العمل في المصنع، وكان يبدو أن ثمة إجماعًا بين صفوف العمال، وإصرارًا واضحًا من قِبل السادة. بدا الإضراب في ظاهره للجميع أنه اختبار قوة مباشر وعنيف بين رأس المال والنقابة العمالية. لم يهتم مارستن كثيرًا بتعاطف العامة، الذي كان يراه جيبونز أمرًا على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية، ولم يكن سارتويل يكترث به على الإطلاق. وفي جميع الأحوال لم يُبدِ العامة اهتمامًا كبيرًا بما يحدث. فكان معروفًا أن الشركة قد رفعت أجور العمال طوعًا منذ مدة قصيرة، وقال أصحاب الشركات بوجه عام إن هذا يدل على حماقة تغليب العاطفة في مجال الأعمال، وإن ما من صاحب عمل يجدر به أن يرفع الأجور إلا إذا كان مجبرًا على ذلك. كما أكّدوا على أنه لم يكن ثمة أيٌّ امتنانٍ من قِبَل العمال، وانتهجت بعض الصحف النهج نفسه. ولكن حتى تلك الصحف التي تحابي العمال شكّكت في الحكمة من الإضراب في ظل الظروف المذكورة، على الرغم من تمنياتها بنجاح الإضراب.

ولكن لم ينتبه مارستن كثيرًا إلى تعليقات الأصدقاء أو الخصوم؛ فقد كان يدرك أن النجاح أو الفشل ليسا رهنًا بما تكتبه الصحف، بل رهنًا بالتنظيم الجيد والضرب بقوة. كان يدرك أنه إذا فاز، فسيرجع الفضل إلى إصرار العمال والتوقيت الصحيح للإضراب، أما إذا خسر، فسيكون عليه أن يتحمل وحده كل اللوم. قام مارستن بتعيين حراسة لمراقبة المصنع بالطريقة المعتادة، واختار لهذه المهمة أصدقاءه الأكثر ولاءً وصمودًا من بين العمال. وطلب من بقية العمال أن يبتعدوا عن بوابات المصنع، وأن

يدعوا إدارة المعركة بالكامل له ولأولئك الذين اختارهم ليكونوا مساعديه.

ما إن بدأت المعركة، حتى قرّر سارتويل ألّا تأخذه بالعمال أي رحمة أو شفقة. فقرر أن يملأ المصنع بعمال من الخارج، إن أمكن، وألّا يُعيد أيًا من الموظفين السابقين دون أن يوقّعوا على تعهد بترك النقابة. خلال الإضراب السابق، كان متلهفًا لإعادة عماله إلى أعمالهم كاملين، ولم يُقدم على أي محاولة حقيقية لاستبدالهم. وعرف منذ بداية الإضراب الثاني أنه كان يقاتل من أجل البقاء، وأنه سيستقيل إذا هُزم، والمكان الذي عرفه وألفه طوال سنوات لن يعرفه مجددًا. لم يكن يخشى أن يُطرد من عمل الشركة إذا ما خسر المعركة، بل إنه في الحقيقة كان يدرك أنهم سيبذلون كل ما في وسعهم لحثه على البقاء، بل كانت كبرياؤه العنيدة، على حد وصف زوجته، هي التي كان يشعر بأنه لن يتمكن من التغلب عليها حتى لو أراد ذلك. فسارتويل، مثل بعض السيوف المصنوعة من الصلب المقوى؛ ينكسر ولكنه لن ينثني. فسنوات من الإصرار الذي لا يتزعزع على ما كان يراه صوابًا، جعلت منه رجلًا لا يملك هو نفسه سوى أقل القليل من السيطرة عليه، وكان يُلاحظ في بعض الأحيان بسخريةٍ سوداويةٍ أنه على الرغم من قدرته على إقناع «رفاقه» بأن يسلكوا مسارًا ملتويًا، ولكنه آمِن فيما يتعلق بأي مشكلة، لم يكن يستطيع حمل نفسه على اتباع أي مسار عدا المسار المستقيم. ظل يعمل ليلًا ونهارًا على مهمة ملء المصنع بعمال جدد. فجاب أرجاء البلاد بحثًا عنهم، وكلّفته البرقيات وحدها ثروةً طائلة، ولكن كان العمال نادرين، العمال الجيدون نادرون دائمًا، أما الآن، فأصبح من الصعب إيجاد حتى العمال العاديين. قال جيبونز ذات مرة إن عمال العصر الحديث يعانون من حقيقة أنهم مجرد تروس في عجلة كبيرة، ولكن هذه الحقيقة البديهية أيضًا لا تصب في مصلحة صاحب العمل الذي يحاول ملء مصانعه بالعمال. فإذا

كان الترس بلا أهميةٍ تُذكر في حد ذاته، يجب ألّا ننسى أن العجلة أيضًا لن تكون ذات أهميةٍ حتى يوضع الترس في مكانه. من السهل على أي صاحب عملٍ أن يستبدل ترسًا واحدًا، لكن إذا كانت العجلة بأكملها بدون أي تروس، فثمة تسعة وتسعون ترسًا بلا جدوى إذا كان لا يمكن العثور على الترس المائة اللازم لإكمال الدائرة.

كانت هذه المرة الأولى التي يلمس فيها سارتويل كفاءة خصمه وقدراته، وتلاشى غضبه في خضم إعجابه بذكاء الشاب وإلمامه بعالم الأعمال. أُديرت المعركة بهدوءٍ تام حتى إنه لا أحد من سكان الحي كان يدرك أن ثمة حربًا دائرةً في ظل عدم وجود أي دلالاتٍ على حدوث اضطراب. لم يحاول مارستن أن يرشو العمال الجدد الذين كانوا يدخلون ويخرجون من المصنع في حرية، دون أن يعترضهم أيٌّ من الحراس. كان مارستن يتحدث إلى أولئك الغرباء في بعض الأحيان ويخبرهم عن الإضراب، ويسألهم من أين أتَوا، ناصحًا إياهم بالبحث عن عمل في مكان آخر، ولكنه لم يحاول قط أن يُجبرهم على شيء أو يرشوهم. تعجّب سارتويل من ذلك، وتمنّى لو استمر مارستن في الحرب بذلك الأسلوب الوديع الحميد، إلا أن وداعته تلك تحديداً كانت هي مبعث قلقه، وحذر موظفيه الجدد من إعطاء المضربين أي معلومات، رغم علمه جيداً بعدم جدوى محاولة فرض ستارٍ من السرية؛ لأن العمال سوف يتحدثون. في الواقع، كان مارستن حريصًا على أن يكون مطلعًا دائمًا على ما يحدث داخل المصنع، وأدرك أن المدير يحاول التركيز بذكاء على فرع واحد من قسم واحد، بدلًا من محاولة ملء المصنع بالكامل دفعةً واحدة. فكان يجمع تروسه المائة تدريجيًا من كل حدب وصوب، وشيئًا فشيئًا سيحصل على عجلة واحدة كبيرة وترس مسنّن يدوران من بين جميع العجلات والتروس المسننة. في ظهيرة أحد الأيام، عندما خرج العمال، كان

مارستن يمرِّر عينَيه عليهم سريعًا، ورأى رجلًا جديدًا، وأدرك في الحال أن سارتويل قد حصل على الترس المائة أخيراً.

اقترب مارستن منه وبادره قائلًا: «هل أنت وافد جديد؟»

أجابه الرجل: «نعم؛ لقد بدأت عملي صباح اليوم.»

فقال مارستن وهو يسير معه جنبًا إلى جنب: «أود أن أتحدث إليك.»

«لا فائدة من ذلك. فأنا أعلم بأمر الإضراب. لقد أتيت هنا لأعمل، ولا أبالي بالنقابة على الإطلاق!»

«لن يضرك إذن أن نناقش المسألة.»

«ولن يفيدني. فلم أخرج لأتحدث، بل لتناول عشائي.»

«بالطبع. أنا أيضًا جائع، تعالَ معي. يمكننا أن نتحدّث بينما نأكل.»

«يمكنني دَفْع ثمن عشائي.»

«بالطبع، أنا لا أحاول أن أعرض عليك دَفْع ثمنه. ولا أعتقد أني أحصل على عُشر أجرك، يمكنني أن أستنبط من مظهرك أنك عاملٌ جيد. أنا أمين النقابة العمالية، ولا أتقاضى سوى بضع شلنات أسبوعيًا. يمكنني أن أخبرك بأجري الزهيد، ولكن من المحتمل أنك لن تصدِّقني؛ إذ يمكنني أن أجني المزيد من صنعتي.»

«إنك لأحمق كبير إذن أن تعمل مقابل أجر زهيد.»

«ربما. أنا أريد رفع أجور العمال في جميع أنحاء المملكة؛ لذا فأنا راضٍ بالعمل مقابل أقل القليل إذا كان بإمكاني تحقيق ذلك. من أين أتيت؟»

«أنا من بولتون.»

«هل أسرتك هنا معك؟»

«لا.»

«لماذا؟»

«وفيمَ يعنيك هذا، أريد أن أعرف؟»

«إنه يعني الكثير بالنسبة إلينا جميعًا؛ لأنه يدل على أنك لست واثقًا من استمرارية عملك هنا.»

«إنه لا يدل على أي شيءٍ من هذا القبيل. فأنا أضمن وظيفتي.»

«تضمن! وما قيمة أي ضمان من أحد السادة؟ سننتصر في هذا الإضراب، وحينئذٍ هل تعلم أين سيذهب الوافدون الجدد؟ أنت تعرف ما يحدث عندما يعود العمال إلى أعمالهم. لن يستمر أيٌّ منكم في الشركة. ولنفترض أنك حصلت على راتب جيد لبضعة أسابيع، ماذا ستكون الفائدة في النهاية؟ إن راتبًا أقل مع وظيفة دائمة أفضل.»

«ومن قال إنه ليس كذلك؟ ولكن ليس لديّ عمل دائم.»

«أصبحت تتحدث بتعقلٍ الآن. هل أنت عضو في النقابة؟»

«كنت عضوًا. لقد تشاجرت مع رئيس العمال، وطردني.»

«في أي شركة حدث ذلك؟»

«في شركة سميجدن.»

«لا أعرفها. وكم كان أجرك فيها؟»

«ثلاثين شلنًا أسبوعيًا.»

«هل تعرف شركة ماركام آند ساربري وشركائهما في بولتون؟»

«نعم.»

«هل ترتضي بثلاثين شلنًا أسبوعيًا هناك؟»

«نعم؛ إذا كان بإمكاني ضمان الحصول عليها.»

«يمكنك أن تضمن ذلك. سأُرسل برقيةً إلى رئيس العمال على الفور، وسيصلنا رده قبل أن ننهي طعامنا. لقد وعدني بتوفير أماكن لثلاثة عمال، ولم أرسل له أحدًا بعد. ولكن لا تقل شيئًا لأي شخص هنا؛ فأنا أريد الاحتفاظ بالوظيفتين الأُخريين لعمال بولتون إذا ما حضروا للعمل هنا.»

«لن أعود إلى هذه الشركة أبدًا إذا استطعتُ ضمان وظيفة في بولتون.»

وهكذا خسر سارتويل ترسه المائة، ولم يرَ هذا الترس قط أن الأمر يستحق منه عناء تفسير سبب مغادرته لمديره السابق. وغادر مستقلًا أول قطار إلى مانشستر.

تكرّر الأمر نفسه عدة مرات قبل أن يدرك سارتويل تمامًا الطريقة التي يستخدمها مارستن. كان يعتقد في البداية أن مارستن كان محظوظًا فقط في استمالة العمال، عندما تتسبّب هذه الاستمالة في تعطيل جميع سُبل التقدّم. كان الأمر يُشبه سحب مسمار التثبيت من محور عربة. راسل سارتويل زملاءه مديري الشركات في مختلف أنحاء البلاد، محذرًا إياهم من أن رؤساء العمال لديهم يوظفون عمالًا من شركة «مونكتون آند هوب»، ووصلته ردود تفيد بأنهم سيبذلون أقصى ما في وسعهم لمنع هذا النقل، ولكن لمّا كان من الصعب تتبُّع وجهة العامل، لم يؤدِّ التحذير إلى نتيجة تُذكر؛ إذ لم يُطرد منهم إلا قلة. لو أن هذا النزوح للعمال جاء جماعيًا، لربما فعل سارتويل شيئًا لإحباط نجاح هذه المحاولة، بمساعدة أقرانه من مديري الشركات الأخرى، إلا أن طبيعة علاج مارستن للأمر

القائمة على معالجة الداء بالداء جعل من الصعب التعامل معها. وفي هذا الوقت، طغى على سارتويل شعور المهزوم، وعلى الرغم من أنه لم يقل شيئًا ولم يستجدِ أي تعاطف من أحد، حفر هذا الشعور في وجهه تجاعيد أكثر من تلك التي حفرتها سنوات العمل الشاق. ورأت ابنته، التي عادت إلى المنزل بعد انتهاء الدراسة، بحزن عاجز تلك الأخاديد العميقة التي يحفرها الهم في وجهه الصارم.

الغريب في الأمر أن أساليب مارستن الهادئة والفعالة التي أقنعت رجلًا فطنًا نافذ البصيرة مثل سارتويل بأن العمال سينتصرون في النهاية، عادت بتأثير عكسي تمامًا على المضربين أنفسهم. فلم يكن العمال يستوعبون اللعبة، وكانوا يرَون بقلق متزايد أن المصنع يمتلئ بالعمال ولا أحد يفعل شيئًا لمنع ذلك. فلم يكن مارستن يدعو إلى عقد اجتماعات ويُفصح بحماسة عمّا في جعبته بدفقة من الجزالة والفصاحة، كما جرت العادة مع جيبونز. واعتقد العمال أنه لا يفعل شيئًا لمجرد أنه لم يكن يقول شيئًا، وحتى أصدقاء مارستن المقربون بدءوا يتشككون في تحقيق النتيجة المرجوة. فلم يكن ثمة أي دلالةٍ على الاستسلام من جانب السادة، وكانوا يرَون كل يوم عددًا متزايدًا من العمال يخرجون أمام أعينهم من البوابات. وعلى الرغم من نهي مارستن لهم عن ذلك، بدأ المضربون يتجمهرون حول البوابات منددين بالموظفين الجدد أثناء خروجهم؛ فقد بدا لهم أن الهتافات وصيحات التنديد سوف تحقق شيئًا، وكانت على الأقل تنفيسًا عن مشاعر العمال العاطلين المكبوتة. راقب مارستن أمارات التمرد تلك بقلق، ولكنه فكّر في أنه بما أن العمال لم يكونوا يتضورون جوعًا هذه المرة، وكانوا جميعًا يدركون أن النقابة لا تزال تمتلك أموالًا كافية، فإن بإمكانه السيطرة على المضربين حتى يوجه ضربةً قاصمة من شأنها أن تنبِّه شركة «مونكتون آند هوب» بأنه لا فائدة من المزيد من المقاومة.

وكان يدبِّر هذه الضربة في هدوء، وكان يتوقع انتهاء الإضراب بالنصر عند توجيه هذه الضربة.

كان وفد من المضربين، يترأسه جيبونز، ينتظر مارستن، وطالبوه بضرورة عقد اجتماعات عامة، كما كان يحدث من قبلُ دائمًا، حتى يظل العمال على دراية بالتقدم المحرز في نزاع أثّر بصورة حيوية على مصالحهم. تحدّث جيبونز بقوة ومشاعر فياضة عن الموضوع، كرجل يتحدث من قلبه، وتأثر أعضاء الوفد بشدة. كان جيبونز يرى أن من الخطأ أن يظلوا يتحسّسون طريقهم في الظلام لفترة أطول من ذلك، وأنهم يريدون أن يعرفوا إلى أين وصلوا، وما الإجراءات التي ستُتخذ لإجبار سارتويل على الجلوس إلى طاولة المفاوضات.

قال مارستن معترضًا: «ولكن، ألَا ترى أن أي معلومات أُفصح عنها لأصدقائي على الملأ تصل إلى العدو في الحال؟ لم أرَ أي شيء يتحقّق من قبلُ بالكلام. ونزاع مثل هذا يتخلّله الكثير من الكلام بوجه عام.»

فقال جيبونز الفصيح اللسان: «أتفق معك تمامًا، ولكن في غياب الكلام نود أن نرى دليلًا من فعل. وهذا النوع من الأمور لا يمكن إخفاؤه إلى الأبد. إن سارتويل يملأ المصنع تدريجيًا بالعمال، وقد ضقنا ذرعًا بما يحدث. يجب أن نعرف ما يدور من حولنا؛ فلن يكون ثمة عزاء في أن تخبرنا بعد أسبوع، أو اثنين، أو ثلاثة، أنك اكتشفت أنك لا تملك أي فرصة لتحقيق النجاح، وأن علينا أن نتوصل إلى أفضل اتفاق يمكننا الوصول إليه. يجب أن تتذكر ذلك، على الرغم من أنك لست بصدد خسارة وظيفة، فإننا بصدد خسارة وظائفنا. هل ستعقد اجتماعًا لتوضّح للرجال فرصنا في تحقيق النجاح؟»

«لن أفعل شيئًا من هذا القبيل. إن القائد العسكري لا يجمع جيشه ليشرح لهم ما ينوي فعله في المرحلة القادمة. أنا قائد هذا الإضراب،

وسأقوده بطريقتي أو أتنازل عن قيادته تمامًا. أنت تقول إن المصنع يمتلئ بالعمال وأنا أقول لك إنه لم يؤدِّ أي عمل على الإطلاق منذ بداية الإضراب. كل ما يمكنني أن أعدكم به هو أن أُخبركم بانتهاء أموالنا قبل انتهائها بأسبوعين، وإذا رأيتم أننا لن ننجح، فسيكون أمامكم ما يكفي من وقت لاتخاذ أي ترتيبات تريدونها، وتعزلوني من منصبي.»

«أوه، إن هذه الطريقة الاستبدادية لا تصلح لهذا الزمن. تذكّر، أنت لست الحاكم بأمره. إن العمال يملكون كل الحق في المطالبة بمعرفة ما تفعل بهم وبأموالهم.»

«عندما كنت أنت قائدًا يا جيبونز، انتهت أموال العمال قبل أن تُخبرهم بأي شيء عن ذلك. وكان ثمة الكثير من الكلام في تلك الأيام، والقليل من المعلومات القيمة. لن أقود الإضراب بفمي، ولن أقبل تدخلًا من أحد.»

«أرجو أن تتذكر أنك خادمنا، وليس في ذلك تدخل أن نسألك عما يحدث وما تنوي فعله. والآن، إما أن تدعو لعقد اجتماع مع العمال في قاعة جيش الخلاص وإما أن نفعل نحن. أيهما تختار؟»

«لن أدعوَ لعقد اجتماع. وإذا ما دعوتم لعقد اجتماع، فأنتم من ستتحمّلون مسئولية التدخّل في أمرٍ لا تفهمونه. من المرجح أنكم قد تستطيعون إحراجي، أو ربما هزيمتي، ولكن إذا فعلتم، فسيأتي وقت سيلعنكم فيه العمال على تدخّلكم. أؤكد لكم أننا سننتصر في هذا الإضراب إذا ما رفعتم أيديكم عنه. إن الدعوة إلى اجتماع ستبرهن لسارتويل أننا قلقون، وهو لا يتمنى شيئًا سوى أن تدبّ الفرقة في صفوفنا. لقد كان صريحًا بما يكفي لأن يخبرني بذلك بنفسه.»

«ومتى أخبرك بذلك؟»

«قبل أن نبدأ الإضراب.»

نظر جيبونز إلى الوفد نظرةً ذات مغزى، وأومأ بعضهم برءوسهم في أسًى، كما لو أنهم يقولون إنهم لم يكونوا ليصدقوا ذلك لولا أن الأمر أصبح جليًا الآن، بعدما اعترف أمين نقابتهم بنفسه بأنه يتواصل مع العدو سرًا.

قال جيبونز بجدية: «أعتقد، بعد ما قلته بنفسك، أن ثمة سببًا وجيهًا تمامًا يدعوك إلى الاجتماع بالعمال؛ لتخبرَهم بما جعلك تتناقش مع سارتويل في احتمالية فشل الإضراب قبل حتى أن يبدأ. لقد كنت تعلم أن هذه النقطة شائكةٌ بالنسبة إلينا منذ الإضراب السابق، وإذا كان سارتويل عدوك، كما قلت، فقد حاولتُ جاهدًا أن أرى سببًا يدعوك إلى ...»

«أوه، لا حاجة لأي سريةٍ بشأن هذا الأمر يا جيبونز. في واقع الأمر، ثمة القليل من الغموض يكتنف أي شيءٍ نفعله، وهذا أحد الأسباب التي تدفعني لرفض الدعوة إلى عقد اجتماع عام. فالأمور سيئة بما يكفي كما يحدث الآن. لقد اكتشفت أن سارتويل يعرف بوجه عام ما سنفعل قبل أن يعرفه الكثير منا. لقد ذهبت إلى سارتويل لأنه طلب مني الذهاب إليه. فقد كان يعرف بهذا الإضراب، على الرغم من أني تخيّلت أني لم أناقش هذا الأمر سوى مع نفسي ومع بعض الأشخاص الآخرين. وعرض عليّ منصب مساعد مدير الشركة في مقابل الاستقالة من منصبي أمينًا للنقابة. ولكني رفضت، وأخبرني بأن هذا الإضراب سيفشل لا محالة؛ لأن العمال لن يخلصوا لي. يمكنك أن تخبر العمال بكل تفاصيل حديثي مع سارتويل، ولكن لا داعي لعقد اجتماع لمناقشتها.»

«قد يكون كل ما قلته صحيحًا، ولكني أُقر بأنه يبدو مريبًا نوعًا ما. فأنا أشك في أن سارتويل يخشاك إلى هذه الدرجة. على أي حال، لا ضير من معرفة حقيقة موقفنا. سأبذل أقصى ما في وسعي لتهدئة مخاوف

العمال، ولكني أحذّرك من أن ثمة مشكلات ستقع إذا لم يرَوا شيئًا جديدًا مشجعًا أكثر ممّا رأينا مؤخرًا خلال أسبوع من الآن. وسيدعو العمال إلى اجتماع بأنفسهم إذا لم تفعل أنت.»

«إذا لم يحدث شيء خلال أسبوع، فسأعقد اجتماعًا وأخبرهم بما جرى حتى تلك اللحظة بالتفصيل، ولكني لا أحبذ الاجتماعات، ولن أدعو إلى عقد أي اجتماع إلا مجبرًا. إنك تجبرني على فعل شيء لا أُريده يا جيبونز رغم وعدك لي باللعب النزيه.»

«يبدو لي أنك حصلت على وقتٍ أكثر من كافٍ، وأعتقد أننا كنا صبورين للغاية بارتضائنا الانتظار أسبوعًا، رغم أننا لا نعلم إلى أين تقودنا.»

انصرف الوفد بعد ذلك، وظل مارستن يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، متسائلًا عما إذا كان مجلس الإدارة يُذيق سارتويل الأمرين مثلما يفعل العمال معه. ومثلما كان الحال خلال الإضراب السابق، وُضعت قاعة الخلاص تحت تصرُّف العمال. ولم يدعُ مارستن لأي اجتماعات فيها عدا ذلك الاجتماع الذي أعلن فيه عن بدء الإضراب. ولكنه جعل مقره في غرفة تفتح على المنصة، وتتصل أيضًا بممر ضيق يمتد على طول القاعة من الخارج إلى الشارع. وفي هذه الغرفة، كان خفراؤه يقدِّمون له التقارير، وكان يؤدي الأعمال التي يقتضيها الإضراب من حسابات ومراسلات. وفي هذه الغرفة أيضًا كان يتم استلام الخطابات والبرقيات. كانت غرفةً بسيطة لا تحتوي من الأثاث إلا على بضعة مقاعد وطاولة خشنة بسيطة. وعُلق العديد من الشعارات الدينية والأخلاقية على الألواح الخشبية التي شكّلت الجدران. «أحبوا بعضكم»، كانت هذه الجملة هي ما تقع عليها عينا مارستن كلما رفع بصره من مقعده عند الطاولة. وكان في بعض الأحيان يبتسم في أسًى وهو ينظر إليها. توقف مارستن عن

السير، وجلس إلى الطاولة عندما سمع طرقًا على الباب الخارجي. دخل الغرفة رسول توصيل البرقيات وسلمه مظروفًا. فتح مارستن المظروف، وقرأ الكلمتين الوحيدتين المكتوبتين بداخله «لقد أُوقِفت.» جاءت هاتان الكلمتان من الجانب الآخر من الكرة الأرضية، وسافرتا من سيدني، إلى نيو ساوث ويلز، وصولًا إلى لندن. أضاء بريق من سعادة وحشية عينَي الشاب، ولدهشة الرسول، ضرب مارستن سطح طاولة المفاوضات بقبضته بقوة.

وقال للصبي الذي ينتظر متذكرًا فجأةً أنه ليس وحيدًا: «لا يوجد رد»، ثم أضاف محدثًا نفسه: «ولن يكون ثمة رد إلا من شركة مونكتون آند هوب.»

وعاد مجدّدًا ليذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، وجسده يرتجف بالكامل من لذة المعركة واستشراف النصر المحقّق. ولمع شعار «أحبوا بعضكم» في سلام على الجدار، ولكن دون أن يلاحظ.

الفصل السادس والثلاثون

عندما انتهى عامَا الدراسة في إيستبورن، عادت إدنا سارتويل إلى ويمبلدون، وعادت لتشغل مركزها المعتاد في منزل والدها. وبمرور الوقت، سُر سارتويل كثيراً بغياب المشاحنات بين المرأتَين اللتَين في حياته، والتي كانت الذريعة التي تذرّع بها لإرسال إدنا بعيداً. لم يكن يأمل كثيراً في أن يقلّل العامان الماضيان من كراهية زوجته لابنته، والتي لم تحاول إخفاءها إلا قليلاً، ولكن في ظل هذا السلام الذي خيّم على الأسرة، لم يحاول أن يتعمّق في البحث عن أسباب هذا التغير المحبّب. ولم يكن يعلم أن ابنته أصبحت تتحمّل في صمت ما كانت تتمرد عليه سابقاً. فكان توجّه السيدة سارتويل نحو التعليم بوجه عام موجهاً لإحباط من يناصرونه. فقد كانت تعتبر أن التعليم في المدرسة مضيعة آثمة للوقت والمال. وكانت تعتقد أن الحواريين لم يرتادوا مدرسةً داخلية، ومَن في العصر الحالي يُقارَن بالحواريين؟ لم يكن التعليم سوى أداة لتغذية ذلك الزهو المؤسف الذي كان بالفعل من السمات الراسخة لهذه الأمة المتغطرسة. وكان لديها الكثير من النصوص التي ذهبت إلى إثبات أن الكثير من التعليم شيء خطير، وكانت تُلقي هذه الاقتباسات باستمرار على مسامع إدنا، على أمل أن تخفِّف كثرةُ التكرار، إلى حدٍّ ما، من الشر الذي لا بد وأن يتبع قضاء فترةٍ في مدرسةٍ عصريةٍ وباهظة. كان الغرور المفرط هو الهم الأكبر الذي يؤرِّق السيدة سارتويل، باعتباره أسرع طريق يؤدي بالأمم المعاصرة نحو الهلاك مقارنةً بأي شيء آخر. أخبرَت السيدة سارتويل إدنا آسفةً بأنها لاحظت تغيراً غير محبذ في سلوكها منذ عودتها من إيستبورن. وكان الغرور الذي يرتدي قناع التواضع هو أكثر أشكال هذا الإثم المقيت إهلاكاً، وكانت ترى أن صمت إدنا أمام مواعظها

الحسنة دليل على أن غرورها قد أصبح من النوع العنيد، الذي يصعب كثيراً على امرأةٍ صالحةٍ التعامل معه. وعندما هدّدت السيدة سارتويل — على أثر شعورها بالإهانة من عدم رد خصمتها عليها، وسَلْبها حقها العادل في عرض حجتها؛ بسبب صمتها — بأن تضع أمام عينَي زوجها النتائج المروعة للإفراط في تعليم فتاةٍ ذات طبيعةٍ متغطرسةٍ بالفعل، ظهرت لمحةٌ من التمرد السابق بينهما، إلا أن التمرد قد تغير بفعل العامَين اللذَين قضَتهما في إيستبورن، مثلما تغيّر الكِبر والغرور. فعلى الرغم من أن غضب إدنا من هذا التهديد المباشر بإخبار والدها كان واضحاً، كان ثمة قدرٌ من التحفُّظ والكبح في إدارتها لغضبها لم تستوعبه السيدة سارتويل. فقد ظلّت الفتاة واقفةً في مكانها للحظاتٍ تحدِّق إليها، ثم قالَت بهدوءٍ شديد:

«لدى والدي الكثير ليقلق بشأنه ولا حاجة لإزعاجه بأمور تافهة. إنه يعتقد أن غيابي عن المنزل عامين جعلك تحبينني أكثر مما كنتِ قبل أن أغادر، وأود أن يستمر في اعتقاده هذا.»

«أحبك أكثر؟ ابنتي العزيزة، إن الحب الذي أُكنه في قلبي تجاهك هو ما يجعلني أسعى، بطريقتي المتواضعة، إلى تصحيح تلك الأخطاء التي ستؤدي بك إلى الهلاك يوماً ما، وأدعو الرب أن يكلل جهودي بالنجاح.»

«أنا أتحدث عما يظنه والدي. وإذا ما اكتشف أن الأمور بيننا لا تزال سيئةً كعهدها دائماً، فستنفك قبضتك من حولي. إنني أحاول الآن أن أتحمل بصبر وصمت كل ما يجب عليّ تحمله في هذا المنزل، وما أفعل ذلك إلا لأجنّب أبي أي متاعب غير ضرورية. أنتِ تقولين إني مغرورة، وناقمة، وعنيدة، وكل هذه الصفات. أنا أسوأ بكثير حتى ممّا تتخيلين. وتنتابني القشعريرة عندما أفكّر أي امرأة سأصبح إذا ما ظَلِلت تحت قبضتك أكثر من ذلك. وأشعر بأني منافقة عندما ألتزم الصمت أمام

تهكماتكِ عليّ؛ لأني إذا ما صغت مثل هذه الأمور في كلمات ... حسنًا، دعينا لا نتحدث عن ذلك. إذا كنتِ تتخيلين أني قد تعلمت المهادنة لأني عشت وسط أسرة مسيحية حقيقية لعامين، فأنت مخطئة للغاية، ولكني تعلمت أن المسيحية الحقة ليست تأنيبًا يتبعه نص ديني في نهاية كل جملة مثيرة للسخط والغيظ. والآن بعد أن صرت امرأة، صرت أفهمك أكثر مما يفهمك أبي بكثير. قلت ذات مرة إنه إذا ما اختارني لأكون سيدة هذا المنزل، فستتركين مفاتيحك وتغادرين دون كلمة واحدة. أنت لن تفعلي أي شيء من هذا القبيل. بل ستقاتلين من أجل مركزك في هذا المنزل. لهذا السبب، أود أن تُدركي جيدًا ما قد تلاقينه إذا ما شكوتِ إلى والدي. ففي اللحظة التي ستشكينني فيها بأي طريقةٍ كانت، أو تجعلينه يعتقد أن ثمة خلافًا ولو بسيطًا بيننا، فسأذهب إليه وأخبره بأنني لا بد أن أكون سيدة هذا المنزل. وماذا سيحدث حينئذ؟ أنتِ تعلمين مثلما أعلم. ما دام أبي ظل غير منزعج بشئوننا، فلن أقول شيئًا، وسأُحاول أن أكون بارةً ومطيعةً كما لو كنت ابنتك.»

كانت السيدة سارتويل تجلس في مكانها، دافنةً وجهها بين يدَيها، وتبكي بصوتٍ خافت، كشخص جُرحت مشاعره الرقيقة الغضة. كان من الصعب عليها أن تُضطر إلى مواجهة المشكلة نفسها مرةً أخرى، بعد أن اعتقدت أنها قد حقّقت نصرًا هزيلًا وغير مؤكد — إذا كان من الممكن أن يُطلق عليه نصر من الأساس — على شخصٍ عنيدٍ ظلّت في نزاعٍ معه عمرًا كاملًا. كانَت تعلم أن أي شيءٍ يمكن أن يحدث إذا ما شكت إدنا لوالدها. فقد يكون لديه من الجبروت ما يدفعه إلى شراء منزلٍ في أي مكان، ويعيش فيه مع ابنته في سلام. فلم يكن الرجل يتورّع عن فعل أي شيء، على الرغم من كل النصائح التي تُسديها له. ولكنها كانت ترى أنه لا يزال ثمة عزاء يتمثل في أنها قد تتمكن من إنقاذ الفتاة، بمثابرتها الصادقة والمخلصة على العمل الصالح، وكانت تُدرك أن إدنا لن تعترض

ما دام والدها ظل بعيداً عن الموضوع؛ لذا وافقت السيدة سارتويل ألّا يدخل زوجها حكماً بينهما، وأحاط السلام البيت السعيد مجدداً بأجنحته البيضاء.

كبرت إدنا وصارت امرأةً جميلة، أجمل بكثير مما توقعت هي نفسها أن تكون. وأصبحت أكثر وقاراً وتحفظاً مما كانت عندما غادرت المنزل، وأكثر ميلاً إلى الجلوس طويلاً في تأمل واضعةً ذقنها في يدها تفكر وتتأمل، وعيناها الحالمتان تحاولان سبر أغوار المستقبل. وبقدر ما كانت عازمةً بقوةٍ على إجبار نفسها على نسيان مارستن إلى الأبد، فلم تنجح قطّ في ذلك، وكان صوته العميق النابض بالحياة كثيراً ما يعود ويغزو أفكارها من جديد. وعلى الرغم من نشأتها بطريقةٍ ديمقراطية، واعتقادها النظري بأن جميع البشر أخيار، فقد نشأت في بلدٍ تعتبر فيه ابنة البقال أن رؤيتها بصحبة ابنة خضري من شأنه أن يحط من مكانتها، في حين أن ابنة بائع الأقمشة، من هدوء مكانتها الاجتماعية الرفيعة، سوف تواجه بعض الصعوبة في التفرقة بين المكانة الاجتماعية لكلٍّ منهما، ولكنها ستكون على دراية تامة بأن «الخضراوات» تحمل في طياتها مكانةً اجتماعية أقل نسبياً. كانت إدنا ابنة رجل كان من طبقة العمال، ولكن عندما فكّرت في العرض الذي قُدم لها في حديقة المدرسة، صُدمت بعض الشيء عندما فكّرت في أن أحد العمال يطمح للزواج من ابنة سيده. كانت قد تحدّثت إلى مارستن، وتناقشا في المشكلات التي تهم كلَيهما، ولكنها لم تفكّر ولو للحظة في أنهما متساويان. فقد كان مجرد عامل، وعندما كان يُقال هذا لها، تظهر بينهما فجوة كبيرة. ولكن الحب يمحو جميع الفوارق، طبقاً لكلمات أغنية أحد المشاهير، وعندما أمعنت الشابة التفكير في الموضوع من جميع جوانبه، بدَا أن الحدود الاجتماعية جميعها قد أصبحت أقل واقعيةً أكثر فأكثر. وتذكرت أنها لم تفكّر قط في الطبقية الاجتماعية عندما كانت بصحبته. ولم تستنتج من فَهْمها لمشاعرها أكثر من أنها

كانَت معجبةً به كثيراً دون شك، وأنها كانت تُكن إعجاباً شديداً برجولته وإصراره على النجاح.

عندما بدأ الإضراب عن العمل وعلمت أن والدها وحبيبها خصمان، أصاب حالتها الذهنية اضطراب قوي. فكان من الصعب عليها أن تدرك أن أحدهما لا بد أن يُهزم، وزفرت بحرارة عندما فكّرت في قسوة القدر؛ إذ وضَعَ الرجلين العزيزين إلى قلبها من العالم أجمع في مواجهة ضارية أحدهما أمام الآخر.

ومع استمرار النزاع، ورؤية والدها ينحني تحت وطأة العاصفة، وتمكّن الهَرَم من ملامحه بصورة ملحوظة يوماً بعد يوم، وازدياد صمته أكثر فأكثر، ازدادت مشاعرها نحوه قوة، وكانت تتوق لرؤيته، وتتمنى لو تمكّنت من التخفيف عنه، ولكنها كانت تعلم أن ما بيدها حيلة. وفي بعض الأحيان كان يثور في قلبها فجأة نقمة شديدة على مارستن. كان لديه العالم بأسره ليحاربه، ولكنه لم يختَر من بين كل هؤلاء الملايين سوى والدها ليتخذه خصماً له. أزعجها كثيراً إدراكها أن هذه النقمة لم تكن تدوم طويلاً قط، وأنها كانت تجد نفسها تتعاطف أيضاً مع أصغر الخصمين، وتلتمس له الأعذار. فمن يناصر جانباً واحداً لا يواجه الكثير من المصاعب في هذا العالم، مقارنةً بمَن يُدرك أن من النادر أن يقع كل الخير أو كل الشر في العالم على جانبٍ واحد فقط، بل يتداخلان مثل القطن والصوف في قطعة من القماش. كان كلٌ من سارتويل ومارستن يرى أنه يناضل من أجل الحق، إلا أن إدنا رأت أن الحق والباطل مجتمعان معاً على كلا الجانبين، على الرغم من أنها لم تمتلك الشجاعة الكافية لتقول ذلك إلى والدها عندما بدأت المواجهة.

ولكن مع استمرار الحرب، دائماً ما يختفي الحق أو الباطل الأصلي عن العيون، ونختار الجانب الذي نناصره بناءً على اعتبارات تختلف عن تلك

التي تروق لعقول البشر في وقت السلم. ومن ينزوي ويظل بعيداً يوصَم بالخيانة، ولكن الإنسان، بقُدرته المذهلة على تقدير ذاته، يُطري على نفسه بأنه حيوان مفكر.

كان سارتويل يعود إلى منزله عادةً في وقتٍ متأخر، وأحيانًا يعود مستقلًا آخر قطار. وأصبح من الملاحظ أنه منح إدنا امتياز السهر والجلوس في انتظاره، وعلى الرغم من اعتراضه المحدود لمرةٍ أو اثنتَين عندما عاد إلى المنزل بعد منتصف الليل ووجدها في انتظاره، كان من الواضح تمامًا أن وجودها كان فيه السلوى والراحة له. كانت إدنا تتصرف تجاهه بطريقة تبعث الهدوء والراحة في نفسه؛ فكانت تتحرك في أنحاء الغرفة دون صوت، وتستبق حاجات الرجل المتعب من دون جلبةٍ لا داعي لها، وبدون طرح أسئلة مزعجة، ولكنها كانت مستمعةً متعاطفة ومنفتحة إذا كان ثمة ما يقال. بعض النساء يصاحب وجودهن جلبة وأصوات ارتطام من الأشياء الجامدة؛ فتُصفق الأبواب، وتسقط الأطباق، وتقرقع الأكواب والصحون، وتُقلب المقاعد، ما يثير الأعصاب الحساسة للصوت، أما إدنا فيمكنها أن تُعد العشاء بمهارةٍ دون أن تُصدر أي صوت يتجاوز رنين الأطباق الخزفية. وكانت تدرك قيمة التفاصيل الدقيقة، مثل وضع المقعد ذي الذراعَين بالزاوية المناسبة حتى يسقط الضوء من فوق كتف الجالس، كما ينبغي أن يسقط، ووضع الخف حيث تسقط القدمان المكسوتان بالجوارب بسلاسة فيه، وحين يكون والدها مرهقًا للغاية لدرجةٍ تجعله لا يعبأ برسميات تناول الطعام على السفرة في ساعة متأخرة من الليل، كانت تظهر عند مرفقه الأيمن طاولة صغيرة، مغطاة بمفرش نظيف من الكتان، وبعض من أطايب الطعام التي قد تُسيل لعاب حتى الرجال الذين اعتادوا تناول أشهى أصناف الطعام، كما لو أنها زحفت دون صوتٍ على أرضية المنزل. كان كل ذلك يندرج تحت عنوان «التدليل» في قاموس مفردات السيدة سارتويل، وكانت المرأة الصالحة

تأوي إلى فراشها مبكرًا للراحة، عندما تجد أن وجودها باعتبارها قدوةً يُحتذى بها ليس له أي تأثير يُذكر في إيقاف ما يحدث، ولكيلا تشجّع على استمراره بوجودها. كان ثمة وقت للأكل ووقت للشرب، وإذا ما كان من المفترض برجل أن يكون جائعًا عند منتصف الليل، فيُعد ذلك إثمًا يجب أن يُعاقب عليه بعسر الهضم في الحياة الدنيا، ويعلم الرب وحده ما سيحل به في الحياة الآخرة.

على الرغم من التقارب الذي بينهما، لم يكن سارتويل يُخبر ابنته بالكثير عن تطورات الإضراب، وكانت تمتنع عن سؤاله عندما تراه راغبًا عن الحديث؛ إذ كانت تشعر بأن أي اقتراح قد تقدّمه له لن يكون ذا قيمة بالنسبة إليه، مكتفيةً بحمايته من أي مصدر من مصادر الضيق في المنزل، والتسرية عنه قدر الإمكان عندما يكونان معًا. ولكن كان قلبها ينفطر وهي تراه يزداد وهنًا وعجزًا بصورة ملحوظة يومًا بعد يوم، وخطوته التي كانت تتوق لسماع وقعها، تفقد ثقتها أكثر فأكثر.

جلست إدنا ذات ليلة في مقعده ذي الذراعين تنتظره وتفكر بعمق. ورفعت رأسها فجأةً فزعة، ورأت والدها يقف بجوار الطاولة يحدّق إليها. كان وجهه شاحبًا، وهزيلًا، ومنهكًا، وزادت الابتسامة الكئيبة التي ارتسمت على شفتَيه، وهو ينظر إليها من الكآبة البادية على قسماته بدلًا من أن تخفّفها. كان يبدو كرجلٍ على شفا الوقوع فريسةً لمرضٍ عضال، ففزعت الفتاة بشدة؛ حتى إنها ظلّت تحدّق إليه لحظاتٍ بعينَين متسعتَين خوفًا من أن يكون ذلك الواقف أمامها شبحًا.

وصاحت أخيرًا وهي تهب واقفة: «أبي! ماذا حدث؟»

«لا شيء يا ابنتي سوى أنكِ كنت نائمةً في المقعد، بينما كان يجب أن تكوني نائمةً في فراشكِ منذ مدة طويلة.»

«لا أظن أنني كنت نائمة، ولكني لم أسمعك تفتح الباب. ولكنك تبدو مريضًا.»

«أنا بخير. أنا متعب قليلًا لا أكثر. لا، ولن آكل أي شيء، شكرًا لك. أعلم أنني جئت بعد مواعيد الإغلاق، ولكني عابر سبيل، وسأتناول مشروبًا، إذا كنت لا تمانعين.»

وحاول أن يضحك قليلًا على مزحته المفتعلة، إلا أن ضحكته بدا وقعها كئيبًا، ما زاد من فزع إدنا بدلًا من طمأنتها، كما كان ينوي. ظل عنق زجاجة الشراب يصطدم بالكوب مصدرًا صوتًا كاصطكاك الأسنان، وبدا الصوت يُزعج سارتويل؛ إذ غمغم بشيء ما ثم صوّب نظرةً خاطفة نحو ابنته ليرى إن كانت قد لاحظت عصبيته غير المعتادة. ثم أمسك بالزجاجة بإحكام أكبر، وصب الخمر بيد أكثر ثباتًا، إلا أن هذا الجهد جعله يزم شفتيه. ثم تجرع الشراب دفعةً واحدة ووضع الكوب الفارغ على الطاولة. كانت إدنا واقفةً أمامه، فرفع بصره نحوها وارتسمت على شفتيه ابتسامة فاترة.

وقال: «حسنًا يا ابنتي، لقد انتهت اللعبة.»

فسألته بصوت متهدج: «هل انتهى الإضراب يا أبي؟»

«فعليًا، لا؛ عمليًا، نعم. ستستسلم الشركة غدًا، وأنا سأستقيل. هل تشعرين بالأسف؟»

قالت إدنا وقد جثت على ركبتيها بجواره: «لن أشعر بالأسف إلا إذا كنت تشعر به يا أبي. لست آسفةً على انتهاء التوتر؛ فأنا أرى أن أي شيء أفضل من القلق الذي كنت ترزح تحت وطأته طوال الأسابيع القليلة الماضية. وتبدو عليك علامات المرض الليلة.»

«نعم. الإنسان يكره الهزيمة. حسنًا، لقد تجرّعت هزيمةً منكرةً لا شك فيها، وإذا كان ثمة أي عزاء في تلقّي ضربة قاضية، فقد وجدته.»

«ماذا حدث؟»

«إدنا، كما تعلمين، دائمًا ما نرسم في لوحات المعارك خيولًا جامحة، وجنودًا يطلقون النار، أو تُطلَق عليهم، أو يضربون أعداءهم بالسيوف، ولكننا نادرًا ما نعرض فيها أي شيء عن الخلفية؛ ولذا أحيانًا لا يعلم بعضهم بوجودها من الأساس: ولكن اللوحة لا تعرض إلا واجهة المعركة، إن جاز التعبير، بينما يتحقّق النصر في المعارك بفضل الترتيبات المحكمة في الخلفية؛ كالإمداد بالذخيرة، وحَمَلة الطعام والماء، وكل هذه الأمور. الإضراب عن العمل مثل المعركة، ثمة أمور أخرى يجب وضعها في الاعتبار خلاف القتال الفعلي، وهذه الأمور عادةً ما تحدّد نتيجة المعركة. إن الخسارة المباشرة في نزاع من هذا النوع لا يُقارَن بالخسارة غير المباشرة. إننا نرى أعمال الشركة تنسل من بين أيدينا وتذهب إلى أشرس منافسينا. بعض من عملائنا قد يعود للتعامل معنا وبعضهم الآخر قد لا يفعل. هذا إلى جانب أننا لا نستطيع الوفاء بالعقود التي أبرمناها، ولأن الإضراب عن العمل لا يمكن أن يُطلق عليه قضاء وقدر، فنحن مُلزَمون بتحمل التعويضات المفروضة علينا؛ إذ لا يوجد بند للإضرابات في الاتفاق. وكان عليّ أن أواجه كل هذا إلى جانب مواجهة المضربين أنفسهم. هذا علاوةً على مشكلة ملء المصنع بالعمالة التي تبيّن أنها أصعب بكثيرٍ مما توقعت. وخلال الأسبوع الماضي، بدأت أخسر ثقة مجلس الإدارة تدريجيًا. لم يقُل أحدهم شيئًا، ولكني استشعرتها. كان الانطباع العام السائد أننا نقاتل في معركةٍ خاسرة، وأن كل شيءٍ أصبح على المحك، وكان السبب الوحيد الذي حال دون استسلام مجلس الإدارة منذ أسبوع مضى هو علمهم بأني سأستقيل إذا فعلوا. ولم يكن الأمر يتطلّب سوى قشةٍ لتقصم ظهر البعير، وتنقلب كل موازين الموقف لتصبح ضدي. في وقتٍ

ما قبل أن يبدأ الإضراب، أبحرت سفينة بخارية إلى سيدني في نيو ساوث ويلز. وكانت تحمل كميةً كبيرةً من بضائعنا على متنها. واليوم تلقيت إخطاراً من ملاك السفينة بأنها متوقفة هناك، ولا يمكن تفريغ حمولتها بسبب إضرابنا. ويعتزمون تحميلنا مسئولية التأخير، ما يعني قضيةً مُكلّفة أمام القضاء بغض النظر لمن سيكون الحكم في صالحه. وهذا أمر خطير في حد ذاته، ولكن حقيقة أننا ضُربنا في أقاصي الأرض بينما حركتنا مشلولة في لندن ستدفع مجلس الإدارة إلى الاستسلام على الفور. لذا يا صغيرتي، أنا رجلٌ مهزوم.»

«ولكن، ألم يكن من الوارد أن تُهزم على أي حال؟»

«نعم، إذا استمر الإضراب أسبوعًا آخر، كان العمال سيعودون إلى عملهم؛ أنا واثق من ذلك. إنهم يشتعلون غضبًا، وقد دعَوا إلى اجتماع غداً ليلًا، رغم اعتراضات مارستن. لا شك في وجود انقسام بين صفوفهم، وكل ما أحتاج إليه هو انشقاق طفيف لأعيد المصنع إلى العمل.»

«ما الداعي لأن تستقيل يا أبي؟ لقد بذلت أقصى ما في وسعك، ومجلس الإدارة يعلم ذلك.»

«آه، أنت ناعسة يا ابنتي، يمكنني رؤية ذلك بوضوح، وإلا فَمَا طرحت سؤالًا كهذا. ولكنكِ تعرفين كل شيء الآن؛ لذا اذهبي إلى النوم.»

• • •

في الصباح، سارت إدنا مع والدها حتى محطة القطار.

فسألته: «هل سيُعقد اجتماع لمجلس إدارة الشركة اليوم؟»

«نعم. سيُعقد اجتماع في تمام الخامسة مساء اليوم.»

«هل تعتقد أن الإضراب سينتهي إذا ما أعطوك مهلة أسبوع آخر؟»

«أنا واثق من ذلك تمام الثقة. لا شك في أنه سيحدث شقاق في اجتماع العمال الليلة. فقد جاءت الدعوة لعقد هذا الاجتماع رغماً عن مارستن كما تعلمين، وهذا يشير إلى أنه بدأ يفقد أي سيطرة له على المضربين.»

«ألن يكون لديك مبرِّرك إذن لئلا تقول شيئًا عما قاله أصحاب السفينة حتى موعد اجتماع مجلس الإدارة التالي؟ وحتى يحين ذلك الموعد، ستكون قد علمت نتيجة اجتماع المضربين.»

«عزيزتي إدنا، أنت تقدِّمين اقتراحات تسلب المرء أنفاسه. لا، لن يكون ذلك مقبولًا. يجب أن يكون مجلس الإدارة على درايةٍ تامةٍ بكل المعلومات. لا يمكنني تحمل مسئولية إخفاء أي شيءٍ يضرُّ بمصالحهم، أيًا كانَت عاقبة ذلك بالنسبة إليّ، وإن كنت أتمنى لو أن الرسالة ضلّت طريقها ليومٍ أو اثنَين.»

«سأكون في مكتبك في تمام السادسة الليلة يا أبي.»

ضحك سارتويل، ولكنها كانت ضحكةً كئيبة ويائسة.

وقال: «ألن يكون من الأفضل أن تأتيَ في تمام الخامسة، وتخبري أعضاء مجلس الإدارة برأيكِ فيهم؟ وأنا واثق أنه لن ينطوي على أي إطراء.»

«لا تسخر مني يا أبي. إن الموقف خطير للغاية، ولا يمكنني أن أتحمّل إثارة الانتظار حتى عودتك إلى المنزل. لا بد أن أعرف ما يحدث، فلا تمنعني عن ذلك أرجوك. كما أنها قد تكون ليلتك الأخيرة في هذا المكتب، وأود أن أُحضرك معي إلى المنزل.»

«أوه، لن تكون ليلتي الأخيرة. لن أترك الشركة القديمة هكذا. سأواصل عملي حتى يُعيّن المدير الجديد وتسير جميع الأمور على خير ما

يرام. حتى وإن هُزم المرء يا إدنا، فهو يستحق من نفسه الانسحاب بطريقة جيدة؛ ففي بعض الأحيان يدل الانسحاب المتقن على حسن القيادة مثل النصر تمامًا. وبما أن الوضع مستتب، يمكنك الحضور إذا كنت قلقة، ولا شك في أنك كذلك، أو يمكنني أن أرسل لك برقيةً بما حدث، إذا كنت تفضلين ذلك. ولكن النتيجة محتومة، أنا على يقين من ذلك. فعندما يرون هذه الرسالة، ويعرفون أني لم أُحرز تقدمًا يُذكر في ملء المصنع بالعمال، سوف يستسلمون، ولا أعلم إن كان بإمكاني أن ألومهم على ذلك أم لا. إن لديهم الكثير من المصالح على المحك، وقد دعموني بقوة حتى هذه اللحظة، ولولاي لاستسلموا منذ مدة طويلة. سأنتظرك في الساعة السادسة يا عزيزتي. استقلي عربةً من محطة القطار، واطلبي من السائق أن ينتظر في فناء المصنع. انتظريني في غرفتي إذا جئت ولم تجديني. سأخبر البواب بأن يعتني بك.»

راقبت إدنا القطار وهو يصل إلى المحطة ويغادرها، ثم استدارت وسارت نحو منزلها بقلب مهموم. اجتازت إدنا المنزل وواصلت سيرها نحو الحديقة العامة محاكيةً والدها، دون وعي منها؛ إذ كان يقصد هذا المكان الرحيب ذا الهواء العليل، عندما يكون ثمة ما يؤرقه. توقفت عن السير عدة مرات، وفكرَت في إرسال برقيةٍ إلى مارستن تطلب منه أن يلتقيها في الحديقة القديمة في ويمبلدون في الحال. تخيّلت نفسها تقف في الحديقة تتوسل إلى مارستن أن يُنهي الإضراب، ولكنها خشيَت غضب والدها إذا ما اكتشف ما فعلته، حتى وإن كان لأجله. لم يخطر لها قط أن توسُّلاتها قد تكون بلا طائل؛ لأنها كانت تعلم أنها ستفعل أي شيءٍ يطلب منها من أجل شخص تحبه، ولم يكن يراودها شكٌّ في أن مارستن يحبها حبًا صادقًا ودائمًا. ولكنها سألت نفسها، ماذا لو وضع مارستن شروطًا؟ هل ستكون على استعدادٍ لأن يُسدى إليها معروف كبير دون أن تمنح شيئًا في المقابل؟ ماذا سيظن إذا ما أرسلت له برقيةً تخبره فيها

بالحضور؟ كان الجواب بديهيًا، وحين استفتَت قلبها، أقرّت لنفسها للمرة الأولى بأن ردّها سيختلف عن ردها في إيستبورن.

ولكن عندما توصلت إلى هذه الحقيقة، لم تتمكن من حمل نفسها على إرسال الرسالة. وتراجعت عن استخدام هذه الورقة الشديدة الخطورة؛ فإن لم تنجح الحيلة، فكيف ستواجه المذلة التي ستترتب عليها؟ كان ثمة شيء في نبرة صوت مارستن الواثقة، شيء في إصراره العنيد، شيء في نظرة عينَيه المقنعة، حذّرها من أنه لن يخون الراية التي يقاتل من أجلها، حتى وإن كان ذلك من أجل إسعاد الفتاة التي يحب، وأخبرها شيءٌ ما في قلبها أنه سيقل في نظرها إذا فعل ذلك. ولكن إذا رفض، كانت واثقةً من أنها لن تستطيع التحدث معه مرة أخرى أبدًا. فبعدما يرفض طلبًا لها، لن تتمكن أبدًا من تلبية طلبٍ له، أو حتى الاستماع إليه. وتخيّلت السعادة التي ستشعر بها عندما تراه يدافع عن قضيته مرةً أخرى، وتقرأ إجابته في عينَيه الشغوفتَين قبل أن تنطق بها شفتاه، ولكن إذا ما رفض توسّلاتها له بأن يكفي والدها مذلة الهزيمة الوشيكة، فلن يكون بالإمكان أن تظل بينهما أي صداقة. عادت إدنا إلى المنزل أخيرًا حائرة الفكر ومترددةً فيما عليها أن تفعل، واستمعت إلى محاضرة عن إثم إضاعة المرء لوقته، وإن كانت لم تسمع أو تفهم إلا القليل من تلك الخطبة الرائعة.

مع اقتراب المساء، زاد قلق إدنا أكثر وأكثر، وانتظرت في نفاد صبر الساعة التي ستتحرّك فيها إلى لندن. كانت شبه متوقعة أن تتلقى برقيةً من والدها، ولكنها أدركت أن الموقف لم يطرأ عليه أي تحسن عندما لم يصلها شيء منه. وبعد السادسة بقليل، دخلت العربة التي تستقلها إدنا فناء المصنع، وكان من الواضح أن البواب كان في انتظارها، وفتح لها البوابات وأغلقها بمجرد مرور عربتها. كان للطابع الصامت المهجور لهذا المكان الشاسع تأثيرٌ قابضٌ عليها أثناء صعودها الدرج المؤدي إلى مكتب والدها.

كان والدها واقفاً أمام مكتبه عندما دخلت، وكان بمفرده تماماً، وتلفّت حوله في شرود عندما سمع باب المكتب يُفتح.

قال: «حسنًا يا ابنتي، لقد حضرت لتساعديني في حزم أغراضي، في نهاية المطاف.»

«إذا كان لزاماً أن تحزم أغراضك، فأنا على استعداد لمساعدتك يا أبي.»

«أخشى أن هذا هو كل ما تبقى فعله يا عزيزتي. ولكننا لن نُظهر أيًا من أمارات الجبن، أليس كذلك؟ لقد كنت أخطّط الآن لجولة صغيرة رائعة في أوروبا لي ولك لكي ننسى، ولو لوهلة، أن ثمة شيئًا قبيحاً في هذا العالم يدعى الإضراب. ستكونين أميرة، وسأكون أنا الملك العجوز المخلوع عن عرشه؛ فدائماً ما يذهب هؤلاء إلى أوروبا بعد الهزيمة.»

فشلت محاولة سارتويل للمزاح فشلًا ذريعاً، وتجنب أن تتلاقى عيناه بعينَي ابنته متظاهراً بترتيب بعض الأوراق. وأدركَت ابنته مدى قوة الضربة التي تلقّاها، فاغرورقت عيناها بالدموع.

ثم سألته أخيراً: «هل انتهى اجتماع مجلس الإدارة؟»

«لا. لا يزالون مجتمعين يُعدون شروط الاستسلام، أو ليس هكذا بالضبط؛ فلا توجد شروط للاستسلام. سيعطون العمال كل ما طلبوه، الأمر الذي كان من الأفضل بالطبع أن يفعلوه منذ شهر مضى، ويوفرون على أنفسهم كل هذا العناء. كنت أعرف إلامَ ستئول الأمور عندما يعرفون بأمر السفينة الواقفة في أستراليا بحمولتها كما هي. لم تتبقّ لديهم ذرة عزيمة لمواصلة القتال، وكنت واثقًا من أن تلك الضربة التي تلقّوها من هذا المكان البعيد ستؤثر على الخيال المحدود الذي يمتلكه أي منهم. إنها تبدو لهم ضربةً قاصمة، ولكنها بالطبع ليست كذلك على

الإطلاق. إنها مجرد حدث درامي هامشي يجب ألّا يؤثر على النتيجة النهائية. ولكن لا فائدة من محاولة تحدي القدر. إنهم منهمكون الآن في كتابة خطاب استسلامهم، كما لو أن صياغة إقرارك بالهزيمة والاستسلام ستُحدث فارقًا لدى مجموعة من السذج الجهلة السكيرين الذين لا ... ولكن بمَ يجدي السب؟ كان أسبوع آخر من التذبذب والارتباك كفيلًا بأن يثبط همتي؛ وفي واقع الأمر، أعتقد أن هذا قد حدث بالفعل؛ فأنا غير شكاءٍ في العموم.»

«هل ستعود معي إلى المنزل يا أبي؟»

«لا يا عزيزتي. لم يكن يجدر بي أن أدعك تقطعين كل هذه المسافة إلى هنا لتسمعي ما يعلمه كلانا منذ الصباح. عودي إلى المنزل على الفور، فتاةً مطيعة، ولا تنتظري عودتي الليلة. فسوف أتأخر. على الرغم من تأنيبي لك على حضورك، فسأبقى حتى النهاية. سأُشرف على ترتيب جميع الأمور، وأرفع الراية البيضاء بنفسي. لن يكون من اللائق أن يحظى المرء بكل متعة القتال، ثم يُحجم عن الاستسلام بفعل الخوف. لم أحضر إلى هذه الغرفة إلا لأني أتوقع حضورك الساعة السادسة، ولأريح أعصابي قليلًا. سأعود إلى اجتماع مجلس الإدارة، وسأكتب خطاب الاستسلام بنفسي؛ فلن يستجمعوا ما يكفي من الشجاعة للقيام حتى بذلك إلا إذا كنت برفقتهم. سأغرق مع سفينتي يا ابنتي، وأتظاهر بأن الأمر يروق لي؛ لذا اذهبي يا إدنا، ولن يواصل الأمر إزعاجنا بحلول الأسبوع القادم ... ربما.»

سرت في نفس إدنا رعشة خوف حين لاحظت أن والدها بقدر ما كان يبدو منهكًا في الليلة السابقة، فقد بدا الآن وللمرة الأولى رجلًا مسنًّا. فقد انحنت كتفاه العريضتان، وحتى ملابسه التي كانت على مقاسه تمامًا أصبحت فضفاضة. وكوميض كهربائي، أظهر لها التردد والنبرة الحزينة

في صوته وهو ينطق بالكلمة الأخيرة، «ربما»، ما يدور في عقله والذي لم يخطر ببالها من قبل، أنه عندما يُبعَد فجأةً عن المهمة التي كان يعتبرها كل حياته، سوف تحطمه البطالة ويصبح مثل حطام سفينة عديم النفع على الصخور.

فصاحت إدنا: «أبي، لا تدعهم يرسلون ذلك الخطاب حتى الغد. إن يومًا زائدًا أو ناقصًا لن يحدث فارقًا، ولن يرسلوه إذا ما طلبت منهم ذلك.»

هزّ سارتويل رأسه رافضًا.

وقال: «لا فائدة من التأجيل. لطالما كنت معتادًا أن أفعل ما يجب فعله سريعًا، ولم أعد في سن تسمح لي بتغيير عاداتي. إذا لم يكن أمامك سوى السير على حافة السفينة وتلقي نفسك في البحر، فلتفعل، وأنهِ الأمر.»

لم تحاول إدنا أن تضغط عليه أكثر من ذلك، فقبّلته وقالت: «ليلة سعيدة.» وأوصلها والدها حتى العربة، وأخبر السائق بأن يوصلها إلى محطة ووترلو. ومع أول منعطف، فتحت إدنا الباب الخفي الصغير في سقف العربة.

وسألت السائق: «هل تعرف أين يوجد مقر المضربين؟»

«نعم يا آنسة. في قاعة الخلاص يا آنسة.»

«حسنًا، أوصلني إلى قاعة الخلاص بأسرع ما يمكن.»

وجّه سائق عربة الأجرة حصانه نحو قاعة الخلاص، وسرعان ما كان يشق طريقه عبر حشود العمال الذين كانوا يتجمعون من كل حدب وصوب من أجل الاجتماع. توقف السائق بجوار الرصيف أمام القاعة.

وترجّلت إدنا من العربة وقد احمرّ وجهها عندما رأت العمال ينظرون إليها بفضول. فخاطبت أحدهم قائلة:

«أين يمكنني أن أجد السيد مارستن؟»

«إنه في الغرفة عند مؤخرة القاعة يا آنسة. من هذا الطريق يا آنسة. سأوصلك حتى بابها.»

تبعت إدنا الرجل عبر الممر الطويل الضيق على جانب القاعة.

صاح جيبونز في دهشة وهو يخرج غليونه من فمه: «بالله عليكم يا رفاق، ماذا يعني ذلك؟»

ضحك بعض الرجال إلا أن الجدية كانت باديةً على قسمات وجه جيبونز، وأدركوا أن ما خفي كان أعظم.

صاح جيبونز عندما ظهر الرجل الذي قاد إدنا عبر الممر: «بمَن تريد أن تلتقي؟»

«طلبَت لقاء مارستن. إنها تجلس معه في الغرفة الآن.»

صاح جيبونز: «اسمعوني يا رفاق. بمَ كنت أخبركم؟ نحن نتعرض لخيانة، أنا واثق من ذلك. تلك الفتاة هي ابنة سارتويل، وأنا واثق من أنها آتية من مكتبه مباشرةً إلى هنا. أيها السائق، هل أوصلت هذه السيدة الشابة إلى هنا من المصنع؟»

أجابه السائق غير عابئ بنظرات التهديد البادية في أعين الحشد: «وما شأنك أنت؟ لست أنت من يدفع أجرتي.»

قال أحد العمال: «إنه آتٍ من المصنع، لقد رأيته.»

فصاح جيبونز في حسم: «دعونا ندخل ونعقد ذلك الاجتماع.»

الفصل السابع والثلاثون

طرقت إدنا باب الغرفة القابعة عند مؤخرة قاعة الخلاص برفق، وسمعت صوت مارستن يصيح قائلًا: «ادخل.» تردّدت للحظةٍ قبل أن تفتح الباب وتدخل. كان الشاب جالسًا بمفرده أمام الطاولة الخشبية وأمامه بعض الأوراق، وكان يكتب عليها بسرعةٍ باستخدام قلم رصاص. وكان يبدو مستغرقًا في عمله، وظل رأسه منكبًا عليها وهو يقول باقتضاب:

«حسنًا، ما الأمر؟»

وقفت إدنا مولية ظهرها إلى باب الغرفة؛ حاولت أن تتحدّث ولكنها لم تستطع. كان قلبها يخفق بسرعة رهيبة حتى بدا وكأنه سيخنقها، وكانت شفتاها جافتين. كانت همهمة الأصوات الكثيرة القادمة من القاعة الرئيسية تخترق الفواصل الخشبية الرفيعة، بالإضافة إلى ضوضاء الأقدام الكثيرة المتزاحمة. استمر مارستن في الكتابة بسرعة، ثم رفع رأسه فجأةً بعصبية، وحدّق في الظلمة المتزايدة في غير تصديق، ثم هب واقفًا.

صاح مارستن: «يا إلهي ... إدنا!» وبدا على وشك التقدم نحوها، ولكنها رفعت يدها فتوقف بجوار الطاولة مرتكزًا ببراجم أصابعه عليها.

تحدّثت إدنا هامسةً بصوت أجش وغريب للغاية، حتى بدا لها وكأنه صوت شخص آخر: «لقد أتيت ... أتيت ... لأتحدث إليك ... عن الإضراب.»

«وماذا بعد؟»

«يجب أن يتوقف.»

«سيتوقف في خلال يوم أو اثنين. لقد هُزمت شركة مونكتون آند هوب.»

«بل تعني أن أبي قد هُزم. إن الأمر يقتله، يمكنني رؤية ذلك جليًا، على الرغم من محاولته ... إنه لا يعلم بمجيئي إلى هنا. لقد أتيت بواعزٍ من نفسي لأنك ... إذا جعلت العمال يعودون لعملهم، أعدك بأنه سيُلبّي كل المطالب التي تجاهدون من أجل الحصول عليها. كل ما أطلبه منك هو ألّا تصعّب الأمر عليه. ولن يهتم العمال ما داموا سيحصلون على مرادهم. هل ستفعل ذلك؟»

«هل تعنين أن أُنهي الإضراب وأتظاهر بأن العمال قد هُزموا؟»

«نعم. ستكون النتيجة واحدةً في النهاية.»

«أوه، لا يمكنني أن أفعل ذلك.»

«لماذا؟ لن يهتم العمال ما دامت مطالبهم ستُلبّى. أما مع أبي فالأمر مختلف تمامًا. إنه ينهار. أعلم أني أطلب منك الكثير؛ فأنت تشعر بمثل ما يشعر به، ولديك رغبة شديدة في الانتصار والفوز مثله، ولكنه رجل مسن، وأنت لا تزال شابًا. لا تزال الحياة أمامك. بمَ تهتم إذن إن انتصرت في هذا الإضراب أم لا؟ ثمة الكثير من الإضرابات أمامك لتفوز بها، ولكنه ... ولكنه يحارب معركته الأخيرة.»

أصبح صوتها أكثر وضوحًا واستعادت نبرة صوتها الحقيقية، بينما تتوسل لأجل والدها. وحينئذٍ، بدأ شخص ما في المبنى الرئيسي في غناء أغنية مرحة ذات موسيقى راقصة كانت منتشرةً آنذاك كالوباء في شوارع لندن. وشارك كل مَن في المبنى في الغناء الجماعي الراقص، ضاربين الأرض بأقدامهم بالتزامن مع الإيقاع. ولم يبدُ أن أيًا منهما قد سمع الأغنية، ولكنهما رفعا صوتيهما قليلًا ليسمع كلٌ منهما الآخر.

قال مارستن: «لا يعنيني أي نصر شخصي ... لا يعنيني على الإطلاق. ولو كان بإمكاني مبادلة الأماكن مع والدك وتقبُّل الهزيمة من أجله، فسأفعل عن طيب خاطر. ولكن العمال وثقوا بي ...»

صاحت إدنا واللون القرمزي يطارد اللون الأبيض في وجنتَيها، وعيناها تلتمعان وصوتها يرتفع: «العمال! ماذا يهم العمال؟ استمع إليهم!» وأشارت بيدها إلى القاعة. «سيظلون يغنون ويصيحون هكذا حتى وإن كان أعز صديق لديهم يُحتضر. مَن فعل لرجاله أكثر ممّا فعل والدي؟ لقد جازف بحياته من أجلهم أثناء الحريق، وهو على استعداد لتكرار ذلك مرةً أخرى. وهو مَن بنى المصنع الذي منحهم وظائفهم وجنّبهم البطالة. وظل يملأ المصنع بالعمال متكبداً الخسائر خلال الأوقات العصيبة، حتى لا يتضوّر العمال جوعًا. كان كل عامل مطمئنًا في وظيفته ما دام يستحقها، ولم يكن في لندن رب عمل أكثر كرهًا منه لطرد أي عامل.» وخفضت عينَيها عندما تذكرت فجأةً أن ثمة رجلًا واحداً طرده والدها من عمله دون سبب، ومن دون أن ترفع عينَيها، توسلت مرةً أخرى قائلة: «لمَ لا يرضيك نصر حقيقي دون مسمًى؟»

«لأن هذا النصر ليس فقط لهؤلاء العمال الذي يهلّلون الآن بينما أقاتل. إن أعين إنجلترا بأكملها موجهة إلى هذا الإضراب. إن نصراً مظفراً على شركة ذات نفوذ قوي مثل «مونكتون آند هوب» سيعني نصراً أسهل لكل عامل يكسب قوت يومه في هذا البلد اليوم، ولا يمكنه الحصول على حقه العادل من دون أن يُضرِب عن العمل. إنه نصر سيشدد عزم كل عامل، وسيكون بمنزلة تحذير لكل صاحب عمل.»

قاطع الغناء الجماعي في القاعة ثلاث ضربات قوية بالمطرقة على إحدى الطاولات. فانحسر صوت الغناء وسُمع صوت شخص ما يدعو لعقد الاجتماع.

رفعت إدنا عينَيها ببطء ونظرت نحو مارستن، وقد لمعت عيناها بتحدٍّ ممزوج بالخوف. ثم تحدثت بصوتٍ هامسٍ مضطرب.

«لعلك تذكر ما قلت لي في الحديقة في إيستبورن. إذا فعلت ما أطلبه منك، فسأفعل ما تريد عندما ... عندما تطلبه مني.»

تقدّم مارستن خطوةً إلى الأمام وكانت يده اليمنى ترتجف، وكان يضم قبضتها ويفردها في عصبية.

فصاحت إدنا: «لا، لا! ابقَ مكانك. أجبني، أجبني!»

همس مارستن: «أوه، إدنا. يعلم الله أني على استعدادٍ لفعل أي شيء لأفوز بك ... أي شيء ... نعم، أي شيء تطلبينه!»

فصاحت إدنا: «نعم أم لا؟ أجبني!»

«لا يمكنني أن أكون خائنًا للعمال!»

تصاعد صوت تهليل قادم من القاعة، كما لو كان استحسانًا لشعوره هذا. كان أحدهم يتحدّث، وحتى في ظل التعاسة التي كان يشعر بها مارستن، تمكّن من تمييز صوت جيبونز.

استدارَت إدنا دون أن تنطقَ بأي كلمةٍ أخرى وفتحت الباب. وتبعها مارستن إلى الخارج.

فقالت باكية: «ابقَ حيث أنت.»

«سأوصلك إلى المحطة.»

«لا، يجب ألّا تقترب مني. آمل ألّا أراك مرةً أخرى أبدًا.»

فكرّر مارستن العبارة السابقة في عناد: «سأوصلك إلى المحطة.»

لم تُضِف الفتاة شيئًا، وأسرعت الخطى عبر الممر الضيق، والشاب في أثرها. ثم قفزت في العربة التي تنتظرها، وصاحت: «إلى محطة ووترلو، بسرعة!»

انطلقت عربة الأجرة مسرعةً تاركةً مارستن خلفها واقفًا على الرصيف حسير رأس. وظل واقفًا في مكانه بضع لحظات يحدق في الاتجاه الذي سلكته العربة، ثم استدار متنهدًا وسار ببطء عبر الممر المؤدي لغرفته. بدت له الغرفة عاريةً وخالية أكثر من أي وقت مضى، وأدرك بالكاد أنها كانت تقف في داخلها منذ لحظات معدودة. سمع، دون اكتراث، الضوضاء الآتية من القاعة وكأنها زمجرة خافتة لحيوان بري. ثم نظر إلى الأوراق الموضوعة على الطاولة، وقطّب حاجبيه في محاولة منه لفهم ما بها. بدا الأمر وكأن دهرًا قد انقضى منذ كان جالسًا هناك يكتب، ولم يعد يسمع شيئًا الآن سوى كلمة «أجبني!» ترن في أذنيه. أفزعته طرقة أخرى على الباب فقفز نحوه وفتحه بلهفة على أمل أن تكون قد عادت. ولكنه وجد حارس بوابة شركة «مونكتون آند هوب» الطويل الأشيب بزيه الرسمي والوسام المتدلي من صدره، يقف على عتبة الباب، وقد أصابه الذهول على الأرجح من انفتاح الباب المفاجئ، ولكن لم تختلج عضلة واحدة في وجهه دليلًا على دهشته. ألقى الحارس التحية في جدية.

«خطاب من الشركة يا سيدي.»

«آه! تفضّل بالدخول. هل يطلبون ردًا؟»

أجابه الحارس الذي كان يقف مستقيمًا وثابتًا كما لو كان في عرض عسكري.

فتح مارستن الظرف وأعادته قراءة الخطاب إلى وعيه من جديد. كان خطابًا موجزًا يفيد بأن شركة «مونكتون آند هوب» قد وافقت على

شروط العمال. وسيكون السيد سارتويل منتظراً في مكتبه حتى العاشرة للقاء السيد مارستن، للترتيب لفتح المصنع في الصباح.

كتب مارستن رداً رسمياً في عجالة، قال فيه إنه سيحضر إلى مكتب السيد سارتويل خلال نصف ساعة. أعطى مارستن هذه الرسالة إلى الحارس، الذي حيّاه مرةً أخرى وانصرف، وفتح مارستن الباب المؤدي إلى المنصة، والخطاب لا يزال في يده، وخرج منه أمام جميع الحاضرين في الاجتماع. قوبل ظهوره بصيحات استهجان، وصياح حشد غاضب لو سمعه المرء مرةً واحدة، فلن يأمل في سماعه مرةً أخرى أبداً.

صاح جيبونز، الذي كان واضحاً أن ظهور مارستن قد قاطع الخطاب الذي يلقيه: «ها هو ذا. ها هو ذا، ولينكر إذا تمكن من ذلك!»

صاح مارستن: «أُنكر ماذا؟»

«تُنكر أنك كنت على اتصال بالعدو! تُنكر أن ابنة سارتويل قد غادرت مكتبك الآن!»

«هذا أمر لا شأن لكم به، ولا شأن له بالإضراب. إنجلترا بلد حر، ومن حق المرء أن يتحدّث إلى أي أحد يشاء.»

فصاح جيبونز بأعلى صوته قائلاً: «لا يمكنه إنكار ذلك! فثمة الكثير من الشهود هذه المرة. إنها لم تكن تعلم أن ثمة اجتماعاً سيُعقد. أين ذلك الرجل الذي صاح من مؤخرة القاعة قائلاً إني أكذب؟ قلت لكم إني سأُثبت لكم الأمر بواسطة مارستن نفسه.»

صاح مارستن ملوحاً بالخطاب المُرسل من الشركة الذي يحمله في يده، لجذب انتباه الحضور: «دعوني أقرأ عليكم هذا الخطاب.» رأى مارستن أن الحشد في تلك الحالة الخطرة من الإثارة التي لا تتطلّب إلا كلمة واحدة غير محسوبة ليندلع شغب. بدا جلياً أن أصدقاء مارستن قد

شعروا بالخجل عند دخوله، فانزوَوا في مؤخرة القاعة في صمت وحرج. أمّا جماعة جيبونز فاحتشدوا في مقدمة القاعة ملوِّحين بأيديهم في وحشية، ويصيحون مهدِّدين ومتوعدين. وكانوا يصيحون به بصوتٍ عالٍ لكي ينزل من على المنصة. كما رأى أن اللجنة القديمة وآخرين من أتباع جيبونز كانوا يقفون على المنصة من خلفه، ووقف الكثير منهم وأعينهم مصوّبة نحو جيبونز، وذكّره الموقف بما حدث عندما رُكل برونت من على المنصة وأُلقي خارج القاعة.

فكرّر ما قاله سابقًا: «دعوني أقرأ عليكم هذا الخطاب.»

قال جيبونز: «ليس الآن، ليس الآن. ستحصل على فرصتك فيما بعد. فالكلمة معي الآن.»

قال مارستن متمسكًا بموقفه: «أنا أمين النقابة، وأطلب منكم سماعي. وبعد ذلك يمكنكم أن تفعلوا ما يحلو لكم.»

في هذه اللحظة، نهض رئيس اللجنة وصاح بصوتٍ عالٍ قائلًا:

«النظام، التزموا النظام! السيد جيبونز معه الكلمة. وأُضيف لمعلومات السيد مارستن، بما أنه اختار التغيب عن الاجتماع رغم علمه بانعقاده، فقد انتُخب السيد جيبونز أمينًا للنقابة بالإجماع، وأطلب من السيد مارستن أن يغادر المنصة حتى يُستدعى للحديث.»

صاح مارستن محاولًا أن يرفع صوته فوق الجلبة التي يُحدثها الحضور: «معي خطاب من الشركة!»

انطلقت صيحات استهجان صاخبة في صوتٍ واحدٍ: «أطع الرئيس، أطع الرئيس!» «انزل!» ثم هم أحد الرجال الواقفين خلف مارستن بدفعه وهو يصيح: «أطع الرئيس!» وكانت هذه هي الإشارة لهجوم شامل، وحين أمسك مارستن بتلابيب مهاجمِه، سقطا معًا على أرضية القاعة.

وفي الحال تحوّل الجمع إلى حشد خارج عن السيطرة، وظل جيبونز يصيح بأعلى صوته: «لا عنف أيها الرجال!» وظل يلوّح بذراعيه إلى الحشد الهائج الغاضب بلا طائل. فقد كانت مناشداته بلا جدوى مثل أوامر كانوت للبحر. طرق رئيس اللجنة بمطرقته على الطاولة دون أن يسمعه أحد. وبعد قليل حرّر مارستن نفسه من بين أيدي الحشد ووقف على قدميه. وارتفعت يده اليمنى، التي كانت لا تزال قابضةً على الخطاب المهترئ، فوق رءوس المتعاركين للحظة، ثم اختفت فجأة، وفي النهاية هوى مارستن تحت أقدام القطيع الهائج.

اقتحم رجال الشرطة القاعة بسرعة وفاعلية. ففتح الباب الجانبي وسُحب مارستن عبره إلى الخارج، ومعه العديد من مثيري الشغب المتشاجرين الممزّقي الملابس الذين ينزفون الدماء، والذين قُبض عليهم باسم القانون. وبالتدريج أصبح صوت الطرق على الطاولة مسموعًا، وكذلك صوت جيبونز الأجش كان في هذه اللحظة قد بُح من الدعوة إلى السلام دون جدوى.

بدأ جيبونز حديثه قائلًا: «يُؤسفني أن يقع اضطراب هنا الليلة ولو شكلًا من أشكاله. سيُستغل هذا الحدث ضدنا من قبل أعدائنا، ولكن كما تعلمون جميعكم، حدث كل هذا بسبب عدم إطاعة رئيس اللجنة. لا أريد أن أقول شيئًا يسيء إلى رجل ليس متواجدًا بيننا، وأنا واثق من أننا جميعًا نأمل في أنه لم يصب بأذًى (هتافات)، ولكن لو كان أمين نقابتنا السابق تقبّل إرادة المجتمعين، وامتنع عن مد يده على الرجل الذي لم يفعل له شيئًا سوى مطالبته بأن يطيع رئيس اللجنة، لما وقع هذا الحدث المؤسف. بعد الإضراب السابق، عندما فقدتم ثقتكم بي، انصعت لإرادة الأغلبية دون نقاش، وكما تعلمون جميعًا، لقد بذلت أقصى ما في وسعي منذ ذلك الحين لأساعد خليفتي، والآن بعدما دُعيت مرةً أخرى لشغل هذا المنصب، على غير رغبة مني في نيله، لا يسعني إلا الامتثال للأمر الموجه إليّ.

أعتقد أنكم ستسعدون بإنهاء هذا الإضراب الآن. فعلى الرغم من أني لم أقل ذلك من قبل، فقد كنت دائماً أعتبر الإضراب الحالي غير ضروري ومجحفًا. لقد رفعت الشركة، منذ فترة وجيزة، أجورنا طواعية؛ ولهذا السبب لم يحظَ هذا النزاع بتعاطف الرأي العام على الإطلاق، الذي من دونه لا يمكن الفوز بأي نزاع كبير. لا أجرؤ حاليًا على تقديم أي اقتراحات، ولكن إذا كان لدى أيٍّ منكم اقتراح، فسأفسح له المجال لتقديمه.»

كان جيبونز يُحب نبرة صوته، وبدا أنه يُسعد أغلب الحضور؛ إذ هلّلوا بصوتٍ عالٍ لكل ما أبداه من مشاعر نبيلة.

نهض أحد العمال واقفًا فجأة، وقال إنه كان واضحًا للغاية مؤخرًا أن مارستن قد خاض هذا الإضراب ليعزّز تقدّمه الشخصي، مستغلًا العمال، الذين وثقوا به، كأدواتٍ لتحقيق غايته. لم يكن جيبونز قد تحدث عن هذه النقطة، ولكن كان الجميع ينتابهم شعور بالضيق والألم إزاء هذا الأمر، وعلى الرغم من إعجابه بطيبة قلب جيبونز لرفضه الإساءة لخصم مهزوم، فلا بد أن تُثار المسألة. واقترح تكليف جيبونز بلقاء سارتويل في أقرب وقتٍ ممكن وأن يرتّب معه شروط العودة إلى العمل، والحصول، إن أمكن، على وعدٍ بطرد «مفسدي الإضراب» من العمل. فسيكون ثمة شعورٌ عامٌ بالرضا إذا ما أمكن الحصول على هذا الوعد.

طُرح هذا الاقتراح للتصويت وتمّت الموافقة عليه بالإجماع. نهض جيبونز واقفًا مرةً أخرى.

وقال: «عاد رسول أرسلته منذ بضع لحظاتٍ يقول إن سارتويل لا يزال في مكتبه. إنه يسهر في مكتبه حتى وقتٍ متأخرٍ منذ فترة؛ لذا خطر لي أنه ربما يكون في مكتبه الآن. سأذهب إليه على الفور وأتباحث الأمر معه،

وسأعود في أقرب وقتٍ ممكنٍ وأُخبركم بنتيجة الاجتماع. وفي الأثناء، يمكنكم أن تتعاملوا مع أي أمورٍ أخرى قد تُعرض في الاجتماع.»

كان سارتويل جالسًا بمفرده في مكتبه يترقّب حضور مارستن، وفوجئ بطبيعة الحال عندما دخل جيبونز بدلًا منه، ولكنه حيّا الوافد الجديد من دون أن يُظهر له أنه لم يكن يتوقّع زيارته.

دخل جيبونز في صلب الموضوع مباشرة، وبدأ حديثه قائلًا: «سيد سارتويل، لقد عُدت لشغل منصب أمين النقابة. إذا ما أنهيت الإضراب، فهل تعيِّنني مساعدًا لمدير المصنع؟»

ضيّق سارتويل عينَيه، وظل ينظر باهتمامٍ إلى زائره عبر الفتحتَين الضيقتَين للحظاتٍ دون أن يجيب.

فتململ جيبونز في قلق.

ثم أضاف أمين النقابة الجديد وهو يضحك في انزعاج: «جميعنا نلعب لمصلحتنا الخاصة كما تعلم، وأعلم أنه عند التعامل معك من الأفضل أن يُفصح المرء عمّا يعنيه مباشرة.»

قال سارتويل ببطء: «جميعنا نلعب لمصلحتنا الخاصة ... نعم. هل يمكنك إنهاء الإضراب؟»

«أعتقد ذلك.»

«تعتقد ذلك فحسب. حسنًا يا سيد جيبونز، عُد عندما تكون واثقًا، وحينها سأتحدث إليك.»

«أنا واثق، إذا كان ذلك ضروريًا.»

«آه، هذا أمر مختلف. هل اتُّخذ قرار إذن بإنهاء الإضراب بعدما نصّبك الاجتماع أمينًا للنقابة؟»

«ليس هذا ما حدث تحديداً يا سيد سارتويل. لقد كلفوني بالتفاوض معك. والآن، إذا وعدتني بالحصول على منصب مساعد المدير، فسأُعيد العمال إلى المصنع غداً.»

«كان الإضراب سينتهي قريباً دون قطع أي وعود على نفسي. لقد أرسلت خطاباً إلى السيد مارستن الليلة بهذا الشأن. هل تعني أنه لم يقرأ الخطاب على الاجتماع؟»

«لم يفعل. حاول أن يقرأه، ولكن العمال ضاقوا ذرعاً بمارستن، ورفضوا الاستماع له.»

«حسناً إذن. هل سيكون عليّ أن أتعامل معك أنت فقط؟ هل خرج مارستن من الموضوع؟»

«هذا هو الوضع الآن.»

«حسناً، معذرة، لا يمكنني أن أعرض عليك منصب مساعد المدير، ولكني آمل بالطبع أن ينتهي الإضراب في أسرع وقت ممكن.»

«قال مارستن إنك عرضته عليه؛ هل هذا صحيح؟»

«أعتقد أن مارستن لا يقول سوى الحقيقة عموماً. لنتوقف عن المناورة يا جيبونز. إما أن العمال قرّروا الليلة العودة إلى العمل، وإما أنهم لم يقرِّروا ذلك. إذا كانوا سيعودون إلى العمل، فسيعودون سواء اتفقت معك أم لا. وإذا لم يقرِّروا ذلك، فلا أفهم كيف يمكنك أن تقول شيئاً أكثر من أنك ستبذل قصارى جهدك لتعيدهم. والآن، كل ما سأعدك به هو الآتي: إذا ما أعدت العمال إلى المصنع غداً، فسأحرص على تحسين أوضاعك في المصنع.»

«هذه قسوة منك يا سيد سارتويل. لقد تسبّب مارستن في الإضراب، وعرضتَ عليه منصب مساعد المدير. وأنا سأُنهي الإضراب، دون أن أظفر

منك بوعودٍ محددة.»

«لقد عرضت المنصب على مارستن قبل أن يبدأ الإضراب. وما إن بدأت المعركة، حتى أصبح من الواجب القتال إلى النهاية. وها قد حانَت النهاية، وأعتقد أنه من الأفضل أن تقبل الشروط الوحيدة التي يمكنني تقديمها لك. ألَا تدرك أنني لو كنت رجلًا لا يحترم كلمته، لأمكنني بسهولة أن أعدك بأي شيء، ثم أطردك من العمل في غضون شهر؟»

«حسنًا، سأثق في كرمك يا سيد سارتويل. والآن، بمَ ستعد العمال؟»

«بمَ يطالبون؟»

«يريدون منك أن تطرد كل مفسدي الإضراب الذين عيّنتهم.»

«أخشى أني لا يمكنني أن أعد بذلك أيضًا يا جيبونز. ولكني سأُسرح كل من يرغب في ذلك ويمكنه أن يعثر على وظيفة أخرى، ولكن لن يعاني رجالك بسبب الموظفين الجدد. فلديّ من العمل ما يكفي الجميع، وسيكون ثمة الكثير من العمل لتعويض ما ضاع من وقت.»

«أنت في الواقع لا تعرض علينا أي شيء يا سيد سارتويل.»

«أوه، على العكس؛ فأنا أقدِّم تنازلات أكبر ممّا تتخيل. لقد قلتُ في نوبة غضب، عندما أضرب العمال، إنني لن أسمح لعامل منتمٍ إلى النقابة بأن يضع قدمًا في أرض المصنع أبدًا؛ ولكن بما أنهم اختاروا الآن أمينًا معتدلًا وعاقلًا، فأنا على استعداد لقَبول عودتهم، بل والسماح لهم بالبقاء أعضاءً في النقابة. ألَا يُعد ذلك تنازلًا؟ أعتقد أنني بلغت أعلى درجات السعي للتصالح في ظل الظروف الراهنة.»

«لا يزال الاجتماع منعقداً يا سيد سارتويل. هل تمانع في أن تأتي معي لتُخبر العمال بأنك ستضمن وظيفةً لكل واحد منهم، وأنك لن تتدخّل فيما يتعلق بعضويتهم في النقابة العمالية؟»

«لا أمانع الذهاب معك، ولكن ربما يمكنك تحقيق أقصى استفادة من التنازلات أكثر مني؛ فأنت أكثر فصاحةً وتجيد الارتجال. لن أفعل شيئًا سوى تأييد ما تقول، وإخبار العمال بأن أبواب المصنع ستكون مفتوحةً أمامهم غدًا. خلال ذلك، انتظرني عند البوابة. فلديّ بضعة أوامر يجب أن أُصدرها لحارس البوابة.»

حضر الرجل في حلته الرسمية تلبيةً لاستدعاء سارتويل له، ووقف في مكانه كالصنم ليتلقّى الأوامر. أغلق مدير المصنع الباب.

وقال بصوت خفيض: «أخشى أنك لن تحظى بما يكفي من النوم الليلة أيها الحارس، ولكننا سنعوضك عن ذلك بطريقة أخرى، وعندما يعود العمال إلى المصنع غدًا، يمكنك أن تنام الأسبوع القادم بأكمله إذا أردت. بمجرد أن نخرج أنا وجيبونز وتغلق المكتب، أريدك أن تبحث عن مارستن. ستجده في غرفته على الأرجح. لا أعلم أين يسكن، ولكن سيكون عليك أن تعرف طريق مسكنه في هدوء تام، هل تفهم. واطلب منه على لساني أن يعيدَ لك الخطاب الذي حملتَه إليه هذا المساء. وإذا رفض، فاطلب منه ألّا يُطلع عليه أحدًا حتى يلتقيني في الصباح.»

ضمّ الحارس كعبَيه معًا بقوة، وانطلق من فوره في رحلة بحثه عن مارستن ولكن دون طائل؛ إذ حُمل مارستن فاقدًا للوعي في سيارة إسعافٍ إلى مستشفى القديسين الشهداء، ولا تزال قبضته مضمومةً بقوةٍ على ما تبقّى من الخطاب.

الفصل الثامن والثلاثون

اتجه سارتويل إلى ويمبلدون مرةً أخرى على متن القطار الأخير، ولكنه سار، رغم إرهاقه، إلى منزله من المحطة بخطًى نشيطة كما لو كان شابًا. سمعت إدنا، التي جلست تنتظر والدها على الرغم من نهيه لها عن ذلك، صوت خطواته وقد سرت في جسدها رعشة أمل. عندما دخل والدها إلى المنزل، كان على وجهه ابتسامة لم ترَها منذ أسابيع.

صاح قائلًا: «آه، ابنتي، لا يمكنك أن تخمني ما حدث أبدًا!»

فأجابته: «بل يمكنني ذلك؛ لقد أنهى مارستنُ الإضراب.»

«لا، بل أنهى الإضرابُ مارستن. لقد عُزل من منصبه، وانتُخب جيبونز مكانه. وعلى الفور حضر جيبونز، ذلك الرجل الإيثاري، ليتوصّل إلى اتفاق معي يصب في مصلحته. ومن ثم، سيُفتح المصنع غدًا، وعندما يحل الإضراب القادم، لن أكون موجودًا لأراه، دعينا نأمل ذلك، حتى لا أتجنّب ما حدث لجون جيلبين.»

«وما رأي السيد مارستن في هذا التغيير المفاجئ؟»

«لم ألتقِه. أعتقد أنه ذهب إلى غرفته ليتأمل في طبيعة العمال ومدى تقلبها.»

«أنا سعيدة أنك لم ترسل هذا الخطاب.»

«آه، ولكن الشيء المضحك أني أرسلته بالفعل. وربما كان حارسي يطوف أنحاء لندن في هذه اللحظة بحثًا عن مارستن ليستعيده. وسوف تنقلب الأوضاع تمامًا إذا ما نشر مارستن الخطاب بدافع الانتقام. لا أعتقد

أنه سيفعلها، ولكن لا أحد يعلم. أعترف بأنني كنت سأجد إغراءً قويًا في ذلك لو كنت مكانه، ولكني آمل الأفضل، وكلّفت الحارس بأن يُخبره بألّا يفعل أي شيء حتى يلتقيني.»

«أما زلت تنوي أن تعرض عليه وظيفةً في المصنع؟»

«ربما. إذا طردت التجربة التي مر بها كل ذلك الهراء الخيالي عن نهضة العمال من رأسه، فسيكون رجلًا ذا قيمة كبيرة لأي شركة يعمل بها. وعندما أتحدّث إليه سأكتشف حقيقة الموقف.»

«إذن، أنت لا تُكن ضده أي ضغينة يا أبي، أليس كذلك؟»

«بلى على الإطلاق. على العكس. أنا معجب أشد الإعجاب بالطريقة التي أدار بها النزاع.»

«أنت لن تستقيل، أليس كذلك؟»

ضحك سارتويل.

«أعتقد ذلك. سيكون ثمة الكثير من العمل، وأرغب في أن أكون في قلب الأحداث. لا، إن رحلتنا إلى أوروبا مؤجلة يا إدنا. يا إلهي، لقد كنت جالسةً بمفردك تبكين يا ابنتي! لا، لا، يا إدنا، هذا لا يليق! حسبتك أشجع مني، ولا أعني بذلك الأيام الأخيرة التي لم أمتلك أي شجاعة خلالها. اذهبي إلى الفراش يا فتاتي، ونامي جيدًا. أريد أن أغادر مبكرًا في الصباح؛ ومن ثم ستحظَين بشرف أن تكوني مرافقتي الوحيدة على الفطور.» وأضاف وهو يقبّلها: «ليلة سعيدة يا عزيزتي، وليكن الحظ حليفنا في جميع معاركنا القادمة!»

كانت إدنا أول من استيقظ في الصباح، وبدّد نوم الليل، على الرغم من قصره، كل أثر لانفعال الليلة السابقة. يملك الشباب قدرةً رائعة على التعافي، وأثبت سارتويل، وهو يهبط الدرج متعبًا بعد قليل، أن النوم لم

يغمره في ينبوعه. حتى المنتصر لا بد أن يدفع ضريبةً لانتصاره. فقد بدا عليه التعب وهو يهم باتخاذ مقعده على طاولة الفطور وفتح جريدة الصباح. فقد طوّرت لديه سنوات من الحياة الزوجية التي غاب عنها الود والوفاق تلك العادة السيئة، وهي قراءة الصحف أثناء رَشْف القهوة، وحتى جلوس ابنته أمامه لم يتمكّن من تحريره من تلك الرذيلة، ولكن كان لديه من الكياسة ما كان يجعله يعتذر عن ذلك، الأمر الذي كان ينساه في بعض الأحيان عندما تصب له زوجته القهوة.

قال سارتويل: «أريد فقط أن أرى إذا كانت الصحف قد ذكرت أي شيء عن إنهاء الإضراب يا عزيزتي.»

فابتسمت إدنا وطلبت منه أن يقرأ ما تقوله الصحيفة. بعد لحظات، جفلت بسبب صيحة أطلقها.

فقد صاح قائلًا: «يا إلهي! لم أكن أعلم ذلك! يبدو أن ثمة شغبًا قد وقع خلال الاجتماع، وأُلقي القبض على خمسة رجال، وأُودع اثنان منهم المستشفى ... مارستن ... يا إلهي! لقد دهسته الأقدام، ولم يَستعِد وعيه على الإطلاق، وحياته في خطر! إدنا، هذا خطب جلل!»

لم يتلقّ منها ردًا، فرفع سارتويل رأسه ورأى إدنا واقفةً وقد شحب وجهها، وفغر فمها، وتترنح قليلًا من جانب إلى آخر.

فهبّ واقفًا وأسندها بذراعه.

وصاح قائلًا: «ابنتي، ابنتي الصغيرة! ما الأمر؟ ماذا ألمّ بك؟»

سقط رأسها على صدره، وقالت بصوتٍ هامس متهدِّج قاطعته عبرات البكاء:

«إنه كل شيء بالنسبة إليّ يا أبي، كل شيء!»

فربت بحنان على كتفها.

وقال: «هل الأمر هكذا يا حبيبتي، هل الأمر هكذا؟ في وقتٍ ما كنت أخشى أن الأمر هكذا، ولكني ظننت أنكِ نسيته. اهدئي، لا تبكي؛ أنا واثقٌ من أن كل شيءٍ سيكون على خير ما يرام. إن الصحف عادةً ما تهوِّل هذه الأمور. هيا، لنتناول فطورنا، وسنذهب إلى المستشفى معًا.»

كانت إدنا قد فقدت شهيتها للفطور، ولكنها تظاهرت بأنها تأكل ثم هُرعت لتستعد لمرافقة والدها. كان الوقت مبكرًا للغاية حتى إنهما اضطُرا لأخذ مقصورة خاصة لهما في الدرجة الأولى؛ إذ لم تكن رحلات السفر المتجهة إلى المدينة قد بدأت بعد.

ظلت إدنا صامتة، ولم يُقَل شيء طوال المسافة ما بين المنزل والمحطة. وعندما ركبا القطار، تحدث والدها ببعض التردُّد.

وقال: «إدنا، هل قابلت مارستن منذ وجدتكما معًا في الحديقة؟»

«نعم يا أبي، مرتَين.»

«لا أريدك أن تجيبي على أسئلتي يا عزيزتي إلا إذا كنت ترغبين في ذلك. متى قابلتِه؟»

«سأخبرك بكل ما حدث؛ فقد كنت أنوي أن أُخبرك في أي وقت ... إذا ما سألتني. ولم أتحدّث إليك عنه لأنني ... لم يرُق لي ذلك.»

«بالطبع يا صغيرتي. أفهم ذلك. لا داعي للكلام الآن، إذا كنت لا ترغبين في ذلك.»

«أريدك أن تعرف. كانت المرة الأولى في إيستبورن، بعد ذهابي إلى هناك بقليل. كان قد تمكّن من الدخول دون أن يراه أحد إلى حديقة

المدرسة، وأخبرني بأننا ... قال لي إنه يأمل ... أن نتزوج ذات يوم. أخبرته بأن هذا مستحيل. كنت أعتقد ذلك ... حينئذ.»

«هل كان ذلك منذ عامَين؟»

«نعم.»

ارتسم شبح ابتسامة على شفتَي سارتويل الحازمتَين، إلا أن ركنَي فم إدنا تدليا على نحو مثير للشفقة، وبدت على وشك البكاء. وأبقت عينَيها مثبتتَين على أرضية العربة.

فقال سارتويل: «لا فائدة تُرجى من تحذيرات أبٍ غاضب، أليس كذلك يا إدنا؟»

«لم أكن أعلم أنك كنت تعارض لقائي به حتى أخبرني هو بذلك. لو كنت أخبرتني برغبتك تلك، لَما تحدّثت إليه في إيستبورن.»

«ما كنت لتفعلي بالطبع يا عزيزتي. لا تظني أني أُلقي عليكِ أي لومٍ على الإطلاق. كنت أفكّر فقط في أني لست بالفطنة التي كنت أظنها. وماذا عن المرة الثانية يا إدنا؟»

«كانت ليلة أمس. ركبت العربة إلى قاعة الخلاص وطلبت منه أن يُنهي الإضراب. أخبرته بأن ...»

بدأت إدنا تبكي من جديد. فنهض والدها الذي كان يجلس قبالتها، وجلس إلى جوارها، وأحاطها بذراعه.

وقال: «لا تتفوّهي بكلمة أخرى يا عزيزتي، ولا تفكّري في الأمر. لن أطرح عليك أي أسئلة أخرى. يجب ألّا تجعلي الناس يعتقدون أنك كنت تبكين. فسيتخيلون أني أوبّخك؛ ومن ثم ستدمرين السمعة التي استحققتها عن جدارة كوني أرق رجل في لندن.»

ابتسمت الفتاة وسط عبراتها، ولم يقولا أي شيء حتى وصلا إلى بوابة المستشفى.

سأل سارتويل الطبيب الذي استقبله: «كيف حال مارستن الذي أُحضر إلى هنا ليلة أمس؟»

«أوه، إنه في تحسُّن، في ظل الظروف الراهنة.»

«تقول الصحف إن حالته خطرة.»

«لا أتوقّع وجود أي خطر، إلا إذا كانت ثمة جراح داخلية لا نعلم عنها شيئًا. لقد كُسر بعضٌ من ضلوعه، وتلقّى ضربةً قويةً على مؤخرة رأسه. إنه يبدو ضعيفًا ومكتئبًا هذا الصباح، ولكنه واعٍ. كنت قلقًا إلى حدٍّ ما بشأن ذلك؛ فقد ظل فاقد الوعي مدةً طويلة.»

قال سارتويل مخاطبًا ابنته التي وقفت فاغرةً فاها، تستمع باهتمام لِمَا يقوله الطبيب: «أرأيتِ؟ لقد أخبرتكِ أن الصحف تعرض الأمور بصورةٍ أسوأ مما هي عليه بالفعل. هل يمكننا رؤية السيد مارستن؟»

«نعم، ولكن لا ينصح بأن تجعلاه يتحدث كثيرًا.»

«سنكون حذرَين للغاية. أعتقد أنه سيسعد كثيرًا برؤيتنا، ولكن يجدر بك أن تسأله عما إذا كان يفضّل أن نحضر في وقت آخر. اسمي سارتويل.»

عاد الطبيب ليقول إن مارستن سيسعد برؤيتهما. ووجداه موضوعًا في تجويف محجوب بالستائر عن بقية الجناح، مثل التجاويف الأخرى. لم يكن وجهه مشوهًا، ولكنه كان شاحبًا للغاية. ألقى نظرةً سريعةً صوب إدنا التي توارَت خلف والدها، ثم ثبّت ناظرَيه على مديره السابق.

قال سارتويل في مرح: «حسنًا يا بني، يؤسفني أن أراك راقدًا، ولكني سعيد لأني عرفت من الطبيب أنك ستستعيد عافيتك في غضون بضعة أيام.»

«هل عاد ... هل ... عاد العمال إلى المصنع؟» طرح مارستن هذا السؤال بصوتٍ خافت وواهن.

«لا عليك من العمال. أنا أتولى أمرهم. نعم، لقد عادوا إلى المصنع.»

حاول مارستن بوهن أن يرفع يده، ولكنها سقطت إلى جواره مرةً أخرى.

وهمس قائلًا: «الخطاب، ما تبقى منه ... تحت الوسادة على ما أظن.»

وضع سارتويل يده تحت الوسادة وسحب الوثيقة الممزقة.

وقال: «هل تنوي إعطائي إياه؟»

أومأ مارستن برأسه إيماءةً واهنة دلالة على الموافقة، فوضع سارتويل الخطاب في جيبه وقد بدا عليه بعض الارتياح.

وقال: «والآن، يا بني، لا بد أن تُشفى سريعًا. ستكون ثمة أوقات عصيبة في المصنع، وسأكون بحاجة لأفضل مساعدة يمكن أن أتلقّاها. أنا أعتمد عليك لتكون مساعدي، كما تعلم.»

اختلج جفنا الشاب للحظة قبل أن ينغلقا على عينَيه. وتسلّلت دمعتان من ركنَي عينَيه وانزلقتا على وجنتيه. وارتفع حلقه وانخفض.

وهمس أخيرًا قائلًا: «أنا محطم للغاية. أشعر بأني لست أنا، ولكني أشكرك.»

«لا بأس يا بني. سأتركك مع شابة يمكنها أن تتحدث إليك مثل ممرضة أكثر مما أفعل أنا. لا بد أن أذهب لأرتب لحصولك على غرفة خاصة، وعلى كل وسائل الراحة أثناء إقامتك هنا.»

أمسكت إدنا يد مارستن عندما غادر والدها الغرفة. فرفع بصره نحوها، حيث كانت تقف بجواره.

وقال بابتسامة خفيفة مرتعشة: «لقد بلغتُ ما أتمناه — في النهاية — أليس كذلك؟»

فأجابته إدنا بأن انحنت فوقه وطبعت على شفتَيه قبلةً رقيقة.

الفـــهـــرس

الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر
الفصل السادس عشر
الفصل السابع عشر
الفصل الثامن عشر
الفصل التاسع عشر
الفصل العشرون
الفصل الحادي والعشرون
الفصل الثاني والعشرون
الفصل الثالث والعشرون
الفصل الرابع والعشرون
الفصل الخامس والعشرون
الفصل السادس والعشرون

الفصل السابع والعشرون
الفصل الثامن والعشرون
الفصل التاسع والعشرون
الفصل الثلاثون
الفصل الحادي والثلاثون
الفصل الثاني والثلاثون
الفصل الثالث والثلاثون
الفصل الرابع والثلاثون
الفصل الخامس والثلاثون
الفصل السادس والثلاثون
الفصل السابع والثلاثون
الفصل الثامن والثلاثون